منهج الجدل والمناظرة

في تقرير مسائل الاعتقاد

الدكتور عثمان علي حسن

الجزء الأول

دار إشبيليا
للنشر والتوزيع

منهج
الجدل والمناظرة
في تقرير مسائل الاعتقاد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في كلية أصول الدين بالرياض ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد نوقشت وأجيزت من قِبل لجنة المناقشة والحكم على الرسالة المكونة من فضيلة الشيخ/ عبد الرحمن بن ناصر البراك مشرفاً ورئيساً للجنة، وعضوية كل من الدكتور/ عبد الوهاب السيد جعفر، والدكتور/ عبد الرحمن بن صالح المحمود، وقد أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الدكتوراه في العقيدة والمذاهب المعاصرة مع مرتبة الشرف الأولى، وصادق على ذلك مجلس الجامعة المنعقد في ١٩/٨/ ١٤١٧هـ الموافق ٢٩/١٢/١٩٩٦م.

ⓒ دار إشبيليا، ١٤٢٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حسن، عثمان علي

منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد. ـ الرياض.

١٢٧٥ ص؛ ١٧×٢٤ سم.

ردمك: ٩ ـ ٧٦ ـ ٧٢٧ ـ ٩٩٦٠

١ ـ علم الكلام ٢ ـ المناظرات أ ـ العنوان

ديوي ٢٥١ ٢٠/٠٠٤٨

رقم الإيداع: ٢٠/٠٠٤٨

ردمك: ٩ ـ ٧٦ ـ ٧٢٧ ـ ٩٩٦٠

الطَّبعَة الأولى

١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م

دار إشبيليا للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية ـ ص.ب: ١٣٣٧١ ـ الرياض: ١١٤٩٣

هاتف: ٤٧٩٤٣٥٤ ـ ٤٧٤٢٤٥٨ ـ فاكس: ٤٧٧٣٩٥٩

مقدمـــة الطبعة الأولى

إذا كان كتابي الأول: "**منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة**" قد عالج أو شارك في معالجة قضية مهمة وملحة تشغل حيزاً كبيراً من تفكير الصحوة الإسلامية المباركة، ألا وهي قضية تحديد المصادر التي تُستقى منها مسائل الاعتقاد: الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، ومنهجية التعامل مع هذه المصادر، بطريقة موضوعية وسهلة بعيدة عن شقشقة أهل الفلسفة والكلام، وشطحات غلاة الصوفية. وقد لقي ذلكم العمل قبولاً واستحساناً واسعاً دل عليه نفاد الطبعات الثلاث الأول من الكتاب، والرابعة على وشك النفاد، وذلك في زمن يعد وجيزاً نسبياً، وما تفوه به كثير من طلبة العلم والأكاديميين من كلمات الثناء والإعجاب، والتي أُسمعتها أو نُقلت إليَّ، راجياً أن يكون ذلك من عاجل بشرى المؤمن.

أقول إذا كان هذا هو حظ "منهج الاستدلال" في تحقيق هدفه، وتلقي الكثيرين له بالقبول، فإن الكتاب الذي بين أيديكم الآن: "منهج الجدل والمناظرة" أعدَّه تكملة للعمل السابق، أو جولة ثانية تأتي متممة للجولة الأولى؛ فالكتاب الأول تقريري؛ والثاني دفاعي؛ يدافع عن عقائد أهل الحق بطريق من طرق الدفاع المتنوعة، ألا وهو الطريقة الجدلية، مدعماً ذلك بما ينبغي الالتزام به من قواعد الجدل وأحواله، والتحلي به من الآداب والأخلاق، حريصاً على جمع - أو تتبع- ما تيسر لي من المناظرات الواردة في الكتاب والسنة وعن الصحابة، وما ورد عن العلماء من كافة الطوائف إذا

كان في كلامهم نصر للحق وتأييده، فإن الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها.

ولم أنس أن أقدم لذلك بمقدمات شملت: تعريف الجدل ومرادفاته في اللغة والاصطلاح، ثم بيان نشأته، وتاريخه في البشرية، وحكمه شرعاً، ثم حظ الفرق الإسلامية منه.

وأخيراً أسأل الله تعالى أن يجعله عملاً متقبلاً، وأن ينفع به، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم.

المؤلف

المقـــدّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[سورة آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[سورة النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[سورة الأحزاب: ٧١].

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار.

فإن الله تعالى أيد دينه بالآيات البينات، والبراهين الساطعات، التي لو تجرَّد كل إنسان من داعية الهوى، وسلِمت آلاته، وأنعم النظر فيها؛ لساقته إلى الإيمان سوقاً، ولدفعته إليه دفعاً، لكن لما كان في نفوس بعض المخَاطَبين قصور في الفهم، أو تلكؤ في الاستجابة، أو مكابرة وعناد : احتاجوا إلى أُسلوب آخر في الاستدلال ـ يطول أو يقصر بحسب نوع الحالة؛ استرشاداً كانت أم عناداً ـ يتضمن مجادلة ومناظرة بين الحق من جهة والباطل من الجهة

الأخرى، تثار أثناءها كوامن الحق في فطر بني آدم؛ فيزول عن القلوب رَيْنها، وعن الأبصار غَشَاوتها، وعن العقول أقفالها، حتى يعود الحق واضحاً جلياً لكل ذي بصر وبصيرة، فلا يبقى أمامه إلا إعلان الإيمان، وإشهار الإذعان، أو الرضا بالفجور في الخصومة، والولوغ في اللجاجة، بعد أن تهاوى بنيانه الذي أسسه على جرف هار، فانثالت حُججه انثيال الكثيب المهيل:

حُجج تهافت كالزُجاج تخالُها حقًا وكلٌ كاسرٌ مكسور [1]

ولقد شهدت البشرية - ولا تزال - أنماطاً من الجدل والمناظرة، لكن ليست هناك حجة كحجج الله التي بعث بها رسله، في القوة والإتقان، والوضوح والرسوخ : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: ٨٧] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾[سورة النساء: ١٢٢]، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[سورة غافر: ٥١].

فالجدل والمناظرة ضرب من ضروب بيان الحق وتأييده، وقمع الباطل وتزهيقه، وقد استخدمه القرآن الكريم كثيراً، وعلى أساليب شتى، وفي حالات متنوعة: من تنبيه لغافل، أو إرشاد لمسترشد، أو إفحام لمعاند متلدد.

فالقرآن واجه الخصوم والمخالفين وتصدى لهم، وناظرهم فيما يعتقدونه، وقطعهم بالحجة البالغة، والسلطان القاهر، فما استطاعوا له ردا، ولا عنه

(١) هذا البيت استشهد به شيخ الإسلام ابن تيمية في درء تعارض العقل ٣١٤/٧ ، وتلميذه ابن القيم في الصواعق المرسلة ١٢٧٧/٤ ، وجلال الدين السيوطي في صون المنطق ص : ٩٩ ، ١٧٦ ولم يذكر واحد منهم أو من المحققين لهذه الكتب قائله .

حولا، حتى خَرِس منهم اللسان، وبلُد الجَنَان، وأُطفئ البيان، وذهُل العقل، وظهر العجز، فقال قائلهم فيه : إن له لحلاوة،وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو ولا يُعْلى(١).

والرسول ﷺ ـ أيضاً ـ واجه أصنافاً من الناس؛ منهم المسترشد يطلب الحق، والجاهل يبتغي العلم، والجاحد يسلك سبيل المدافعةِ والمنازعة، لكنه يخضع للحجة والبرهان، ومنهم المعاند الذي لا يلوي على شيء غيرَ الوقوف أمام كل جديد بالصد والإنكار، والتزامِ ما عليه الآباء والأجداد.

ومن هؤلاء وهؤلاء من ينتسب إلى كتاب منزل أصابه التحريف والتبديل، ومنهم من يعبد الوثن مع بقاء شيء من الحنيفية لكنه ممسوخ مغمور.

ومن أهل الكتاب والمشركين من أظهر ولاءً وأضمر عداءً، وأعلن وفاقاً وأبطن نفاقاً، وذلك بعد أن قويت شوكة الإسلام، وكثر ناصروه في دار الهجرة.

وهناك بعض حديثي العهد بالإسلام قد بقيت معه بعض الشبه والشكوك، التي تقلدها عن الجاهلية، فهي تحتاج إلى تجلية وكشف حتى يرسَخَ الإيمانُ في قلبه، وتصحح الفكرةُ في عقله.

---

(١) انظر : البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ٢/١٠٨-١١٠، ورواه الحاكم في مستدركه ٢/٥٠٧وقال على شرط البخاري ووافقه الذهبي .

كل هؤلاء وهؤلاء واجههم الرسول ﷺ ، وقد وعى طريقة القرآن في بيان الحق وتثبيته، ودفع الباطل وتزهيقه، وعلِم أساليب القرآن في مجادلة الخصوم، ودفع الشبه والشكوك.

وكان لأصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم، النصيبُ الأعظم في إقامة الحجة، وإصابة الحق، فهم أعلى الناس به علماً وعملاً، ونظراً ومناظرة، وجدلاً ومجادلة، وذلك ببركة متابعتهم له ﷺ وتأسيهم به، «فهم أكمل الناس عقلاً، وأعدلهم قياساً، وأصوبهم رأياً، وأسدُّهم كلاماً، وأصحهم نظرا، وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهاماً، وأحدُّهم بصراً ومكاشفة، وأصوبهم سمعاً ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجداً وذوقاً، وهذا هو بالنسبة للمسلمين إلى سائر الأمم، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل ... وذلك لأن الاعتقاد الحقَ الثابتَ يقوي الإدراك ويصححه؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [سورة محمد] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾[سورة النساء]»(١).

ثم تعرَّض الإسلام إلى حملة شرسة من أعدائه، من أرباب الديانات المنحرفة وأساطين الفلسفات القديمة؛ حيث ذهبوا يشككون في مسلماته، ويتعرضون له بإثارة الشبهات، وبعث الوثنية من جديد، قاصدين الكيد

---

(١) نقض المنطق ـ ابن تيمية ص : ٨ .

لدولة الإسلام التي انداحت فشملت أصقاعهم، ونسفت ملكهم، وصدَّعت صروحهم. فانبرى لهم أهل الدين والإيمان من علماء الأمة وحرَّاس العقيدة يدفعون صولة الصائلين، وعاديةَ المعتدين، فأقيمت المناظرات، حتى ظهرت الحجة، وبانت المحجة.

ومن جانب آخر تأثر نفر من المسلمين بالثقافات الفاسدة الوافدة على بلاد الإسلام من قِبَل اليهود والنصارى والفلاسفة، فأخذوا يلوكونها بغير هدى من الله ولا كتاب منير؛ فنشأت الفرق والطوائف : يلعن بعضُها بعضاً، يحملهم الهوى، وتصل بينهم مخالفة الوحي والهُدى، فأقام أهل السنة والجماعة صُرُح الجهاد، وتنادوا من كل شِعْب ووادٍ؛ ينفون عن دين الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين .

فحماية الدين من العاديات، وكفُّ العدوان والمعتدين من أعظم وأخطر مهمات أهل العلم والإيمان وأشرفها، ولهم في ذلك القِدْح المعلّى، والحظ الأوفى، وسيرهم مملوءة بالعبر التي كثرت فيها مصارع أهل البدعة والزندقة والكفر على أيديهم؛ حتى حصحص الحق وزَهَق الباطل .

فلا أقوى من سلطان الحجة، ولا أسطعَ من نور الدليل والبرهان، وهذا من أعظم ما يمتاز به دين الله الحق؛ إذ هو حجة وبيِّنة، ودليل وآية، وبرهان ونور، وهدى وشفاء لما في الصدور.

«وقد تهزم العساكر الكبار، والحجة الصحيحة لا تغلب أبداً، فهي أدعى إلى الحق، وأنصر للدين من السلاح الشاكي، والأعداد الجمَّة ... لأن السيف مرَّة لنا ومرَّة علينا، وليس كذلك البرهان، بل هو لنا أبداً، ودامغ

لقول مخالفينا، ومزهق له أبداً، وربَّ قوةٍ باليد قد دمغت بالباطل حقاً كثيراً فأزهقته ... وقد قُتل أنبياء كثير وما غُلبت حجتهم قط»[(١)].

وقال الخليفة المأمون وهو صاحب السيف والسلطان: «غلبة الحجة أحب إلي من غلبة القدرة؛ لأن غلبة القدرة تزول بزوالها، وغلبة الحجة لا يزيلها شيء»[(٢)].

ولأهل الإسلام مع أهل الكفر والبدع والأهواء مواقف عليَّة، ومشاهد سنيَّة، تستحق أن تفرد ببيان، وتستقل بكتاب، وهو ما أريد معالجة جانب من جوانبه المتعددة في موضوعي هذا، والموسوم بـ : **منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد**

قاصدا تحقيق الآتي :

أولاً: بيان مشروعية الجدل والمناظرة لإقامة الحق والذود عنه، وأنه من الأمور الجائزة شرعاً وقد يجب؛ بحسب الأحوال، وتوجيه ما اشتهر عن بعض السلف من كراهية الجدل والمناظرة، وبيان مقصودهم من ذلك .

ثانياً: إيجاد مؤَلَّف يجمع بين قواعد الجدل والمناظرة وآدابهما وبين نماذج من المناظرات التي دلت على التزام تلك القواعد والآداب، سواء ما ورد منها في القرآن أو السنة أو كتب السير والتراجم؛ حيث إنني لم

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١/٢٤-٢٥ .

(٢) الفقيه والمتفقه ٢/٥٧ .

أقف على مؤَلَّف بهذا الوصف. فالموجود إما كتاب متخصص في جانب معين كالجدل في القرآن الكريم على نحو ما صنع ابن الحنبلي في "استخراج الجدل من القرآن الكريم"، والدكتور زاهر عوّاض الألمعي في "مناهج الجدل في القرآن الكريم". وإما كتاب اقتصر مؤلِّفه على ذكر القواعد والآداب، وهذا شأن كتب آداب البحث والمناظرة وهي كثيرة، وإما كتاب جمع بين القواعد والآداب ونماذج من المناظرات، لكنه قد غلبت عليه العبارة الأصولية والفقهية ككتاب "عَلَم الجَذَل في عِلْم الجدل" لنجم الدين الطوفي، وإما كتاب اقتصر على جمع المناظرات من الكتاب والسنة وسير أهل العلم دون تعرض للقواعد والآداب على نحو ما صنع أبو علي السكوني في "عيون المناظرات" . وهناك كتب لبعض الأصوليين والفقهاء جعلوها في الجدل الفقهي والأصولي لبيان طرق الاستدلال والاعتراضات في مجال الأحكام الشرعية، وقدموا لها بمقدمات موجزة في بيان بعض آداب البحث والنظر على نحو ما صنع أبو الوليد الباجي في "المنهاج في ترتيب الحجاج"، وأبو إسحاق الشيرازي في "المعونة في الجدل".

ثالثاً: بيان تميز النقل (الكتاب والسنة) في باب الجدل والمناظرة، وأن فيهما الغُنْية والكفاية، مبطلاً بذلك ما زعمه كثير من المتكلمين من ضعف الحجاج النقلية، وسلفهم في ذلك الفلاسفة في باب الخطاب الجمهوري؛ إلى درجة أن قال أبو الحسن الطبري المعروف بإلكيا

الهراسي : «وفي القرآن حجاج، وإن لم يكن فيه الغلبة والفلج، غير أن العامي يكتفي به ...»[١].

رابعاً: بيان الآداب العليا التي تحلّى بها أهل العلم والإيمان في مواقفهم مع المخالفين لهم، من الإنصاف، والعدل، وعدم التشفي، وقبول الحق، والرجوع إليه مهما كان قائله؛ كمشهور الشافعي ﷺ: «ما كلمت أحداً قط إلا ولم أبال بيَّن الله الحق على لساني أو لسانه»[٢].

خامساً: جمع ما تناثر في بطون الكتب من عيون المناظرات وروائع المجادلات والتي برز فيها علماء الأمة وأئمتها في مواقع الدفاع عن حمى التوحيد والدين؛ حيث ضمت كتب التراجم والسير الكثير من ذلك، وقد أفردت الباب الأخير من البحث لهذا الأمر .

بيانٌ مجملٌ لخطة البحث:

البحث مشتمل على مقدمة، وتمهيد، وأربعة أبواب، وخاتمة، وفهارس.

أما المقدمة، فتضمنت بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وعرضاً مجملاً لخطة البحث.

وأما التمهيد، فيشتمل على مبحثين :

الأول : التعريف بالجدل والمناظرة في اللغة والاصطلاح

الثاني : بيان الغرض من الجدل، وفوائده، ونتائجه

---

(١) درء تعارض العقل والنقل - ابن تيمية ٧/٣٦٠ .

(٢) مناقب الشافعي - البيهقي ١/١٧٤-١٧٥ .

أما **الباب الأول** فبعنوان : **نشأة الجدل**

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول: نشأة الجدل قبل الإسلام - ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: النشأة الأولى للجدل وتطوره.

المبحث الثاني: الجدل عند قدماء اليونان وعلاقته بالمنطق الأرسطي.

والفصل الثاني: نشأة الجدل عند المسلمين ـ ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: أسباب ظهور الجدل عند المسلمين.

المبحث الثاني: موقف الفرق الإسلامية من الجدل.

المبحث الثالث: قضايا الجدل عند أهل الكلام وخصائصه، وموقف السلف منه.

المبحث الرابع: الجدل عند أهل السنة والجماعة

أما **الباب الثاني** فبعنوان: **الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة - مشروعيته وخصائصه وتطبيقاته**

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مشروعية الجدل والمناظرة ـ ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول : أنواع الجدل وأحكامه.

المبحث الثاني: حكم مناظرة الكفار والمشركين .

المبحث الثالث: حكم مناظرة أهل الكتاب .

المبحث الرابع: حكم مناظرة أهل البدع .

المبحث الخامس: حكم المراء .

الفصل الثاني: الجدل والمناظرة في القرآن الكريم، خصائصه، وأساليبه، وتطبيقاته. وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: خصائص الجدل القرآني .

المبحث الثاني: أساليب الجدل القرآني .

المبحث الثالث: الأصناف الذين وردت مجادلتهم في القرآن الكريم .

وهم: المشركون، والمنافقون، وأهل الكتاب.

المبحث الرابع: الأصناف الذين ذكر القرآن جدلهم .

وهم: إبليس ، والأنبياء ، والمؤمنون مع الكفار ، وأهل الجنة وأهل النار.

الفصل الثالث: الجدل والمناظرة في السنة، خصائصه، وأساليبه، وتطبيقاته.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: خصائص الجدل في السنة وأساليبه.

المبحث الثاني: الأصناف الذين وردت مجادلتهم في السنة.

وهم: المشركون ، والمنافقون ، واليهود والنصارى.

وأما **الباب الثالث** فبعنوان: **قواعد الجدل والمناظرة وآدابها وأحكامها**

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: قواعد الجدل والمناظرة.

الفصل الثاني: آداب الجدل والمناظرة.

الفصل الثالث: أحوال الجدل والمناظرة وأحكامها.

الفصل الرابع: إقامة الحجة : مجالاتها وشروطها.

الفصل الخامس: المباهلة: معناها، وصورتها، وحكمها، وشروطها، ومجالاتها ونماذج منها.

أما **الباب الرابع** فبعنوان : **تقرير مسائل الاعتقاد عن طريق الجدل والمناظرة عند أهل السنة.**

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الجدل والمناظرة في باب الإلهيات.

الفصل الثاني: الجدل والمناظرة في باب النبوات.

الفصل الثالث: الجدل والمناظرة في باب السمعيات.

وأما **الخاتمة** ففيها بيان أهم النتائج التي انتهى إليها الباحث.

وأما **الفهارس** فقد اقتصرت هنا على إيراد فهرسي المراجع والموضوعات فقط.

بعض الضوابط التي التزمتها في البحث:

١- التزمت الرسم العثماني في كتابة الآيات القرآنية، مع ذكر أرقام الآيات وأسماء السور في الصلب.

٢- إذا أضفت قولاً إلى طائفة ما، وأطلقت، فهذا لا يعني أن كل أفراد هذه الطائفة يقولونه ويعتقدونه، بل هو المشهور عنهم، أو أنه صار شعاراً لهم.

٣- ليس كل من ذكرت شيئاً من كلامه ـ من المتكلمة أو المتصوفة أو غيرهم ـ محتجاً به، يعني أني أوافقه في جميع ما يقوله، لا في هذا الباب، ولا في غيره، ولكن الحق يقبل من كل من تكلم به.

٤- كل كلام موضوع بين علامتي تنصيص فهو منقول بنصه، وإذا تصرفت في حروف يسيرة منه ـ وهذا نادر ـ أشرت إلى ذلك في الهامش عقب الإحالة بلفظة: (بتصرف) . أما إذا كان الكلام منقولاً بمعناه، أو بتصرف كثير، نحو تقديم وتأخير، وتغيير في بعض العبارات والتراكيب، لم أضعه بين علامتي التنصيص، ثم صدرت الإحالة بلفظة : انظر .

٥- إذا كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت بتخريجه منهما، وقد أضيف مصدراً آخر للفائدة، أما إذا كان في غير الصحيحين، فقد أتوسع في تخريجه، ثم أورد كلام أهل العلم ـ قديماً أو حديثاً ـ في الحكم عليه، هذا في الغالب، وقد أفعل ذلك في الآثار أيضاً.

٦- عزو الحديث أو الأثر يكون بذكر: الجزء/الصفحة/الكتاب/الباب/رقم الحديث، وذلك في الكتب التي التزمت ذكر هذه المعلومات، وإلا ذكرت ما وقفت عليه.

٧- شرحت ما رأيت الحاجة لشرحه من الألفاظ الغريبة.

٨- قمت بضبط ما رأيت الحاجة إلى ضبطه من الكلمات.

٩- اكتفيت بذكر اسم الشهرة لبعض الكتب، مثل : تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي، ونحو ذلك.

١٠- الأصل في توثيق المعلومة ذكر المرجع الأقدم (المتوفر لدي)، وقد أُقدم عليه الأحدث لسبب معتبر.

١١- تعاملت مع صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري.

١٢- تعاملت مع أكثر من طبعة لبعض الكتب، والتزمت ما يدل على التمييز، وإذا فاتني شيء، فالرجوع إلى فهرس المراجع.

وفي الختام أحمد الله تعالى، وهو للحمد أهل، أن وفقني لإنجاز هذا العمل، على ما فيه من ضعف البشر، وقصر النظر؛ فما كان فيه من صواب وتسديد فهو محض فضله تعالى، ومنته عليَّ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي وأستغفر الله. ولا عدمت أخاً ناصحاً وقف على شيء من ذلك، فنبهني إليه مشكوراً مأجوراً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

التمهيـــد

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: التعريف بالجدل والمناظرة في اللغة والاصطلاح

المبحث الثاني: بيان الغرض من الجدل، وفوائده، ونتائجه

المبحث الأول

التعريف بالجدل والمناظرة في اللغة والاصطلاح

أولاً: معنى الجدل في اللغة[1]

قال ابن فارس: «الجيم والدال واللام أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسالٍ يكون فيه، وامتداد الخصومة، ومراجعة الكلام».[2] فمادة جَدَلَ تدور حول أربعة معانٍ:

الأول: الإحكام، يقال: جَدَلَه، ويجْدِلُه إذا أحكم فتله، والجديل: الزمام المجدول من أَدَم أو شعر يكون في عنق الدابة، ومنه قول امرئ القيس[3]:

وكشحٍ لطيفٍ كالجَدِيل مُخَصَّر وساقٍ كأُنْبُوب السَّقيِّ المذلَّل

شبَّه خصرها في لطافته ولينه بالجديل، وهو الزمام المتخذ من السيور[4].

الثاني: الشِّدة، فيقال للأرض: جَدَالة لشدتها، والأجدل: الصقر؛ لشدته.

الثالث: الصّراع، وهو إسقاط الإنسان صاحبه على الأرض، فيقال للصريع: مجدَّل ومنجدل. ومن ذلك قوله ﷺ : «إني عبد الله لخاتم النبيين

---

(١) انظر: لسان العرب١١/١٠٣-١٠٥ مادة جذل، وتاج العروس٧/٢٥٣-٢٥٤ مادة جدل، والقاموس المحيط٣/٣٥٧مادة جدل، وغريب القرآن للراغب ص : ٨٧-٨٨ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ١/٤٣٣.

(٣) ديوان امرئ القيس ص: ١٧.

(٤) المرجع السابق ص: ١٧ هامش: ٣٧.

وإن آدم عليه السلام لمنجدل في طينته»[(١)].

الرابع: اللَّدد في الخصومة والقدرة عليها، فرجل جَدِل، ومِجْدال،ومِجْدل: شديد الجدل، وجدلتُ الرجلَ جدْلاً، أي: غلبته، والمَجْدل: الجماعة من الناس. قال ابن سيده: «أُراه؛ لأن الغالب عليهم إذا اجتمعوا أن يتجادلوا»[(٢)].

فالجدل والجدال والمجادلة بمعنى المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، ومن ذلك قوله (تعالى) :﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[سورة الكهف: ٥٤]. وقوله (تعالى):﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: ١٩٧]. وقوله تعالى﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [سورة الكهف: ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل:١٢٥].

ثانيا: معنى الجدل في الاصطلاح:

اختلفت عبارات العلماء في تعريف الجدل، ولعل ذلك راجع إلى نوع الفن الذي يتكلمون فيه، ونظرتهم إلى الجدل تحسيناً أو تقبيحاً، وقصد كل طائفة منه:

١ـ معنى الجدل عند الفلاسفة والمناطقة:

يقول الدكتور إمام: «كلمة الجدل لم تكن قد ظهرت عند فلاسفة اليونان الأُول؛ إذ الأرجح أن أفلاطون هو أوّل من ذكر هذه الكلمة صراحة

(١) مسند الإمام أحمد ١٢٧/٤، ١٢٨، وانظر: صحيح ابن حبان (الإحسان) ١٠٦/٨ ح: ٦٣٧٠، ومستدرك الحاكم ٤١٨/٢ وصححه ووافقه الذهبي، ودلائل النبوة للبيهقي ١٢٩/٢-١٣٠.

(٢) لسان العرب ١٠٥/١١.

في محاوراته»[١] ولهذا جاء عند أفلاطون: «الجدلي هو الذي يحسن السؤال والجواب»[٢].

و لم أقف على تعريف للجدل عند أرسطو على الرغم من تصنيفه كتاباً في الجدل ذكر فيه أجزاء هذه الصناعة ومنافعها وغير ذلك[٣]. لكن أشار ابن رشد في تلخيصه لكتاب أرسطو المذكور آنفا إلى تعريف للجدل، وعزاه إلى الجمهور ـ لعلّهم جمهور الفلاسفة ـ يقول فيه: «اسم الجدل عند الجمهور إنما يدل على مخاطبة بين اثنين ، يقصد كل واحد منهما غلبة صاحبه بأي نوع اتفق من الأقاويل»[٤].

وجاء عند ابن سينا أنه: «الصناعة المعدة لإلزام الخصوم بطريق مقبول محمود بين الجمهور في أي رأي كان»[٥].

والمشهور عندهم ـ تبعاً للقياس الأرسطي ـ أنه: «القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم ، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان»[٦].

---

(١) تطور الجدل بعد هيجل ـ جدل الفكر ـ إمام عبد الفتاح ص : ٨ .

(٢) المعجم الفلسفي ـ جميل صليبا ٣٩١/١ وقارن بما في تلخيص كتاب الجدل ـ ابن رشد ص : ٣٠ .

(٣) انظر : الجزء الثاني من كتاب : منطق أرسطو ـ طوبيقا ـ بتحقيق د. بدوي ص : ٤٦٩ وما بعدها .

(٤) تلخيص كتاب الجدل ـ ابن رشد ص : ٣٠ .

(٥) الشفاء (المنطق ـ الجدل) ص : ١٧ .

(٦) انظر: الشفاء ــ المنطق ــ الجدل ص : ٢٤ وتاج العروس ٢٥٤/٧ وتعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث لأحمد مكي ص : ٣٧.

وذكر صاحب المصباح المنير تعريفاً هو أشبه بحال السوفسطائيين المتقدمين على زمن أرسطو وأفلاطون، فقال في تعريف الجدلي: «إذا خاصم بما يُشغل عن ظهور الحق، ووضوح الصواب، هذا أصله ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها»[(١)].

والذي يجمع بين هذه التعريفات هو كسر الخصم وإلزامه، لا موافقة الحق والصواب.

٢ـ معنى الجدل عند الفقهاء والأصوليين:

قال القاضي أبو يعلى **رحمه الله**: «فهو تردد الكلام بين اثنين إذا قصد كل واحد منهما إحكام قوله ليدفع به قول صاحبه»[(٢)] وقال صاحب المصباح المنير: «هو مقابلة الأدلة لظهور أرجحها»[(٣)].

٣ـ معنى الجدل عند المتكلمين:

يقول الشريف الجرجاني رحمه الله في تعريفه الجدل: «دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة»[(٤)] وقال عنه أيضاً: «عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها»[(٥)].

وذكر أبو المعالي الجويني رحمه الله عدة تعريفات للجدل، ثم كرَّ عليها

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ـ أحمد بن محمد المقري ١٠٢/١.
(٢) العدة في أصول الفقه ـ لأبي يعلى ١٨٤/١ وانظر: ترتيب المنهاج للباجي:١١.
(٣) المصباح المنير ـ للفيومي ١٠٢/١ (بتصرف).
(٤) التعريفات ـ للجرجاني ص : ٤١ ، وانظر : الكليات لأبي البقاء ص : ٢٥٨.
(٥) التعريفات ص : ٤١ .

بالإبطال، ثم ذكر تعريفاً وصححه، وهو أنه: «إظهار المتنازعَيْن مقتضى نظرتهما على التدافع، والتنافي بالعبارة، أو ما يقوم مقامهما من الإشارة والدلالة»[1].

والتعريف المختار هو تعريف المتكلمين، وتعريف الإمام الجويني أدق وأضبط؛ وذلك للأسباب التالية:

أولاً: الجدل عند الفلاسفة والمناطقة لا يراعي غير الغلبة والظهور، وهذا قصد فاسد، أساسه اللّدد واللّجاج.

ثانياً: الجدل عند الفقهاء والأصوليين لا يناسب بحثنا هذا، لأنه يتعلق بالأحكام وأدلتها، والمقصود هنا العقائد وأدلتها، والتعرض للمخالفين من أهل الملل والنحل الأخرى.

ثالثا: أبو المعالي الجويني رحمه الله عرّف الجدل وصوّره من حيث هو تدافع وتقابل بالحجج من غير تعرض لقصد الفريقين، وهذا يحتمل الجدل بنوعيه: المحمود والمذموم؛ المحمود: الذي يُطلب به الحق والصواب، والمذموم: الذي يطلب به الغلبة والفلج، فحسب.

أما الشريف الجرجاني رحمه الله، فقد اختصر على ذكر الجدل المذموم؛ ولهذا ذكر في تعريفه الأول: دفع الخصم بالشبه، وفي الثاني: سماه مراءً، والمراء أخص بالجدل المذموم، كما سيأتي بيانه.

---

(١) الكافية في الجدل ـ للجويني ص: ٢١.

المناسبة بين المعنى اللغوي للجدل والمعنى الاصطلاحي:[(١)]

الجدل الاصطلاحي يوجد فيه معنى الإحكام ؛ إذ كل واحد من الخصمين يريد أن يكشف لصاحبه صحة كلامه بإحكامه وإتقانه، وإسقاط كلام صاحبه.

ومعنى الشدة موجود فيه؛ لأنَّ كل واحد منهما يروم تقوية حجته، وفتل صاحبه عن قوله واعتقاده إلى ما هو صائر إليه.

ومعنى الصّراع موجود فيه ـ أيضاً ـ ؛ لأنَّ كل واحد منهما يروم غلبة صاحبه، بإسقاط كلامه وتقوية كلام نفسه.

والجدل ـ أيضاً ـ مظنة اللدد في الخصومة ؛ ولهذا أُمر المؤمنون بالإحسان فيه.

ثالثاً: معنى المناظرة في اللغة[(٢)] :

قال ابن فارس: «النون والظاء والراء أصل صحيح يرجع فروعه إلى معنى واحد وهو تأمل الشيء ومعاينته، ثم يستعار ويتسع فيه...»[(٣)] .

فمادة نَظَرَ تدور على ثلاثة معانٍ:

الأول: النظر الذي هو حس البصر ورؤيته، ومنه قوله (تعالى): ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[سورة القيامة: ٢٢، ٢٣]، قال أبو إسحاق :«نضُرت

(١) انظر : الكافية في الجدل ص :٢١،٢٢.

(٢) انظر : لسان العرب٥/٢١٥-٢١٩ مادة نظر، وتاج العروس٣/٥٧٣-٥٧٥ مادة نظر.

(٣) مقاييس اللغة ٥/٤٤٤.

بنعيم الجنة والنظر إلى ربها »[1] وقال الحسن البصري: «تنظر إلى الخالق وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق»[2] وقال أبو منصور: «ومن قال: إن معنى قوله ﴿إلى ربها ناظرة﴾ بمعنى منتظرة فقد أخطأ؛ لأن العرب لا تقول: نظرت إلى الشئ بمعنى انتظرته، إنما تقول: نظرت فلاناً: أي انتظرته»[3].

ومن هذا المعنى: النظّارة، وهم القوم ينظرون إلى الشيء. والمنظار: المرآة، والآلة: يُنظر من خلالها فيُرى البعيد قريباً، والمنظرة: موضع يُرقب منه العدو، ومنه التناظر: وهو التقابل، تقول العرب: دورنا تناظر دوركم.

الثاني: النظر بمعنى الانتظار، يقال: نظرت فلاناً، وانتظرته، بمعنى واحد، ومنه قوله (تعالى): ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [سورة الحديد: ١٣]. ومن ذلك النظِرة، بمعنى التأخير والإمهال كقوله (تعالى):﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [سورة البقرة:٢٨٠] وقوله : ﴿ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[سورة الأعراف: ١٤].

الثالث: النظر بمعنى التفكر في الشيء، وتقديره وقياسه، وهو نظر القلب وتأمله، ومنه قوله (تعالى):﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٥].

ومنه ـ أيضاً ـ التناظر وهو التراوض في الأمر، ونظيرك هو الذي يراوضك وتناظره.

---

(١) لسان العرب ٢١٦/٥.

(٢) رواه الطبري في تفسيره عن البخاري ١١٩/٢٩-١٢٠ طبعة دار المعرفة وانظر : تفسير ابن كثير ٤٥١/٤.

(٣) تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري ٣٧١/١٤ مادة نظر .

والمناظرة: مفاعلة من النظر، وهي أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه. وتقول: ناظرت فلاناً، إذا صرت له نظيراً في المخاطبة. قال الراغب: «المناظرة: المباحثة والمباراة في النظر، واستحضارُ كلٍ ما يراه ببصيرته»[(١)].

فمعنى النظر بحسب تعديه ؛ فإن عدي بإلى فهو نظر العين، وإن عدي بنفسه فهو الانتظار، إلا ما كان منه بمعنى الإمهال، وهو الإنظار، فإنه يتعدى إلى المعمول الثاني بإلى، وإن عدي بفي فهو التفكر والتأمل.

رابعاً: معنى المناظرة في الاصطلاح:

المراد بالنظر هنا فكر القلب وتأمله في حال المنظور ليعرف حكمه : جمعاً، أو فرقاً، أوتقسيماً. وحقيقة هذا النظر: التأمل، أو التفكر ، أو الاعتبار والاستدلال.[(٢)] وعلى هذا فالمناظرة مفاعلة من النظر، وكل مناظرة تتضمن نظراً، وليس كل نظر يتضمن مناظرة؛ لأن النظر يقع من الواحد.[(٣)]

فالمناظرة في الاصطلاح هي: النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب.[(٤)] وزاد بعضهم[(٥)] عبارة: وقد يكون مع نفسه، وقد تقدم أن هذا نظر، وليس مناظرة.

---

(١) غريب القرآن ص : ٥١٨.

(٢) انظر: الكافية في الجدل ص : ١٧.

(٣) انظر: الكافية في الجدل ص : ١٩، وغريبُ القرآن ص : ٥١٨.

(٤) انظر: التعريفات ص :١٢١، والكليات لأبي البقاء ص :٦٢١، وأدب البحث لطاش زاده ص :٣١ ، وتعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث لأحمد مكي ص :١٥ وانظر : شرح الولدية ص : ٨.

(٥) انظر: كليات أبي البقاء ص :٦٢١.

وقال طاش كبري زاده:

هي النظر من جانبي خصمين معلّل وسائل اثنين
في نسبة بينهما حُكميّه ليظهر الصوابُ والخفيه[١]

المناسبة بين المعنى اللغوي للمناظرة والمعنى الاصطلاحي:

المناظرة بمعناها الاصطلاحي يوجد فيها معنى التناظر الذي هو التقابل، سواءً كان بين الأشخاص في المجلس الواحد، أو بين الأدلة والحجج، ويوجد فيها معنى الانتظار؛ لأن كل واحد من المتناظرين ينتظر صاحبه حتى يتم كلامه، ويوجد فيها كذلك معنى التأمل والتفكر حيث يتأمل كل منهما في كلامه وكلام مناظره حتى لا يقع في الخطأ.

الفرق بين المجادلة والمناظرة:

تقدم اختلاف الناس في تعريف الجدل، وأن طائفة منهم نظرت إلى الجدل على أنه أداة لكسر الخصم وإلزامه، دون اعتبار لموافقة الحق والصواب؛ ولهذا جاء في تعريف بعض العلماء أنه مراء ومخاصمة ولجاج، وفرقوا بينه وبين المناظرة ، قال شارح الولدية بعد أن عرَّف المناظرة، وبين أن المراد منها ظهور الحق مطلقاً، ثم قال: «وهو احتراز عن الجدل فإنه مدافعة لإسكات الخصم ؛ لأن كلاً من المجادلين يريد حفظ مقاله وهدم مقال خصمه، سواء كان حقاً أو باطلاً»[٢].

---

(١) مجموع المتون ص : ٤٤٤منظومة آداب البحث والمناظرة .

(٢) شرح الولدية ص : ٨ .

وقال صاحب تعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث: «والجدل والمغالطة خارجان عن المناظرة، فليس أحدهما مورداً لها؛ لأن الخصومة بهما ليست لإظهار الصواب»[١].

بينما اتفق العلماء على أن المناظرة مباحثة من أجل الوصول إلى الصواب؛ ولهذا اشترطوا فيها التقارب بين المتناظرين في العلم والفهم، وهو معنى النظير ، بحيث لايكون أحدهما في غاية العلم والكمال، والآخر في نهاية الجهل والنقصان.[٢]

وبعض العلماء لا يفرق بينهما، بل يجعلهما شيئاً واحداً،يقول الإمام الجويني رحمه الله: «لا فرق بين المناظرة والجدال والمجادلة والجدل في عرف العلماء بالأصول والفروع، وإن فُرِّق بين الجدل والمناظرة على طريقة اللغة؛ وذلك أن الجدل في اللغة مشتق من غير ما اشتق منه النظر ».[٣] **ولعلَّ هذا هو الأصح، وهو المعتمد في هذا البحث.**

وكلاهما قد يستعمل في الحق والباطل، وذلك بحسب قصد كل من المتجادلين والمتناظرين، وما يدليان به من حجج. وسيأتي مزيد بيانٍ ـ إن شاء الله ـ عند الكلام عن أنواع الجدل من حيث المدح والذم.

ألفاظ مرادفة للجدل والمناظرة:

هناك ألفاظ مرادفة في معانيها للجدل والمناظرة ، من ذلك:

---

(١) تعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث ص : ٣٨.

(٢) انظر: تعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث ـ مكي ص : ١٥.

(٣) الكافية في الجدل ص : ١٩.

• **المحاجة**: وهي من استعمالات القرآن الكريم ؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾[سورة الأنعام: ٨٠].

• **المحاورة** : وهي المراجعة في الكلام، ومنه قوله (تعالى): ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾[سورة المجادلة: ١].

• **المناقشة** : ومن ذلك قوله ﷺ : «من نوقش الحساب فقد عذب»[(١)] .

• **المباحثة** : وهو استعمال معاصر، وعليه صنفت كتب آداب البحث والمناظرة .

علم الجدل والمناظرة :

لابد من التفريق بين الجدل باعتباره سجية وطبعاً، والجدل باعتباره علماً وفناً؛ فالأول لازم للخليقة منذ نشأتها الأولى؛ غير مرتبط بأمة من الأمم، أو فترة من الفترات ـ كما سيتبين ـ والثاني قد يكون لبعض الأمم فيه باع وفضل سبق.

فعلم الجدل أو علم المناظرة هو معرفة آداب الجدل والمناظرة التي تجري بين أهل المذاهب العقدية والفقهية وغيرهم ؛ قال ابن خلدون رحمه الله: «فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً، وكل واحد من المناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج،ومنه ما يكون صواباً، ومنه ما يكون خطأً، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ١/١٩٧ (فتح الباري) كتاب العلم ـ باب من سمع شيئاً فراجع فيه حتى يعرفه ح: ١٠٣ ومسلم في صحيحه ٤/٢٢٠٥ كتاب الجنة ـ باب إثبات الحساب يلي الحديث : ٢٨٧٦ .

المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً، ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال، ولذلك قيل فيه: إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه،كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره».(١)

نشأة علم الجدل والمناظرة والتصنيف فيه:

لما كثرت المنازعات بعد تدوين المذاهب الكلامية، وكان كل فريق ينصر مذهبه ويتعصب له، احتاج الناس إلى وضع قانون خاص بالخصومة في المطالب العلمية يبين لكل من الخصمين موقفه حيال خصمه، وحدَّه الذي لا يتعداه،حتى لا يكثر الشغب، وينتشر الكلام، ويصعب الوصول إلى الحق؛ فلذا عني العلماء بالتدوين في علم المناظرة، وأفردوه بالكتابة؛ لما له من المكانة بين العلوم المفتقرة إلى الاستدلال؛ كعلم العقائد، وعلم الكلام، وعلم أصول الفقه، ونحو ذلك.(٢)

ومِنْ أول مَنْ صنف في علم الجدل : **الإمام محمد البزدوي** لكن القوانين التي وضعها كانت خاصة بالفقه،ثم رأى من بعده من العلماء أن ذلك لا يشفي العلة ولا يروي الغلة ؛ فأخذوا يضعون قواعد للمناظرة لا تختص بعلم من العلوم، أو فن من الفنون، فكان تدوينه باعتباره قواعد عامة النفع في

(١) مقدمة ابن خلدون ص :٤٢٢ ، وانظر : الإيضاح لقوانين الاصطلاح لأبي محمد بن الجوزي ص: ٥.

(٢) انظر: رسالة الآداب لأحمد مكي ص: ٦ .

جميع المطالب في أوائل القرن السابع على يد **ركن الدين العميدي الحنفي**، وله في ذلك مصنفان: **الإرشاد والنفائس**، ثم تتابع على ذلك العلماء من بعده من أمثال: **السمرقندي والرازي والنسفي** وغيرهم.[(١)]

ومن الكتب المختصرة في علم الجدل :رسالة **لعضد الدين** في مقدار عشرة أسطر ، وشرحها **لمحمد بن محمد البردعي** ، ثم **رسالة لشمس الدين السمرقندي** وهي أشهر كتب الفن، وعليها شروح، منها: **شرح علاء الدين البهشتي**.

ومن الكتب المتوسطة: **النفائس للعميدي والرسائل للأرموي وتهذيب النكت للأبهري**.

والذي يظهر لي أن أكثر هذه المصنفات مفقودة، إن لم يكن كلها.

نماذج من المصنفات الموجودة والمطبوعة:[(٢)]

١– التقريب لحد المنطق لابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ) طبع بتحقيق الدكتور إحسان عباس ــ منشورات دار مكتبة الحياة ــ دار العباد ــ بيروت.

٢– المنهاج في ترتيب الحجاج لأبي الوليد الباجي (٤٧٤هـ) طبع بتحقيق

(١) انظر : مقدمة ابن خلدون ص: ٤٢٢ وسالة الآداب لأحمد مكي ص :٦ وأبجد العلوم ٥٦٦/٢ ومفتاح السعادة ٣٠٥/١

(٢) بعض هذه المصنفات تحدثت عن الجدل في مسائل الفقه وأصوله ، ولا شك أن هناك قضايا مشتركة بين سائر أنواع العلوم في التطبيقات الجدلية .

عبد المجيد تركي - دار الغرب الإسلامي - ١٩٨٧م .

٣- المعونة في الجدل لأبي إسحاق الشيرازي (٤٧٦هـ) طبع بتحقيق عبد المجيد تركي - دار الغرب الإسلامي - ١٤٠٨هـ - بيروت .

٤- الملخص في الجدل في أصول الفقه لأبي إسحاق الشيرازي (٤٧٦هـ) طبع بتحقيق محمد يوسف آخندجان نيازي - وهو عبارة عن رسالة ماجستير في جامعة أم القرى - مكة المكرمة ١٤٠٧هـ .

٥- الكافية في الجدل لأبي المعالي الجويني (٤٧٨هـ) طبع بتحقيق الدكتورة فوقية حسين محمود - مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٣٩٩هـ .

٦- الجدل على طريقة الفقهاء لابن عقيل (٥١٣هـ) طبع بتحقيق جورج مقدسي - ونشر بمجلة المعهد الفرنسي للدراسات الاستشراقية ج ×× ص : ١٩-٢٠٦ دمشق ١٩٦٧م.

٧- الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل الأصولي الفقهي - لأبي محمد يوسف بن عبد الرحمن بن الجوزي المتوفي (٦٥٦هـ) - تحقيق د. فهد بن محمد السدحان - الناشر مكتبة العبيكان - الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م - الرياض.

٨- عَلَم الجَذَل في عِلْم الجدل - لنجم الدين الطوفي الحنبلي المتوفى (٧١٦هـ) - طبع بتحقيق فولهارت ها ينرنيشس - دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

٩- علم البحث والمناظرة لطاش كبري زادة المتوفى (٩٦٨هـ) - بتحقيق أبي عبد الرحمن بن عقيل - مطبعة الجبلاوي - مصر ١٣٩٧هـ .

١٠- شرح الولدية لمحمد المرعشي الساجقلي المتوفى (١١٥٠هـ) ومعه شرح للعلامة محمد بن حسين المعروف بملا عمر زادة - المطبعة الجمالية بمصر .

١١- رسالة في آداب البحث لأحمد مكي .

١٢- تعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث لأحمد مكي، وهي شرح للرسالة المتقدمة - جميعة النشر والتأليف الأزهرية - ١٣٥٣هـ.

١٣- رسالة الآداب لمحمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة دار السعادة ١٣٧٨هـ - القاهرة .

١٤- آداب البحث والمناظرة لمحمد الأمين الشنقيطي - وهو كتاب من جزئين - الناشر مكتبة ابن تيمية بالقاهرة ومكتبة العلم بجدة .

المبحث الثاني

بيان الغرض من الجدل، وفوائده، ونتائجه

تنبيـــه :[(١)]

إذا ترتب على فعل ما أثر فذلك من حيث هو نتيجة لذلك الفعـل وثمـرة له يسمى فائدة، ومن حيث كونه على طرف الفعل ونهايته يسمى غاية، ثـم ذلك الأثر المسمى بهذين الأمرين إن كان باعثاً علـى ذلـك الفعـل، يسـمى بالقياس إلى فاعله غرضاً، ومقصوداً. ويسمى بالقيـاس إلى فعلـه علـة غائيـة، وإن لم يكن باعثاً للإقدام كـان فـائدة وغايـة فقـط، والغايـة أعـم مـن العلـة الغائية.

يتبين مما سبق أن بين هـذه الأمـور الثلاثـة: الغـرض والفـائدة والنتيجـة، تشابه شديد، حتى إنه يصعب ملاحظة الفـرق بينهـا، ولاسـيما بـين الفـائدة والنتيجة، ومع ذلك حاولت أن أفـرد لكـل أمـر كلامـاً يخصـه مـع ملاحظـة التداخل الاعتباري، وهو أمر لامحالة واقع.

أولاً: الغرض من الجدل:

الغرض من الجدل قسمان : صحيح وفاســد.

أما الغرض الصحيح فأنواع، منها:

١– تحقيق الحق وإظهار الصواب.[(٢)]

---

(١) انظر: أبجد العلوم ١/٤٩.

(٢) انظر: الكافية في الجدل ص :٢٣.

٢- تمحيق الباطل،ودفع الشبه، وإزالة الأوهام والشكوك.[١]

٣- كسر الخصم المبطل بقصد نصرة الحق، لا على عادة أهل السفسطة ونحوهم، كما سيتبين في موضعه.

٤- تصحيح مذاهب الحق ونصرتها بالذود عنها بطريق الجدال وغيره من الطرق الموصلة إلى الحق.

٥- تمحيص الأدلة وكشفها، وتمييز صحيحها من سقيمها.

٦- دفع الزلل والخطأ عن العلماء من حيث وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء إلى الحق وسبله.[٢]

٧- تحصيل ملكة الهدم والإبرام[٣] وهي التي تعين صاحبها على إقامة الحق وأدلته، وتزهيق الباطل وشبهاته .

وأما **الغرض** الفاسد فأنواع ـ أيضاً ـ منها:

١- دحض الحق وإظهار الباطل، وهذا لا يكون إلا من كافر صريح الكفر، أو منافق عليم النفاق، أو متعصب بغيض؛ قال (تعالى): ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾[سورة غافر:٥].

---

(١) انظر : المرجع السابق ص : ٢٣ .

(٢) انظر : الكافية ص:٢٤. وقال الجويني رحمه الله : «فإذا رأى العالم مثله يزل ويخطئ في شيء من الأصول والفروع وجب عليه من حيث وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاؤه عن الباطل وطريقه إلى الحق وطريق الرشد والصواب فيه ، فإذا لجّ في خطابه وقوّى على المحق شبهته وجب على المصيب دفعه عن باطله والكشف له عن خطئه بما أمكنه من طريق البرهان، وحسن الجدال . فحصل ـ إذ ذاك ـ بينهما المجادلة ، من حيث لم يجدا بداً منه في تحقيق ما هو الحق ، وتمحيق ما هو الشبهة والباطل» . الكافية في الجدل ص : ٢٤ .

(٣) مفتاح السعادة ٣٠٥/١ .

٢- كسر الخصم وإفحامه بأي سبيل كان، لا لقصد الوصول إلى الحق؛ فالمقصود: الغلبة والفلج ، لا الحق والصواب، وهي طريقة أهل السفسطة ومن شابههم .

٣- طلب الشهرة بتحدي العلماء المبرزين ومعارضتهم بالمناظرة.[١]

٤- الترفع بإظهار العلم والفضل والتهجم على الغير بإظهار نقصه، وهما شهوتان باطنتان للنفس: العجب واحتقار الغير.

ثانياً: فوائد الجدل:

أما فوائد الجدل والمناظرة فكثيرة، أختار طائفة منها:

١- فيه تحقيق لمعنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين هما من صفات المؤمنين وواجباتهم، بل من مقتضيات الإيمان؛ قال (تعالى): ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[سورة آل عمران: ١١٠] ولهذا أمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين بالدعوة إلى سبيل الرب (تعالى) والمجادلة بالتي هي أحسن.[٢] قال (تعالى): ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة النحل: ١٢٥].

٢- إحقاق الحق وإقامة الصواب، وكسر الباطل وأهله، ودفع الشبهات ورد غلواء المعتدين؛ قال ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله:

(١) انظر : تاريخ التعليم عند المسلمين د. منير الدين أحمد ص : ٥٧ .

(٢) انظر : رسالة أدب البحث ـ لأحمد مكي ص : ٥ .

ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين ... »[١]

وهذا قد يكون بالجدل ، وقد يكون بغيره من طرق بيان الحق وتزهيق الباطل.

٣- تثبيت المؤمنين؛ فإن المناظر قد يكون غرضه ـ أحياناً ـ ليس هداية الخصم بالدرجة الأولى، وإنما تثبيت المؤمنين، وذلك بإظهار علوّ الإسلام، وقوة حجته، وضعف حجج خصومه، فيزداد المؤمنون إيماناً ويقيناً؛ قال (تعالى) في أهل الكتاب ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تعملون﴾ [سورة آل عمران: ٩٩] فالواجب على المناظر من أهل الحق تثبيت هؤلاء المؤمنين الذين يسعى الخصوم في ردتهم، وصدهم عن الحق. ومن وسائل التثبيت دحض حجج الخصوم، وتفنيدها، والظهور عليهم في ميادين الجدال.[٢]

---

(١) ذكره التبريزي في مشكاة المصابيح ٨٢/١ وعزاه إلى البيهقي ، وذكر الألباني أن الحديث مرسل ثم قال : لكن الحديث قد روي موصولاً من طريق جماعة من الصحابة ، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي في بغية الملتمس .

وذكر الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث ص : ٢٩ أن مهنا بن يحيى قال : سألت أحمد ـ يعني ابن حنبل ـ عن حديث معان بن رفاعة عن إبراهيم هذا فقلت لأحمد : كأنه كلام موضوع ؟ فقال: لا، هو صحيح ، فقلت له : ممن سمعته أنت ؟ قال : من غير واحد ، قلت : من هم ؟ قال : حدثني به مسكين، إلا أنه يقول : معان عن القاسم بن عبد الرحمن. قال أحمد : معان بن رفاعة لا بأس به .

والحديث رواه البغدادي ـ أيضاً ـ في شرف أصحاب الحديث ص : ١١،٢٨ عن أبي هريرة برقم : ٥٢ وأسامة بن زيد برقم : ٥٣ وابن مسعود برقم : ٥٤ وعن معاذ برقم : ١٤.

(٢) انظر : الحوار مع أهل الكتاب ـ لخالد القاسم ص : ١١٦-١١٧ .

٤- تحصيل ملكة الجدل والمناظرة، وذلك بعد تشحيذ الأذهان، وتصقيل الخواطر بفضل المراس والمران، فيتعرف المجادل على طرق إبرام الأقوال الصحيحة، وهدم الأقوال الباطلة.[1]

٥- الوصول إلى الحقيقة والصواب بالطرق العلمية مجردة عن الأهواء، ومتابعة للدليل.

٦- تمحيص الأدلة وكشفها، والترجيح بينها في المسائل الاجتهادية.

٧- تأييد صحيح المنقول بصريح المعقول.

٨- الانتقال بالمسائل العلمية من مقام الظن إلى مقام القطع واليقين؛ لأن الظنية والقطعية من الأمور النسبية الإضافية، فما يكون مظنوناً عند شخص ما، قد يكون مقطوعاً به عند آخر، وبالمناظرة قد يستفيد صاحب الظن: القطع واليقين.

٩- تقريب المسائل البعيدة، وتسهيل المسالك الوعرة، لا سيما إذا أُلتزِمت قواعد المناظرة وآدابها.

١٠- الفصل في النزاعات العلمية التي تقع بين المسلمين، كما كان يقع مثله في مجالس الخلفاء والوزراء والأعيان[2].

١١- ما يحصل في المجالس التي كان يعقدها العلماء من تمحيص الحق، والوقوف على دقائق العلوم، وتبادل الفوائد؛ حتى إن الأئمة الكبار كانوا يأمرون تلاميذهم بالمناظرة ويشجعونهم عليها.[3]

---

(١) مفتاح السعادة ٣٠٦،٣٠٥،٣٠٣/١.

(٢) انظر : تاريخ التعليم ـ منير ص : ٥٧.

(٣) انظر: تاريخ التعليم ـ منير ص: ٥٧،٥٦، ومعرفة علوم الحديث للحاكم ص: ١٤٠ وما بعدها.

يقول أبو محمد بن الجوزي رحمه الله: «اعلم وفقنا الله وإياك: أن معرفة هذا العلم لا يستغني عنها ناظر، ولا يتمشى بدونها كلام مناظر؛ لأن به يتبين صحة الدليل من فساده ـ تحريراً وتقريراً ـ وتتضح الأسئلة الواردة من المردودة ـ إجمالاً وتفصيلاً ـ ولولاه لاشتبه التحقيق في المناظرة بالمكابرة.

ولو خُلِّيَ كل مدع ودعوى ما يرومه على الوجه الذي يختاره، ولو مُكِّن كل مانع من ممانعة ما يسمعه متى شاء: لأدى إلى الخبط وعدم الضبط.

وإنما المراسم الجدلية تفصل بين الحق والباطل، وتميز المستقيم من السقيم، فمن لم يحط بها علما كان في مناظرته كحاطب ليل»[(١)].

ثالثاً: نتائج الجدل:

إذا كان قصد كل من المتناظرين ابتغاء الحق، وطلب الصواب، فسوف تنكشف هذه المناظرة: إما عن نيل المطلوب، وحصول المقصود على أحسن الوجوه وأطيبها، وإما عن بعض ذلك، فإن لم يتحقق شيء منه، فلا أقل أن تستمر هذه النية الصالحة، ولا يطرأ عليها تغيير بسبب الجدال. فما لم يتضح اليوم من المسائل العلمية قد يتضح غداً، مع بقاء النفوس على التناصح، والتواصي بالحق وبالصبر.

أما إذا كان قصد المتناظرين أو أحدهما غير ما ذكر من ابتغاء الحق، وطلب الصواب؛ فهي من سيئ القصد مراء وتشغيب وسفسطة، «يترتب عليها إضاعة الأزمان، وإتعاب الأذهان، وإيراث الوحشة، وحصول العداوة»[(٢)].

---

(١) الإيضاح لقوانين الاصطلاح ص: ٥ .

(٢) انظر: مفتاح السعادة ١/ ٣٠٦ .

فالجدل الحق يعين على الوصول إلى الحقيقة، على سبيل التدافع الـذي لا يزيدها إلا قوة ووضوحاً؛ لأنه يتـآزر في طلبهـا أكـثر مـن عقـل وأكـثر مـن مجهود.[١] ولهذا كـان ابـن شـهاب الزهـري رحمـه الله يقـول لتلاميـذه: «لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم؛ فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمـر المعضل دعـا الفتيـان فاستشـارهم؛ يبتغـي حـدة عقولهـم».[٢] فـإذا خلصـت النوايا، واستقامت الأغراض، وسلمت الآلات فالمطلوب حاصل ـ بـإذن الله ـ إن عاجلاً وإن آجلاً.

نوع المعرفة الناتجة عن الجدل:

أطلق بعض فلاسفة[٣] اليونان ومن أبرزهم أرسطو[٤]، ووافقهـم مـن الفلاسفة الإسلاميين[٥] ابن سينا[٦]: أن الجدل لا يفيد إلا الظن، وهذا خطأ،

(١) انظر: مقدمة الكافية في الجدل للدكتورة فوقية ص : ٢٨ .

(٢) جامع بيان العلم ـ لابن عبد البر ١/١٠٢ باب في فضل التعلم في الصغر والحض عليه .

(٣) كلمة فلسفة تتكون من مقطعين: "فيـلا" و "سـوفيا". و"فيـلا" في اليونانيـة معناهـا : محـب، و"سوفيا" معناها: الحكمة ، فالفلسفة هي: حب الحكمة، والفيلسـوف: محب الحكمـة. ومـن مذاهب الفلاسفة القول بقدم العالم، وأكثرهم ينكرون حشر الأجسـاد، ومـن أشـهر فلاسـفة اليونان أرسطو، وأقسام علومهم : الإلهيات، والطبيعيات، والرياضيات. انظـر: الملـل والنحـل ٢/٥٨ ، واعتقـادات فـرق المسـلمين لـلرازي ص : ١٤٥ ومـا بعدهـا، والمرشـد الأمـين ص: ١٤٥وما بعدها ، والمعجم الفسلفي ـ جميل صليبا ٢/١٦٠.

(٤) انظر: منطق أرسطو ـ طوبيقا ٢/٤٧٠.

(٥) الفلاسفة الإسلاميون هم المنتسبون إلى الإسلام ممن كان على مذهـب الفلاسـفة اليونـان مـن أمثال ابن سينا، والفارابي، والكندي، وابن رشد، والسهروردي المقتول وغيرهم من المنتسـبين إلى القرمطة والتصوف. انظر : درء تعارض العقل والنقل ٦/٢١١-٢١٢ .

(٦) انظر : الشفاء (المنطق ـ الجدل) ص : ٢٠ ، ٣٤ .

بل قد يفيد القطع، وكما تقدم فإن القطع والظن من الأمور النسبية الإضافية، وليس صفة للدليل؛ يقول أبو المعالي الجويني رحمه الله: «فإنهم لم يجدوا في شيء من الأجناس يعقبه ضرب من الاعتقاد الذي إذا وقع على وجه كان علماً بعد طرق الضروريات، إلا الجنس الذي هو النظر والمناظرة...»[(١)] .

فبالنظر والمناظرة تستفيد المسائل العلمية قوة وتحققاً، فما كان مجرد وهم قد يصبح ظناً، أو ظناً غالباً، أويقيناً، وما كان ظناً قد يصبح يقيناً وقطعاً، وأيضاً فما كان مقطوعاً به عند الخصم قد ينزل إلى درجة الظن أو الشك أو الوهم.

---

(١) الكافية ص :٢٥.

الباب الأول

نشـــأة الجـــدل

وفيه فصـلان:

الفصل الأول: نشـأة الجـدل قبل الإســلام

الفصل الثاني: نشأة الجـدل عند المسلمين

الفصل الأول

نشأة الجدل قبل الإسلام

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: النشأة الأولى للجدل وتطوره

المبحثالثاني: الجدل عند قدماء اليونان وعلاقته بالمنطق الأرسطي

المبحث الأول
النشأة الأولى للجدل وتطوره

إن الإنسان اجتماعي بطبعه، أي يميل إلى الاجتماع بغيره من بني جنسه، وهو محتاج إليه وإلى معاونته، ولا يعرف كل منهما مراد صاحبه إلا بالبيان والكلام الذي وسيلته اللسان، وهذا أمر يشارك فيه الإنسان غيره من الحيوان.

والجدل ضرب من ضروب البيان، وهو قديم في الخليقة، وسيظل باقياً إلى يوم الدين، ما دام هناك عقل، ومجتمعات، ومعتقدات، وقضايا، وتباين في الميول والأهداف...

«الجدل صناعة تكاد تكون فطرية إن لم تكن كذلك حقيقة، فإنا نرى العامة بل الصبيان تقع بينهم المناظرات على القانون الصناعي من إيراد الاستفسار؛ كقول أحدهما للآخر : أيش قلت؟ أو: كيف قلت؟ أو : أيش معنى هذا؟ والمنع هو الذي يسمونه المكابرة نحو قولهم: والله ما هو كذا، وما هو إلا كذا!، والنقض كقول بعضهم : فلان علّق على دابته عِوَذَة فما مرضت، فيقول الآخر : قد علق فلان على دابته عوذة فماتت، أو: مرضت، وهو وجود العلة بدون الحكم وهو النقض.

والصبيان ببدائهم يدركون أن المعارضة تبطل الحجة، وأنها بعد المعارضة ترجيح بلا مرجح وأنه باطل، فإذا افتخر أحدهم على باقيهم بطفر نهر أو وثوب جدار أو نحو ذلك اجتهدوا على أن يفعلوا مثل فعله، فإن صح لهم علموا أن افتخاره عليهم قد بطل، وأنه صار ترجيحاً بلا مرجح، وأن ذلك باطل، وأشباه ذلك مما يقع من العامة كثيراً.

وإنما العلماء استخرجوا لصناعة الجدل قوانين وضوابط وأسماء وألقاباً تعرف بها، وقرروا منها ما كان نظرياً لا يدرك بالبديهة، ولهذا نرى العلماء يحيطون منها ومن غيرها بما لا يحيط به غيرهم، لأن البديهي من ذلك مشترك، وزاد العلماء بالنظريات التي لا سبيل لغيرهم إليها»[١].

والجدل شأن اجتماعي لا يمكن أن تخلو منه أمة، وذلك لاختلاف الناس في المعتقدات والآراء، وتباينهم في الأغراض والميول؛ قال (تعالى) : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[سورة هود: ١١٨-١١٩].

ويرى كثير من العلماء والباحثين أن الجدل ظاهرة إنسانية، بل عالمية ؛ لوجودها في غير الجنس البشري ــ كالملائكة والجن ـ ويعللون ذلك بأن النفس البشرية مجبولة على حب الدفاع عنها، وتقريب مطالبها، ولن يكتمل لها ذلك إلا باستعمالها أسلحة الجدل، وقوارع الحجج. والناظر في تاريخ البشرية يرى أن هذه الظاهرة لم يخل منها عصر من العصور، ولا جيل من الأجيال[٢].

يقول ابن خلدون: «وأما العلوم العقلية التي هي طبيعة للإنسان من حيث إنه ذو فكر، فهي غير مختصة بملة، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل

---

(١) عَلَم الجذل في علم الجدل ـ نجم الدين الطوفي ص : ٢٠٩-٢١٠

(٢) انظر: مقدمة شرح المقاصد ـ عبد الرحمن عميرة ص: ٥١، ومناهج الجدل ـ زاهر الألمعي ص: ٢٦-٢٧.

كلهم، ويستوون في مداركها، ومباحثها، وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة»(١).

ويقول الدكتور زاهر الألمعي:(٢) «وقد خلق الله (تعالى) الإنسان ناطقاً مفكراً، يتوارد عليه من الخواطر والمعلومات ما يجعله مدفوعاً بالضرورة إلى الإفضاء بها والإفصاح عنها، وقد تشتد وتبرز أشد البروز في مواقف الحجاج والنقاش، وتبادل الأفكار، واحتكاك بعضها ببعض: موافقة أو مخالفة أو برهنة أو معارضة أو تعلماً أو تعليماً، إلى غير ذلك مما هو مرتكز في الفطرة الإنسانية، وما تستدعيه طبيعة النوع البشري من التعرف والتفاوت؛ إدراكاً وعلماً. فالجدال لا يمكن أن يخلو منه بشر عنده بيان يعبر به عما يختلج في نفسه من مقاصد وأغراض بصرف النظر عن كيفية هذا البيان ونوعيته.

إن النفس البشرية مجبولة على الدفاع عنها وتقرير مطالبها، وإيضاح مقاصدها، حتى في مواقف القيامة، فإنها لا تتخلى عن هذه النزعة البيانية الإنسانية كما في قوله (تعالى): ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [سورة النحل: ١١١] وكما ورد في حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان؛ فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة، فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي؛ فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»(٣).

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص : ٤٥١.

(٢) انظر : مقدمة كتاب استخراج الجدل ص:١٠-١١ ومناهج الجدل ـ الألمعي ص : ٢٧٦-٢٧.

(٣) رواه الترمذي عن الحسن عن أبي هريرة ١٤١/٧ أبواب القيامة ـ باب ما جاء في العرض ح:٢٤٢٧ قال أبو عيسى: ولا يصح هذا الحديث من قِبَل أن الحسن لم يسمع من أبي=

فالجدال يعود بمعناه العام إلى نزعة البيان والإفصاح المودعة ـ فطرياً ـ في الإنسان، وهو بتعبير آخر وسيلة إفصاح عما يجيش في النفس من تأثرات وأحاسيس إما لإظهار مبدأ، أو نصرة حق، أو تصحيح خطأ، أو توجيه مفهوم أو غير ذلك مما جبلت عليه النفوس البشرية، وبأي دافع كان هذا الحوار الإنساني. فالجدل ضرورة حتمية، فلا يقال: إنه واجب ولا مكروه؛ لأنه طبيعة وجبلة في الفطرة الإنسانية ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [سورة الكهف: ٥٤]».

وإذا أردنا أن نعرف تأريخ الجدل ونشأته الأولى، فإن القرآن الكريم هو أصدق مرجع يروي لنا نماذج الأمم الغابرة منذ أن وجد الإنسان، بل ومن قبل وجوده كما في جدال الملائكة حول وجود آدم خليفة في الأرض، وجدال إبليس، مما يصعب معه تحديد وقت لنشأة الجدل بمعناه الفطري العام؛ لأنه وجد بوجود الإنسان، كامناً في نزعاته البيانية.(١)

= هريرة، وقد رواه بعضهم عن علي الرفاعي عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال أبو عيسى : ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى ١٤١/٧-١٤٢. ورواه ابن ماجه في سننه ١٤٣٠/٢ كتاب الزهد ـ باب ذكر البعث ح : ٤٢٧٧ عن الحسن عن أبي موسى الأشعري . قال في الزوائد : رجال الإسناد ثقات إلا أنه منقطع ، والحسن لم يسمع من أبي موسى قاله علي بن المديني وأبو حاتم وأبو زرعة.

(١) انظر : مقدمة استخراج الجدل ص : ١٢ ومناهج الجدل ـ الألمعي ص : ٣٠

تاريخ الجدل في القرآن الكريم

أولاً: جـدال الملائكة:

قال عبد الرحمن بن نجم الحنبلي (٦٣٤هـ) رحمه الله: «أول مـن سـنَّ الجدال: الملائكة صلوات الله عليهم حيث قالوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[سـورة البقـرة: ٣٠]»(١).

ثانياً: جـدال إبليس:

أما إبليس فهو أول من أظهر الخـلاف، وركـب العنـاد قـال (تعـالى): ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ* قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[سورة ص: ٧٣-٨٥] .

ثالثاً: جـدال ابني آدم :

وهو أول جدال بين الجنس البشري يسجله لنـا القـرآن الكريـم، قـال (تعالى): ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ

---

(١) استخراج الجدل ص : ٥٧ .

لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين*لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾ [سورة المائدة: ٢٧-٢٨].

ثم بعد ذلك يقص علينا القرآن الكريم جدال الأنبياء مع أقوامهم في موضوعات شتى، أبرزها موضوعات التوحيد والإيمان، وسيأتي لكل ما تقدم مزيد بيان في موضعه من هذا البحث إن شاء الله (تعالى).

المبحث الثاني

الجدل عند قدماء اليونان وعلاقته بالمنطق الأرسطي

الجدل الذي هو أحد أبحاث المنطق الهامة ذو صلة وثيقة بقدماء اليونـان، حتى صار شعاراً لهم يُذكرون به، فقد كان لهم اهتمام بالغ بالجدل وأساليب الحوار؛ حيث استفرغوا جهودهم، ووجهوا شبابهم، وأوقفوا أموالهم لتعلمه وتعليمه، الأمر الذي كان له أبرز الأثر في ابتعاد اليونان عن التفكير التجريبي العملي الذي كان يمكن أن ينتفعوا به في هذه الحياة، ويبنوا عليه تقدماً مادياً، فذلك أنفع لهم من فكر لا يفيد في دين ولا دنيا. بل كان فكرهم فكراً تجريدياً موغلاً في الصورية، حتى كان يقال في منطق أرسطو ــ وقد انتهت إليه جهود الفكر اليوناني ـ : إنه منطق صوري، يهتم بصورة الفكر دون مادته، أي بالأمور الذهنية دون العينية الموجودة في الخارج.(١)

والغاية العظمى للجدل اليوناني هي عدم الوقوع في التناقض، مع طلب الغلبة وكسر الخصم، بغض النظر عن موافقة الحق والفوز بالصواب.

وأنا ذاكر في هذا المبحث أبرز رجال الفكر اليوناني، والذين يشكلون مراحل متنوعة، وربما متباينة، في حياة الفكر اليوناني:

---

(١) انظر : المنطق الصوري والرياضي ـ بدوي ص : ٦-٩ .

أولاً: زينون الإيلي (٤٩٠-٤٣٠ق.م):

يذهب جمهرة[(١)] من مؤرخي الفلسفة اليونانية إلى أن زينون الإيلي هو مخترع الجدل، مشايعين في ذلك أفلاطون وأرسطو، والصحيح أن يقال: إن زينون هو أول من وضع علم الجدل في صيغة فنية، أي وضعه في أساليب معينة، صار بها علماً من العلوم الآلية في بلاد اليونان.[(٢)]

يقول **رسل** : «والواقع أن زينون كان أول من استخدم الحجة الجدلية بطريقة منهجية، وكان لهذه الحجة دور عظيم الأهمية في الفلسفة، وقد اقتبسها سقراط وأفلاطون من الإيليين وطوراها بطريقتهما الخاصة... »[(٣)].

وقد تصدى زينون للدفاع عن مذهب معلمه بارمنيدس (٥٤٠ـ ق.م) في الواحد الثابت، محاولاً إبطال القول بالكثرة والحركة، الذي هو مذهب[(٤)] الفيثاغوريين[(٥)] مستعملاً في ذلك برهان الخُلْف؛ وهو أن يُسلم لهم بصحة قضاياهم، ثم يبين لهم ما يترتب على هذا التسليم من خلف وتناقض.[(٦)]

---

(١) انظر : المنهج الجدلي عند هيجل ـ د. إمام ص : ٥٢ ، والفلسفة الأغريقية ـ د. غلاب ص : ٩٥، وتاريخ الفلسفة اليونانية د. كريم متى ص : ١٠٩ ، وقصة الفلسفة اليونانية أحمد أمين ـ زكي نجيب ص: ٤٩ ، وتاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ص : ٣٢ .

(٢) انظر : الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ص: ٣٢، وقصة الفلسفة اليونانية ـ أحمد أمين ـ زكي نجيب ص: ٤٩.

(٣) حكمة الغرب ـ الجزء الأول ـ برتراند رسل ص : ٧٨.

(٤) انظر : الفلسفة اليونانية ـ شارل فريز ص : ٣٩ وتأريخ الفلسفة اليونانية ـ كرم ص : ٣١ .

(٥) الفيثاغوريون : هم المنتسبون إلى فيثاغورس (٥٧٠-٤٩٧ق.م) وهو إغريقي أيوني، أسس فرقة دينية سياسية فلسفية، ويروى أنه هو الذي وضع لفظة "فلسفة"، الأشياء عندهم أعداد، والعدد شكل وليس برقم، فالواحد نقطة، والاثنان خط، والثلاثة مثلث وهكذا. ومن ثم فالأشياء أعداد أي أشكال، والعدد الكامل عندهم عشرة. انظر : الموسوعة الفلسفية ـ الحفني ص : ٣٥٣-٣٥٤ .

(٦) انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية ـ كرم ص :٣١ والمنهج الجدلي عند هيجل ص : ٥٣ والفلسفة الإغريقية ـ د. غلاب ص: ٩٥-٩٦ وحكمة الغرب ٧٩/١.

وزعم زينون أنه أقام أربعة براهين في إثبات وحدة الوجود وإبطال الكثرة والتعدد، وأربعة أخرى في أثبات سكون الأشياء ونفي الحركة. وأختار هنا مثالاً واحداً لكل نوع ، مع ذكر جوابه:

مثال لإثبات وحدة الوجود وإبطال التعدد(١):

إذا أتينا (بكيلة) من القمح، ثم بذرناها، فإنها ستحدث صوتاً، ولكنا إذا بذرنا الحبة الواحدة من القمح، فإنها لا تحدث صوتاً، فكيف تسنّى إذن أن ينتج شيء كلي -هو الصوت هنا- من أشياء لا وجود لها،معنى هذا أنه إذا كانت الأشياء متعددة، فلا يمكن أن تنتج شيئاً ما دامت الوحدات المتركبة منها لا تنتج وحدها شيئاً. وعلى هذا فالوجود ما دام لا ينتج شيئاً فإنه ليس متعدداً. إذن فالوجود واحد.

الجواب عن هذا الدليل(٢):

هذا الدليل مبني على أن الحبة الواحدة لا تحدث صوتاً عند البذر، لكنها تحدث صوتاً وإن كان ضعيفاً، وباجتماع هذه الأصوات الضعيفة لحبات القمح يتكون صوت كبير هو صوت كيلة القمح حين تبذر. ثم إنه لو سلمنا جدلاً: أن الحبة منفردة لا تحدث صوتاً، فإنه لا يمتنع في حكم العقل أن تحدث بانضمامها إلى غيرها صوتاً؛ لأن حكم الاجتماع غير حكم الانفراد.

---

(١) انظر: ربيع الفكر اليوناني ـ عبد الرحمن بدوي ص: ١٢٨ والفلسفة اليونانية ــ يوسف كرم ص: ٣١.

(٢) انظر: ربيع الفكر ـ بدوي ص : ١٣٢ .

مثال لإثبات السكون ونفي الحركة[١]:

سلحفاة تقدمت عشرة أمتار ثم تحرك رجل مسابقاً لها، وكانت سرعته عشرة أمثال سرعة السلحفاة، فلما بدأ وقطع العشرة أمتار التي تفصله عن السلحفاة وجد أنها قد تقدمت متراً - أي عشر المسافة التي قطعها هو - فلما قطع هذا المتر كانت السلحفاة قد تقدمت عشر المتر فإذا قطع هذا العشر تكون قد تقدمت جزءاً من مائة جزء من المتر، وهكذا إلى ما لانهاية، فلو ظلا أبد الدهر فلن يلحق الرجل بالسلحفاة.

الجواب عن هذا الدليل[٢]:

التقسيم في الواقع إلى ما لا نهاية له من الأجزاء ممتنع، وأيضاً القول بأن المكان ينقسم إلى ما لا نهاية له من الأقسام يستلزم القول بأن الزمن الذي يتم فيه التحرك طول هذه المسافة المكانية لا بد أن ينقسم إلى ما لا نهاية له من الأقسام. وعليه لا يصح القول بأن ما لا نهاية له من النقط يقطع في زمن نهائي. فإذا سلمنا بأن المكان ينقسم إلى ما لا نهاية له من النقط، فعلينا لزاماً أن نسلم - أيضاً - بأن الزمن ينقسم إلى ما لا نهاية له من النقط ، فما يقطع في مكان لا نهائي، فهو سيقطع في زمن لا نهائي.

ولاريب أن إنكار التعدد والحركة في الوجود مغالطة كبرى ومعاندة شنيعة؛ فإن ذلك مناقض لبدائه العقل والحس والشرع.

---

(١) قصة الفلسفة اليونانية ــ أحمد أمين ص : ٤٧ ، والفلسفة الأغريقية ــ غلاب ص : ٩٧ ، وربيع الفكر - بدوي ص: ١٢٩، والفلسفة اليونانية - يوسف كرم ص :٣١-٣٢ .

(٢) انظر : ربيع الفكر اليوناني - بدوي ص : ١٣٣-١٣٤ .

ثانياً: السوفسطائيون:

تعاظم التنافس بين أفراد المجتمع اليوناني بعد خروج الفرس من أراضيهم، وشيوع الحرية السياسية (الديموقراطية) فازدادت أسباب التنازع أمام المحاكم الشعبية، وشاع الجدل القضائي والدفاعي والسياسي ، فنشأت الحاجة إلى تعلم الخطابة وأساليب المحاجة واستمالة الجمهور.ووجد فريق من المثقفين المجال واسعاً لاستغلال مواهبهم، فانقلبوا معلمي بيان وخطابة وجدال ومحاجة؛ يتنقلون لتقديم دروس تعليمية على أساس احترافي يتقاضون مقابلها أجوراً. فقصدهم الشباب اليوناني من كل حدب وصوب، طالبين التمكن من القدرة على البيان والخطابة والجدال والمحاجة.

فعُرف هؤلاء المعلمون بالسوفسطائيين، وقد كان اسم (سوفيست) يدل في أصله الأول على المعلم في أي فن كان، لاسيما في البيان والفصاحة، ثم لحقه التحقير في عهد سقراط وأفلاطون؛ لأن السوفسطائيين كانوا مجادلين مغالطين متجرين بالعلم، وقد كانوا يفاخرون بتأييد القول الواحد ونقيضه على حد سواء، إذ لا يبحثون عن الحقيقة، بل عن وسائل الإقناع والتأثير الخطابي، مستعملين في ذلك الألفاظ المجازية، والعبارات المحتملة لأكثر من وجه، والخطب الرنانة، قاصدين كسر الخصم وإبطال حجته، والتفوق عليه جدالاً ومحاجة.(١)

---

(١) انظر : قصة الفلسفة اليونانية ـ أحمد أمين ـ زكي نجيب ص : ٩١-٩٥ ، وتاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ص : ٤٥-٤٦ .

أسس مذهب السوفسطائيين[(١)]:

أولاً: الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة ولا شيء وراء ذلك.

ثانياً: الإنسان مقياس الحق والباطل، والصواب والخطأ، والفضيلة والرذيلة، والخير والشر ونحو ذلك من المتقابلات.

ثالثاً: هذه المتقابلات أمور نسبية، تختلف باختلاف الأشخاص، وباختلاف أحوال الشخص الواحد.

رابعاً: ليست هناك حقيقة مطلقة، ولا علم عام، ولا حكم شامل، ولا قانون مطرد.

والحق أن السفسطة حالة نفسية قد تعرض لبعض الناس بسبب عناده ومكابرته، وليست هي وضعاً يدوم للإنسان في كل أحواله، فإن هذا أمر لا يمكن وقوعه ولا التزامه؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن الناقلين للمقالات وأهل الجدل صاروا يعبرون باللفظة المعربة من"سوفسقيا" وهي"سوفسطا" عن هذا المعنى الذي يتضمن إنكار الحق، وتمويهه بالباطل، وظن من ظن أن هذا قول ومذهب عام لطائفة في كل حق؛ وليس الأمر كذلك؛ وإنما هو عارض لبني آدم في كثير من أمورهم، فكل من جحد حقاً معلوماً وموّه ذلك بباطل فهو مسفسط في هذا الموضع، وإن كان مقرا بأمور أخرى، وهو معاند سوفسطائي إذا علم ما أنكره، قال تعالى وتقدس:

---

(١) انظر : قصة الفلسفة اليونانية ـ أحمد أمين ـ زكي نجيب ص : ٩٦-٩٩ ، والفلسفة اليونانية ـ د. كريم متى ص : ١١٠-١١٢ ، وتاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ص : ٤٦-٤٧ .

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[سورة النمل: ١٤] فهؤلاء سوفسطائيون في هذا الجحود، وإن كانوا مقرين بأمور أخرى، وقال تعالى وتقدس: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[سورة الأنعام: ٣٣]؛ ولهذا كان جمهور من كذب بالحق الذي بعث به رسله من ذوي [التمييز][(١)] هم من الجاحدين المعاندين، وهم شر من [السوفسطائيين][(٢)] »[(٣)].

ثالثاً: سقـــراط:

جاء سقراط فأفسد على السوفسطائيين طريقتهم في الجدل، ووضع أسساً جديدة لفن الحوار والجدل، تقوم على مناقشة المقدمات والآراء السائدة، والتي تستنبط منها النتائج، ويبحث مع محاوريه ــ دون ملل ــ عن التعريف الحقيقي للأشياء،[(٤)] أي عن التعريف الذي يعبر عن ماهية المعرَّف، وقد اعترف أرسطو لسقراط بأنه كان يبحث عن جوهر الأشياء مستخدماً القياس.[(٥)]

---

(١) في الأصل : [التميز] ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) في الأصل : [السوفسطائين] بياء واحدة ، والصواب ما أثبته .

(٣) بيان تأسيس الجهمية ٣٢٤/١ ، وانظر ٣٢٢/١ وانظر أنواع السفسطة في الصفدية ـ ابن تيمية ٩٧/١

(٤) انظر : المنطق الحديث ـ د. محمود قاسم ص : ١٤-١٥، والمنطق والفكر الإنساني ـ عبد السلام عبده ص: ١٠ـ ١١ ، وتاريخ الفلسفة اليونانية ص : ٥٢.

(٥) انظر : المنطق الحديث لمحمود قاسم ص: ١٤-١٥، وتأريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص: ٥٢-٥٣.

كان سقراط يرى أن لكل شيء طبيعة أو ماهية هي حقيقته، يكشفها العقل وراء العوارض المحسوسة، ويعبر عنها بالحد، وأن غاية العلم إدراك الماهيات، وكان يستعين بالاستقراء، ويتدرج من الجزئيات إلى الماهية المشتركة بينها، ويرد كل جدل إلى الحد والماهية، فكان يسأل ما الخير وما الشر، وما العدل وما الظلم، وهكذا...فكان يجتهد في وضع حد (تعريف) للألفاظ والمعاني بشكل جامع ومانع، ويصنف الأشياء في أجناس وأنواع حتى يمتنع الخلط بينها، في حين كان السوفسطائيون يستفيدون من الاشتراك في الألفاظ، والإيهام في المعاني، ويتهربون من الحد الذي يكشف المغالطة. وقد وضع سقراط بهذا المنهج أصلاً من أصول المعرفة في المنطق، وهو الحد[1].

منهج سقراط في الجدل:

يقوم منهج سقراط في الجدل على مرحلتين:

الأولى: مرحلة التهكم ، وفيها يتصنع سقراط الجهل، ويتظاهر بالتسليم لأقوال مخالفيه، ثم يلقي عليهم الأسئلة ويعرض الشكوك، شأن من يطلب العلم والاستفادة، ثم ينتقل من أقوالهم إلى أقوال لازمة منها، لكنهم لا يسلمونها فيوقعهم في التناقض، ويحملهم على الإقرار بالجهل؛ فساعتها يتهكم منهم ويسخر، ويبدي للناس خطأهم وتناقضهم، فيثير ثائرتهم ويخرجهم عن طورهم، فتزداد حجتهم ضعفاً، ويكثر في منطقهم الاضطراب

(١) انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ص : ٥٢-٥٣ .

والتناقض، وحينها لا يسعهم إلا التسليم بما يقوله سقراط، فيكون قد نجح -كما يرى ــ في انتزاع الأباطيل من نفوسهم وهي غايته من السخرية والتهكم؛ ولهذا يقول: «إن السخرية هي التي تخلصنا من الخطأ، وتعد عقولنا لقبول المعرفة، وإنها هي أمضى سلاح للقضاء على الأباطيل والأضاليل»(١).

الثانية: مرحلة التوليد ، وفيها يساعد مخالفيه ــ كما يزعم ــ بالأسئلة والاعتراضات مرتبة ترتيباً منطقياً للوصول إلى الحقيقة التي أقروا أنهم يجهلونها، فيصلون إليها وهم لا يشعرون، ويحسبون أنهم استكشفوها بأنفسهم. فهذا هو التوليد، وهو استخراج الحقيقة من النفس، وقد كان سقراط يقول إنه يحترف صناعة أمه، وكانت قابلة، إلا أنه يولد نفوس الرجال.(٢)

ومنهج سقراط هذا قد يصلح مع المعاند المتفلت بعد الإعذار له، والإياس منه، ومع من رفض الإذعان للحق والخضوع للدليل؛ لأنه لا ينبغي التهكم والسخرية من الخصم ابتداءً، بل الحق غاية شريفة، ولا يطلب إلا بأشرف الوسائل وأطيبها، على ما سأبينه في الفصل الخاص بآداب الجدل.

---

(١) انظر : الفلسفة الإغريقية ـ غلاب ص : ١٧٠ والفلسفة، كرم ص : ٥٢ والمنهج الجدلي عند هيجل ص: ٦٤، ٦٥ وقصة الفلسفة اليونانية ــ أحمد أمين ــ زكي محمود ص : ١٠٩-١١٠.

(٢) انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ص : ٥٢ .

رابعاً: أفـــلاطون:

طريقـة[١] أفلاطـون في الجـدل كطريقـة أستاذه سـقراط، تهـدف إلى دحض الخصم بجره إلى الوقـوع في التنـاقض[٢]. والجـدل عنـد أفلاطـون ذو علاقة وثيقة بنظريته في المثل وهي: أن الوجـود الحقيقـي يكـون لعـالم المثـل، الذي هو عبارة عن ماهيات عقلية ثابتة كاملة من كل وجه، وأن ما يقابلهـا في عالم الحس ما هو إلا أشباح ومحاكاة لها. وعليه؛ فمعرفة الأشياء كامن في النفوس، وما على الإنسان إلا محاولة التذكر، فالعلم تذكـر والجهـل نسـيان، فالعلم كالإحساس الحاضر ينبـه في الذهـن مـا اقـترن بـه في المـاضي، كتذكُّر الصديق عند رؤية صورته، والتجربة الحسية ما هي إلا فرصـة ملائمـة لعـودة المعنى الكلي إلى الذهن.[٣]

والوصول إلى عالم المثل لا يمكن إلا عن طريـق الجـدل، والجـدل عنـده نوعان : **جدل صاعد** ، **وجدل هابط** :[٤]

---

(١) انظر: المنطق الحديث ـ محمود قاسم ص : ١٦

(٢) التناقض: تقابل بين الإيجاب والسلب في حدين أو قضيتين تحتويان على عنصريـن لا يجتمعـان ولا يرتفعان ولا وسط بينهما، ومثال النقيضين : الموت والحيـاة، والوجـود والعـدم . انظـر : المعجم الفلسفي (مجمع اللغة العربية) ص : ٥٥ ، والمعجم الفلسفي ـ صليبا ١/٣٤٩-٣٥١ .

(٣) انظر: تأريخ الفلسفة الغربيـة ــ رسـل ١/٢٠١ ، والفلسـفة اليونانيـة ــ كـرم ص : ٦٩ ومـا بعدها، والمنهج الجدلي عند هيجـل ــ د. إمـام ص : ٦٨ ، والمعجـم الفلسـفي ــ مجمـع اللغـة العربية ص: ١٧٠.

(٤) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية ـ كرم ص: ٦٩ وما بعدها، والمنهـج الجـدلي عنـد هيجـل ص: ٧٠ والموسوعة الفلسفية ـ عبد المنعم حفني ص: ١٥٣، والمعجـم الفلسـفي (مـجْمع اللغـة) ص: ٦٠.

أما الجدل الصاعد، فيتم بملاحظة الجزئيات، ثم الارتفاع إلى الطبيعة العقلية العامة التي تربط بينها، أي أنه يرتفع من خلال الكثرة الحسية إلى الوحدة العقلية التي تشملها وتفسرها، ومنها إلى معقولات أعلى منها، وهكذا يستمر في ارتفاعه من الأفراد إلى الأنواع إلى الأجناس حتى يصل في النهاية إلى جنس الأجناس، إلى فكرة هي أعم الأفكار جميعها، وأكثرها حقيقة، وأعلاها مقاماً، وهي مثال الخير.

وأما الجدل الهابط: فهو تكملة للعملية السابقة، بحيث يهبط فيها الفكر من الأجناس العالية إلى الأنواع التي تندرج تحتها، ثم إلى الأفراد التي يشملها كل نوع.

والجدل عند أفلاطون ـ في هذا الجانب ـ منهج يستخدم المعاني لا الحواس، فهو ينتقل من معنى إلى معنى بواسطة معنى[1]. وقد يكون بين اثنين فأكثر، وقد يكون بين الشخص ونفسه[2].

خامساً: أرسطو:

الجدل عند أرسطو ذو علاقة وثيقة بمنطقه العام، بل هو نوع من القياس، وإن لم يكن ـ عنده ـ يقينياً، إذ أن مقدماته محتملة تعتمد الآراء الذائعة عند الجمهور أو الفلاسفة.[3] وكتاب الجدل هو الكتاب الخامس من كتب

---

(١) انظر: المنهج الجدلي عند هيجل ص: ٧١.

(٢) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم ص: ٦٩.

(٣) انظر: منطق أرسطو ـ طوبيقا ـ تحقيق بدوي ٢/٤٦٩ـ٤٧٠، ومقدمة شرح المقاصد ـ عميرة ص: ٤٩، والمعجم الفلسفي (مجمع اللغة) ص: ٦٠ ، وتأريخ الفكر الفلسفي ـ أبو ريان ٢/٥٧، والموسوعة االفلسفية ـ الحفني ص: ١٥٣.

أرسطو المنطقية، ولما كان الاستدلال ـ عنده ـ إما برهانياً صادراً عن مبادئ كلية يقينية ومؤدياً للعلم، وإما جدلياً مركباً من مقدمات ظنية، وإما سوفسطائياً مؤلفاً من مقدمات كاذبة تحتوي على النتيجة ظاهرياً لا حقيقياً، ألف أرسطو ثلاثة كتب:

١- كتاب التحليلات الثانية، وهو يتحدث عن البرهان، أي القياس الذي ينتج اليقين، وكيف أنه يستند إلى مقدمات صادقة أولية.

٢- كتاب الجدل وهو القياس المستند إلى مقدمات محتملة.

٣- كتاب السفسطة وهو القياس المؤلف من مقدمات كاذبة، والسفسطة فاسدة عند أرسطو، لكنه ألف فيها للتحذير منها.

فالقياس الجدلي يتفق مع البرهاني في أنه استدلال صحيح، ويختلف عنه في أن مقدماته محتملة لا تفيد اليقين، ولا يتفق مع السوفسطائي في شيء؛ لأن الأخير يستند إلى قضايا مموهة[(١)].

وأرسطو لا يستعمل الجدل من أجل الوصول إلى معارف يقينية، بل المقصود منه أحد أمرين أو كلاهما[(٢)]:

الأول: إلزام الخصم وإفحامه.

الثاني: إيقاع الظن القوي في رأي قُصد تصحيحه حتى يوهم أنه يقيني؛ ولهذا أطلق المتأخرون من فلاسفة اليونان لفظ الجدل على معنيين[(٣)]:

---

(١) انظر: طوبيقا ٢/٤٧٠، والمنطق وطرائق العلم ـ صليبا ص: ٥٩ـ٦٠، ومقدمة ابن خلدون ص: ٤٦٢-٤٦٣، والفلسفة اليونانية ـ كرم ص: ١١٩.

(٢) انظر: المعجم الفلسفي ـ صليبا ٣٩٣/١، ورسالة آداب البحث ـ مكي ص: ٦

(٣) انظر : المعجم الفلسفي ـ صليبا ٣٩٣/١ ، وابن حزم ومنطق أرسطو ـ سالم يفوت ص : ٣١٧ .

الأول: القدرة على الاستدلال الصحيح، حتى قيل في الجدل: إنه إجادة السؤال والجواب، لا بلوغ المطلوب(١).

الثاني: المراء المتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، والتفنن في إيراد الحجج وسوقها، وإن لم تكن صحيحة.

والقضية الجدلية عند أرسطو: تساؤل يتعلق برأيين يعطي المحاور الاختيار في الإجابة بنعم أو لا(٢).

وتقوم صناعة الجدل عند أرسطو على ثلاثة أمور(٣):

الأول: معرفة الأقاويل التي تلتئم منها المخاطبة الجدلية، وأجزائها، وأجزاء أجزائها، إلى أبسط ما تتركب منه.

الثاني: معرفة المواضع التي تستنبط منها المقاييس في إثبات الشيء أو إبطاله في جميع المطالب .

الثالث: معرفة كيفية إيراد السؤال والجواب، وعلى كم نحو يكونان.

وكما هو حال الجدل اليوناني قاطبة، فالجدل الأرسطي يهدف إلى الحذر من الوقوع في التناقض، والدفاع عن النتيجة الموجبة أو السالبة(٤). **ولعلّ** هذه الغاية هي التي تمنع صاحبها عن بلوغ الصواب وعن إصابة الحق؛

---

(١) انظر: تلخيص كتاب الجدل لأرسطو ـ ابن رشد ص: ٢٩ـ٣٠، والمعجم الفلسفي ـ صليبا ٣٩١/١.

(٢) انظر: ابن حزم ومنطق أرسطو ـ سالم يفوت ص: ٣١٧.

(٣) انظر: تلخيص كتاب الجدل لأرسطو ـ ابن رشد ص: ٣٠ .

(٤) انظر: منطق أرسطو ـ طوبيقا ٤٦٩/٢، وتاريخ الفلسفة اليونانية ـ كرم ص: ١٣٠، وتأريخ الفكر الفلسفي ـ أبو ريان ٥٧/٢.

لأن الحذر من الوقوع في التناقض قد يؤدي إلى التزام اللوازم الفاسدة، والاسترسال في ذلك، وتغليب حظ النفس على بلوغ الحق والتزام الصواب .

فوائد الجدل عند أرسطو:

وللجدل عند أرسطو ثلاث فوائد(١):

الأولى: كونه رياضة عقلية.

الثانية: كونه منهجاً يستطيع العالم والجاهل أن يمتحن بموجبه مدعي العلم، ويفيد في مناظرة الجمهور في العلوم النظرية، ومقابلة السوفسطائي الذي يغالط في مبادئ العلوم.

الثالث: كونه يساعد على الكشف عن المبادئ الأولية في أي علم من العلوم وذلك ببحث الآراء العامة، وآراء العلماء في موضوع ذلك العلم.

---

(١) انظر : منطق أرسطو ـ طوبيقا ٢/ ٤٧٢ ، وتلخيص كتاب الجدل لأرسطو ـ ابن رشد ص : ٣١-٣٢، وتاريخ الفلسفة اليونانية ـ كرم ص:١٣٠ ، وابن حزم ومنطق أرسطو ـ يفوت ص : ٣١٨ ، والموسوعة الفلسفية ـ الحفني ص : ١٥٣ ، وتأريخ الفكر الفلسفي ـ أبو ريان ٥٧/٢ .

تعريف المنطق الأرسطي وبيان موقف المسلمين منه

أولاً: تعريف المنطق الأرسطي

يزعم أصحاب المنطق أن النطق نوعان : ظاهر وباطن، والظاهر هو الألفاظ والكلام، وتقويمه إنما يكون بالنحو في النثر وبالعروض في الشعر، وأما الباطن فهو عمل العقل وفكره، وتقويمه إنما يكون بالمنطق الاصطلاحي(١).

والمشهور عندهم أنه: آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر، أو أن يزل في تفكيره(٢). وقريب من ذلك تعريف ابن سينا في كتاب النجاة(٣) وهو أنه «الآلة العاصمة للذهن عن الخطأ فيما نتصوره ونصدق به، والموصلة إلى الاعتقاد الحق بإعطاء أسبابه ونهج سبله».

ويزعمون أن هذه الآلة موجودة في العقل بالغريزة؛ ولهذا سبق استعمالُها تدوينها(٤).

---

(١) انظر: حاشية الجرجاني على تحرير القواعد المنطقية ـ محمود الرازي ص: ١٨، والمنطق المنظم في شرح الملوي على السلم ـ عبد المتعال الصعيدي ص:١١، والمنطق والفكر الإنساني ـ عبد السلام عبده ص :٥.

(٢) انظر: تحرير القواعد المنطقية للرازي ص: ١٦-١٨، والتعريفات للجرجاني ص: ١٢١، والرد على المنطقيين لابن تيمية ص: ٧ .

(٣) ص: ٣ .

(٤) انظر: تجديد علم المنطق في شرح الخبيصي ـ الصعيدي ص: ٣.

وجاء أرسطو ليتمم جهود من سبقه من الفلاسفة، لا سيما سقراط وأفلاطون فيما أسماه بالتحليلات، وهي المنطق(١) فقعّد له وحدّد مصطلحاته، ورتب مسائله وفصوله، فنسب المنطق إليه نسبة صياغة وإظهار، لا ابتداء واختراع(٢) يقول ابن خلدون: «وتكلم فيه ـ أي المنطق ـ أول ما تكلموا به جملاً جملاً، ومفترقاً، ولم تهذب طرقه، ولم تجمع مسائله حتى ظهر في يونان أرسطو، فهذب مباحثه ورتب مسائله وفصوله، وجعله أول العلوم الحِكمية وفاتحتها؛ ولذلك يسمَّى بالمعلم الأول(٣)». ولهذا قالوا(٤): نسبة المنطق إلى الفكر كنسبة النحو إلى الكلام، والعروض إلى الشعر، وما مقام أرسطو إلا كمقام سيبويه(١٨٠هـ) والخليل بن أحمد (١٧٠هـ) قال صاحب السلم (٩٨٣هـ):

وبعد فالمنطق للجنان نسبته كالنحو للسان(٥)

فـ «النحو منطق عربي، والمنطق نحو عقلي، وجلّ نظر المنطقي في المعاني، وإن كان لا يجوز له الإخلال بالألفاظ التي هي لها كالحُلل

---

(١) أول من أطلق اسم المنطق على هذا الفن هم شراح أرسطو، وليس أرسطو نفسه.انظر: المعجم الفلسفي ـ صليبا ٤٢٨/٢.

(٢) انظر : الملل والنحل ١١٩/٢-١٢٠، والمعجم الفلسفي ـ صليبا ٤٢٨/٢ ، تجديد علم المنطق ـ الصعيدي ص: ٣-٤.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص: ٤٦٢.

(٤) انظر : النجاة لابن سينا ص: ٥ ، والمقابسات لأبي حيان التوحيدي ص: ١٦٩ وما بعدها

(٥) إيضاح المبهم من معاني السلم ـ الدمنهوري ص: ٤.

والمعارض، وجلّ نظر النحوي في الألفاظ، وإن كان لا يسوغ له الإخلال بالمعاني التي هي لها كالحقائق والجواهر...[(١)]».

ويقال: إن المنطق الأرسطي يبحث في صورة الفكر دون مادته، وغايته معرفة تقابل الفكر مع نفسه، وخلوه من التناقض، وهي نفس غاية الجدل اليوناني، لا سيما عند سقراط وأفلاطون؛ ولهذا سمي منطق أرسطو بالمنطق الصوري، يعني أنه يهتم بصورة الفكر دون مادته، وقيل: لأنه يغلب صورة الفكر على مادته[(٢)].

ثانياً: موقف المسلمين من المنطق الأرسطي:

حكم الاشتغال بالمنطق:

المسائل التي لا تتمحض للصحة والفساد، بل يكون أمرها مختلطا، بحيث تشتمل على ما هو حق، و على ما هو باطل؛ فالحكم عليها: صحة أو فساداً، قبولاً أو رداً، جوازاً أو تحريماً، إنما يكون تبعاً لحكم الغالب عليها من مادة الخير أو الشر، الحق أو الباطل: فأي المادتين غلبت حكم بمقتضاها. والمنطق من هذا النوع، قد اختلط فيه الحق بالباطل، فمن رأى ما فيه من الحق حكم بجواز الاشتغال به، وقد يوجبه. ومن رأى ما فيه من الباطل حكم بتحريم الاشتغال به.

---

(١) المقابسات ـ للتوحيدي ص: ١٧٠.

(٢) انظر : التفكير المنطقي ـ العبد ص: ١٩ وتاريخ الفلسفة اليونانية ـ كرم ص: ٥٢ وأسس المنطق الصوري ـ د. محمد أبو ريان ص: ١١ وما بعدها ، والمنطق الصوري ـ د. بدوي ص: ٧-٩.

إذا عرف هذا، فالناس في حكم الاشتغال بالمنطق على ثلاثة مذاهب، يصورها صاحب السلم في قوله[1]:

والخلف في جواز الاشتغال ... به على ثلاثةٍ أقوال
فابن الصلاح والنواوي حرما ... وقال قوم ينبغي أن يعلما
والقولة المشهورة الصحيحة ... جوازه لكامل القريحة
ممارس السنة والكتاب ... ليهتدي به إلى الصواب

وسأعرض المذاهب على النحو التالي:

المذهب الأول: وهو القول بوجوبه، قال بذلك من يُسَمَّوْن بالفلاسفة الإسلاميين، من أمثال: الكندي (٢٦٠هـ) والفارابي (٣٣٩هـ) وابن سينا ونحوهم؛ وهؤلاء لا منافاة عندهم بين المنطق والإسلام، وهم معدودون من أهل الزندقة والإلحاد[2].

ويبدو أن ابن حزم الأندلسي ممن يذهب إلى القول بوجوبه، فقد ألف فيه كتابه: **التقريب لحد المنطق**[3]، وصدره بقوله: «رأينا الناس فيها ـ أي كتب أرسطو المنطقية ـ على ضروب أربعة: الثلاثة منها خطأ بشيع، وجور شنيع، والرابع: حق مهجور، وصواب مغمور، وعلم مظلوم، ونصر المظلوم

---

(١) إيضاح المبهم في معاني السلم ص : ٥ .

(٢) انظر : فتاوى ابن الصلاح ص : ٣٤ ، ومعيد النعم ومبيد النقم ـ السبكي ص : ٧٧ ، وتجديد علم المنطق ـ الصعيدي ص : ٥-٦ .

(٣) التقريب لحد المنطق ص : ٦ .

فرض وأجر» ثم قال: «إن منفعة هذه الكتب ليست في علم واحد فقط، بل كل علم. فمنفعتها في كتاب الله عز وجل وحديث نبيه ﷺ وفي الفتيا في الحلال والحرام، والواجب والمباح من أعظم منفعة». ثم قال: «وليعلم العالمون أن من لم يفهم هذا القدر فقد بعد عن الفهم عن ربه (تعالى) وعن النبي ﷺ ولم يجز له أن يفتي بين اثنين بجهله بحدود الكلام، وبناء بعضه على بعض، وتقديم المقدمات، وإنتاجها النتائج التي يقوم بها البرهان... »[(١)].

وينسب - أيضاً - القول بالوجوب إلى أبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ)، وذلك في المقدمة المنطقية التي ذكرها في بداية كتابه المستصفى، وذكر أنها ليست خاصة بأصول الفقه، بل هي مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلاً[(٢)]. وبعض شراح السلم حمل عبارة الغزالي على أن مراده الاستحباب[(٣)] وقال الباجوري (١٢٧٧هـ) معلقاً عليها: «فمحمول على أنه لا يوثق بعلمه الوثوق التام، وهو محمول - أيضاً - على من لم يستغن عنه بجودة الذهن وصحة الطبع»[(٤)].

ويرى شراح السلم - أيضاً - أن علم المنطق قسمان:

---

(١) التقريب لحد المنطق ص : ٩، ١٠.

(٢) انظر : المستصفى ١/١٠ .

(٣) انظر : حاشية الباجوري ص : ٢٥-٢٦ ، وشرح الأخضري على السلم ص : ٢٣ (بذيل إيضاح المبهم).

(٤) حاشية الباجوري ص : ٢٦

أحدهما: ما هو خال عن ضلالات الفلاسفة المكفرة وغيرها، وهو الذي هذبه بعض علماء المسلمين، ومنهم صاحب السلم وشراحه، وهذا القسم لا خلاف فيه ـ عندهم ـ في جواز الاشتغال به، بل هو فرض كفاية؛ لأنه يتوقف عليه رد الشكوك في علم الكلام وهو فرض كفاية، وما يتوقف عليه فرض الكفاية يكون فرض كفاية، ويكون ذلك في حق من لم يستغن عنه بجودة الذهن وصحة الطبع، ولذلك لم يحتج إليه الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون وأصحابهم.

والثاني: ما ليس خالياً عن تلك الضلالات، كالمذكور في كتب المتقدمين، وهذا الذي فيه الخلاف.[1]

أما الغزالي، فقد رجع عن قوله كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[2]، وذلك في كتابه: **المنقذ من الضلال**[3] أو على الأقل رجع عن تطبيقه في الشرعيات كما هو واضح من عبارته في الكتاب المذكور، حيث يقول: «أما المنطقيات: فلا يتعلق شيء منها بالدين نفياً وإثباتاً، بل هو النظر في طرق الأدلة والمقاييس، وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه، وأن العلم إما تصور وسبيل معرفته الحد، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان، وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر،

---

(١) انظر: حاشية الباجوري ص: ٢٤-٢٥

(٢) انظر: الرد على المنطقيين ص: ١٩٥، ١٩٨.

(٣) انظر: ص: ٩١-٩٣.

بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة، وإنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات وبزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات؛ ومثال كلامهم فيها قولهم: إذا ثبت أن كل أ : **ب** لزم أن بعض **ب** : أ، أي إذا ثبت أن كل إنسان حيوان، لزم أن بعض الحيوان إنسان، ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية. وأي تعلق لهذا بمهمات الدين حتى يجحد وينكر ؟! فإذا أنكر لم يحصل من إنكاره عند أهل المنطق إلا سوء الاعتقاد في عقل المنكر، بل في دينه الذي يزعم أنه موقوف على مثل هذا الإنكار.

نعم، لهم نوع من الظلم في هذا العلم، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يُعلم أنها تورث اليقين لا محالة، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط، بل تساهلوا غاية التساهل، وربما ينظر في المنطق ـ أيضاً ـ من يستحسنه ويراه واضحاً: فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية، فهذه آفة ـ أيضاً ـ متطرقة إليه»[(١)] .

فواضح من كلامه أنه يرى المنطق آلة قانونية من تلك التي يتوصل بها إلى إيضاح بعض القضايا، وأنه بهذا الاعتبار علم صحيح لا ينكر مطلقاً، بل إنكاره يؤدي إلى الطعن في عقل المنكر ودينه؛ لأنه إنكار لأمور صحيحة مسلمة، لكن أهل المنطق قد ضلوا في باب الإلهيات حين بنوها على هذه

---

(١) المنقذ من الضلال ص :٩١-٩٣ .

القواعد المنطقية؛ ولهذا يقول الغزالي رحمه الله: «وأما الإلهيات ففيها أكثر أغاليطهم، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق، ولهذا كثر الاختلاف بينهم فيها»(١) ويقول أيضاً: «فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني وفي الإلهيات تخميني». ولهذا صنف الغزالي في تكفير الفلاسفة كتابه **تهافت الفلاسفة**(٢) وأشار إلى تكفيرهم في غيره من كتبه **كالمنقذ من الضلال**(٣) **وفيصل التفرقة**.(٤) ويلزم من كلام الغزالي عدم الإنكار على من أعرض عن المنطق مستغنياً بجودة عقله وصحة تفكيره.

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن المنطق وعمن قال: إنه فرض كفاية، مصيب أم مخطئ؟... فأجاب رحمه الله: «الحمد لله، أما المنطق فمن قال: إنه فرض كفاية وأن من ليس له به خبرة فليس له ثقة بشيء من علومه، فهذا القول في غاية الفساد من وجوه كثيرة التعداد، مشتمل على أمور فاسدة ودعاوٍ باطلة كثيرة لايتسع هذا الموضع لاستقصائها. بل الواقع قديماً وحديثاً أنك لا تجد من يلزم نفسه أن ينظر في علومه به، ويناظر به إلا وهو فاسد النظر والمناظرة، كثير العجز عن تحقيق

(١) المنقذ من الضلال ص: ٩٤.

(٢) وكفرهم في ثلاث مسائل كبار، هي قولهم بقدم العالم، وإن الله لا يعلم الجزئيات، وإنكارهم بعث الأجساد. انظر: ص: ٧٥، ٨٢، ٨٨ وما بعدها، وص: ٢٠٦ وما بعدها، وص: ٢٨٢ وما بعدها من كتاب التهافت.

(٣) انظر: ص: ٨٤ وما بعدها.

(٤) انظر: ص: ١٩١-١٩٢.

علمه وبيانه. فأحسن ما يحمل عليه كلام المتكلم في هذا : أن يكون قد كان هو وأمثاله في غاية الجهالة والضلالة، وقد فقدوا أسباب الهدى كلها، فلم يجدوا ما يردهم عن تلك الجهالات إلا بعض ما في المنطق من الأمور التي هي صحيحة؛ فإنه بسبب بعض ذلك رجع كثير من هؤلاء عن بعض باطلهم، وإن لم يحصل لهم حق ينفعهم، وإن وقعوا في باطل آخر، ومع هذا فلا يصح نسبة وجوبه إلى شريعة الإسلام بوجه من الوجوه؛ إذ مَنْ هذه حاله فإنما أُتي من نفسه بترك ما أمر الله به من الحق حتى احتاج إلى الباطل.

ومن المعلوم أن القول بوجوبه قول غلاته وجهال أصحابه، ونفس الحذاق منهم لايلتزمون قوانينه في كل علومهم بل يعرضون عنها: إما لطولها، وإما لعدم فائدتها، وإما لفسادها، وإما لعدم تميزها، وما فيها من الإجمال والاشتباه؛ فإن فيه مواضع كثيرة هي لحم جمل غث على رأس جبل وعر؛ لاسهل فيرتقى، ولاسمين فينتقل[(١)]».

وقال رحمه الله في موضع آخر[(٢)]: «أما كتب المنطق فتلك لا تشتمل على علم يؤمر به شرعاً، وإن كان قد أدى اجتهاد بعض الناس إلى أنه فرض على الكفاية، وقال بعض الناس: إن العلوم لا تقوم إلا به، كما ذكر ذلك أبو حامد، فهذا غلط عظيم عقلاً وشرعاً:

أما عقلاً؛ فإن جميع عقلاء بني آدم من جميع أصناف المتكلمين في العلم حرروا علومهم بدون المنطق اليوناني.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩/ ٥-٦.

(٢) المرجع السابق ٩/٢٦٩-٢٧٠.

وأما شرعاً؛ فإنه من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن الله لم يوجب تعلم هذا المنطق اليوناني على أهل العلم والإيمان.

وأما هو في نفسه؛ فبعضه حق وبعضه باطل، والحق الذي فيه كثير منه أو أكثره لا يُحتاج إليه، والقدر الذي يحتاج إليه منه فأكثر الفطر السليمة تستقل به، والبليد لا ينتفع به، والذكي لايحتاج إليه، ومضرته على من لم يكن خبيرا بعلوم الأنبياء أكثر من نفعه، فإن فيه من القواعد السلبية الفاسدة ما راجت على كثير من الفضلاء، وكانت سبب نفاقهم، وفساد علومهم.

وقول من قال: إنه كله حق كلام باطل، بل في كلامهم في الحد والصفات الذاتية والعرضية وأقسام القياس والبرهان ومواده من الفساد ما قد بيناه في غير هذا الموضع وقد بين ذلك علماء المسلمين، والله أعلم».

وابن تيمية رحمه الله يقرر في أكثر من موضع أن ما في المنطق من حق وصواب فهو قليل، وعلى قلته يمكن الاستغناء عنه بالفطرة السليمة والعلوم الشرعية الصحيحة، بل هناك كثير من العلوم التي لا تفتقر إلى القياس المنطقي، وكثير منها لا يتوصل إليها به. فهو عديم التأثير في العلوم وجوداً وعدماً، إضافة إلى أن الخائضين في العلوم من أهل المنطق هم من أكثر الناس شكاً واضطراباً وأقلهم علماً وتحقيقاً، وأبعدهم عن تحقيق علم موزون، وإن كان فيهم من قد يحقق شيئاً من العلم، فذلك لصحة المادة والأدلة التي ينظر فيها وصحة ذهنه وإدراكه، لا لأجل المنطق، بل إدخال صناعة المنطق في العلوم الصحيحة يطوِّل العبارة، ويبعد الإشارة، ويجعل القريب من العلم بعيدا، واليسير منه عسيراً، ولهذا تجد من أدخله في الخلاف والكلام وأصول الفقه وغير ذلك، لم يفد إلا كثرة الكلام ، والتشقيق مع قلة العلم

والتحقيق[١] وما يحصل بـه لبعض الناس مـن شـحذ ذهـن، أو رجـوع عـن باطل، أو تعبير عن حق فإنما هو لكونه كان في أسوأ حال، لا لما في صناعة المنطق من الكمال، ومن المعلوم أن المشرك إذا تمجَّس، والمجوسي إذا تهوَّد حسنت حاله بالنسبة إلى ما كان فيه قبل ذلك، لكن لا يصلح أن يُجعل ذلك عمدة لأهل الحق المبين[٢].

المذهب الثاني: القول بجواز تعلمه لمن تأهل لذلك، وممن قال به عبد الوهاب السبكي(٧٧١هـ) حيث جوزه لمن استكمل معرفته بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وتمكن من فروع الفقه تمكناً يسمى معه فقيهاً يشار إليه، فإذا تيقن أنه وصل إلى هذه الرتبة بدرجة لا تزعزعها رياح الأباطيل وشبه الأضاليل وأهواء الملاحدة فله النظر فيه، واستعماله من غير أن يمزجه بعلوم الإسلام؛ وذلك لأنه حصل بهذا المزج من الضرر ما حصل.[٣]

وقال الأخضري صاحب السلم[٤]: «الصحيح جوازه لذكي القريحة، صحيح الذهن، سليم الطبع، ممارس الكتاب والسنة؛ لئلا يؤول به إلى اتباع بعض الطرق الوهمية، فيفسد المقدمات والأقيسة النظرية، فتزل قدمه في بعض الدركات السفلية، ومنه ضلت المعتزلة والقدرية وغيرهم من الطوائف البدعية، فخاضوا في ذلك حتى بدلوا وغيروا في السنة الشرعية، والملة المحمدية، فباؤوا بضلالة جلية، وجهالة غبية».

---

(١) انظر : نقض المنطق ص : ١٦٩ والرد على المنطقيين ص : ١٩٩-٢٠٠ .

(٢) انظر : نقض المنطق ص :١٧٠

(٣) انظر : معيد النعم ومبيد النقم ص : ٧٨ .

(٤) شرح الأخضري ص : ٢٣ بذيل إيضاح المبهم .

وقال الباجوري في حاشيته على متن السلم[١]: «الأصح جوازه لكامل القريحة، ممارس السنة والكتاب بخلاف غيره؛ لعدم الأمن عليه من ضلالات الفلاسفة».

إذن لماذا هذه المخاطرة ؟ وتعريض الذهن والقلب والدين للهلاك والبوار، مع غير فائدة ترجى، وقد علمت أن الصحيح منه قليل الفائدة: لا يحتاجه الذكي، ولا ينتفع به البليد، فهو كلحم جمل غث على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل.

المذهب الثالث: القول بتحريمه، وهو المذهب الصحيح الذي عليه جماهير السلف وأهل الحديث، والمتقدمون من أهل النظر من جميع الطوائف. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ما زال علماء المسلمين وأئمة الدين يذمونه ـ أي المنطق ـ ويذمون أهله، وينهون عنه وعن أهله، حتى رأيت للمتأخرين فتيا فيها خطوط جماعة من أعيان زمانهم من أئمة الشافعية والحنفية وغيرهم، فيها كلام عظيم في تحريمه وعقوبة أهله، حتى إن من الحكايات المشهورة التي بلغتنا أن الشيخ أبا عمرو بن الصلاح (٦٤٣هـ) أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبي الحسن الآمدي (٦٣١هـ)، وقال: أخذها منه أفضل من أخذ عكا[٢] مع أن الآمدي لم يكن أحد في وقته أكثر في العلوم الكلامية والفلسفية منه، وكان من أحسنهم إسلاماً وأمثلهم اعتقاداً[٣]».

---

(١) ص: ٢٥ (بتصرف).

(٢) أي من الإفرنج أيام احتلالهم بعض بلاد الشام ومصر في المائة السادسة.

(٣) نقض المنطق ص : ١٥٦

وفتوى ابن الصلاح رحمه الله في تحريمه معروفة مشهورة ، وكان قد سئل عمن اشتغل بالمنطق والفلسفة تعلماً وتعليماً، وهل المنطق مما أباح الشارع تعلمه وتعليمه؟ وهل نُقل عن الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين إباحته والاشتغال به؟ وهل يجوز أن يستعمل في إثبات الأحكام الشرعية الاصطلاحات المنطقية أم لا؟...إلى آخر السؤال.

فأجاب رحمه الله بما ملخصه: الفلسفة أس السفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال...ثم بالغ في ذمها وازدرائها...ثم قال: «وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشر شر، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباح الشارع، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، والسلف الصالحين، وسائر من يقتدى به من أعلام الأمة وسادتها...» ثم ذكر رحمه الله أن استعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية من الأمور المستحدثة والمنكرات المستبشعة، وليس بالأحكام الشرعية ـ والحمد لله ـ افتقار إلى المنطق أصلاً...» إلى آخر الجواب(١).

فهل يقال بعد ذلك: إن الصحيح المشهور جوازه بشرط المكنة من العلوم الشرعية ، فضلاً عن جوازه مطلقاً، فضلاً عن وجوبه على الأعيان أو الكفاية؟ بل الصحيح منعه وتحريمه لما تقدم ولما سيأتي.

لكن قد يقال: يجوز النظر فيه ـ لا سيما غير المختلط منه بضلالات الفلاسفة ـ لبيان عواره، وإثبات فساده وعديم فائدته، وللرد على أصحابه

---

(١) انظر : فتاوى ابن الصلاح ص : ٣٤-٣٥.

ممن أشربوا حبه، من باب الرد على الخصم بسلاحه، ولفهم بعض المصطلحات والعبارات المنطقية المبثوثة في بعض كتب العلوم الشرعية. يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (١٣٩٣هـ) رحمه الله:"ومن المعلوم أن فن المنطق منذ ترجم من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية في أيام المأمون كانت جميع المؤلفات توجد فيها عبارات واصطلاحات منطقية لا يفهمها إلا من له إلمام به، ولايفهم الرد على المنطقيين في ما جاؤوا به من الباطل إلا من له إلمام بفن المنطق.

وقد يعين على رد الشبه التي جاء بها المتكلمون في أقيسة منطقية، فزعموا أن العقل يمنع بسببها كثيراً من صفات الله الثابتة في الكتاب والسنة؛ لأن أكبر سبب لإفحام المبطل أن تكون الحجة عليه من جنس ما يحتج به، وأن تكون مركبة من مقدمات على الهيئة التي يعترف الخصم المبطل بصحة إنتاجها.

ولا شك أن المنطق لو لم يترجم إلى العربية و لم يتعلمه المسلمون، لكان دينهم وعقيدتهم في غنى عنه كما استغنى عنه سلفهم الصالح، ولكنه لما تُرجم وتُعلِّم وصارت أقيسته هي الطريق الوحيدة لنفي بعض صفات الله الثابتة في الوحيين، كان ينبغي لعلماء المسلمين أن يتعلموه، وينظروا فيه ليردوا حجج المبطلين بجنس ما استدلوا به على نفيهم لبعض الصفات؛ لأن إفحامهم بنفس أدلتهم أدعى لانقطاعهم وإلزامهم الحق»[(١)].

(١) آداب البحث والمناظرة ـ الشنقيطي القسم الأول ص : ٤ـ٥ .

فواضح جداً من كلام الشنقيطي رحمه الله أن تعلم المنطق يكون لأجل رد صيال المعتدين على الشريعة، لا لفهم الشريعة أو وزن علومها به، كما يُدَّعى له ذلك من قِبَل أهله ودعاته.

ونخلص من ذلك كله إلى أن المنطق نوعان:

الأول: ما كان مختلطاً بضلالات الفلاسفة، فهذا لا شك في تحريمه؛ لما يفضي إليه من الكفر والضلال.

الثاني: وهو ما لم يختلط بتلك الضلالات، وهو عبارة عن أقيسة ومصطلحات ونحو ذلك من الأساليب التي تعارفوا عليها، وهذا نوعان: منه ما هو حق ومنه ماهو باطل، وما فيه من الحق يمكن الاستغناء عنه بالفطرة السليمة، والعلوم الصحيحة، وهذا هو الذي يمكن النظر فيه للرد على الخصوم، ودحض مفترياتهم، لا أن توزن به العلوم، أو أن يكون مقدمة لها.

أسباب رفض المسلمين المنطق الأرسطي:

قد يظن بعض الناس[1] أن المسلمين رفضوا المنطق الأرسطي لمجرد اشتغال الأمم الكافرة به، وهذا ظن خاطئ؛ لأنه يستلزم أن يرفض المسلمون كل ما يأتي من غيرهم من علوم صحيحة كالطب والحساب والهندسة ونحوها، وإنما رفض المسلمون المنطق لأسباب شرعية وأخرى عقلية، أذكر ـ هنا ـ طائفة منها:

---

(١) انظر : المنقذ من الضلال ص: ٩٠، ومناهج البحث عند مفكري الإسلام ــ النشار ص: ١٨٧-١٨٨، وحاشية الباجوري ص: ٢٥.

أولاً: الأسباب الشرعية:

١- أنه لم يؤثر عن الصدر الأول من الصحابة والتابعين التكلم بالمنطق؛ إما لكونه لم يكن موجوداً في زمانهم، أو كان موجوداً ثم أعرضوا عنه[(١)]، وشريعة الإسلام ليست موقوفة على شيء يُتعلَّم من غير المسلمين أصلاً وإن كان طريقاً صحيحاً[(٢)]، فكيف إذا كان فاسداً أو متضمناً للفساد، بل الكفر والإلحاد. ثم إن الصحابة والتابعين ذموا التكلف في الدين والخروج عن الكتاب والسنة في معرفة الهدى، فلو وقفوا على المنطق لكان حكمه ـ عندهم ـ حكم التكلف والخروج عن الكتاب والسنة؛ ولهذا رأى الجلال السيوطي رحمه الله تحريم المنطق قياساً على الكلام، فقال: «والذي يخرّج على أصول بقية أرباب المذاهب المتبوعة تحريم المنطق، فإنهم نصوا على تحريم علم الكلام، وعللوه بما هو موجود في المنطق؛ ولهذا صرح المتأخرون من أصحابهم بتحريمه تخريجاً على أصولهم»[(٣)].

٢- ما روي عن بعض أئمة الفقه من النهي عنه، وجعله من المحدثات، ومن أسباب الخلاف و التفرق، من ذلك:

---

(١) انظر: صون المنطق ص: ١٤، وفتاوى ابن الصلاح ص: ٣٥.

(٢) انظر: الرد على المنطقيين ص: ٢٥٨ .

(٣) انظر: صون المنطق ص : ٣٢ .

قول أبي حنيفة رحمه الله وقد سئل عما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام فقال: «مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة، فإنها بدعة[(١)]».

وقال الشافعي رحمه الله: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس[(٢)]».

والمتقدمون من أهل الكلام ذموا المنطق، وذموا المشتغلين به، وصنفوا في ذلك كتبا؛ كالدقائق لأبي بكر الباقلاني (٤٠٣هـ)، والآراء والديانات لابن النوبختي الشيعي. وتشير نصوص كثيرة إلى أن أبا علي الجبائي (٣٠٣هـ) وأبا هاشم (٣٢١هـ) والقاضي عبد الجبار (٤١٥هـ) من المعتزلة قد كتبوا في نقد المنطق الأرسطي.[(٣)] وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولم يكن قدماء المتكلمين يرضون أن يخوضوا في "الحدود " على طريقة المنطقيين، كما دخل في ذلك متأخروهم الذين يظنون ذلك من التحقيق، وإنما هو زيغ عن سواء الطريق[(٤)]».

---

(١) صون المنطق ص : ٣٢ .

(٢) صون المنطق ص : ١٥.

(٣) انظر : الرد على المنطقيين ص : ٣٣٧ ومنهاج البحث للنشار عند مفكري الإسلام ص : ٨٢.

(٤) الرد على المنطقيين ص :٣١.

٣- كون المنطق نشأ في بيئة فلسفية كان أصحابها أهل شرك وإلحاد، بل ما عند مشركي العرب من الكفر والشرك خير مما عند الفلاسفة.[(١)] قال ابن تيمية رحمه الله في الفلاسفة: «وضلالهم في الإلهيات ظاهر لأكثر الناس، ولهذا كفرهم فيها نظار المسلمين قاطبة»[(٢)]. فلم يأخذ المسلمون بالمنطق الأرسطي لملابسته العلوم الفلسفية المباينة للعقائد الصحيحة[(٣)].

٤ - خشية اغترار بعض المسلمين بالمنطق لما يرى من صدق بعض قضاياه، فيظن أنها كلها صادقة، وأن ما يتعلق منها بالعقائد مبرهن بمثل تلك البراهين. يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله - في معرض نقده للمنطق في أواخر كتبه -[(٤)]: «وربما ينظر في المنطق - أيضاً - من يستحسنه ويراه واضحاً، فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية». ويشير ابن تيمية رحمه الله إلى هذا المعنى في أول كتابه: **الرد على المنطقيين**[(٥)] فيقول: «فإني كنت دائماً أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد، ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة، لما رأيت من صدق كثير منها، ثم تبين لي فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه...

---

(١) انظر: المرجع السابق ص: ٥٣٥، و١٠١ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ص: ٢٠٠.

(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون ص: ٤٨٢ وما بعدها، ومناهج البحث - النشار ص: ط تصدير الطبعة الأولى.

(٤) المنقذ من الضلال ص: ٩٣.

(٥) ص: ٣-٤.

وتبين لي أن كثيراً مما ذكروه في أصولهم في الإلهيات وفي المنطق هو من أصول فساد قولهم في الإلهيات».

٥- قصور البرهان الفلسفي عن الوصول بالإنسان إلى اليقين، وذلك عند تطبيقه في الإلهيات، وقد تقدم أن القياس الجدلي عندهم لا يفيد إلا الظن، يقول أبو حامد الغزالي: «لهم نوع من الظلم في هذا العلم، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يُعلم أنها تورث اليقين لا محالة، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط، بل تساهلوا غاية التساهل»(١).

٦- ما يسببه المنطق من التفرق والاختلاف والتنابذ، وما زال أهله والمشتغلون به على هذه الحال، بل لا تكاد تجد اثنين منهم يتفقان على مسألة، حتى التي يسمونها بدهيات أو يقينيات؛ يقول ابن تيمية رحمه الله: «المشتغلون بالمنطق هم أكثر الناس نزاعاً وشكاً، وأقلهم علماً وتحقيقاً، فلو كان المنطق أداة تكشف الحقيقة وتعصم الذهن لما حدث هذا»(٢) وقال أحد بطارقة الروم وهو يهم بإرسال كتب يونان إلى يحيى بن خالد بن برمك (١٩٠هـ)، كان الأخير قد طلبها منه: «فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها»(٣). وقد كان.

---

(١) المنقذ من الضلال ص : ٩٣.

(٢) نقض المنطق ص : ١٦٩ ، وانظر : الرد على المنطقيين ص : ٣٣٤ وما بعدها.

(٣) صون المنطق ص: ٩.

ثانياً: الأسباب العقلية:

١- المنطق اليوناني تجريدي لا صلة له بالواقع، فهو يبحث في عالم الكليات، وهذا العالم لا وجود له في الخارج، بل وجوده في الذهن، فالمنطق يتجاهل البحث في الجزئيات والأعيان.(١)

٢- أننا نرى كثيراً من العلوم ـ كالهندسة والطب والفلك ـ تتقدم تقدماً كبيراً دون أن يكون كبار الباحثين فيها ممن تخرجوا على المنطق اليوناني.(٢) يقول ابن تيمية رحمه الله: «لا تجد أحداً من أهل الأرض حقق علماً من العلوم وصار إماماً فيه مستعيناً بصناعة المنطق، لا من العلوم الدينية ولا غيرها، فالأطباء والحُسَّاب والكُتَّاب وغيرهم يحققون ما يحققون من علومهم وصناعاتهم بغير صناعة المنطق، وقد صُنف في الإسلام علوم النحو والعروض والفقه وأصوله والكلام وغير ذلك، وليس في أئمة هذه الفنون من كان يلتفت إلى المنطق، بل عامتهم كانوا قبل أن يعرب هذا المنطق اليوناني».(٣)

٣- أن المنطق كان له أكبر الأثر في تخلف اليونان عن ركب المدنية، حيث انزوى بالفكر والجهود العلمية نحو عالم الميتافيزيقيا (عالم ما وراء

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ص: ٤٦١-٤٦٢، ٤٨٢ وما بعدها، والمنطق الحديث ـ محمود قاسم ص: ٨

(٢) انظر: المنطق الحديث ـ محمود قاسم ص: ٥-٦.

(٣) نقض المنطق ص: ١٦٨-١٦٩.

الطبيعة) معرضاً عن الحياة المدنية والعلوم التطبيقية.[١] يقول الأستاذ علي لبن[٢]: «يكاد يتفق مؤرخو الفلسفة على أن العلم لم ينهض في مطلع العصر الأوربي الحديث إلا بعد الثورة المزدوجة على السلطة العلمية ممثلة في المنطق الأرسطي والسلطة الدينية ممثلة في رجال الكنيسة».

ولهذا كان ظهور المنطق الحديث في أوربا على يد فرانسيس بيكون (١٦٢٦م) وغيره ـ والذي استفادوه من علماء المسلمين وخاصة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ ضربة قاضية للمنطق الأرسطي في أوربا، وعاملاً كبيراً في التقدم العلمي والحضاري فيها.[٣]

٤ـ طرق هؤلاء المناطقة فيها فساد كثير من جهة المقاصد والوسائل:

أما من جهة المقاصد؛ فإن الحاصل منها بعد التعب والمشقة خير قليل، فهو كما تقدم كلحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل.[٤] أو كما قال ابن القيم رحمه الله[٥]:

بدا لعين الظامئ الحيران ... فأمّه بالظن والحسبان

(١) انظر: بحث الترجمة ومدى تأثيرها في تحول الجدل الديني إلى اهتمام بالبحث العلمي والفلسفي ـ عبد الرحمن مرحبا ص: ٣٣٨ .

(٢) الغزو الفكري ص : ٤٢ .

(٣) انظر: مناهج البحث ـ النشار ص: ٢٣٦-٢٣٧ ، والإسلام والعلم التجريبي ـ السويدي ص: ٢١، ومحاضرات في تأريخ العلوم ـ سزكين ص : ١٩ وما بعدها.

(٤) قطعة من حديث عائشة رضي الله عنها في صحيح مسلم ١٨٩٦/٤ كتاب فضائل الصحابة ـ باب ذكر حديث أم زرع ح : ٢٤٤٨ .

(٥) مفتاح دار السعادة ١٥٨/١.

يرجـو الشـفاء لغلة الظمـآن فلم يجد ثَمَّ سـوى الحرمان
فـــعاد بالخـيبة والخـسران يـقرع سـن نـادم حيران
قد ضاع منه العمر في الأماني وعـاين الخفـة في الـميزان

وأما الوسائل فطريقه كثيرة المقدمـات، طويلـة المسـالك، يتكلفـون فيهـا العبارات البعيدة، والطرق الوعرة، وليس فيهـا مـن فـائدة سـوى تضييـع الأزمان، وإتعاب الأذهان، ودعوى التحقيق بالكذب والبهتان...»[1].

(١) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٢/٢٢ والرد على المنطقيين ص :٣١.

الفصل الثاني
نشأة الجدل عند المسلمين

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أسباب ظهور الجدل عند المسلمين

المبحث الثاني: موقف الفرق الإسلامية من الجدل

المبحث الثالث: قضايا الجدل عند أهل الكلام وخصائصه، وموقف السلف

المبحث الرابع: الجدل عند أهل السنة والجماعة

المبحث الأول
أسباب ظهور الجدل عند المسلمين

وقد أوردت في ذلك عشرة أسباب، هي أسباب عامة، أي بغض النظر عن موقع الجدل من المدح أو الذم، بل هي أسباب لظهور الجدل بنوعيه: المحمود والمذموم، وقد يتصل بعضها ببعض حتى إنه ليشعر بنوع من التداخل؛ وهذا لشدة ما بينها من الاتصال والارتباط.

السبب الأول: شبه أهل الشرك والنفاق:

وهو ما كان يلقيه بعض المشركين وبعض المنافقين وكذا اليهود والنصارى وغيرهم[(١)] من الشبهات بقصد الطعن في هذا الدين ومَنْ جاء به، والصد عن سبيل الله (تعالى)، فينزل القرآن الكريم كاشفاً لشبهاتهم، ومثبِّتاً لقلوب المؤمنين كما قال (تعالى) : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٣٣].

ومن هذه الشبهات: احتجاج المشركين على شركهم بالمشيئة الإلهية العامة؛ قال (تعالى) حكاية عنهم: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٨-١٤٩]. وقال (تعالى): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ

---

(١) ستأتي نماذج من ذلك في الفصل الخاص بالجدل في القرآن الكريم.

مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [سورةالنحل: ٣٥].

السبب الثاني: الدس اليهودي:

حيث التقى المسلمون اليهود في اليمن والشام والكوفة، ودخل بعض هؤلاء في الإسلام بقصد الكيد للإسلام والمسلمين، وذلك بزرع المعتقدات المناقضة لأصول الإسلام، ومن هؤلاء اليهود: **عبد ا لله بن سبأ** الذي اتخذ من إظهار التشيع لعلي ﷺ وسيلة لتأسيس أصول غلاة الرافضة: كالإمامة والبداء والرجعة والمهدية، حتى إنه ادعى الإلهية في علي ﷺ وتبعه على ذلك كثير من جهلتهم، وهم السبئية الذين حرقهم علي ﷺ بالنار، وهذه الأصول ترجع إلى اعتقادات يهودية، كما ينسب إلى اليهود أيضاً الكلام في بدعة القدرية والجبرية والمعطلة والمشبهة[(١)]. فقام المسلمون وتصدوا لهم مدافعين عن دينهم وعقيدتهم، وجرت بينهم وبين اليهود المناظرات، واصطنع بعضهم النظر الذي كان سببا في نشأة علم الكلام؛ ولهذا كانت كثير من الموضوعات التي أثارها اليهود قد ظهرت في المسلمين من بعد، فكانوا يناقشون اليهود فيها أولا ثم يختلفون في مدلولاتها فيما بينهم.

السبب الثالث: الدس النصراني:

حيث أقبل كثير من المسيحيين من أهل البلاد التي دخلها المسلمون على الإسلام، فاعتنقوه بعد أن رأوا المسيح ﷺ في القرآن الكريم صورة

---

(١) انظر: الملل والنحل ٢١١/١-٢١٢، ١٠٦/١، ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ـ النشار ٣٩/١، ٤٦ وما بعدها.

متكاملة، بعيدة عن التناقضات والاختلافات التي تعيشها المسيحية، وعند ذلك تقدم آباء الكنيسة للدفاع عن دينهم، أو بمعنى أدق عن نظرياتهم في طبيعة المسيح، فتصدى لهم علماء الإسلام، وبدأ جدال عنيف حول وحدانية الله عز وجل وصفاته، وقد اعتبر يوحنا الدمشقي الإسلام عقيدة فلسفية، فبدأ يعد العدة لمواجهتها، ويضع أصول الجدل مع هذه العقيدة، ويبين لأتباع المسيحية طريقة مناقشة العقائد الإسلامية(١). فكان يقول: إذا قال لك العربي (المسلم): ما تقول في المسيح؟ فقل: إنه كلمة الله. ثم ليسأل النصراني المسلم: بم سمي المسيح في القرآن؟ وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيب المسلم؛ فإنه سيضطر إلى أن يقول ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [سورة النساء: ١٧١] . فإن أجاب بذلك فاسأله: هل كلمة الله وروحه مخلوق أو غير مخلوق؟ فإذا قال مخلوق، فليرد عليه بأن الله إذن كان ولم يكن له كلمة ولا روح، فإن قلت ذلك فسيفحم العربي؛ لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين(٢)

السبب الرابع: الاختلاط بالأمم الأعجمية:

وهو ما تمخض عن الفتوحات الإسلامية من احتكاك بالشعوب الأعجمية المغلوبة، وكان من الداخلين منهم في الإسلام طائفتان:

---

(١) انظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ـ النشار ١/٥٤ـ٥٥.

(٢) مقدمة شرح المقاصد ـ عبد الرحمن عميرة ١/٢٧ـ٢٨ ، وانظر : أحمد بن حنبل ـ لعبد الحليم الجندي ص : ٤٠٦ .

الأولى: اختارت الإسلام عن رضا، لكنها ما زالت متأثرة بثقافتها القديمة، وهي ثقافة متأثرة بالفلسفة اليونانية القديمة، وأديانهم المنحرفة، فمن هؤلاء من لا يقبل نصوص الوحي حتى يُمرها على محك عقله هو، وقد يجد فيها ما يخالف دينه السابق، أو عادته المستحكمة، فيتردد في الأخذ بها، فيحاول البحث عما يراه حقاً، وذلك عن طريق تحريف النصوص تارة، أو ردها أخرى. فنشأت من ذلك آراء متباينة التف حول أصحابها من يشايعهم، وراح كل فريق يبحث عما يدعم مذهبه من الأدلة والشواهد.

الثانية: دخلت في الإسلام إكراهاً؛ تخلصاً من أداء الجزية؛ ومريدة الكيد للإسلام ولأهله، فأخذت تبحث عن مصدر قوة المسلمين فوجدته في اجتماعهم، وبحثت عن مصدر هذا الاجتماع، فوجدته في الدين، فعمدت إليه تلقي بالبذور الوثنية والمجوسية؛ فظهرت البدع[1] التي هي بريد الكفر والشرك؛ ولهذا كان معظم زعماء الفرق والبدع المكفرة من الأعاجم من أمثال الجعد بن درهم والجهم بن صفوان وعمرو بن عبيد وبشر المريسي.

السبب الخامس: شيوع العجمة:

ويتصل بالسبب المتقدم ؛ الذي هو الاختلاط بالأمم الأعجمية. قال الإمام الشافعي رحمه الله: «وإنما بدأت بما وصفتُ من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره؛ لأنه لايَعْلَمُ من إيضاح جُمَل علم الكتاب أحدٌ جهل سَعَة

---

(١) انظر: دراسات في تأريخ الفلسفة الإسلامية وآثار رجالها ـ عبده الشمالي ص: ٥١ ، والفصل ـ ابن حزم ٢/٢٧٣ـ٢٧٥

لسان العرب وكثرة وجوهه، وجماع معانيه، وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها»[١].

ولهذا كانت أول بدعة ظهرت في الإسلام من قبل العجمة؛ قال الأوزاعي رحمه الله: «أول من نطق في القدر رجل من العراق يقال له سوسن، كان نصرانياً فأسلم، ثم تنصر، فأخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد»[٢] وأخرج البخاري في تأريخه عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: إنما أهلكتهم العجمة[٣]. وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاليس»[٤]. قال السيوطي رحمه الله: «وقد وجدت السلف قبل الشافعي أشاروا إلى ما أشار إليه من أن سبب الابتداع: الجهل بلسان العرب»[٥].

وقد أخرج البيهقي[٦] عن الأصمعي أنه قال: جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء - يناظره في وجوب عذاب الفاسق - فقال له: يا أبا عمرو، آلله يخلف وعده؟ قال: لن يخلف الله وعده، قال عمرو: فقد قال. قال: أين؟ فذكر آية وعيد...فقال أبوعمرو: من العجمة أتيت، الوعد غير

---

(١) الرسالة ص: ٥٠.
(٢) شرح السنة - اللالكائي ٤/٧٥٠ رقم: ١٣٩٨، والشريعة ص: ٢٤٢.
(٣) التأريخ الكبير ٥/٩٣ رقم: ٢٥٩.
(٤) ذكره السيوطي في صون المنطق ص : ١٥ .
(٥) صون المنطق ص:٢٢.
(٦) الجامع لشعب الإيمان ٢/١٠٣-١٠٥ وانظر الكامل لابن عدي ٥/١٧٥٢ وتاريخ بغداد ١٢/١٧٥-١٧٦.

الإعياد، ثم أنشد:

وإني وإن أوعدته أو وعدته سأخلف إيعادي وأنجز موعدي

قال أبو المظفر الإسفراييني رحمه الله: «فأراد عمرو بن عبيد القدري أن ينصر بهذا الكلام بدعته في خلود عصاة المؤمنين، فقال أبو عمرو: فأين أنت من قول العرب: إن الكريم إذا أوعد عفا، وإذا وعد وفّى». (١)

واستدلال أبي عمرو محمول على عذاب الفاسق؛ لأن عذابه معلق بالمشيئة الإلهية، وأما عذاب الكافر والمشرك فواقع لا محالة كما قال (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة النساء: ٤٨].

السبب السادس: ظهور علم الكلام:

وذلك على أيدي المعتزلة؛ يقول طاش كبرى زاده: «اعلم أن مبدأ شيوع الكلام :كان على أيدي المعتزلة والقدرية في حدود المائة من الهجرة» (٢) وذكر الخياط عن المعتزلة أنهم أرباب النظر والكلام دون من سواهم. (٣)

وعلاقة الكلام بالجدل تتضح من تعريف علم الكلام؛ يقول الإيجي في المواقف (٤) : «والكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد

---

(١) التبصير في الدين ص:١٧٠.(بتصرف) .

(٢) انظر: مفتاح السعادة ٣٧/٢.

(٣) الانتصار ص: ٧٢.

(٤) ص: ٧.

الحجج ودفع الشبه» ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الجدال بالعقل في أصول الدين يسمى كلاما.[١]

وسيأتي ذكر شيء من جهود أهل الكلام في الجدال والمناظرة في موضع آخر.

السبب السابع: الاتصال بالفلسفة اليونانية:

فقد حكي عن المأمون أنه لما هادن بعض ملوك النصارى كتب يطلب منهم خزانة كتب اليونان، وكانت عندهم مجموعةً في بيت لا يظهر عليه أحد، فجمع الملك خواصه من ذوي الرأي فيهم، واستشارهم في ذلك، فكلهم أشار عليه بعدم تجهيزها إلى المأمون، إلا مطراناً واحداً فإنه قال: جهزها إليهم، فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها، وأوقعت بين علمائها.[٢]

ويذكر الشهرستاني أن شيوخ المعتزلة قد طالعوا كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون وخلطوا بها مناهجهم[٣]. بل ما من فرقة من الفرق الكلامية إلا ونظرت في الفلسفة اليونانية وتأثرت بها.[٤]

ثم فشت الفلسفة في المتأخرين على يد النصير الطوسي حين أنشأ دار حكمة تدرس فيها الفلسفة، وجعل لكل دارس فيها ثلاثة دراهم في اليوم،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٣٣٦/١١.

(٢) انظر: شرح لامية العجم ٧٩/١.

(٣) انظر: الملل والنحل ٣٠/١ .

(٤) انظر: الخطط - المقريزي ٣٥٨/٢ .

بينما صرف لأهل دار الحديث لكل محدث نصف درهم، ومن ثم فشا الاشتغال بالعلوم الفلسفية وظهر[١] حتى التبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين من الآخر[٢] وقال ابن تيمية رحمه الله: «ثم إنه لما عربت الكتب اليونانية في حدود المائة الثانية وقبل ذلك وبعد ذلك، وأخذها أهل الكلام وتصرفوا فيها من أنواع الباطل في الأمور الإلهية ما ضل به كثير منهم، وفيها من أمور الطب والحساب ما لا يضر كونه في ذلك» [٣].

السبب الثامن: ظهور الافتراق والابتداع:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٤]: «واعلم أن عامة البدع المتعلقة بالعلوم والعبادات في هذا القدر وغيره إنما وقع في الأمة في أواخر خلافة الخلفاء الراشدين، كما أخبر به النبي ﷺ حيث قال: من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي...[٥].

---

(١) انظر: البداية والنهاية ٢٦٨/١٣ حوادث سنة ٦٧٢ وصون المنطق ص: ١٣.

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون ص: ٤٣٠.

(٣) انظر : تلبيس الجهمية ٣٢٣/١.

(٤) مجموع الفتاوى ٣٥٤/١٠-٣٥٨ بتصرف قليل .

(٥) رواه أبو داود في سننه ١٣/٥-١٥ كتاب السنة ـ باب في لزوم السنة ح : ٤٦٠٧ والترمذي في سننه ٣١٩/٧ -٣٢٠ كتاب العلم ـ باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ح : ٢٦٧٨ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح . وابن ماجه في سننه ١٥/١-١٦ (المقدمة) باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ح: ٤٢،٤٣ . وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ١٣/١ -١٤ ح٤٠-٤١ .

فلما ذهبت دولة الخلفاء الراشدين وصار ملكاً، ظهر النقص في الأمـراء، فلا بد أن يظهر ـ أيضاً ـ في أهل العلم والدين، فحدث في آخر خلافـة علـي بدعتا الخوارج والرافضة، إذ هي متعلقة بالإمامة والخلافة، وتوابـع ذلـك مـن الأعمال والأحكام الشرعية... حدثـت بعـد ذلـك بدعـة القدريـة والمرجئـة، فردها بقايا الصحابة كابن عباس وابن عمر وجابر وواثلة بن الأسقع وغيرهم ﷺ مع ما كانوا يردونه هم وغيرهم من بدعة الخوارج والروافـض... وصـار في ولاة الأمور ـ أي في الدولة العباسية ـ كثير مـن الأعـاجم، وخـرج كثير من الأمر عن ولاية العرب، وعربت بعض الكتب العجمية من كتـب الفـرس والهند والروم ... وحدث التجهم وهو نفي الصفات وبإزائه التمثيـل، فكـان جمهور الرأي من الكوفة، إذ هو غالب علـى أهلهـا مـع مـا كـان فيهـم مـن التشيع الفاحش، وكثرة الكذب في الرواية، مع أن في خيار أهلهـا مـن العلـم والصدق والسنة والفقه والعبادة أمر عظيم، لكن الغرض أن فيهـا نشـأ كـثرة الكذب في الرواية وكثرة الآراء في الفقه، والتشيع في الأصول، وكان جمهور الكلام والتصوف في البصرة؛ فإنه بعد موت الحسن وابن سيرين بقليـل ظهـر عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ومن اتبعهما من أهل الكلام والاعتزال».

والأمة متى افترقت خالف بعضها بعضاً، ومتى اختلفـت تمسـكت بشـبه وحجج،وناظرت كل فرقة من يخالفها، فينفتح باب الجدل، ويحتاج كل أحد أن يرجـح مذهبـه وقولـه بحجـة عقليـة أو نقليـة أو مركبـة منهمـا... وأخـذ أصحاب الأهواء مخالفوا السنة مقدمات عقليـة مـن الفلاسـفة، فأدخلوهـا في مباحثهم وفرجوا بها مضايق جدالهـم، وبنـوا عليهـا قواعـد بدعهـم، فاتسـع الخرق على الراقع، وكاد منار الحق الواحد يشـتبه بـالثلاث الأثـافي والرسـوم

البلاقع، على أن السنة الشريفة مرفوعة المنار مأمونة الشرار، خافقة الأعلام، راسخة الأحكام، باهرة السنا ساطعة، غضة الجنى يانعة[١].

السبب التاسع: الوساوس والشبه:

من ذلك ما يلقيه الشيطان في بعض النفوس المؤمنة على ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ حيث قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته»[٢] وفي رواية: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خَلَقَ الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله»[٣].

وسأله بعض أصحابه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذاك صريح الإيمان.[٤]

ومن ذلك ـ أيضاً ـ ما رواه الإمام أحمد في مسنده[٥] عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أُحب أن لي

(١) انظر: الغيث المسجم في شرح لامية العجم ١/٨٠ .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري) ٦/٣٣٦ كتاب بدء الخلق ـ باب صفة إبليس وجنوده ح: ٣٢٧٦ وصحيح مسلم ١/١٢٠ كتاب الإيمان ـ باب بيان الوسوسة في الإيمان ... ح: ١٣٤.

(٣) صحيح مسلم ١/١١٩ كتاب الإيمان ـ باب بيان الوسوسة في الإيمان ح: ١٣٤ .

(٤) رواه مسلم في صحيحه ١/١١٩ كتاب الإيمان ـ باب بيان الوسوسة في الإيمان ح: ١٣٢ .

(٥) ٢/١٨١ وأصله في صحيح مسلم ٤/٢٠٥٣ كتاب العلم ـ باب النهي عن اتباع متشابه القرآن ... ح : ٢٦٦٦.

به حمر النعم. أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة[١]؛ إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم فخرج رسول الله ﷺ مغضباً قد احمر وجهه، يرميهم بالتراب ويقول: مهلاً يا قوم بهذا أهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض؛ إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضا،فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه.

وربما يسترسل بعض الناس مع هذه الوساوس والشبه حتى يحتاج إلى إنزال العقوبة به فيرجع إلى رشده وصوابه؛ من ذلك ما وقع لعمر بن الخطاب ﷺ مع صبيغ ابن عسل، وذلك أن صبيغاً قدم المدينة وكانت عنده كتب، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر ﷺ فبعث إليه وقد أعد له عراجين النخل، فلما دخل عليه جلس فقال له عمر ﷺ: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله صبيغ، فقال عمر ﷺ: وأنا عبدا لله عمر، ثم أهوى إليه يضربه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجه، فجعل الدم يسيل على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي كنت أجد في رأسي[٢].

---

(١) حجرة: ناحية، ومنه حديث : للنساء حجرتا الطريق . انظر : النهاية ـ ابن الأثير ٣٤٢/١.

(٢) انظر : الشريعة ـ الآجري ص : ٧٣ وسنن الدارمي ٥٥/١ــ٥٦ وشرح السنة ــ اللالكائي ٦٣٤/٤ـ٦٣٦ برقم: ١١٣٦-١١٤٠وعقيدة السلف ـ الصابوني ص :٥١ـ٥٤ برقم : ٨٣-٨٥ وصححه الحافظ في الإصابة ١٩٩/٢.

السبب العاشر: الاختلاف في الفروع:

يقول الشاطبي رحمه الله: «... إن الله تعالى حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار ومجالاً للظنون، وقد ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف [فيها][1] لكن في الفروع دون الأصول، وفي الجزئيات دون الكليات، فلذلك لا يضر هذا الاختلاف ...» إلى أن قال: «إنا نقطع بأن الخلاف في مسائل الاجتهاد واقع ممن حصل له محض الرحمة وهم الصحابة ومن اتبعهم بإحسان ﷺ... ومعنى هذا أنهم فتحوا للناس باب الاجتهاد وجواز الاختلاف فيه»[2].

ومثل هذا الاختلاف لا يوجب تكفيراً ولا تفسيقاً ما دام صاحبه بعيداً عن دواعي الهوى، بل هو معذور في خطئه، مأجور على اجتهاده.

لكن هذا الاختلاف قد اتسع في الملة اتساعاً عظيماً، حتى انتهى إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار، وكانوا بمكان من حسن الظن بهم حتى اقتصر الناس على تقليدهم، منعوا من تقليد غيرهم[3].

---

(١) ليست موجودة في الإصل، وأضفتها لبيان المراد.

(٢) انظر: الاعتصام ٢/١٦٨-١٧٠.

(٣) الاقتصار على تقليد الأئمة الأربعة والمنع من تقليد غيرهم لم يقل به أحد من الأئمة المحققين، وإنما قاله بعض المقلدين من أهل المذاهب، وهو من التعصب المذموم الذي نهى عنه الأئمة الأربعة أنفسهم، ونصوصهم في ذلك مشهورة معروفة.

المبحث الثاني
موقف الفرق الإسلامية من الجدل

تمهيد في نشأة الاختلاف والافتراق في هذه الأمة:

تقدم في المبحث السابق ـ أسباب ظهور الجدل عند المسلمين ـ بيان أن الافتراق والاختلاف من أسباب الجدل والمناظرة؛ لأن الأمة متى افترقت خالف بعضها بعضاً، ومتى اختلفت تمسكت بشبه وحجج، وناظرت كل فرقة من يخالفها، فينفتح باب الجدل، ويحتاج كل أحد أن يرجح مذهبه وقوله بحجة عقلية أو نقلية أو مركبة منهما. فالجدل من آثار الخلاف، ونتيجة طبيعية له، ومجاله: الفرق والنحل؛ لحرص كل منها إظهار ما عندها، وإبطال ما عند الآخرين.

ولقد كان المسلمون حتى وفاة النبي ﷺ وبعدها إلى أواخر عهد عثمان ﷺ على منهاج واحد، وسبيل متحد، غير من أظهر وفاقاً وأضمر نفاقاً. وما وقع من خلاف أثناء ذلك لم يوجب تكفيراً ولا تفسيقاً، مع ما صحب ذلك من مجادلات ومناظرات، سببها في الغالب قصور في العلم أو الفهم، يرتفع الخلاف وتجتمع الكلمة متى برز الدليل، أو اتضحت وجوه الدلالة.

وأول ذلك كان في مرض موته ﷺ فقد روى البخاري ﷺ عن ابن عباس ﷺ أنه قال: «لما حُضِر رسولُ الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت

واختصموا؛ فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك . فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله ﷺ: قوموا. قال عبيد الله ـ هو ابن عبد الله بن عتبة ـ: فكان يقول ابن عباس: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب؛ لاختلافهم ولغطهم»[(١)] وفي رواية قال رسول ﷺ: «...قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع»[(٢)].

قال ابن حجر رحمه الله: «دل أمره لهم بالقيام على أن أمره الأول كان على الاختيار؛ ولهذا عاش ﷺ بعد ذلك أياماً و لم يعاود أمرهم بذلك، ولو كان واجباً لم يتركه لاختلافهم؛ لأنه لم يترك التبليغ لمخالفة من خالف، وقد كان الصحابة يراجعونه في بعض الأمور ما لم يجزم بالأمر ، فإذا عزم امتثلوا»[(٣)] وفي الحديث دليل على وقوع الاجتهاد بحضرته ﷺ[(٤)].

ثانياً: اختلاف الناس في موته ﷺ وما وقع منهم من اضطراب رفعه الله (تعالى) بالصديق ﷺ. أخرج البخاري رحمه الله في صحيحه[(٥)] عن أبي سلمة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته، قالت: «أقبل أبوبكر

---

(١) صحيح البخاري ١٣٢/٨ (الفتح) كتاب المغازي ـ باب مرض النبي ﷺ ووفاته ح: ٤٤٣٢.

(٢) صحيح البخاري (الفتح) ٢٠٨/١ كتاب العلم ـ باب كتابة العلم ح: ١١٤.

(٣) فتح الباري ٢٠٩/١.

(٤) انظر: فتح الباري ٢٠٩/١.

(٥) ١١٣/٣ (الفتح) كتاب الجنائز ح :١٢٤١،١٢٤٢.

ﷺ على فرسه من مسكنه بالسُّنْح(١) حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها، فتيمم النبي ﷺ وهو مسجّىً ببُرْد حِبَرة، فكشف عن وجهه، ثم أكبَّ عليه فقبله، ثم بكى: فقال: بأبي أنت وأمي يا نبي الله، لا يجمع الله عليك موتتين؛ أما الموتة التي كُتِبَت عليك فقد مُتَّها.

قال أبو سلمة: فأخبرني ابن عباس ﷺ: أن أبابكر ﷺ خرج وعمر ﷺ يكلم الناس فقال: اجلس، فأبى. فقال: اجلس، فأبى. فتشهد أبوبكر ﷺ، فمال إليه الناس وتركوا عمر، فقال: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً ﷺ قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله (تعالى) : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٤]، فوالله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل الآية حتى تلاها أبوبكر ﷺ فتلقاها منه الناس، فما يُسْمَعُ بشرٌ إلا يتلوها».

وفي رواية للبخاري(٢) عن عائشة رضي الله عنها: «... فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ . قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع

---

(١) السُّنْح : إحدى محال المدينة في طرف من أطرافها، كان بها منزل أبي بكر الصديق ﷺ حين تزوج مُليكة، وقيل: حبيبة، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج. انظر: معجم البلدان ٣٠١/٣ رقم : ٦٦٧٥ .

(٢) ١٩/٧(الفتح) كتاب فضائل الصحابة ــ باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً ح : ٣٦٦٧،٣٦٦٨.

في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم...» ثم ذكرت مجيء أبي بكر ﷺ ودخوله على النبي ﷺ ثم خروجه إلى الناس وعمر يتكلم، فقال: "أيها الحالف، على رِسْلِك، فلما تكلم أبوبكر جلس عمر" ثم ذكرت خطبة أبي بكر ﷺ على نحو ما تقدم.

وروى البخاري[(١)] عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فما كان من خطبتهما ـ تعني خطبة عمر وأبي بكر رضي الله عنهاـ من خطبة إلا نفع الله بها. لقد خوف عمر الناس وإن فيهم لنفاقاً، فردهم الله بذلك. ثم لقد بصَّر أبوبكر الناس الهدى، وعرَّفهم الحق الذي عليهم، وخرجوا به يتلون: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٤].

ثالثاً: في موضع دفنه ﷺ ، فقال ناس يدفن في مسجده عند المنبر، وقال آخرون: يدفن مع أصحابه أي في البقيع، والفريقان اتفقوا على دفنه في المدينة إذ هي موضع هجرته ﷺ، وقال آخرون: يدفن في مكة لأنها مولده وبها قبلته، وبها مشاعر الحج، وابتدأ نزول الوحي فيها. وقال آخرون: ينقل إلى بيت المقدس حيث تربة إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فرفع هذا النزاع بالصديق ﷺ حيث روى لهم عن الرسول ﷺ قوله: «ما دفن نبي قط إلا في مكانه الذي توفي فيه» فرفعوا فراش رسول الله ﷺ الذي توفي عليه فحفروا له ثم دفن وذلك في حجرة عائشة رضي الله عنها[(٢)].

---

(١) ٢٠/٧(الفتح) الكتاب والباب السابقان ح : ٣٦٦٩.

(٢) قصة الاختلاف في موضع دفنه ﷺ ذكرها أصحاب المقالات كالإسفراييني في التبصير ص:٢٥-٢٦ والشهرستاني في الملل ٢٣/١-٢٤ . وأصلها في الموطأ بلاغاً ٢٣١/١ كتاب =

رابعاً: واختلفوا في الخليفة بعد رسول الله ﷺ من يكون؟ حتى قالت الأنصار للمهاجرين : منا أمير، ومنكم أمير. روى البخاري رحمه الله في صحيحه[(١)] عن عائشة رضي الله عنها وفيه :«... واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عُبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبوبكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبوبكر، وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلاماً قد أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبوبكر، ثم تكلم أبوبكر فتكلم أبلغ الناس، فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حُباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر : لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب داراً، وأعربهم أحساباً، فبايعوا عمرَ أو أبا عبيدة. فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس».

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم عند حديث: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم»[(٢)] قال: «وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة، فكذلك بعدهم، ومن

= الجنائز ـ باب ما جاء في دفن الميت ح:٢٧. قال ابن عبد البر: هذا الحديث لا أعلمه يُروى على هذا النسق بوجه من الوجوه، غير بلاغ مالك هذا، ولكنه صحيح من وجوه مختلفة، وأحاديث شتى. جمعها مالك. وانظر: سنن ابن ماجه ١/٥٢٠ـ٥٢١ كتاب الجنائز ـ باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ ح : ١٦٢٨ وقال في الزوائد : إسناده فيه الحسين بن عبدالله بن عبيد الله بن عباس الهاشمي تركه أحمد بن حنبل وعلى بن المديني والنسائي. وقال البخاري: يقال: إنه كان يتهم بالزندقة. وقواه ابن عدي، وباقي رجال الإسناد ثقات.

(١) ٧/١٩ـ٢٠ كتاب فضائل الصحابة ـ باب لو كنت متخذاً خليلاً ح : ٣٦٦٨ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/١٩٩ كتاب الإمارة .

خالف فيه من أهل البدع... فهو محجوج بإجماع الصحابة والتابعين فمن بعدهم، بالأحاديث الصحيحة؛ قال القاضي (يعني عياض) اشتراط كونه قرشياً هو مذهب العلماء كافة، قال: وقد احتج به أبوبكر وعمر على الأنصار يوم السقيفة فلم ينكره أحد...».(١)

خامساً: اختلافهم في قتال مانعي الزكاة ثم رفع الخلاف ببيان الصديق ﷺ وصحة فهمه. روى البخاري رحمه الله في صحيحه(٢) عن عبدالله بن عتبة أن أبا هريرة قال : «لما تُوفي النبي ﷺ واستُخْلِف أبوبكر، وكفر من كفر من العرب قال عمر: يا أبابكر، كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله. قال أبوبكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عَنَاقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق». قال المازري رحمه الله: «ظاهر السياق أن عمر كان موافقا على قتال من جحد الصلاة، فألزمه الصديق بمثله في الزكاة لورودهما في الكتاب والسنة موردا واحدا».(٣) وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: «فبان لعمر وغيره من الصحابة الذين خالفوا أبابكر في ذلك أن الحق معه فبايعوه»(٤).

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/٢٠٠.

(٢) ١٢/٢٧٥(الفتح) كتاب استتابة المرتدين ـ باب قتل من أبى قبول الفرائض... ح:٦٩٢٤.

(٣) فتح الباري ١٢/٢٧٧.

(٤) جامع بيان العلم ٢/١٢٥.

قال أبو المظفر الإسفراييني رحمه الله عقب ذكر هذه الاختلافات: «هكذا جرى الأمر على السداد أيام أبي بكر وعمر وصدر من زمان عثمان، ثم اختُلِف في أمر عثمان، وخرج عليه قوم منهم، فكان من أمره ما كان. ثم بعد ذلك حدث الاختلاف في أمر علي وفي حال أصحاب الجمل وصفين، وفي حال الحكمين[1]، وظهر من ذلك خلاف الخوارج في أيام علي رضي الله عنه...وظهر في وقته ـ أيضاً ـ خلاف السبئية من الروافض...وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية؛ وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة؛ كمعبد الجهني، وغيلان الدمشقي وجعد بن درهم[2]، وكان ينكر عليهم من كان قد بقي من الصحابة؛ كعبدا لله بن عمر، وعبدا لله بن عباس، وعبدا لله بن أبي أوفى، وجابر، وأنس، وأبي هريرة، وعقبة بن عامر الجهني وأقرانهم، وكانوا يوصون إلى أخلافهم بأن لا يسلموا عليهم، ولا يعودوهم إن مرضوا، ولا يصلوا عليهم إذا ماتوا. ثم ظهر بعدهم في زمان الحسن البصري بالبصرة خلاف واصل بن عطاء الغزال في القدر، وفي القول بمنزلة بين المنزلتين، ووافقه عمرو بن عبيد فيما أحدثه من البدعة، فطردهم الحسن البصري من مجلسه فاعتزلوه بأتباعهم جانباً من المسجد، فسموا

(١) هما : أبو موسى الأشعري من جهة علي، وعمرو بن العاص من جهة معاوية رضي الله عنه.

(٢) المعروف عن الجعد إنكار الصفات لله (تعالى) وعلى ذلك ضحى به خالد القسري أمير الكوفة سنة:١٢٤هـ، فيكون ذكره مع القدرية ليس ظاهراً.

معتزلة؛ لاعتزالهم مجالس المسلمين[١] وقولهم بمنزلة بين المنزلتين، وزعمهم أن الفاسق الملي لا مؤمن ولا كافر، وأن الفساق من أهل الملة خرجوا من الإيمان ولم يبلغوا الكفر، وأنهم مع الكفار في النار خالدين مخلدين لا يجوز لله (تعالى) أن يغفر لهم، وأنه لو غفر لهم لخرج من الحكمة. ولما أظهروا هذه المقالة هجرهم المسلمون وخذلوهم، كما كان قد أوصى إليهم أسلافهم من الصحابة...»[٢].

وفي أخريات القرن الأول ظهر الجهم بن صفوان وتكلم في مسألة خلق القرآن، والجبر، وقال بفناء الجنة و النار ، وتعطيل الصفات عن الرب (تعالى) قال عنه المقريزي: «فأورد على أهل الإسلام شكوكاً أثرت في الملة الإسلامية آثاراً قبيحة، تولد عنها بلاء كبير ... فكثر أتباعه على أقواله التي تؤول إلى التعطيل، فأكبر أهل الإسلام بدعته، وتمالؤوا على إنكارها، وتضليل أهلها، وحذروا من الجهمية، وعادوهم في الله، وذموا من جلس إليهم، وكتبوا في الرد عليهم ما هو معروف عند أهله»[٣].

وأخرج البخاري رحمه الله في صحيحه[٤] عن سعيد بن المسيب أنه قال:

---

(١) سبب التسمية فيه خلاف واسع ، ليس هذا مجال استيعابه. وانظر: مفتاح السعادة ١٦٢/٢-١٦٣ومجموع فتاوى ابن تيمية ١٨٢/٣-١٨٤ ، وكتب المقالات والفرق.

(٢) التبصير في الدين ص : ٢٧-٢٩ وانظر : الفرقان بين الحق والباطل - ابن تيمية ص : ١٧٠وما بعدها ، والفرق للبغدادي ص : ١٤-٢٠ .

(٣) الخطط ٣٥٧/٢.

(٤) ٣٢٣/٧(الفتح) كتاب المغازي ح : ٤٠٢٤.

«وقعت الفتنة الأولى ـ يعني مقتل عثمان ـ فلم تُبْقِ من أصحاب بدر أحداً، ثم وقعت الفتنة الثانية ـ يعني الحرة [(١)] ـ فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طباخ» أي عقل وقوة. قال شارح الطحاوية رحمه الله معلقا: «فالخوارج والشيعة حدثوا في الفتنة الأولى، والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية، والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة. فصار هؤلاء: الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، يقابلون البدعة بالبدعة، أولئك غلوا في علي، وأولئك كفروه ! وأولئك غلوا في الوعيد حتى خلدوا بعض المؤمنين، وأولئك غلوا في الوعد حتى نفوا بعض الوعيد أعني المرجئة، وأولئك غلوا في التنزيه حتى نفوا الصفات، وهؤلاء غلوا في الإثبات حتى وقعوا في التشبيه ! وصاروا يبتدعون من الدلائل والمسائل ما ليس بمشروع، ويعرضون عن الأمر المشروع، ومنهم من استعان على ذلك بشيء من كتب الأوائل : اليهود والنصارى والمجوس والصابئين؛ فإنهم قرؤوا كتبهم، فصار عندهم من ضلالتهم ما أدخلوه في مسائلهم ودلائلهم، وغيروه في اللفظ تارة وفي المعنى أخرى، فلبَّسوا الحق بالباطل، وكتموا حقا جاء به نبيهم؛ فتفرقوا واختلفوا ...» [(٢)] .

---

(١) وهي حرة واقم إحدى حرتي المدينة ، وهي الشرقية، سميت برجل من العماليق اسمه واقم . وقيل : واقم اسم أُطُم من آطام المدينة إليه تضاف الحرة . وكانت فيها الوقعة المشهورة في أيام يزيد بن معاوية في سنة ٦٣ هـ وأمير الجيش من قِبَل يزيد هو : مسلم بن عقبة المُرِّي، وكان مسرفاً في الدماء ، قتل الآلاف من المهاجرين والأنصار والموالي، ونهب الأموال وسبى النساء والذرية ، واستباح الفروج ، ثم أحضر الأعيان لمبايعة يزيد على أنهم عبيد له، فمن تلكأ ضربت عنقه ...

(٢) شرح الطحاوية ٧٩٩/٢ .

الفرق الإسلامية والجدل

من أبرز الفرق التي كان لها باع في الجدل والمناظرة: الخوارج والشيعة والمعتزلة ثم الأشاعرة ونحوهم من متكلمة الإثبات. وكل فرقة من هذه الفرق ـ لا سيما الثلاث الأول ـ قد مزقتها الأهواء كل ممزق، وفرقها الجدل إلى فرق ونحل فاقت كل تصور، فربما كان مجلس المناظرة ينفض عن فرقتين أو ثلاث؛ يلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم بعضاً، وربما وصل الأمر إلى حد الاقتتال وهدر الأموال. **وإليك نماذج من جدل هذه الفرق:**

أولاً: الجدل عند الخوارج:

قد أجاد في وصف الخوارج، ونعْت حالهم الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله، وذلك في قوله: «هم أشد الفرق الإسلامية دفاعاً عن اعتقادهم، وحماسة لأفكارهم، وشدة في تدينهم، واندفاعاً وتهوراً فيما يدعون إليه، وما يفكرون فيه، وهم في اندفاعهم وتهورهم يستمسكون بألفاظ قد أخذوا بظواهرها وظنوها ديناً متبعاً لا يحيد عنه مؤمن، ولا يخالف سبيله إلا من مالت به نفسه نحو البهتان، ودفعته إلى العصيان، استرعت ألبابهم كلمة: "**لاحكم إلا لله**" فاتخذوها دينا ينادون به في وجوه مخالفيهم ويقطعون به كل حديث...

وقد استهوتهم فكرة البراء من عثمان وعلي، حيث اعتقدوا كفرهم وظلمهم، حتى احتلت أفهامهم واستولت على مداركهم استيلاءً تاماً، وسدت عليهم كل طريق للوصول إلى الحق. فمن تبرأ من عثمان وعلي

وطلحة والزبير والظالمين من بني أمية - حسب زعمهم - سلكوه في جمعهم، وأضافوه إلى عددهم، وتسامحوا معه في مبادئ أخرى من مبادئهم ربما كانت أشد أثراً، والخلاف فيها يبعده عنهم أكثر من الخلاف في هذا التبرؤ...

وكان فيهم حب الفداء والرغبة في الموت والاستهداف إلى المخاطر من غير داع قوي يدفع إلى ذلك، وكان منهم من يقاطع علياً في خطبته بل وفي صلاته، ومن يتحدى المسلمين محتسباً لله - ظناً منه أنه قربة يتقرب بها إليه - ولما قتلوا عبدالله بن خباب وبقروا بطن جاريته قال لهم علي ﷺ ادفعوا إلينا قتلته، قالوا: كلنا قتلته».[1]

فمن فظائعهم إكفار علي ﷺ لزعمهم أنه ترك حكم الله وحكّم الرجال، وقيل: إن أول من تلفظ بهذا رجل من بني سعد بن زيد بن مناة بن تميم، يقال له: الحجاج بن عبيدالله ويلقب بالبرك، وهو الذي ضرب معاوية ﷺ على أليته لما سمع بذكر الحكمين، وقال: أتُحَكّم في دين الله؟ لا حكم إلا لله، فلنحكم بما حكم الله في القرآن به، فسمعها رجل فقال: طعن والله فأنفذ...[2]

لم يتفق الخوارج على مختلف فرقهم إلا على مسائل قلائل هي: إكفار

---

(١) تأريخ الجدل ص: ١٤٦-١٤٨ (بتصرف). وانظر: خبر الخوارج مع عبدالله بن خباب في المعارف لابن قتيبة ص: ٣١٧، والفرق بين الفرق ص: ٧٦-٧٨، والإصابة - ابن حجر ٣٠٢/٢ رقم: ٤٦٤٧، وفتح الباري ٢٩٧/١٢.

(٢) انظر: الملل - الشهرستاني ١١٧/١.

علي رضي الله عنه، وتكفير مرتكب الكبيرة، وتخليده في النار، وإن كانت فرقة النجدات[١] تخالف في الأخيرتين كما ذكر ذلك الأشعري رحمه الله [٢] وما ذلك إلا لكثرة اختلافهم وشقاقهم، قال قتادة رحمه الله: «... ولعمري، لو كان أمر الخوارج هدى لاجتمع، ولكنه كان ضلالة فتفرق، وكذلك الأمر إذا كان من غير الله وجدت فيه اختلافاً كثيراً...»[٣] فربما يشجر الخلاف بينهم لأصغر الأمور وأحقرها، حتى كان ذلك سبباً وراء هزائمهم على الرغم من شجاعتهم واستبسالهم؛ فقد كان المهلب بن أبي صفرة الذي كان ترساً للمسلمين منهم، يتخذ الخلاف بينهم ذريعة لتفريقهم، وكسر شوكتهم، فإذا لم يجدهم يختلفون دفع إليهم من يثير الاختلاف بينهم[٤]. فيحكي ابن أبي الحديد أن المهلب دس إلى الأزارقة من الخوارج رجلاً من النصارى، وجعل له جعلاً يرغب في مثله، وقال له: إذا رأيت قطرياً ـ يعني قطري بن الفجاءة زعيم الأزارقة من الخوارج ـ فاسجد له، فإذا نهاك، فقل: إنما سجدت لك. ففعل النصراني ذلك. فقال قطري: إنما السجود لله(تعالى). فقال النصراني: ما سجدت إلا لك. فقال رجل من الخوارج: إنه قد عبدك من دون الله، وتلا قوله (تعالى): ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ

---

(١) النجدات: هم أتباع نجدة بن عامر الحنفي من الخوراج، كان مع نافع بن الأزرق ثم اختلف معه وبايعه جماعة، وأكفروا من قال بإمامة نافع، ومن قال بإكفار القعدة منهم عن الهجرة إليهم، ثم اختلف أصحاب نجدة عليه في أمور نقموها منه، فصاروا ثلاث فرق. انظر : الفرق بين الفرق ص: ٨٧ ، والملل والنحل ١/١٢٢.

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ١/١٦٧-١٦٨، والملل والنحل ـ الشهرستاني ١/١١٥.

(٣) الإبانة ـ ابن بطة ص: ٦٠٧-٦٠٨.

(٤) انظر: تأريخ الجدل لأبي زهرة ص :١٥٤.

جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٨] فقال قطري: إن النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم فما ضر عيسى ذلك شيئاً، فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله، فأنكر قطري ذلك عليه، وأنكر قوم من الخوارج إنكاره، وبلغ المهلب ذلك فوجه إليهم رجلاً يسألهم، فأتاهم الرجل فقال: أرأيتم رجلين خرجا مهاجرين لكم، فمات أحدهما في الطريق، وبلغ الآخر إليكم فامتحنتموه فلم يجز المحنة، ما تقولون؟ فقال بعضهم: أما الميت ففي الجنة، وأما الذي لم يجز المحنة فكافر حتى يجيز المحنة، وقال قوم آخرون: هما كافران حتى يجيزا المحنة، فكثر الاختلاف وخرج قطري إلى حدود إصْطَخْر فأقام شهراً والقوم في خلافهم واختلافهم، ثم أقبل فقال لهم صالح بن مخراق: يا قوم، إنكم قد أقررتم أعين عدوكم، وأطمعتموهم فيكم؛ لما ظهر من اختلافكم، فعودوا إلى سلامة القلوب، واجتماع الكلمة(١).

وأول من أجج الخلاف بين الخوارج نافع بن الأزرق ، والذي أحدثه البراءة من القعدة والمحنة لمن قصد عسكره وإكفار من لم يهاجر إليه، ويقال: إن المبتدع له رجل يقال له: عبد ربه الكبير، وقيل: بل ابتدعه: عبدا لله بن الوضين كان نافع قد خالفه في أول أمره وبرئ منه، فلما مات عبدا لله صار نافع إلى قوله وزعم أن الحق كان في يده و لم يُكفِّر نفسه بخلافه إياه حين خالفه، ولا أكفر الذين خالفوا عبدا لله قبل موته وأكفر من يخالفه فيما بعد(٢).

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة ٤٩/٢، والكامل للمبرد ٢٧٧/٢-٢٧٩ ، ورغبة الآمل للمرصفي ٩١/٨-٩٢ .

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ١٦٨/١-١٧٠، والفرق بين الفرق ص : ٨٣-٨٤ .

وكانت الأزارقة عقدت الأمر لقطري بن الفجاءة، وكان إذا خرج في السرايا استخلف رجلاً من بني تميم على العسكر وكانت فيه فظاظة، فشكت الأزارقة ذلك إليه، فقال: لستُ أستخلفه بعد، ثم إنه خرج في سرية وأصبح الناس في العسكر، فصلّى بهم ذلك الرجل الفجر، فقالوا لقطري: ألم تزعم أنك لا تستخلفه، وكان من الذين عاتبوه: عمرو القنا وعبيدة بن هلال وعبد ربه الصغير وعبد ربه الكبير، فقال لهم: جئتموني كفاراً حلالاً دماؤكم ؟ فقام صالح بن مخراق فلم يدع في القرآن موضع سجدة إلا قرأها وسجد، ثم قال : أكفاراً ترانا؟ تب مما قلت. فقال: ياهؤلاء إنما استفهمتكم، فقالوا: لابد من توبتك، فخلعوه، وصار قطري إلى طَبَرِسْتَان فغلب عليها(١).

وأخذ بعض أصحاب نجدة بن عامر عليه أشياء فاستتابوه ففعل، ثم إن طائفة منهم ندموا على استتابتهم إياه، وقالوا له: إن استتابتنا إياك خطأ؛ لأنك إمام وقد تبنا، فإن تبت من توبتك واستتبت الذين استتابوك وإلا نابذناك، فخرج إلى الناس فتاب من توبته، فاختلف أصحابه؛ فطائفة منهم أكفروه على ذلك(٢).

وكانت لهم رغبة شديدة في الجدل والمناظرة ومساجلة الآراء والمذاهب حتى في ساحات القتال، فقد كانوا يتواقفون مع خصومهم ويتجادلون مع

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ١/١٧٠-١٧٣.

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ١/١٧٥-١٧٦ ، والفرق بين الفرق ص : ٨٩ .

مقاتليهم، وقد ينشدون الأشعار، جاء في كتاب الأغاني[١] : كانت الشراة والمسلمون في حرب المهلب وقطري يتواقفون ويتساءلون بينهم عن أمر الدين وغير ذلك على أمان وسكن فلا يهيج بعضهم بعضاً، فتواقف يوماً عبيدة بن هلال اليشكري وأبو خُرابة التميمي وهما في الحرب، فقال عبيدة: يا أبا خُرابة، إني سائلك عن أشياء أفتصدقوني في الجواب عنها ؟ قال: نعم إذا ضمنت لي مثل ذلك. قال: قد فعلت. قال: فسل عما بدا لك، قال: ما تقولون في أئمتكم؟ قال: يبيحون الدم الحرام، والمال الحرام ، والفرج الحرام. قال: ويحك، فكيف فعلهم في المال؟ قال: يجبونه من غير حله، وينفقونه في غير حقه . قال: فكيف فعلهم في اليتيم؟ قال: يظلمونه ماله، ويمنعونه حقه. قال: ويحك يا أباخُرابة، أمثل هؤلاء تتبع؟! ... إلى آخر الحكاية.

وروى أبو الفرج[٢] أيضاً أن عبيدة اليشكري كان إذا تكاف الناس ناداهم: ليخرج إليَّ بعضكم، فيخرج إليه فتيان من العسكر ـ أي من عسكر المهلب بن أبي صفرة ـ فيقول لهم: أيما أحب إليكم؛ أقرأ عليكم القرآن أم أُنشدكم الشعر؟ فيقولون له: أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك، فأنشدنا. فيقول لهم : يا فسقة، وا لله قد علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن، ثم لا يزال ينشدهم ويستنشدهم حتى يملوا، ثم يفترقون .

(١) للأصفهاني ١٤٩/٦ .
(٢) الأغاني ١٥١/٦ .

قال أبو زهرة معلقاً: «وترى من هذا أن حب المناقشة والمناظرة قد استولى عليهم، حتى كانوا يتواقفون مع مقاتليهم ليجادلوهم ويساجلوهم الأفكار والمذاهب والأشعار»[١].

ثانياً: الجـدل عند الشيعة:

وقوام مذهب الشيعة تقديس الرجال ثم تقدير آرائهم من وراء ذلك التقديس، يزنون القول بقائله؛ ولهذا قالوا بعصمة أئمتهم، وساقوها في علي ﷺ ونسله من بعده، مع أن علياً ﷺ كان يقول: لا يعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف رجاله[٢]. بل الشيعة أنفسهم يروون عن جعفر الصادق قوله: من أخذ دينه من أفواه الرجال أزالته الرجال، ومن أخذ دينه من الكتاب والسنة زالت الجبال و لم يزل، وقال أيضاً: إياكم والتقليد؛ فإنه من قلد في دينه هلك[٣].

والشيعة يكثرون التحديث عن الرسول ﷺ في فضائل آل البيت، وغالب ذلك كذب وافتراء، فما في الطوائف طائفة أكذب من الشيعة، وإذا أعوزهم النص اتجهوا إلى التحريف الذي لا يعقله عقل خلا من الهوى وأدران الغرض مثل تأوليهم بعض المحرمات بأنها أبوبكر وعمر[٤].

سئل أبو عبدا لله محمد بن محمد النعمان الملقب بالمفيد عن أن المعتزلة

---

(١) تأريخ الجدل ص : ١٦٤ .

(٢) انظر: المنقذ من الضلال ص: ١٠٠ .

(٣) شرح عقائد الصدوق للشيخ المفيد وهو في ذيل أوائل المقالات له ص: ٢١٩.

(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣١/١٣-٣٢، ومنهاج السنة ٥٨/١ وما بعدها، وتأريخ الجدل ص:١٣٤.

والحشوية يزعمون أن الذي نستعمله من المناظرة شيء يخالف أصول الإمامية، ويخرج عن إجماعهم؛ لأن القوم لا يرون المناظرة ديناً، وينهون عنها، ويروون عن أئمتهم تبديع فاعلها ، وذم مستعملها فهل معك رواية عن أهل البيت في صحتها... فقال: أخطأت المعتزلة والحشوية فيما ادعوا علينا من خلاف جماعة أهل مذهبنا في استعمال المناظرة، وأخطأ من ادعى ذلك من الإمامية أيضاً، وتجاهل؛ لأن فقهاء الإمامية ورؤساءهم في علم الدين كانوا يستعملون المناظرة، ويدينون بصحتها، وتلقى ذلك عنهم الخلف ودانوا به...ثم أورد حديثا عن أبي عبدا لله الصادق جعفر بن محمد زعم أنه قال: خاصموهم وبينوا لهم الهدى الذي أنتم عليه، وبينوا لهم ضلالهم وباهلوهم في علي عليه السلام[1] . وفي كتاب المفيد هذا حكاية مناظرات لعلماء الشيعة جرت مع المعتزلة والخوارج والنصارى وغيرهم، تدور حول الإمامة والرجعة وغيرها من معتقدات الشيعة، وحول بعض الأحكام الشرعية.

وقال المفيد : «وما زالت الأئمة عليهم السلام يناظرون في دين ا لله سبحانه، ويحتجون على أعداء ا لله (تعالى) ، وكان شيوخ أصحابهم في كل عصر يستعملون النظر، ويعتمدون الحجاج، ويجادلون بالحق ويدمغون [يدفعون] الباطل بالحجج والبراهين، وكانت الأئمة عليهم السلام يحمدونهم

(١) كتاب العيون والمحاسن للشيخ المفيد ٢/١٣٣-١٣٤.

على ذلك ويمدحونهم ويثنون عليهم»[(١)] .

وزعم المفيد أن جعفر الصادق قال لبعض أصحابه: حاجوا الناس بكلامي، فإن حجوكم فأنا المحجوج، وزعم أنه قال لهشام بن الحكم: وقد سأله عن أسماء الله (تعالى) واشتقاقها، فأجابه عن ذلك، ثم قال له بعد الجواب: أفهمت ياهشام، فهماً تدفع به أعداءنا الملحدين في دين الله، وتبطل شبهاتهم، فقال هشام: نعم، فقال له: وفقك الله[(٢)] .

وقال المفيد : وأما الكلام في توحيد الله ونفي التشبيه[(٣)] عنه والتنزيه له والتقديس فمأمور به، ومُرَغَّب فيه، وقال ـ أيضاً ـ : وقد يصح النهي عن المناظرة للتقية[(٤)].

وكانوا إذا أمحلت بهم الحجة، وضعف لديهم الدليل وخشوا مجادلهم أن يسطو عليهم زعموا أنه لم يطق ما يعتقدون، ولم يدرك فكره ما وصلوا إليه وما تعمقوا فيه. جاء في العقد الفريد عن الأعمش قال : دخلت على المغيرة بن سعد ـ وقد كان رافضياً ـ فسألته عن فضائل علي، فقال : إنك لا

---

(١) عقائد الصدوق ص :٢١٧ .

(٢) انظر : شرح عقائد الصدوق ص:٢١٨.

(٣) هذا مذهب المتأخرين منهم، حينما تأثروا بالمعتزلة، وإلا فالمعروف عن الشيعة وقوعهم في التشبيه ، وهشام ابن الحكم المذكور آنفاً قد اتفق الناقلون للمقالات في الملل والنحل من جميع الطوائف حتى الشيعة على أنه يقول بالتشبيه كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. انظر : منهاج السنة ٢/٥٠١-٥٠٢ وانظر: الملل والنحل ١/١٨٤ .

(٤) شرح عقائد الصدوق ص:٢١٩.

تحتملها، قلت : بلى، فذكر آدم صلوات الله عليه، فقال: علي خير منه، ثم ذكر مَنْ دونه من الأنبياء، فقال : علي خير منهم، حتى انتهى إلى محمد ﷺ، فقال : علي مثله، فقلت : كذبت، عليك لعنة الله، قال : قد أعلمتك أنك لا تحتملها[(١)] .

وذكر الشيخ أبو زهرة رحمه الله أن أول ما كانوا يتوجهون إليه في دعوتهم وجدالهم أن يجيئوا إلى المسلم على براءته وصفاء نفسه من درن المذاهب، فيذكروا له بالثناء آل البيت، ويعطروا ألسنتهم بمدحهم، وأي مسلم لا يهتز قلبه لآل الرسول ﷺ ولا يتقبل بقبول حسن عبيق ذكرهم وأريج مدحهم، وهم سلالة النبي ﷺ وعترته وعصبته، وأقرباؤه الأطهار الأبرار، فإذا استدنوا سامعهم بعطر الثناء ذكروا المظالم الواقعة بهم والمآثم التي ارتكبت في جانبهم، وأي امرئ لا يألم لظلم نازل بالأبرار، فإذا أحسوا من سامعهم دنو قلبه من قلوبهم، وفكره من أفكارهم هجموا عليه بترهاتهم، وأباطيلهم وأهوائهم الفاسدة فمن عصمه الله نجا واكتفى بمحبة الطاهرين، ومن كتب الله عليه الشّقوة سقط فكان مع الآثمين[(٢)] .

وذكر القاضي أبوبكر الباقلاني[(٣)] نحواً من ذلك في أسلوب الباطنية في الدعوة، فقال رحمه الله: «قد اتفق جميع الباطنية ــ وكل مصنف لكتاب

---

(١) العقد الفريد ٢/٤٠٥ .

(٢) انظر: تأريخ الجدل ص: ١٣٣ .

(٣) نقل ذلك عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: منهاج السنة النبوية. انظر: ٨/٤٧٩ وما بعدها ، وانظر: شرح الطحاوية ٢/٧٤٠ .

ورسالة منهم في ترتيب الدعوة المضلة ـ على أن من سبيل الداعي إلى دينهم ورجسهم، المجانب لجميع أديان الرسل والشرائع ، أن يجيب الداعي إليه الناس بما يَبين وما يظهر له من أحوالهم ومذاهبهم ؛ وقالوا لكل داع لهم إلى ضلالتهم ما أنا حاك لألفاظهم وصيغة قولهم ، بغير زيادة ولا نقصان ، ليعلم بذلك كفرهم وعنادهم لسائر الرسل والملل؛ فقالوا للداعي: يجب عليك إذا وجدت من تدعوه مسلماً أن تجعل التشيع عنده دينك وشعارك، واجعل المدخل عليه من جهة ظلم السلف لعلي، وقتلهم الحسين، وسبيهم نساءه وذريته، والتبري من تيم وعدي، ومن بني أمية، وبني العباس، وأن تكون قائلاً بالتشبيه، والتجسيم، والبداء، والتناسخ، والرجعة، والغلو، وأن علياً إله! يعلم الغيب! مفوَّض إليه خلق العالم! وما أشبه ذلك من أعاجيب الشيعة وجهلهم، فإنهم أسرع إلى إجابتك بهذا الناموس، حتى تتمكَّن منهم مما تحتاج إليه أنت ومن بعدك ممن تثق به من أصحابك، فترقيهم إلى حقائق الأشياء حالاً فحالاً ... » إلى أن قال : «فإذا آنست من بعض الشيعة عند الدعوة إجابة ورشدا أوقفته على مثالب علي وولده ، وعرفته حقيقة الحق: لمن هو، وفيمن هو، وباطل بطلان كل ما عليه أهل ملة محمد ﷺ وغيره من الرسل ... » ثم ذكر أسلوب دعوة الباطنية في الدعوة مع الفيلسوف والثنوي .

ولهذا قيل كان الرفض باب الزندقة[1] .

ومع ذلك فالشيعة من أضعف الطوائف في المناظرة؛ لأنهم أجهل الناس

(١) انظر : شرح الطحاوية ٧٣٩/٢ .

بالمنقول والمعقول. قال ابن تيمية رحمه الله: «اتفق عقلاء المسلمين على أنه ليس في طائفة من طوائف أهل القبلة أكثر جهلاً وضلالاً وكذباً وبدعاً وأقرب إلى كل شر، وأبعد عن كل خير من طائفة الرافضة»[١].

وقال في موضع آخر: «فإن الرافضة في الأصل ليسوا أهل علم وخبرة بطريق النظر والمناظرة، ومعرفة الأدلة، وما يدخل فيها من المنع والمعارضة... »[٢].

وقد ذكر الخياط المعتزلي في كتابه: الانتصار[٣] شيئا من ذلك، حتى قال عن هشام بن الحكم الرافضي: «... وهل كان المضروب به المثل في الانقطاع عند أهل الكلام إلا هشام بن الحكم ؟! ولقد جمع بينه وبين أبي الهذيل العلاف بمكة وحضرهما الناس، فظهر من انقطاعه وفضيحته، وفساد قوله ما صار به شهرة في أهل الكلام. وهو مجلس محكي في أيدي الناس، معروف في أهل الكلام ... وكذلك كان السكاك بالأمس وهو أحد أصحاب هشام، لم يكلمه معتزلي قط إلا قطعه ...».

ولهذا فهم أجهل وأضل وأضعف من أن يناظروا علماء السنة، لكن يناظر بعضهم بعضاً[٤]، أو من هو شر منهم.

(١) منهاج السنة ٢/٦٠٧ (بتصرف).

(٢) منهاج السنة ١/٥٨.

(٣) ص: ١٤٢.

(٤) انظر: منهاج السنة ٢/٢٣٤.

ثالثا: الجدل عند المعتزلـة:

يذكر الملطي أن المعتزلة من الطوائف المخالفة لأهـل القبلـة وهـم أربـاب الكلام، وأصحاب الجدل والنظـر، والاحتجـاج علـى مـن خـالفهم، وأنـواع الكلام، وهم المفرقون بين علم السـمع وعلـم العقـل، والمنصفـون في منـاظرة الخصوم ... ثم ذكر أصولهم وذكر أن المعتزلة كلها متمسكون بالقول بذلك ويجادلون عليه، وقد وضعوا الكتب الكثيرة على من خالفهم، ويتـبرءون ممـن خالفهم فيها ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أوعشيرتهم، ثـم ذكـر أن منشأ الاعتزال كان في البصرة، فـأول ظهـوره كـان هنـاك، ثـم ببغـداد ، وعدد جماعة منهم وضعوا الكتب، وصنفوا في الفقه والكلام والجدال، وردوا على جميع المخالفين لهم من أهل الصلاة وغيرهم[(١)] .

وقد كان منشأ الاعـتزال علـى يـد واصـل بـن عطـاء، وهـو واحـد مـن المترددين على مجلس الحسن البصري، ووافق ذلك زمان فتنة الأزارقة، وكـان الناس يومئذ مختلفين في أصحاب الذنوب من أمة الإسلام على فرقتـين: فرقـة تزعم أن مرتكب الكبيرة كافر خارج عن ملة الإسـلام، وإذا مـات مـن غـير توبة كان من أهل الخلود في النار، وهـم الخـوارج. وفرقـة تزعـم أنـه مؤمـن كامل الإيمـان، لا يضـره شـيء مـن فعـل المحرمـات أو تـرك الواجبـات وهـم المرجئة، وكان علماء التـابعين في ذلـك العصـر مـع أكـثر الأمـة يقولـون: إن صاحب الكبيرة من أمة الإسـلام: مؤمـن لمـا فيـه مـن الإيمـان، ولكنـه فاسـق بكبيرته، وفسقه لا ينفي عنه مسمى الإيمان، وعلى هذا مضى سلف الأمة من الصحابة وأعلام التابعين.

---

(١) انظر : التنبيه والرد ص : ٣٥ -٣٨ .

فلما ظهرت فتنة الأزارقة من الخوارج بالبصرة والأهواز، واختلف الناس في أصحاب الذنوب ـ على ما ذكر ـ خرج واصل بن عطاء عن قول جميع الفرق، وزعم أن الفاسق في منزلة بين المنزلتين: منزلة الكفر ومنزلة الإيمان، فلما سمع الحسن منه بدعته هذه طرده من مجلسه، فاعتزل واصل عند سارية من سواري المسجد، وانضم إليه قرينه في الضلال: عمرو بن عبيد، فقال الناس يومئذ: إنهما قد اعتزلا قول الأمة، وسمي أتباعهما من ذلك الوقت: **بالمعتزلة**[(١)] .

والأصول الخمسة التي شاعت عن المعتزلة وهي: التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي التي تضافروا على تأييدها ، وتآزروا على نصرها،وعقدوا المناظرات والمجادلات لتقريرها والرد على من خالفهم فيها.

وكانت المعتزلة من أكثر الفرق نشاطاً في الجدل، وقد عاونهم على ذلك عدة أمور؛ من أهمها:

١- ما امتاز به شيوخهم من البراعة في اللسان والغزارة في العلوم لا سيما العقلية، والقدرة على الجدل والمناظرة، وسرعة البديهة في استحضار الدليل:

قال أبو حنيفة رحمه الله: «لم يكن في طبقات أهل الأهواء أحد أجدل من المعتزلة؛ لأن ظاهر كلامهم مموه تقبله القلوب»[(٢)] .

---

(١) انظر: الفرق ـ البغدادي ص: ١١٧-١١٨، والتبصير ص: ٦٤-٦٥، والملل ـ الشهرستاني ٤٦/١، ٤٨، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٣٧/١٣-٣٨.

(٢) مفتاح السعادة ١٥٤/٢.

وقيل في واصل إنه كان من أعلم الناس بكلام غالية الشيعة، ومارقة الخوارج، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين، والرد عليهم[(١)].

وسئلت عنه زوجته، فقالت: كان واصل إذا جنه الليل صف قدميه يصلي ولوح ودواة موضوعان، فإذا مرت آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها، ثم عاد في صلاته[(٢)].

وفي كتاب طبقات المعتزلة[(٣)]: أن الجهم استعان بواصل في الرد على السمنية، وأن السمنية خرجوا إلى واصل وقابلوه وأجابوه إلى الإسلام. وفيه أيضاً أن واصلا أرسل داعيته حفص بن سالم إلى خراسان، ويبدو أن الغاية من ذلك هداية السمنية من ناحية، ومن ناحية أخرى نشر المذهب الاعتزالي، وأنه التقى جهما واختلفا، فتناظرا في مسجد تِرْمِذ، وأن حفصاً ظهر عليه، فرجع جهم عن قوله، فلما عاد حفص إلى البصرة رجع جهم إلى قوله الأول[(٤)].

وقال الملطي في أبي الهذيل العلاف : "وأبو الهذيل هذا لم يُدرك في أهل الجدل مثله، وهو أبوهم وأستاذهم"[(٥)].

---

(١) انظر: فرق وطبقات المعتزلة ص: ٤٢-٤٣، والمنية والأمل ص: ٣٤.

(٢) فرق وطبقات المعتزلة ص : ٤٤ والمنية والأمل ص : ٣٤ .

(٣) انظر : فرق وطبقات المعتزلة ص : ٤٦-٤٧ .

(٤) انظر : فرق وطبقات المعتزلة ص : ٤٤.

(٥) التنبه والرد ص : ٣٩ .

وقال المبرد: ما رأيت أفصح من أبي الهذيل والجاحظ، وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة، شهدته في مجلس وقد استشهد في جملة كلامه بثلاثمائة بيت[١]. وقال الشهرستاني عن أبي الهذيل: جرت بينه وبين هشام بن الحكم مناظرات في أحكام التشبيه[٢]. وقد تقدم كلام الخياط عنه: وأنه جُمع بينه وبين هشام بن الحكم بمكة وحضرها الناس فظهر من انقطاع هشام وفضيحته وفساد قوله ما صار به شهرة في أهل الكلام[٣]. وقال عنه القاضي عبد الجبار: ومناظراته مع المجوس والثنوية وغيرهم طويلة ممدودة، وكان يقطع الخصم بأقل كلام، يقال إنه أسلم على يديه زيادة على ثلاثة آلاف رجل[٤].

ولأبي الهذيل مع صالح بن عبد القدوس الفيلسوف الذي كان على رأي الثنوية مناظرات، كان الفلج فيها حليف أبي الهذيل، منها ما جرى بينهما حين مات لصالح ولد، فذهب إليه أبو الهذيل معزياً ومعه النظام و هو غلام حدث، فلما رآه حزيناً قال له: لا أعرف لجزعك وجهاً إلا إذا كان الإنسان عندك كالزرع[٥]، فقال: إنما أجزع؛ لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك، قال: وما كتاب الشكوك، قال: كتاب وضعته، من قرأ فيه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان. قال أبو

(١) التنبيه والرد ص : ٥٦.

(٢) الملل والنحل ١/٣٠ .

(٣) الانتصار ص: ١٤٢.

(٤) طبقات المعتزلة ص: ٥٦ .

(٥) هذا مذهب الدهرية، حيث إنهم يقولون: ما الناس إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، لا خالق ولا مدبر، ولا بعث ولا نشور ولا حساب، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

الهذيل: فشك أنت في موت ابنك، واعمل على أنه لم يمت وإن كان قد مات، وشك أنه قد قرأ الكتاب وإن كان لم يقرأه، فلم يحر صالح جواباً[(١)].

ومن المعتزلة: عباد بن سليمان الذي ملأ الأرض كتباً وخلافاً، وخرج عن حد الاعتزال ـ كما يقول صاحب التنبيه- إلى الكفر والزندقة؛ لحدة نظره وكثرة تفتيشه[(٢)]. ومنهم: أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي الذي سهَّل الجدال على الناس، ثم خرج ابنه: أبو هاشم، فوضع مائة وستين كتاباً في الجدل في أيام قلائل[(٣)].

٢- اتصالهم بالخلفاء والأمراء وتأثيرهم فيهم، وتبنيهم المنازل المرموقة، حتى استعدوهم على خصومهم: فعمرو بن عبيد كان صفياً لأبي جعفر المنصور وصديقاً له. وأبو الهذيل العلاف كان أستاذاً للمأمون؛ يقول كمال الدين الدميري: «وعقد المأمون المجالس في خلافته للمناظرة في الأديان والمقالات، وكان أستاذه فيها أبا الهذيل العلاف»[(٤)].

ويحكى عن يحيى بن أكثم المعتزلي أن المامون كان إذا دخل عليه هشام بن عمرو الفوطي المعتزلي يتحرك له حتى يكاد يقوم[(٥)].

وقيل: إن ثمامة بن أشرس التميري هو الذي أغوى المأمون بأن دعاه إلى الاعتزال[(٦)].

---

(١) فرق وطبقات المعتزلة ص: ٥٨، والمنية ص: ٤٦، ولامية العجم ١/٨١ .

(٢) انظر: التنبيه والرد ـ الملطي ص: ٣٩، وانظر فرق وطبقات المعتزلة ص: ٨٣.

(٣) انظر: التنبيه والراد ـ الملطي ص: ٣٩-٤٠، ولا يخفى عليك ما في هذا الكلام من المبالغة.

(٤) انظر: حياة الحيوان الكبرى ـ الدميري ١/٧٨ بتصرف.

(٥) انظر: فرق وطبقات المعتزلة ص: ٦٩.

(٦) انظر: الفرق بين الفرق ص: ١٧٣.

ومحنة القول بخلق القرآن مشهورة ومعروفة، وفيها تبنى المأمون القول بخلق القرآن: وحاول أن يحمل الأمة عليه، ثم استمرت تلك الفتنة مدة خلافة المعتصم والواثق لوصية المأمون بذلك، وأضاف الواثق إلى ذلك نفي الرؤية، حتى جاء المتوكل فرفع الله به هذه المحنة عن الناس[١].

٣- اختلاطهم بالفلاسفة وغيرهم من الملاحدة؛ فالنظام كان في شبابه قد عاشر قوماً من الثنوية، وقوماً من السمنية وخالط بعد كبره قوماً من ملاحدة الفلاسفة، ثم خالط هشام بن الحكم الرافضي، فتأثر بهؤلاء جميعاً في مقالاته المخالفة[٢].

ومر بنا أن شيوخ المعتزلة قد طالعوا كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون وخلطوا بها مناهجهم وسموا ذلك باسم الكلام.[٣] فعلق بنفوس هؤلاء النظار ـ المعتزلة ـ ما لا يستهان به من أمراض عقلية عدت عليهم من مناظريهم[٤].

ومع ذلك فقد شارك المعتزلة في التصدي للمجوس والثنوية واليهود والنصارى والرافضة وغيرهم من ملل الكفر والانحراف العقدي ممن هم شر من المعتزلة، وجرت لهم مع هؤلاء مناظرات كان الفلج فيها والغلبة مع المعتزلة، وهكذا كل من كان إلى الحق أقرب كان لخصمه أقطع، وإن كان

(١) انظر: مقدمة تبيين كذب المفتري ص: ١٣-١٤.

(٢) انظر: الفرق بين الفرق ص: ١٣١، والملل للشهرستاني ١/٥٣، ٥٤.

(٣) انظر: الملل للشهرستاني ١/٣٠.

(٤) انظر: مقدمة تبيين كذب المفتري ص: ١٣.

المعتزلة قد التزموا أشياء مخالفة للحق والسنة تقلدوها من خصومهم في مضايق المناظرات، وبعضها هي من لوازم مذاهبهم الفاسدة.

ومن طرائف هذه المناظرات[(١)] ما وقع بحضرة المأمون حين دخل عليه رجل من الحسبانية، فقال لثمامة بن أشرس كلمه، فقال له: ما تقول؟ وما مذهبك؟ فقال: أقول: إن الأشياء كلها على التوهم والحسبان، وإنما يدرك الناس منها على قدر عقولهم، ولا حق في الحقيقة. فقام إليه ثمامة فلطمه لطمة سودت وجهه. فقال: يا أمير المؤمنين، يفعل بي مثل هذا في مجلسك، فقال له ثمامة : وما فعلت بك؟ قال: لطمتني. قال: ولعل إنما دهنتك بالبان[(٢)]، ثم أنشأ يقول:

ولعل آدم أمنا والأب حواء في الحساب
ولعل ما أبصرت من بيض الطيور هو الغراب
وعساك حين قعدت قمت وحين جئت هو الذهاب
وعسى البنفسج زئبقا وعسى البهار هو السَّذاب[(٣)]
وعسى تأكل من خراك وأنت تحسبه الكباب

وتعصب المعتزلة لخلافاتهم تعصباً شديداً حتى تفرقوا، وتجاوزت فرقهم العشرين فرقة، كما انقسموا إقليمياً إلى قسمين عظيمين: مدرسة بغداد

(١) العقد الفريد ٢/٤٠٧-٤٠٨.

(٢) هو الشجر المعروف، ورقه شديد الخضرة، له حب يُستخرج منه دهن البان. انظر : لسان العرب ١٣/٧٠.

(٣) السذاب نوع من البقول .

ومدرسة البصرة، واشتد الجدال بين رجال المدرستين حتى كفر بعضهم بعضاً، بل إن أصحاب المدرسة الواحدة يقع بينهم التكفير[(١)] .

يقول عبد القاهر البغدادي رحمه الله :«والبصريون من المعتزلة يكفرون البغداديين منهم، والبغداديون يكفرون البصريين، وكلا الفريقين صادق في تكفير الفريق الآخر»[(٢)] وقال الملطي رحمه الله: «واعلم أن للمعتزلة من الكلام ما لا أستجيز ذكره؛ لأنهم قد خرجوا عن أصول الإسلام إلى فروع الكفر»[(٣)] .

ومما قوى الروح الجدلية عند المعتزلة ما ذكره الإسفرائيني في كتابه: التبصير في الدين[(٤)]: أن مما اتفق عليه المعتزلة: أن العبد لا يحصل له صفة الإيمان حتى يعلم جميع ما هو شرط في اعتقادهم، ويبلغ في معرفته درجة علمائهم كأبي الهذيل والنظام وغيرهما، ويقدر فيه على تقدير الدلالة، ويتمكن من المناظرة والمجادلة، ومن لم يبلغ تلك الدرجة كان كافراً لا يحكم له بالإيمان؛ ولهذا حكموا بالكفر على جميع عوام المسلمين.

يقول أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله وهو يتكلم في ذم أهل الكلام: «ومن قبيح ما يلزمهم في اعتقادهم، أنا إذا بينا الحق على ما قالوه، وأوجبنا

---

(١) انظر : الفرق ص : ١٢٢، ١٣٢، ١٥٦، ١٦٥-١٦٦، والتنبيه والرد ص : ٤٠

(٢) الفرق بين الفرق ص : ١٨٢ .

(٣) التنبيه والرد ص : ٤١.

(٤) ص : ٦٣ وانظر : فيصل التفرقة ـ الغزالي ص : ٢٠٢ ، والمفهم ـ القرطبي ص : ١١١-١١٢ باب كراهة الخصومة في الدين...(مخطوط) .

طلب الدين بالطريق الذي ذكروه، وجب من ذلك تكفير العوام بأجمعهم؛ لأنهم لا يعرفون إلا الاتباع المجرد، ولو عرض عليهم طريق المتكلمين في معرفة الله تعالى ما فهمه أكثرهم؛ فضلاً من أن يصير فيه صاحب استدلال وحجاج، وإنما غاية توحيدهم التزام ما وجدوا عليه سلفهم، وأئمتهم في عقائد الدين، والعض عليها بالنواجد، والمواظبة على وظائف العبادات، وملازمة الأذكار بقلوب سليمة طاهرة عن الشبهات والشكوك، تراهم لا يحيدون عما اعتقدوه، وإن قطعوا إرباً إرباً.

فهنيئا لهم هذا اليقين، وطوبى لهم هذه السلامة، فإذا كفروا هؤلاء وهم السواد الأعظم وجمهور الأمة، فما هذا إلا طي بساط الإسلام، وهدم منار الدين وأركان الشريعة، وإلحاق هذه الدار بدار الكفر، وجعل أهليهما بمنزلة واحدة، ومتى يوجد في الألوف من المسلمين على الشرط الذي يراعونه بتصحيح معرفة الله تعالى؟ أو لا [يوجد](١) مسلم ألمَّ هذه المقالة القبيحة الشنيعة؟ والله تعالى يكفي أهل السنة الجماعة شرهم ويرد كيدهم في نحرهم، ويلحق بهم عاقبة مكرهم»(٢).

رابعاً: الجدل عند الأشاعرة ونحوهم من متكلمة الإثبات:

إمام الأشاعرة: أبو الحسن الأشعري رحمه الله الذي عاش في الاعتزال أربعين سنة، وتتلمذ على أبي علي الجبائي المعتزلي، وكان يكثر من مناظرته،

(١) في الأصل : [يجد] ولعل الصحيح ما أثبته .

(٢) الحجة في بيان المحجة ـ لأبي القاسم الأصبهاني ٢/١٤٥-١٤٦ .

وله في الظهور عليه مجالس[(١)]، من أشهرها مناظرة وقعت بينهما في بعض مسائل التحسين والتقبيح، ألزم الأشعري أستاذه أموراً لم يخرج عنها بجواب، فأعرض عنه أبو الحسن، وأعلن توبته مما كان عليه، وانحاز لنصرة مذهب أهل السنة، لكن على قاعدة كلامية، وهو ما يعرف بمذهب الأشعرية[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأبو الحسن الأشعري لما رجع عن مذهب المعتزلة، سلك طريقة ابن كُلاب، ومال إلى أهل السنة والحديث، وانتسب إلى الإمام أحمد كما قد ذَكَرَ ذلك في كتبه كلها؛ كالإبانة والموجز والمقالات وغيرها، وكان مختلطاً بأهل السنة والحديث كاختلاط المتكلم بهم، بمنزلة ابن عقيل عند متأخريهم، لكن الأشعري وأئمة أصحابه أتبع لأصول الإمام أحمد وأمثاله من أئمة السنة من مثل ابن عقيل في كثير من أحواله، وممن اتبع ابن عقيل كأبي الفرج في كثير من كتبه، وكان القدماء من أصحاب أحمد كأبي بكر عبد العزيز وأبي الحسن التميمي وأمثالهما يذكرونه في كتبهم على طريق ذكر الموافق للسنة في الجملة، ويذكرون ما ذكره من تناقض المعتزلة»[(٣)] وقال رحمه الله في موضع آخر: «فإنه ــ أي الأشعري - بيَّن من فضائح المعتزلة وتناقض أقوالهم وفسادها ما لم يبينه غيره؛ لأنه كان منهم، وكان قد درس الكلام على أبي علي الجبائي أربعين سنة، وكان ذكياً، ثم إنه رجع عنهم، وصنف في الرد عليهم، ونصر في الصفات

---

(١) انظر : عيون المناظرات ص: ٢٢٨-٢٣٠.

(٢) انظر: الملل ـ الشهرستاني ٣٢/١، وتبيين كذب المفتري ص: ٣٩، وعيون المناظرات ص: ٢٢٦-٢٢٧، وشرح لامية العجم ٨١/١ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل ١٦/٢.

طريقة ابن كلاب؛ لأنها أقرب إلى الحق والسنة من قولهم، و لم يعرف غيرها، فإنه لم يكن خبيراً بالسنة والحديث وأقوال الصحابة والتابعين وغيرهم»[١].

وللأشعري رحمه الله جهود في الرد على الطوائف الضالة من القدرية ونحوهم، وكان يقصد أهل الاعتزال وفرق الضلال بنفسه ويناظرهم؛ فقيل له: قد أمرت بهجرانهم. فقال: هم أولو رئاسة؛ منهم الوالي، والقاضي، فلا ينزلون إلي، فإذا لم أسر إليهم كيف يظهر الحق، ويعلمون أن له ناصراً لحجته[٢].

وقال فيه أبوبكر الصيرفي الشافعي رحمه الله: كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم، حتى أظهر الله أبا الحسن الأشعري، فحجزهم في أقماع السمسم»[٣] ونحو هذه العبارة ذكرها ابن تيمية[٤]، وبين رحمه الله سبب ذلك وهو أن الأشعري ـ كما تقدم ـ كان من المعتزلة وبقي على مذهبهم أربعين سنة يقرأ على الجبائي، فلما انتقل عنهم، كان خبيراً بأصولهم وبالرد عليهم وببيان تناقضهم[٥].

وللأشعري رحمه الله ـ أيضاً ـ جهود في رد صيال الفلاسفة والملاحدة؛ فقد روي أن نصرانياً متفلسفاً ورد من بلاده على الخليفة ببغداد يطلب

(١) منهاج السنة ٥/٢٧٦-٢٧٧ .

(٢) انظر: عيون المناظرات ص :٢٢٦.

(٣) لامية العجم ١/٨٠ ، والسير ١٥/٨٦ ، والخطط للمقريزي ٢/٣٥٩.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى ٥/٥٥٦.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى ١٣/٩٩.

المناظرة لعلماء المسلمين على قدم العالم، والتزم - إن قامت عليه الحجة ــ أن يرجع إلى الإسلام، فرأى الخليفة أن يجمع له علماء العصر من أصول الدين؛ فبعث إلى الصالحي من خراسان، والجبائي وهما من شيوخ المعتزلة، والأشعري من البصرة، والكعبي المعتزلي من بغداد، وجمعهم للكلام مع الرجل في مسألة حدوث العالم والرد عليه، فلما اجتمعوا للمناظرة قدموا الصالحي لكبر سنه فلم يقطع الرجل، ثم جاء غيره، وغيره حتى صارت النوبة للأشعري فقطعه، ودخل هو وقومه الإسلام.[(١)]

تقدم أن الأشعري تأثر بطريقة ابن كلاب؛ وذلك أنه لما ترك الاعتزال مال إلى طريقة ابن كلاب وتأثر بها، وابن كلاب كان شديداً على المخالفين، واسمه يشير إلى ذلك؛ فقد لقب به لأنه كان لقوته في المناظرة يجذب من يناظره كما يجذب الكلاب الشيء[(٢)]. ويذكر السبكي[(٣)] أنه رأى الإمام ضياء الدين الخطيب والد الفخر الرازي قد ذكر في آخر كتابه: غاية المرام في علم الكلام، فقال : ومن متكلمي أهل السنة في أيام المأمون: عبدا لله بن سعيد التميمي، الذي دمَّر المعتزلة في مجلس المأمون، وفضحهم ببيانه. ويذكر ابن تيمية رحمه ا لله أن ابن كلاب وأضرابه كالقلانسي والمحاسبي والأشعري حاولوا الرد على المعتزلة من طريق العقل[(٤)].

---

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) انظر : طبقات الشافعية ـ السبكي ٢/٢٩٩.

(٣) انظر : طبقات الشافعية ٢/٣٠٠ .

(٤) موافقة صريح المعقول ٢/٤٦ .

وقد أدى هذا إلى حقد المعتزلة على ابن كلاب حقداً مريراً؛ فهذا ابن النديم المعتزلي يؤرخ له بقوله: «ابن كلاب من نابتة الحشوية... وله مع عباد بن سليمان مناظرات. وكان يقول: إن كلام الله هو الله. وكان عباد يقول: إنه نصراني بهذا القول»[١] وذكروا أنه أخذ هذا القول عن النصارى عن رجل يدعى: فيثون، في دار الروم[٢].

ولهذا يذكر ابن تيمية رحمه الله أن الجهمية افترت على المثبتة وشيخهم الكبير ابن كلاب لإثباته الصفات ولتصنيفه الكتب في الرد على النفاة، فقالوا: إنه كان نصرانياً ثم أسلم لإفساد دين المسلمين، ويبين ابن تيمية : أن مقصود الجهمية بهذا أن يصلوا بين قول ابن كلاب في إثبات الصفات وقول النصارى في إثبات الأقانيم، وأن ابن كلاب أخذ مذهبه عنهم، وأخذ هذه الحكاية بعض السالمية وبعض أهل الحديث والسنة يذم بها ابن كلاب لما أحدث من القول في مسألة خلق القرآن، و لم يعلم أن الذي عابه بها هم أبعد عن الحق في مسألة القرآن وغيرها[٣].

ومن المعاصرين للأشعري: أبو المنصور الماتريدي رحمه الله، وله جهود في الرد على المعتزلة والقرامطة والرافضة[٤]. وكان بين الماتريدية والأشعري

(١) الفهرست ـ ابن النديم ص: ٢٣٠ .

(٢) انظر: المرجع السابق ص: ٢٣٠.

(٣) انظر: منهاج السنة ٢/٤٩٨، ودرء تعارض العقل والنقل ٦/١٥٥.

(٤) انظر: مفتاح السعادة ٢/١٥١-١٥٢.

اختلاف في بضع عشرة مسألة، كان بسببها في أول الأمر تباين وتنافر، إلا أن الأمر آل أخيراً إلى الإغضاء [١].

وقرر طريقة الأشعري جماعة منهم: أبوبكر الباقلاني، وأبوإسحاق الإسفرائيني، ومن المتأخرين: الفخر الرازي (رحمهم الله)، ولهؤلاء وغيرهم جهود في المناظرة اشتهروا بها. ويعترف الصاحب بن عباد المعتزلي بمهارة أئمة الأشاعرة في المناظرة ، كما حكى عنه ابن عساكر، فقال : «حكى لي من أثق به أن الصاحب ابن عباد كان إذا انتهى إلى ذكر الباقلاني وابن فورك والإسفرائيني ـ وكانوا متعاصرين من أصحاب الأشعري ـ قال لأصحابه: ابن الباقلاني بحر مغرق، وابن فورك صلٌّ مطرق[٢]، والإسفرائيني نار تحرق»[٣].

وجاء في ترجمة الباقلاني عند القاضي عياض[٤] : لسان الأمة ، المتكلم على مذهب المثبتة وأهل الحديث، وطريقة أبي الحسن الأشعري ... وكان حسن الفقه، عظيم الجدل... وأن سائر الفرق رضيت بالقاضي أبي بكر في

---

(١) انظر : الخطط المقريزية ٣٥٩/٢ . وألّف في هذه المسائل: عبدالرحيم بن علي الشهير بشيخ زاده، كتاب نظم الفرائد وجمع الفوائد في بيان المسائل التي وقع فيها الاختلاف بين الماتريدية والأشعرية في العقائد، مع ذكر أدلة الفريقين . وقد أوصلها إلى أربعين مسألة.

(٢) الصِّلُّ: الحية التي تقتل من ساعتها، وقيل: هي التي لا تنفع فيها الرقية. وقيل: هو الداهية الشديد في الخصومة وغيرها. انظر: لسان العرب ٣٨٥/١١ مادة صلل. المطْرق : من الطرق وهو سرعة المشي، والطرق هو الضرب كما في حديث: ومن طوارق الليل والنهار. انظر: لسان العرب١٠ /٢١٧ مادة طرق.

(٣) تبيين كذب المفتري ص: ٢٤٤، وانظر: طبقات الشافعية ـ السبكي ٢٥٧/٤.

(٤) انظر: ترتيب المدارك ٥٨٥/٤-٥٨٦.

الحكم بين المتناظرين... وما سر أهل البدع بشيء كسرورهم بموته...

ومما جاء في مآثر الباقلاني رحمه الله: أن الملك أبا شجاع عضد الدولة كان محباً للعلوم، راغباً في مناظرة العلماء في مجلسه، فصنع لذلك إيواناً، فجمع فيه الفرق وأصحاب النحل والملل، فقال يوما لقاضيه: بشر بن الحسين، وكان معتزلياً: مجلسنا هذا عامر بالعلماء، ولا أرى فيه أحداً من أهل الإثبات ... فقال له قاضيه: هم أصحاب تقليد ورواية، ولا أرى أحداً منهم يقوم بهذا ـ يعني المناظرة ـ فقال له الملك: محال، مذهب طبق الأرض أن يخلو عن ناصر، فانظر أي موضع ظننتم فيه مناظراً اكتب إليه يحضر مجلسنا. فقال له بشر: أُخبرت أن بالبصرة رجلين : شيخ وشاب؛ الشيخ يعرف بابن المجاهد، والشاب يعرف بابن الباقلاني، فكتب الملك إلى عامله بالبصرة، وأطلق مالاً لذلك ... فوصل الكتاب، فتورع ابن المجاهد عن الذهاب. وقال: هؤلاء قوم لا يحل لي أن أطأ بساطهم؛ غرضهم أن يقال: مجلسهم مشتمل على أصحاب المحابر كلها، ولو كان ذلك لله كانت أمورهم جارية على سداد، وأنا لا أحضر عند قوم هذا وصفهم.

قال القاضي أبوبكر : فقلت له : كذا قال ابن كلاب والمحاسبي ومن كان في عصرهم من المتكلمين: إن المأمون لا يُحضر مجلسه ، حتى ساق ابن حنبل إلى طَرَسُوس، فلما مات المأمون رُد إلى المعتصم فضربه، فهؤلاء أسلموه، ولو مرُّوا وناظروا لكَفَوْه، وكذلك أنت أيها الشيخ، تسلك سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ما جرى على ابن حنبل. وها أنا خارج إن لم تخرج، فخرجت عوضاً عنه...

وقد حضر المجلس من معتزلة البصرة خلق كثير، وكان في المجلس

الأحدب رئيس معتزلة بغداد، وجرت المناظرة في مسائل التكليف بما لا يطاق والرؤية، وأجاب القاضي بمذهب الأشاعرة وقطعهم في ذلك كله[(١)] .
وجرى له - أي الباقلاني - في هذا المجلس كلام كثير أُعجب به الملك، ولم يزل يحلو له كلامه، ويزحف عن سريره حتى نزل عنه... ثم أقبل على قاضي القضاة، فقال له: ألم أقل لك: مذهب طبق الأرض لا بد له من ناصر[(٢)] .

وذكر بعض العلماء في هذه المناظرة أن القاضي الباقلاني لما دخل المجلس اضطربت المعتزلة يناجي بعضهم بعضاً في أمره، فسمع القاضي واحداً منهم يناجي صاحبه على بعد وهو يقول له: إني لأرى هذا الشاب حديد الذهن، يتوقد ذكاء، فقال الآخر: ما هو إلا شيطان. فرفع القاضي صوته يقرأ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [سورة مريم: ٨٣] فأُسقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد رموا منه بداهية[(٣)].

وأما أبوإسحاق الإسفرائيني رحمه الله فمن مواقفه: المناظرة المشهورة بينه وبين القاضي عبدالجبار الهمداني، وذلك أن أبا إسحاق حضر في دار الصاحب إسماعيل بن عباد، فدخل القاضي عبد الجبار وكان رئيس المعتزلة، فلما رأى أبا إسحاق قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء. فقال أبو إسحاق

---

(١) انظر: المدارك ٤/٥٩٠-٥٩٣، وتبيين كذب المفتري ص: ١١٨-١٢٠، وعيون المناظرات ص: ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) انظر: ترتيب المدراك ٤/٥٩٣.

(٣) انظر: عيون المناظرات ص: ٢٤٤، ونحوه في تأريخ بغداد ٥/٣٧٩، وترتيب المدارك ٤/٥٨٩.

في الحال: سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء. قال بعض العلماء: تأملوا هاتين الكلمتين، فإن كل واحد منهما جمع دلائل مذهبه في كلمته.

وتمام المناظرة: أن عبدالجبار قال: أفيريد ربنا أن يعصى؟ فقال له أبو إسحاق: أفيعصى ربنا قهراً؟ فقال عبدالجبار: أرأيت إن منعني الهدى وقضى علي بالردى، فقد أحسن إلي أم أساء ؟! فقال له الأستاذ : إن كان منعك ما هو لك فقد أساء، وإن كان منعك ما هو له، فيختص برحمته من يشاء(١).

وأما الفخر الرازي، فقد لاقى في حياته متاعب كثيرة بسبب مجادلاته ومناظراته مع الفرق والطوائف، ومن أشهرها: المعتزلة والكرامية، وكم من مرة أخرج من بلد لهياج الفتنة بعد خطبة منه، أو مناظرة شديدة مع معتزلي أو شيخ من شيوخ الكرامية؛ ففي خوارزم ـ حيث كان كثير من المعتزلة ـ ناظر الرازي شيوخ المعتزلة، محاولاً إبطال مذهبهم، فضيقوا عليه الخناق حتى خرج من مدينتهم(٢).

وقال الرازي في كتابه المناظرات(٣): «لما دخلت بلاد ما وراء النهر وصلت أولاً إلى بلدة بخارى، ثم إلى سمرقند، ثم انتقلت منها إلى خُجَنْد ثم انتقلت إلى المسماة بِنَاكِت، واتفقت لي في كل واحدة من هذه البلاد مناظرات ومجادلات مع من كان فيها من الأفاضل والأعيان» ثم ذكر الرازي نماذج من مناظراته في هذا الكتاب، وبعض هذه المناظرات في مسائل الفقه وأصوله. ولما قدم طوس أنزلوه في صومعة الغزالي، واجتمعوا عنده

(١) انظر: عيون المناظرات ص : ٢٥٥-٢٥٦، وطبقات الشافعية ـ السبكي ٢٦١/٤-٢٦٢.

(٢) انظر: طبقات الشافعية ـ السبكي ٨٦/٨ ، وفخر الدين الرازي ـ للرزكان ص: ٢٢.

(٣) ص: ٢.

للمناظرة[١].

وللرازي مناظرة في الرد على النصارى، أشار إليها في تفسيره[٢]، وطبعت كاملة ومستقلة[٣].

فهذا جانب من جهود الأشاعرة في الجدل والمناظرة، ومغالبة الخصوم ممن هم دونهم، ولا يخفى ما علق بكلامهم من الأقوال الفاسدة التي سرت إليهم من خصومهم، أو التزموها في مضايق المناظرات، لكن مع ذلك يُنتفع بكلامهم وردودهم على أهل البدع الكبار من المعتزلة والرافضة ونحوهم. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن ذكر بعض أعيان الأشاعرة من أمثال الباقلاني وأبي ذر الهروي وأبي الوليد الباجي والقاضي أبي بكر بن العربي وأبي المعالي الجويني وغيرهم ، قال رحمه الله: «ثم إنه ما من هؤلاء إلا مَنْ له في الإسلام مساع مشكورة، وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم، وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف. لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداء عن المعتزلة ــ وهم فضلاء

(١) انظر : المناظرات ـ الرازي ص : ٢٨ .

(٢) أشار الرازي إلى هذه المناظرة في موضعين من تفسيره الكبير الأول ٧٨/٨ ، والثاني ٢١٢/٢١.

(٣) بتحقيق الدكتور عبدالمجيد النجار ـ نشر دار الغرب الإسلامي . وذكر طرفاً منها صاحب عيون المناظرات ص: ٢٨٣-٢٨٧ .

عقلاء ـ احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه، فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين وصار الناس بسبب ذلك منهم من يعظمهم لما هم من المحاسن والفضائل، ومنهم من يذمهم لما وقع في كلامهم من البدع والباطل، وخيار الأمور أوساطها»[١].

(١) درء تعارض العقل والنقل ٢/١٠١-١٠٢.

المبحث الثالث
قضايا الجدل عند أهل الكلام
وخصائصه وموقف السلف منه

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بعلم الكلام

المطلب الثاني: نشأة علم الكلام وسبب تسميته بذلك

المطلب الثالث: المسائل التي وقع الجدل فيها بين المتكلمين

المطلب الرابع: خصائص الجدل عند المتكلمين

المطلب الخامس: حكم الاشتغال بعلم الكلام

المطلب الأول
التعريف بعلـــم الكـلام

يقول الإيجي في المواقف[1] : «الكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه، والمراد بالعقائد: ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية: المنسوبة إلى دين محمد ﷺ فإن الخصم وإن خطّأناه لا نخرجه من علماء الكلام».

وقال ابن خلدون في تعريفه: «هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية، بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة».[2]

والذي يبدو من التعريف أن علم الكلام علم ممدوح لا مذموم، في حين أن السلف رحمهم الله قد اشتهر عنهم الذم له، وتشديد النكير على أهله والمشتغلين به - كما سيتبين لاحقاً - ولعل هذا الالتباس هو نتيجة إطلاق اسم علم الكلام على علم التوحيد، وعلم أصول الدين كما قال ابن تيمية رحمه الله: «... إن طائفة من أهل الكلام يُسمِّي ما وضعه "أصول الدين" وهذا اسم عظيم، والمسمَّى به فيه من فساد الدين ما الله به عليم. فإذا أنكر أهل الحق والسنة ذلك، قال المبطل: قد أنكروا أصول الدين. وهم لم ينكروا

(١) ص : ٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص :٤٢٣.

ما يستحق أن يسمَّى أصول الدين، وإنما أنكروا ما سماه هـذا أصول الدين، وهي أسماء سمَّوْها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان»[١].

والحق أن العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم كما قاله أبو يوسف رحمه الله[٢].

أما أنه يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية، ودفع الشبه عنها، فالواقع أنه يزعزع العقائد الإيمانية، وحسبك أنه قد أدى بأهله إلى الشكوك والإلحاد أو التوقف والحيرة، وقد قال ابن تيمية رحمه الله في معرض رده على من يقول: إن منفعة علم الكلام حراسة عقيدة العوام، فيقول رحمه الله: «وحفظ مثل هذا الكلام لاعتقاد العوام كدفع المظلمة عنهم بعقوبات فيها عدوان... لابد أن يكون المحروس هو نفس ما ثبت عن الرسول ﷺ أنه أخبر به لأمته، فأما إذا كان المحروس فيه ما يوافق خبر الرسول، وفيه ما يخالفه، كان تمييزه قبل حراسته أولى من الذب عما يناقض خبر الرسول ﷺ...»[٣].

أما أنه يستعمل في الرد على المبتدعة والمنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف، فالحال أنه قد أدخل على أهل الإسلام من البدع ما الله به عليم، مع أن لأهل الكلام ــ كما تقدم ــ مساعي مشكورة في الرد على الفلاسفة وأصناف المشركين من اليهود والنصارى وغيرهم، وإن كان في طريقتهم قصور وضعف، مع تضمنها لبعض البدع والضلالات.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٥٦.

(٢) انظر: الإبانة ـ ابن بطة ١/ ٤١٩ رقم: ٣٣٩ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٧/١٧٩،١٨٢.

المطلب الثاني
نشأة علم الكلام وسبب تسميته بذلك

أولاً: نشأة علم الكلام:

تقدم أن الكلام نشأ مع المعتزلة فهم أربابه وأصحابه، وتقدم ـ أيضاً ـ قول طاش زادة: إن مبدأ شيوع الكلام كان على أيدي المعتزلة والقدرية في حدود المائة من الهجرة[١]. وقول ابن الخياط المعتزلي: عن المعتزلة إنهم أرباب النظر دون جميع الناس، وأن الكلام لهم دون من سواهم[٢].

ثم دخل في الكلام طوائف غير المعتزلة؛ كالكرامية والكلابية والماتريدية والأشعرية وغيرهم. ويجمع هؤلاء اعتماد العقل في تقرير المطالب الدينية دون الشرع، فالعقل عمدة والشرع تابع؛ ولهذا فهم المعارضون بين الشرع والعقل، ويقدمون العقل على الشرع عند التعارض ـ بزعمهم ـ بحجة أن العقل قطعي والشرع ظني، والواجب تقديم ما هو قطعي على ما هو ظني[٣].

---

(١) انظر : مفتاح السعادة ١٦٦/٢ .

(٢) الانتصار ص : ٧٢ .

(٣) انظر : كتب الفخر الرازي مثل : أساس التقديس ص : ٢١٠-٢١١ ، ومحصل أفكار المتقدمين ص : ٥١، وأصول الدين ص : ٢٤ ، وكتاب الأربعين ص : ٤٣٣-٤٣٦ ، والمطالب العالية ١١٣/٩ . وانظر: الإرشاد للجويني ص : ٣٥٩-٣٦٠ ، والمستصفى للغزالي ١٣٧/٢-١٣٨ ، وقانون التأويل للغزالي ص : ١٠ ، وقد رد على الرازي وعلى غيره من المتكلمين شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب: نقض تأسيس الجهمية، وكتاب: درء تعارض العقل والنقل. وكذلك تلميذه ابن القيم في كتاب: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.

ثانياً: سبب التسمية:

اختُلِف في سبب تسمية هذا الفن بعلم الكلام على أقوال أشهرها:(١)

١- أن عنوان مباحثه كان قولهم : الكلام في كذا وكذا.

٢- أن مسألة كلام الله (تعالى) كانت أشهر مباحثه، وقد كثر فيها النزاع والجدال؛ بل التناحر وسفك الدماء(٢).

٣- أنه يُورِثُ قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم، كالمنطق للفلاسفة؛ فالكلام والمنطق مترادفان.

٤- أنه إنما يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام من الجانبين، وغيره قد يتحقق بالتأمل ومطالعة الكتب.

٥- أنه أكثر العلوم خلافاً ونزاعاً فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين والرد عليهم.

ولا يمنع أن تجتمع هذه الأسباب وغيرها في تسمية هذا الفن بعلم الكلام؛ إذ كل ذلك حاصل فيه، لكن النزاع قد يكون في المفاضلة بين هذه الأسباب، وتقديم بعضها على بعض، وكونه أقرب وأليق في التسمية به.

---

(١) انظر : شرح العقائد النسفية ص : ١٤-١٥، والمواقف ص : ٨-٩ ، والملل ـــ الشهرستاني ١/٣٠ ، ومقدمة ابن خلدون ص : ٤٣٤ .

(٢) انظر : المواقف ص : ٩ .

المطلب الثالث
المسائل التي وقع الجدل فيها بين المتكلمين

لا تكاد تجد باباً من أبواب الاعتقاد إلا وللمتكلمين فيه نزاع واختلاف وجدل. إلا أن أشهر ما تجادل فيه أهل الكلام مسائل الإيمان والقدر والصفات وكلام الله (تعالى)، وسأذكر ذلك على نحوٍ من التفصيل:

أولاً : مسألة الإيمـان

المعروف عند الصحابة والسلف وجماهير أهل السنة أن الإيمان: قول وعمل واعتقاد، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[1].

وخالف في ذلك الخوارج والمعتزلة والمرجئة بجميع أصنافهم من جهمية وكرامية وغيرهم. يقول ابن تيمية رحمه الله: «أول بدعة حدثت في الإسلام بدعة الخوارج والشيعة؛ حدثتا في أثناء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فعاقب الطائفتين...»[2]، وأجمعت هذه الطوائف المخالفة لأهل السنة على أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وقالت طوائف المرجئة بعدم دخول الأعمال في مسمى الإيمان.

أما الخوارج، فقد تناظروا في جواز التحكيم، ثم أخذت المجادلة والمناظرة طوراً آخر في شأن مرتكب الكبيرة،[3] فقالوا بتكفيره وخروجه من الإيمان ثم خلوده في النار إن مات من غير توبة[4].

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ١٣/٥٠-٥١.

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل ـ ابن تيمية ٥/١٩٨.

(٣) انظر : تأريخ الجدل ـ أبو زهرة ص : ١٠٢- ١٠٣.

(٤) انظر : مقالات الإسلاميين ـ الأشعري ١/١٦٨ ، ٢٠٤ ، الملل والنحل ـ الشهرستاني ١/١١٥، والفرق ـ البغدادي ص : ٧٣-٧٤ وقد استثنى الأشعري النجدات من التكفير بالكبيرة ، ثم عمَّم في نهاية الكلام عن الخوارج.

وبدعتهم إنما كانت من سوء فهمهم للقرآن، لم يقصدوا معارضته، لكنهم فهموا منه ما لم يدل عليه، فظنوا أنه يوجب التكفير بالذنوب؛ إذ كان المؤمن هو البر التقي، قالوا: فمن لم يكن براً تقياً فهو كافر مخلد في النار، ثم قالوا: وعثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين؛ لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله[(١)].

والمعتزلة شاركوا الخوارج في حكم الآخرة، وقالوا بخلود مرتكب الكبيرة في النار، وقالوا بالمنزلة بين المنزلتين في حكم الدنيا[(٢)].

أما المرجئة، فقد قيل إن أول من تكلم فيه ـ أي الإرجاء ـ : الحسن بن محمد بن الحنفية وله فيه تصنيف[(٣)]. ويذكر ابن سعد في طبقاته[(٤)] في ترجمة الحسن أن زاذان وميسرة دخلا عليه، فلاماه على الكتاب الذي وضع في الإرجاء، فقال لزاذان: يا أبا عمر لوددت أني كنت مت و لم أكتبه.

والإرجاء المنسوب إلى الحسن هذا إنما كان في أمر المشتركين في الفتنة التي حدثت بعد خلافة الشيخين؛ يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: «المراد بالإرجاء الذي تكلم الحسن بن محمد فيه غير الإرجاء الذي يعيبه أهل السنة المتعلق بالإيمان؛ وذلك أني وقفت على كتاب الحسن بن محمد المذكور، أخرجه ابن أبي عمر العدني في كتاب الإيمان له في آخره...ثم قال في آخره:

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/ ٣٠-٣١.

(٢) انظر: انظر: مقالات الإسلاميين ١/٢٠٤، والفرق بين الفرق ص: ١١٥، والملل والنحل ـ الشهرستاني ١/٤٥، ٤٨، ومجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/٣٧-٣٨.

(٣) انظر: مفتاح السعادة ٢/١٦٣.

(٤) ٥/٣٢٨. وانظر: السنة لعبد الله بن أحمد ص: ٨٩ رقم: ٤٨٥، والإبانة لابن بطة ٢/٩٠٤ رقم: ١٢٦٨، ومنهاج السنة النبوية ٨/٧-٨ ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٢/٣٢٠.

ونوالي أبابكر وعمر رضي الله عنهما ونجاهد فيهما؛ لأنهما لم تقتتل عليهما الأمة ولم تشك في أمرهما، ونرجئ من بعدهما ممن دخل في الفتنة فنكل أمرهم إلى الله، إلى آخر الكلام، فالمعنى الذي تكلم فيه الحسن أنه كان يرى عدم القطع على إحدى الطائفتين المقتتلتين في الفتنة بكونه مخطئاً أو مصيباً، وكان يرى أنه يرجئ الأمر فيهما، وأما الإرجاء الذي يتعلق بالإيمان، فلم يعرِّج عليه فلا يلحقه بذلك [عيب](١) والله أعلم»(٢).

أما الجهمية من المرجئة، فالإيمان عندهم مجرد معرفة القلب(٣)، وهذا القول نصره الأشعري وأكثر أصحابه، لكنهم يقولون: الإيمان تصديق القلب، وأن كل من حكم الشرع بكفره حكمنا بكفره، واستدللنا بتكفير الشارع له على خلو قلبه من المعرفة(٤).

والكرامية من المرجئة يقولون: الإيمان قول باللسان فقط، فمن تكلم به فهو كامل الإيمان، فإن كان مقراً بقلبه فهو من أهل الجنة وإن كان مكذباً بقلبه كان منافقاً من أهل النار، قال ابن تيمية رحمه الله: «وهذا القول هو الذي اختصت به الكرامية وابتدعته، ولم يسبقها أحد إلى هذا القول، وهو آخر ما أُحدِث من الأقوال في الإيمان»(٥).

---

(١) في الأصل عاب ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) تهذيب التهذيب ٣٢١/٢.

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين ٢١٣/١-٢١٤ .

(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٤٧/١٣.

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٦/١٣ .

ويقول الأشعري رحمه الله عن الكرامية: «يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق باللسان إيماناً، وزعموا أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ كانوا مؤمنين على الحقيقة، وزعموا أن الكفر بالله هو الجحود والإنكار له باللسان»[١].

ومن المرجئة مرجئة الفقهاء ـ وكان أكثرهم من أهل الكوفة كحماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة وغيرهما ـ الذين يقولون : الأعمال ليست من الإيمان ولكنهم مع سائر أهل السنة على أن الله يعذّب من يعذّبه من أهل الكبائر بالنار ثم يخرجهم بالشفاعة كما جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك؛ ولهذا قيل: النزاع بينهم وبين أهل السنة المحضة نزاع لفظي[٢]. وقال شارح الطحاوية رحمه الله: «وإذا كان النزاع في هذه المسألة بين أهل السنة نزاعاً لفظياً، فلا محذور فيه سوى ما يحصل من عدوان إحدى الطائفتين على الأخرى والافتراق بسبب ذلك، وأن يصير ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام المذموم من أهل الإرجاء ونحوهم، وإلى ظهور الفسق والمعاصي...»[٣].

والصواب أن الخلاف ليس لفظياً بالمعنى المعروف في الخلاف اللفظي؛ لأنه لا يترتب عليه شيء، والمخالفان متفقان من حيث المعنى، ومثل هذا لا ينبغي الوقوف معه ولا اعتباره خلافاً.

(١) مقالات الإسلاميين ١/٢٢٣ .

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/٣٨.

(٣) شرح الطحاوية: ٢/٤٧٠ .

ومما يدل على أن الخلاف مع مرجئة الفقهاء ليس لفظياً بالمعنى المعروف: أن الأئمة شددوا النكير علىمن أخرج الأعمال عن مسمى الإيمان، وذكروا الأدلة الدالة على أن الإيمان قول وعمل، وصنّفوا في ذلك المصنفات، لكن من قال: إن الخلاف لفظي لعلّه يريد أنه خلاف يتعلق بالألفاظ وهي الأسماء الدينية كالمؤمن والكافر والمنافق. ثم إن قول المرجئة يؤدي إلى الإرجاء المحض، ويفتح الباب أمام الفساق للتهاون بأمور الشريعة.

وفي كل طائفة من طوائف أهل الكلام المتقدمة نزاع في هذه المسألة ـ مسألة الإيمان ـ وتفرق واختلاف، فضلاً عن نزاعهم واختلافهم مع غيرهم من الطوائف.

ثانياً: مسألة القدر:

وهي المسألة التي شغلت أذهان أصحاب الديانات القديمة وسَرَت إلى المشركين حيث كانوا يحتجون أحياناً بالقدر كما في قوله (تعالى) : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [سورة النحل: ٣٥] ثم إلى المنافقين كما في قوله (تعالى) : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٦] وكما في قوله (تعالى): ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٨] ففي اعتراض المنافقين هذا نفي للقدر[(١)].

وخاض بعض الصحابة رضي الله عنهم في مسألة القدر فنهاهم النبي ﷺ

(١) انظر : الملل والنحل ـ الشهرستاني ١/٢١-٢٢ ، وتأريخ الجدل ص : ١٠٤.

وزجرهم عنه، وبيَّن لهم أنه سبب لاختلاف الأمم السابقة وهلاكها، فانتهى الصحابة و لم يعودوا لمثله: روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: وكأنما تفقأ في وجهه حبُّ الرمان من الغضب. قال: فقال لهم: ما لكم تضربون كتاب الله بعضَه ببعض؟! بهذا هلك من كان قبلكم. قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ لم أشهده بما غبطت نفسي بذلك المجلس أني لم أشهده[(١)]. وفي رواية أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم يتنازعون في القدر هذا ينزع آية، وهذا ينزع آية، فذكر الحديث[(٢)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن بني إسرائيل كانوا على شريعة ومنهاج ظاهرين على من ناوأهم حتى تنازعوا في القدر، فلما تنازعوا اختلفوا وتباغضوا وتلاعنوا، واستحل بعضهم حرمات بعض، فسُلِّط عليهم عدوُّهُم فمزقهم كل ممزق»[(٣)].

ثم ظهر الخوض في القدر بالباطل في أواخر عهد الصحابة، وكثر الكلام فيه بسبب غلو القدرية النفاة، قال الإسفرائيني في التبصير: «وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية، وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة؛ كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي... وكان ينكر عليهم من كان قد بقي من الصحابة كعبدالله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٠/٢٠٠-٢٠١ برقم : ٦٦٦٨ قال أحمد شاكر : إسناده صحيح وتكرر برقم : ٦٧٠٢ وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح ١/٣٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد ١١/٨٢ برقم : ٦٨٤٦ وصححه أحمد شاكر .

(٣) شرح السنة ـ اللالكائي ص : ٦٣٣ برقم: ١١٣٣ .

أبي أوفى وجابر وأنس وأبي هريرة وعقبة بن عامر الجهني وأقرانهم، وكانوا يوصون إلى أخلافهم بأن لا يُسلِّمُوا عليهم، ولا يعودوهم إن مرضوا ولا يُصَلُّو عليهم إذا ماتوا»[(١)].

فكان أول ظهور إنكار القدر على يد معبد الجهني، فقد روى مسلم في صحيحه[(٢)] عن يحيى بن يَعْمُر أنه قال: «كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني» وقد أخذ معبد هذه المقالة عن رجل نصراني يقال له سوسن؛ قال الأوزاعي رحمه الله: «أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له سوسن، كان نصرانيا فأسلم، ثمَّ تَنَصَّر، فأخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان عن معبد »[(٣)].

وقال ابن عون (١٥١هـ) : «أدركت الناس وما يتكلمون إلا في علي وعثمان، حتى نشأ هاهنا حقير يقال له: سنسويه البقال، قال: فكان أول من تكلم في القدر. قال حماد ـ وهو حماد بن زيد، راوي الخبر عن ابن عون ـ: ما ظنكم برجل يقول له ابن عون هو حقير»[(٤)].

والمتكلمون بالباطل في القدر صنفان: مكذبون ومثبتون مع غلو فيه.

---

(١) التبصير في الدين ص: ٢٧-٢٩.

(٢) صحيح مسلم ٣٦/١ كتاب الإيمان ـ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ... ح: ٨ وانظر: الفرق ـ البغدادي ص: ١٧، ٧٠، ٢٢٠ والملل والنحل ٦٢/١والتبصير في الدين ص: ١٣، ٤٠.

(٣) شرح السنة ـ اللالكائي ٧٥٠/٤ رقم: ١٣٩٨، وانظر: الشريعة ص: ٢٤٢ .

(٤) شرح السنة ـ اللالكائي ٧٤٩/٤ برقم: ١٣٩٦.

والمكذبون هم نفاة القدر الذين هم القدرية، والمثبتون الذين غلوا فيه هم الجبرية النافون لفعل العبد واختياره[(١)].

والنفاة نوعان: أحدهما من ينكر علم الله السابق. والثاني من ينكر قدرة الله على خلق أفعال العباد مع إقراره بالعلم السابق[(٢)]. ولهذا قال الشافعي رحمه الله: «ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا وإن أنكروا كفروا»[(٣)] يريد الغلاة منهم.

وهؤلاء ـ أي نفاة العلم السابق ـ قد انقرضوا والحمد لله؛ يقول القرطبي رضي الله عنه: «قد انقرض هذا المذهب ولا نعرف أحداً ينسب إليه من المتأخرين ، قال: والقدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها، وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم وواقعة منهم على جهة الاستقلال، وهو -مع كونه مذهباً باطلاً- أخف من المذهب الأول»[(٤)].

ونفاة العلم السابق هم الذين كانوا في زمن ابن عمر رضي الله عنه ورد عليهم، وتبرأ منهم كما في صحيح مسلم[(٥)] عن يحيى بن يَعْمُر قال: «كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحُمَيْد بن

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٧/١٣.

(٢) انظر: المرجع السابق ٤٢٩/٨.

(٣) شرح الطحاوية ٣٥٤/٢، وانظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٤٣٠/٨ .

(٤) فتح الباري ١١٩/١، وحكى معناه النووي في شرح مسلم ١٥٤/١ عن أصحاب المقالات، وانظر: جامع العلوم والحكم ص : ٢٤-٢٥ .

(٥) ٣٦/١-٣٨ كتاب الإيمان ـ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ... ح : ٨ .

عبدالرحمن الحِمْيَري حاجَّيْن أو معتمرين، فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر. فَوُفِّقَ لنا عبدُا لله بن عمر ابن الخطاب داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي؛ أحدُنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سَيَكِلُ الكلام إلي فقلت: أبا عبدالرحمن، إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويَتَقَفَّرُون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أُنُف . قال : فإذا لقيتَ أولئك فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم بُرآء مني، والذي يحلف به عبدا لله بن عمر، لو أن لأحدهم مثلَ أحد ذهباً، فأنفقه ما قبل ا لله منه حتى يؤمن بالقدر ...» ثم ساق حديث جبريل الذي فيه جواب النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة.

ويقول ابن تيمية رضي ا لله عنه: «ثم كثر الخوض في القدر. وكان أكثر الخوض فيه بالبصرة والشام وبعضه في المدينة، فصار مقتصدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السابق، وبالكتاب المتقدم، وصار نزاع الناس في الإرادة وخلق أفعال العباد»[1].

وكان تعلل الناس في المعصية بالقدر هو الذي دفع معبداً ونحوه إلى نفي القدر، وكونه سالباً للاختيار[2]. ولهذا روي أن معبداً الجهني وعطاء بن يسار كانا يأتيان الحسن البصري ويسألانه ويقولان : يا أبا سعيد، إن هؤلاء

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/٣٦-٣٧.

(٢) انظر : تبين كذب المفتري ص :١١.

الملوك يسفكون دماء المسلمين، ويأخذون الأموال، ويفعلون ويفعلون، ويقولون إنما تجري أعمالنا على قدر الله، فقال الحسن: كذب أعداء الله[(١)].

ونُسب إلى الحسن أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان رسالة على مذهب القدرية، لكن قال الشهرستاني رحمه الله - وكان قد اطلع عليها -: «ولعلها لواصل بن عطاء، فما كان الحسن ممن يخالف السلف في أن القدر خيره وشرَّه من الله (تعالى)، فإنَّ هذه الكلمات كالمجمع عليها عندهم»[(٢)].

ثم خاض المعتزلة في القدر، وتبنوا مذهب القدرية النفاة، حتى نُسب إليهم، وصار من أصولهم المجمع عليها عندهم، كما يذكره أصحاب المقالات[(٣)].

وقابل القدرية النفاة الجبرية المغالون في الإثبات مع سلب إرادة الإنسان واختياره وفعله[(٤)]. وأول من قال بذلك: الجهم بن صفوان، وذلك أن غيلان الدمشقي أخذ بمذهب معبد الجهني في نفي القدر، وذهب يذيعه في الناس فتصدى له جهم فالتزم جهم الجبر، ونشأ عن ذلك مذهب الجبرية[(٥)] بسبب هذه المناظرات والالتزامات الفاسدة.

---

(١) انظر: المعارف - ابن قتيبة ص: ٤٤١.

(٢) الملل والنحل ١/٤٧.

(٣) انظر: الفرق بين الفرق ص: ١١٤-١١٥، والملل والنحل ١/٤٥.

(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/٣٧، والملل والنحل ١/ ٨٥،٨٧، والفرق بين الفرق ص: ٢١١.

(٥) انظر: مقدمة تبيين كذب المفتري ص: ١١.

ومن طوائف الجبرية[(١)]: النجارية أصحاب الحسين بن محمد النجار، والضرارية أصحاب ضرار بن عمرو، وممن قال بالجبر: حفص الفرد، وكثير من المتأخرين من أهل الكلام ومن وافقهم سلكوا مسلك جهم في كثير من مسائل هذا الباب، وإن خالفوه في بعض ذلك: إما نزاعاً لفظياً، وإما نزاعاً لا يعقل، وإما نزاعاً معنوياً؛ وذلك كقول من زعم أن العبد كاسب ليس بفاعل حقيقة، وجعل الكسب مقدوراً للعبد، وأثبت له قدرة لا تأثير لها في المقدور. وممن يقول بذلك أبو الحسن الأشعري، وأتباعه[(٢)] ومن وافقهم من متأخري أصحاب مالك والشافعي وأحمد. ولهذا قال جمهور العقلاء: إن هذا كلام متناقض غير معقول؛ فإن القدرة إذا لم يكن لها تأثير في الفعل، كان وجودها كعدمها، و لم تكن قدرة[(٣)].

وقد أنكر سلف الأمة وأئمتها قول من يقول الناس مجبورون على أفعالهم وذموه، وإن قصد به الرد على القدرية... وقالوا: هذا رَدٌّ بدعة ببدعة، وقابل الفساد بالفساد، والباطل بالباطل[(٤)]. بل أنكر الأئمة ـ أيضاً ـ كالثوري والأوزاعي والزبيدي وابن حنبل وغيرهم استعمال مصطلح الجبر، وقالوا: الجبر لا يكون إلا من عاجز، كما يجبر الأب ابنته على خلاف

---

(١) انظر: الملل والنحل ١/٨٨-٩١ .

(٢) يقول ابن تيمية رحمه الله: «استطال المعتزلة على الأشاعرة في مسألة القدر واضطروهم إلى أن جعلوا نفس ما يفعله العبد من القبيح فعلا لله رب العالمين دون العبد، ثم أثبتوا كسبا لا حقيقة له» مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢٨/٨ (بتصرف قليل) .

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٤٦٦/٨-٤٦٨ ، ومنهاج السنة ٣٠١/٢.

(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٢٢/٣.

مرادها[(١)].

وقال الخلال (٣١١هـ) في كتاب السنة[(٢)]: «أخبرنا أبوبكر المروذي (٢٧٥هـ)، قال: كتب إلي عبد الوهاب في أمر حسين بن خلف البحتري العكبري، وقال: إنه قد تنزه عن ميراث أبيه، فقال رجل قدري: إن الله لم يجبر العباد على المعاصي، فرد عليه أحمد بن رجاء فقال: إن الله جبر العباد، أراد بذلك إثبات القدر. فوضع أحمد بن علي كتاباً يحتج فيه، فأدخلته على أبي عبدالله ـ يعني أحمد بن حنبل ـ فأخبرته بالقصة، فقال: ويضع كتاباً؟ وأنكر أبوعبدالله عليهما جميعاً: على ابن رجاء حين قال: جبر العباد، وعلى القدري الذي قال: لم يجبر العباد، وأنكر على أحمد بن علي وَضْعَه الكتاب واحتجاجه، وأمر بهجرانه بوضعه الكتاب، وقال لي: يجب على ابن رجاء أن يستغفر ربه لما قال: جبر العباد، فقلت لأبي عبدالله: فما الجواب في هذه المسألة؟ قال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة فاطر: ٨].

والحق في مسألة القدر هو ما عليه السلف وأهل السنة والجماعة، فهم متفقون على الإيمان بالقدر، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه خالق كل شيء؛ أفعال العباد وغيرها، وهم متفقون على إثبات أمره ونهيه ووعده ووعيده، وأنه لا حجة لأحد على الله في ترك مأمور، أو فعل محظور، وهم متفقون ـ أيضاً ـ على أن الله حكيم رحيم، وأنه أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين[(٣)].

(١) انظر : منهاج السنة ٣/٣٦.
(٢) كتاب السنة ص : ٥٥٢ برقم : ٩٢٥ .
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/٤٦٦.

ثالثاً: مسألة صفات الله (تعالى):

من المسائل المجمع عليها بين سلف الأمة وأئمتها من أهل السنة والجماعة وصف الله (تعالى) بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ ؛ فيثبتون له ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله: إثباتاً بلا تمثيل ولا تكييف، ونفياً بلا تعطيل ولا تحريف[١].

ولم يكن في عصر الصحابة وكبار التابعين من يعارض النصوص بالعقليات؛ فالخوارج والشيعة حدثوا في آخر خلافة علي رحمه الله عنه والمرجئة والقدرية حدثوا في أواخر عصر الصحابة، وهؤلاء كانوا ينتحلون النصوص، حتى ظهرت الجهمية في أواخر عهد التابعين وعارضوا النصوص بعقولهم وآرائهم، وأظهروا القول بنفي الصفات عن الله (تعالى)، وأولهم الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد بن عبدالله القسري (١٢٦هـ) الذي خطب الناس يوم الأضحى، وقال: أيها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم، إني مضح بالجعد بن درهم؛ إنه يزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يُكَلِّم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً، ثم نزل فذبحه. وشكر له علماء المسلمين ما فعله، كالحسن البصري وغيره[٢].

والجعد هذا كان يختلف إلى وهب بن منبه (١١٠ أو ١١٤هـ)، وكان كثير السؤال عن صفات الله عز وجل حتى قال له وهب يوماً: ويلك ياجعد، اقصر المسألة عن ذلك، إني لأظنك من الهالكين، لو لم يخبرنا الله في

(١) انظر: الفتوى الحموية ص: ٣١-٣٢.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٥/٢٤٤-٢٤٥، والفرقان بين الحق والباطل ص: ١٤٤.

كتابه أن له يداً ما قلنا ذلك، وأن له عيناً ما قلنا ذلك...وذكر طائفة من الصفات كالعلم والكلام وغير ذلك[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أصل هذه المقالة إنما هو مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين وضُلال الصابئين؛ فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام ـ أعني أن الله (سبحانه وتعالى) ليس على العرش حقيقة وإنما استوى بمعنى استولى ونحو ذلك ـ أول ما ظهرت هذه المقالة من جعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم ابن صفوان وأظهرها، فنسبت مقالة الجهمية إليه، وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان من طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ . وكان الجعد بن درهم هذا ـ فيما قيل ـ من أرض حرَّان، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة ... ولما كان في حدود المائة الثالثة انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته. وكلام الأئمة مثل مالك وسفيان بن عيينة وابن المبارك وأبي يوسف والشافعي وأحمد وإسحاق والفضيل بن عياض وبشر الحافي (٢٢٧هـ) وغيرهم كثير في ذمهم وتضليلهم...»[٢].

وبشر المريسي هذا قال عنه الحافظ الذهبي رحمه الله: «تفقه على أبي

(١) انظر : البداية والنهاية ٩/٣٥٠ .

(٢) الفتوى الحموية ص : ٢٤-٢٦.

يوسف، فبرع وأتقن علم الكلام ثم جرَّد القول بخلق القرآن وناظر عليه، ولم يدرك الجهم بن صفوان، إنما أخذ مقالته واحتج لها ودعا إليها »[١].

ونفي الصفات عن الله(تعالى) في الجملة هو قول الجهمية والمعتزلة، وقابلهم أهل الإثبات من الصفاتية كالكلابية والأشعرية والكرامية وجمهور الصوفية وأتباع الأئمة الأربعة، وإن كان بين هؤلاء تفاوت في الإثبات كما بين الجهمية والمعتزلة على مختلف طوائفهم تفاوت في النفي، وهناك طوائف زادوا في الإثبات إلى حد التمثيل كالكرامية والرافضة ونحوهم[٢].

ونسب إلى مقاتل بن سليمان المفسر ـ أيضاً ـ القول بالتشبيه، قال الذهبي رحمه الله: «وظهر بخراسان الجهم بن صفوان ودعا إلى تعطيل الرب عز وجل وخلق القرآن، وظهر بخراسان في قبالته مقاتل بن سليمان المفسر، وبالغ في إثبات الصفات حتى جَسَّم»[٣]. ونقل الذهبي عن ابن حبان أنه قال في مقاتل: «كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق كتبهم، وكان يُشَبِّه الرب بالمخلوقات،وكان يَكْذِبُ في الحديث »[٤] وقال أبو حنيفة رحمه الله: «أتانا من المشرق رأيان خبيثان: جهم معطل، ومقاتل مشبِّه»[٥].

---

(١) ميزان الاعتدال ٣٢٢/١ .

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٥١/٦، الفرق بين الفرق ص: ٢١٥ وما بعدها.

(٣) تذكرة الحفاظ ١٥٩/١ـ١٦٠، وانظر: مقالات الإسلاميين ٢٨٣/١ .

(٤) ميزان الاعتدال ١٧٥/٤.

(٥) تأريخ بغداد ١٦٤/١٣، وتهذيب التهذيب ٢٨١/١٠.

وبين جميع هذه الطوائف المخالفة لأهل السنة والجماعة اختلافات ومنازعات وتشقيقات ومجادلات مظانها كتب الفرق والمقالات، وقد يتسلط بعضهم على بعض حتى يقول فيما أثبته من الصفات مثل قوله فيما نفاه، فينفي الجميع فراراً من التناقض، كما قد يُلْزِم المعتزلي الأشعري حتى يقول الأشعري بنفي الصفات جميعها، إذ مخرج الجميع واحد، ويلزم الجهمي المعتزلي حتى يقول بنفي الصفات والأسماء، ثم قد يتسلط على الجميع القرامطة والباطنية الملاحدة حتى يلزموهم بنفي حقائق اليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب، بل ومسائل الأحكام من الصلاة والصيام والحج وغير ذلك؛ حتى قال ابن تيمية رحمه الله: «وبهذه الطريقة: أفسدت الملاحدة على طوائف الناس عقلهم ودينهم حتى أخرجوهم إلى أعظم الكفر والجهالة، وأبلغ الغي والضلالة»[١].

ويقول رحمه الله في موضع آخر مخاطباً نفاة بعض الصفات : «ومن هنا تسلّط عليكم القرامطة والفلاسفة والمعتزلة ونحوهم من النفاة، وكلام أئمتكم معهم كلام قاصر، يظهر قصوره لمن كان خبيراً بالعقليات، وسبب ذلك تقصيرهم في مناظرتهم حيث سلموا لهم مقدمات عقلية ظنوها صحيحة وهي فاسدة، فاحتاجوا إلى إثبات لوازمها، فاضطرهم إما إلى موافقتهم على الباطل، وإما إلى التناقض الذي يظهر به فساد قولهم، وإما إلى العجز الذي يظهر به قصورهم وانقطاعهم، ثم أخذوا يناظرون أهل الإثبات للعلو ونحوه

(١) الرسالة التدمرية ص : ٢٧ .

بما به ناظرهم أولئك، ويتسلطون على العاجز عن مناظرتهم من المثبتين كما تسلّط عليهم أولئك، فصاروا بمنزلة من قصَّروا في جهاد من يليهم من الكفار حتى غلبوهم وهزموهم، فقاموا يقاتلون من يليهم من المسلمين كما قاتلهم أولئك الكفار؛ حتى ظهر الباطل والكفر والضلال بتفريطهم أولاً في جهاد من يليهم من الكفار، وعدوانهم ثانياً على من يليهم من المسلمين»[(١)].

رابعاً: مسألة خلق القرآن:

أول من قال بخلق القرآن: الجعد بن درهم، إلى جانب نفيه للصفات ـ كما تقدم ـ بل هو من فروع نفي الصفات، وتقلّد عنه الجهم هذه المقالة؛ يقول ابن كثير رحمه الله: «وأما الجعد، فإنه أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن فتطلبه بنو أمية فهرب منهم فسكن الكوفة فلقيه فيها الجهم بن صفوان فتقلّد هذا القول عنه»[(٢)].

ويقول اللالكائي (٤١٨هـ) رحمه الله: «ولا خلاف بين الأمة أن أول من قال: القرآن مخلوق جعد بن درهم في سني نيف وعشرين [ومائة][(٣)] ثم جهم بن صفوان»[(٤)].

والجهم إنما أظهر هذه المقالة لما تسلّط عليه قوم من السُّمنِيَّة، فالتزم نفي الصفات عن الله (تعالى) ومنها صفة الكلام. يقول الإمام أحمد رحمه الله:

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٧/١٣٧-١٣٨.

(٢) انظر : البداية والنهاية ٩/٣٥٠ .

(٣) هذه الزيادة لا بد منها كما نبه على ذلك المحقق .

(٤) شرح السنة ١/ ٣١٢ .

«فكان مما بلغنا من أمر الجهم عدو الله، أنه كان من أهل خراسان من أهل ترمذ، وكان صاحب خصومات وكلام، وكان أكثر كلامه في الله (تعالى)، فلقي أناساً من المشركين يقال لهم السُمَنِيَّة فعرفوا الجهم، فقال له: نكلمك، فإن ظهرت حجتُنا عليك دخلت في ديننا، وإن ظهرت حجتُك علينا دخلنا في دينك، فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له: ألستَ تزعم أنَّ لك إلهاً؟ قال الجهم: نعم. فقالوا له: فهل رأيتَ إلهك؟ قال: لا. قالوا: فهل سمعت كلامه؟ قال:لا. قالوا: فشممت له رائحة؟ قال: لا. قالوا: فوجدت له حساً؟ قال:لا. قالوا: فوجدت له مجسًّا؟ قال: لا. قالوا: فما يدريك أنه إله؟ قال: فتحير الجهم فلم يدر من يعبد أربعين يوماً[(١)] . ثم إنه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى، وذلك أن زنادقة النصارى يزعمون أن الروح الذي في عيسى هو روح الله من ذات الله، فإذا أراد أن يُحدث أمراً دخل في بعض خلقه، فتكلَّم على لسان خلقه فيأمر بما يشاء، وينهى عما يشاء، وهو روح غائبة عن الأبصار. فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة، فقال للسمني : ألست تزعم أن فيك روحاً؟ قال: نعم. فقال: هل رأيت روحك؟ قال: لا. قال: فسمعت كلامه؟ قال: لا. قال: فوجدت له حساً؟ قال: لا. قال: فكذلك الله لايرى له وجه، ولا يسمع له صوت، ولا يشم له رائحة، وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون في مكان دون مكان، ووجد ثلاث آيات من المتشابه؛ قوله: ﴿لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: ١١] ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي

---

(١) وذكر اللالكائي عن ابن شوذب أنه قال : ترك ـ يعني الجهم ـ الصلاة أربعين يوماً على وجه الشك...وقد رآه ابن شوذب. شرح السنة ١/٣٧٨-٣٧٩ برقم: ٦٣٠ .

السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾[سورة الأنعام: ٣] ، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾[سورة الأنعام: ١٠٣] فبنى أصل كلامه على هذه الآيات، وتأول القرآن على غير تأويله، وكذّب بأحاديث رسول الله ﷺ، وزعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه أو حدّث عنه رسوله كان كافراً، وكان من المشبهة، فأضل بكلامه بشراً كثيراً، وتبعه على قوله رجال من أصحاب أبي حنيفة[(١)] وأصحاب عمرو بن عبيد بالبصرة، ووضع دين الجهمية»[(٢)].

ثم تبنى المعتزلة القول بخلق القرآن وبثوه في الأمة، وأغروا به الخلفاء: كالمأمون ومن بعده المعتصم، والواثق حتى امتحنوا الناس به وحملوهم عليه، فقُتِل من قُتِل، وضُرِب من ضُرِب، حتى رفع الله هذه المحنة بالمتوكل.

وقد اختلف أهل الفرق في كلام الله وفي القرآن الكريم ــ أي في كونه مخلوقاً اختلافاً واسعاً، وأشهر ذلك ما يلي[(٣)]:

١- مذهب الاتحادية القائلين بوحدة الوجود؛ يقولون: كل كلام في الوجود هو عين كلام الله: نظمه ونثره وحقه وباطله، سحره وكفره، حتى قال عارفهم[(٤)]:

---

(١) لعل المراد : أصحاب أبي حذيفة، وهو واصل بن عطاء، وهذه كنيته، وذلك لعدة أمور منها: ١- أن أبا حنيفة رحمه الله لم يكن في ذلك الوقت. ٢- وأن السياق جمع بينه وبين عمرو ابن عبيد وهو صاحب واصل في الضلال لا أبو حنيفة .

(٢) الرد على الجهمية ص: ١٠٢-١٠٥، وانظر: مختصر العلو ص: ١٦٣ رقم: ١٧١ وصحح إسناده الألباني.

(٣) انظر: مختصر الصواعق المرسلة ٢٨٦/٢ وما بعدها، ومقالات الإسلاميين٢٥٦/٢ وما بعدها، والإبانة للأشعري ص: ٦٣ وما بعدها، ومجموع فتاوى ابن تيمية٥٢١/٦ ومابعدها، ومنهاج السنة ٣٥٨/٢ .

(٤) هو ابن عربي، والبيت في الفتوحات المكية له ١٤١/٤ لكن بلفظ :

ألا كل قول في الوجود كلامه   سواء علينا نثره ونظامه

وانظر: جامع الرسائل لابن تيمية ـ المجموعة الأولى ص: ١٥٧.

وكل كلام في الوجود كلامــه سـواء علينا نثره ونـظامـه

وهذا المذهب مبني على أصلهم الفاسد، وهو أن الله سبحانه وتعالى هـو عين هذا الوجود، فصفاته هي صفات الله (تعالى)، وكلامـه هـو كـلام الله (تعالى).

٢- مذهب الفلاسفة المتأخرين أتباع أرسطو، والمنتسبين إلى الإسلام؛ كابن سينا، والفارابي وغيرهم، وهو أن كلام الله فيض فاض من العقل الفعَّال على النفوس الفاضلة الزكية، بحسب استعدادها، فأوجب لها ذلك الفيض تصورات وتصديقات بحسب ما قبلته منه، والأصل الذي قادهم إلى هـذا هو عدم إقرارهم بالرب (سبحانه وتعالى) الذي عرفت به الرسل، ودعت إليه، وهو القائم بنفسه، المباين لخلقه، العالي فوق سمواته وفـوق عرشه، الفعال لما يريد، العالم بجميـع المعلومـات، القـادر علـى كـل شـيء، فهـم أنكروا ذلك كله.

٣- مذهب الجهمية النفاة لصفات الرب (تعالى)، ومنهم المعتزلـة، أن كـلام الله مخلوق، ومن بعض مخلوقاته، فلم يقـم بذاتـه سـبحانه. واتفقـوا علـى هذا الأصل، واختلفوا في فروعــه؛ قـال الأشـعري رحمـه الله: «اختلفـت المعتزلة في كلام الله سبحانه هـل هـو جسـم أم ليس بجسـم، وفي خلقـه على ستة أقاويل»[1] ثم سردها. قال ابن القيم رحمـه الله: «فلمَّـا أصَّلُـوا أنه لا يقوم به وصف، ولا فعل كان من فروع هذا الأصل أنـه لم يتكلـم

(١) مقالات الإسلاميين ١/٢٦٧ .

بالقرآن ولا بغيره، وأن القرآن مخلوق، وطرد ذلك إنكار ربوبيته وإلهيته...»[(١)].

٤- مذهب الكلابية: أن القرآن معنى قائم بالنفس لا يتعلق بالقدرة والمشيئة، وأنه لازم لذات الرب كلزوم الحياة والعلم، وأنه لايُسمع على الحقيقة، والحروف والأصوات حكاية له، دالة عليه، وهي مخلوقة. وهو أربع معان في نفسه: الأمر والنهي والخبر والاستفهام، والمعنى المتلو المقروء غير مخلوق، والأصوات والحروف التي يؤدى بها ذلك المعنى وهي تلاوة العباد مخلوقة، وهذا مبني على أن الكلام لابد أن يقوم بالمتكلم، والحروف الأصوات حادثة فلا يمكن أن تقوم بذات الرب (تعالى) ؛ لأنه ليس محلا للحوادث، فهي مخلوقة منفصلة عن الرب، والقرآن اسم لذلك المعنى وهو غير مخلوق.

٥- مذهب الأشعري ومن وافقه: أنه معنى واحد قائم بذات الرب وهو صفة أزلية، ليس بحرف ولا صوت، ولا ينقسم، ولا له أبعاض ولا أجزاء، وهو عين الأمر وعين النهي، وعين الخبر وعين الاستخبار، وهو عين التوراة والإنجيل والقرآن والزبور، وكونه أمراً ونهياً وخبراً واستخباراً صفات لذلك المعنى الواحد، لا أنواع له. وكونه قرآناً وتوراة وإنجيلاً إنما هو تقسيم للعبارات عنه لا لذاته، بل إذا عُبِّر عن ذلك المعنى بالعربية كان قرآناً، وإن عُبِّر عنه بالعبرانية كان توراة، وإن عُبِّر عنه بالسريانية كان إنجيلاً. فالمعنى واحد وهذه الألفاظ عبارة عنه،

(١) مختصر الصواعق المرسلة ٢/٢٩٠.

وهي خلق من المخلوقات. قال ابن القيم رحمه الله: «وجمهور العقلاء يقولون: إن تصور هذا المذهب كاف في الجزم [ببطلانه][1]، وهو لا يتصور إلا كما تتصور المستحيلات الممتنعات»[2].

٦- مذهب الكرامية: أن كلام الله متعلق بالمشيئة والقدرة، قائم بذات الرب (تعالى) وهو حروف وأصوات مسموعة، وهو حادث بعد أن لم يكن، أي أن الله (تعالى) صار متكلما بعد أن لم يكن متكلما.

٧- مذهب السالمية ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة وأهل الحديث: أن الكلام صفة قديمة قائمة بذات الرب (تعالى) لم يزل ولا يزال، لايتعلق بقدرته ومشيئته، ومع ذلك هو حروف وأصوات وسور وآيات؛ سمعه جبريل من الرب عز وجل، وسمعه موسى بلا واسطة، ويُسمعه سبحانه من يشاء. وإسماعه نوعان: بواسطة وبغير واسطة، ومع ذلك فحروفه وكلماته لا يسبق بعضها بعضا، بل هي مقترنة: الباء مع السين مع الميم في آن واحد، ولم تكن معدومة في وقت من الأوقات، ولا تُعْدُم، بل لم تزل قائمة بذاته (سبحانه وتعالى) قيام صفة الحياة والسمع والبصر. وجمهور العقلاء قالوا: تصور هذا المذهب كاف في الجزم ببطلانه.

والبراهين العقلية والأدلة القطعية شاهدة ببطلان هذه المذاهب كلها، وأنها مخالفة لصريح العقل وصحيح النقل .

هذا أشهر ما قيل في المسألة، وكل طائفة من هذه الطوائف بين أهلها

(١) في الأصل في [بطلانه] ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) مختصر الصواعق المرسلة ٢/٢٩٢ .

خلاف ونزاع وخصام، فضلاً عما يكون بينها وبين نظيراتها من الطوائف، هذا إذا تذكرنا أن الخوض في هذه المسألة هو ـ كما تقدم ـ سبب من أسباب تسمية هذا الفن بعلم الكلام.

والقول الحق في هذه المسألة قول أتباع الرسل، حيث أثبتوا لله (تعالى) صفة الكلام كما أثبتوا له سائر الصفات، وأنه يتكلم إذا شاء بما شاء، وأن كلام الله مسموع مقروء متلو، والقرآن العزيز الذي هو سور وآيات وحروف وكلمات عين كلامه حقاً، لا تأليف ملك ولا بشر، وأن القرآن جميعه حروفه ومعانيه نفس كلام الله الذي تكلم به ليس بمخلوق، ولا بعضه قديماً وهو المعنى، وبعضه مخلوقاً وهو الكلمات والحروف، ولابعضه كلامه، وبعضه كلام غيره، ولا ألفاظ القرآن وحروفه ترجمة ترجم بها جبريل أو محمد عليهما السلام عما قام بالرب من المعنى من غير أن يتكلم الله به، بل القرآن جميعه كلام الله حروفه ومعانيه، تكلم الله بها حقيقة. والقرآن اسم لهذا النظم العربي الذي بلغه الرسول ﷺ عن جبريل عن رب العالمين؛ فللرسولين منه مجرد التبليغ والأداء، لا الوضع والإنشاء كما يقول أهل الزيغ والاعتداء.[١]

(١) انظر : مختصر الصواعق ٢/٢٩٤ .

المطلب الرابع
خصائص الجدل عند المتكلمين

للجدل عند المتكلمين خصائص يخالف بها الجدل عند أهل السنة والجماعة، أذكر طائفة منها:

أولاً: قلة العلم بالشرع:

قال أبو عمر بن عبدالبر رحمه الله: «أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولايعدون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء، وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم»[(١)].

فهم أضعف الناس علماً ويقيناً وفهماً، وهذا أمر يجدونه في أنفسهم ويشهده الناس منهم، وشواهده كثيرة، وإنما فضيلة أحدهم باقتداره على الاعتراض والقدح والجدل، ومعلوم أن هذا ليس بعلم، ولا فيه منفعة، وأحسن أحوال صاحبه أن يكون بمنزلة العامي، وإنما العلم في جواب المسألة[(٢)].

ويذكر أبو العباس القرطبي (٦٥٦هـ) رحمه الله وهو يصف حال المتكلمين ـ بأنهم معرضون عن الكتاب والسنة إلى طرق مبتدعة، واصطلاحات مخترعة، وقوانين جدلية وأمور صناعية مدار أكثرها على آراء

---

(١) جامع بيان العلم ١١٧/٢.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٧/٤-٢٨.

سوفسطائية، أو مناقضات لفظية ينشأ بسببها على الآخذ شبه ربما يعجز عنها، وشكوك يذهب الإيمان معها، وأحسنهم انفصالاً عنها أجدلهم لا أعلمهم، فكم من عالم بفساد الشبه لا يقوى على حلها، وكم من منفصل عنها لا يدرك حقيقة علمها[1].

ثانياً: الجدل الكلامي لا علم فيه ولا يحمل على العمل:

فهو ثرثرة وتشدق وسفسطة، قال الإمام مالك رحمه الله: «الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم والقدر، وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في دين الله وفي الله عز وجل فالسكوت أحب إلي؛ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل»[2]. قال أبو عمر بن عبدالبر رحمه الله: «...والذي قاله مالك رحمه الله عليه جماعة الفقهاء والعلماء قديما وحديثا من أهل الحديث والفتوى، وإنما خالف ذلك أهل البدع: المعتزلة وسائر الفرق، وأما الجماعة فعلى ما قال مالك رحمه الله، إلا أن يضطر أحد إلى الكلام، فلا يسعه السكوت إذا طمع برد الباطل، وصرف صاحبه عن مذهبه، أو خشي ضلالة عامة أو نحو ذلك»[3].

وقال ابن قتيبة رحمه الله: «وكان المتناظرون فيما مضى يتناظرون في معادلة الصبر بالشكر، وفي تفضيل أحدهما على الآخر، وفي الوساوس

(١) انظر: المفهم ـ كتاب العلم ـ باب كراهة الخصومة في الدين... ص : ١١١-١١٢ (مخطوط).

(٢) جامع بيان العلم ١١٦/٢.

(٣) المرجع السابق ١١٦/٢.

والخطرات ومجاهدة النفس، وقمع الهوى. فقد صار المتناظرون يتناظرون في الاستطاعة والتولد والطفرة والجزء والعرض والجوهر[١] فهم دائبون يخبطون في العشوات، قد تشعبت بهم الطرق، وقادهم الهوى بزمام الردى»[٢].

ثالثاً: عدم الجزم واليقين فيما يعتقدونه ويقولونه:

تحدث أبوحامد الغزالي رحمه الله عن مضرة الكلام ـ والجدل منه ـ فقال: «أما مضرته فإثارة الشبهات، وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم، فذلك مما يحصل في الابتداء، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه، ويختلف فيه الأشخاص. فهذا ضرره في الاعتقاد الحق. وله ضرر آخر في تأكيد اعتقاد [المبتدعة][٣] للبدعة، وتثبيته في صدروهم بحيث تنبعث دواعيهم، ويشتد حرصهم على الإصرار عليه ...»[٤].

ويقول ابن تيمية رحمه الله: «إنك تجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول، وجزما بالقول في موضع، وجزماً بنقيضه، وتكفير قائله في موضع آخر، وهذا دليل عدم اليقين... ولهذا قال بعض السلف ـ عمر بن عبدالعزيز أو غيره ـ: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل»[٥].

---

(١) هذه الألفاظ دارجة على ألسنة المتكلمين ، وحافلة بها مصنفاتهم .

(٢) اختلاف اللفظ ص : ٩ .

(٣) في الأصل [المبدعة] والصواب ما أثبته .

(٤) إحياء علوم الدين ١/٩٧ .

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٥٠.

رابعاً: كثرة الاختلاف والتنازع:

من السمات البارزة لأهل الكلام: الاختلاف والتنازع؛ حتى بين أهل الطائفة الواحدة والمذهب الواحد، ولا تكاد تجد اثنين منهم على وفاق تام في غالب مسائلهم؛ فهذا أبو هاشم خالف أباه في تسع وعشرين مسألة، وكان أبوه يخالف أبا الهذيل في تسع عشرة مسألة. وبين معتزلة بغداد ومعتزلة البصرة اختلاف كثير وفاحش؛ يُكفِّر بعضهم بعضاً، وذُكر أن الاختلاف بينهم في أكثر من ألف مسألة[(١)]. قال مطرف بن الشخير (٩٥هـ) رحمه الله: «لو كانت هذه الأهواء كلها هوى واحداً لقلنا: الحق فيه، فلما تشعَّبت واختلفت، عرف كل ذي عقل أن الحق لايتفرق»[(٢)].

وقول ابن قتيبة رحمه الله: «وقد كان يجب ـ مع ما يدعونه من معرفة القياس، وإعداد آلات النظر ـ أن لا يختلفوا كما لا يختلف الحُسَّاب والمُسَّاح والمهندسون؛ لأن آلاتهم لاتدل إلا على عدد واحد، وإلا على شكل واحد، وكما لا يختلف حذاق الأطباء في الماء، وفي نبض العروق؛ لأن الأوائل قد وقفوهم من ذلك على أمر واحد، فما بالهم أكثر الناس اختلافاً لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمر واحد في الدين...ولو كان اختلافهم في الفروع والسنن لاتسع لهم العذر عندنا ، وإن كان لا عذر لهم مع ما يدعونه لأنفسهم، كما اتسع لأهل الفقه ووقعت لهم الأسوة بهم، ولكن اختلافهم في التوحيد وفي صفات الله (تعالى)، وفي قدرته، وفي نعيم أهل الجنة وعذاب

---

(١) انظر : التنبيه والرد ـ الملطي ص : ٤٠ .

(٢) شرح السنة ـ اللالكائي ١٤٩/١ برقم : ٣١٢ .

أهل النار، وعذاب البرزخ، وفي اللوح وفي غير ذلك من الأمور التي لا يعلمها نبي إلا بوحي من الله (تعالى) ...

ولو أردنا ـ رحمك الله ـ أن ننتقل عن أصحاب الحديث، ونرغب عنهم إلى أصحاب الكلام ونرغب فيهم، لخرجنا من اجتماع إلى تشتت، وعن نظام إلى تفرق، وعن أنس إلى وحشة، وعن اتفاق إلى اختلاف...»[(١)].

خامساً: التفريق بين النصوص الشرعية في الإيمان بها:

وهو إيمانهم ببعض النصوص دون بعض، وذلك نتيجة اعتمادهم العقل ـ أعني عقولهم هم، وإلا فالعقل الصريح لا يعارض الشرع الصحيح ـ فما عرفوه بعقولهم هو العمدة، وإذا وجدوا في الشرع ما يَسْلَم ـ بزعمهم ـ من قوادح العقل احتجوا به معضدين لا معتمدين؛ ولهذا اختلفت عليهم نصوص الكتاب والسنة، فما وافق أصولهم العقلية فهو ـ عندهم ـ المحكم، وما خالفها فهو المتشابه، ولهم معه أحد أمرين: تأويله، إن أمكن ذلك. أو تفويض العلم به إلى الله (تعالى) ، وإن كان أخبار آحاد، فردها بالتضعيف هو أيسر السبل عندهم.

فنفاة الصفات كلها أو بعضها لا يلتفتون إلى نصوص الإثبات على كثرتها وتنوعها، وغلاة الصفاتية من المشبهة لا يلتفتون إلى نصوص التنزيه ونفي المماثلة على وضوحها وإحكامها.

ومثل هذا يقال في القدرية والجبرية، حيث احتجت القدرية، نفاة القدر،

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص: ١٤-١٦.

بـالنصوص الـتي فيهـا إثبـات المشـيئة والاختيـار للمخلـوق، ولم تلتفـت إلى النصوص التي فيها عموم مشيئة الرب (تعالى) وقدرته، وعكسهم الجبرية.

ومثلـه يقـال في المرجئـة والوعيديـة في بـاب الأسمـاء والأحكـام، حيـث احتجت المرجئة بنصوص الوعد دون نصـوص الوعيـد، وعكسـهم الوعيديـة الذين احتجوا بنصوص الوعيد دون نصوص الوعد.

يقول محمد بن كعب القرظي رحمـه الله: «لا تخـاصموا هـؤلاء القدريـة ولا تجالسوهم... والذي نفس محمد بيده لوددت أن يميـني هـذه تقطـع علـى كبر سني، وأنهم أتموا آية من كتاب الله عز وجل، ولكنهـم يـأخذون بأولهـا ويتركون آخرها، ويـأخذون بآخرهـا ويـتركون أولهـا، والـذي نفسـي بيـده لأبليس أعلم بالله عز وجل منهم يعلم من أغواه، وهم يزعمون أنهم يغوون أنفسهم ويرشدونها»[1].

وقال الدارمي (٢٨٠هـ) رحمه الله: «وبلغنا أن بعض أصحاب المريسـي قال له: كيـف تصنـع بهـذه الأسـانيد الجيـاد الـتي يحتجـون بهـا علينـا في رد مذاهبنا مما لا يمكن التكذيب بها...فقال المريسي: لا تردوه تفتضحوا، ولكن غـالطوهم بالتـأويل، فتكونـوا قـد رددتموهـا بلطــف، إذ لم يمكنكـم ردهــا بعنف»[2].

وهذا التفريق بين النصـوص في الإيمـان والاعتمـاد والاحتجـاج هـو مـن

(١) الشريعة ـ الآجري ص : ٢٢٢ .

(٢) رد الدارمي على بشر المريسي ص : ٢٠٠-٢٠١ .

أسباب كثرة الاختلاف والتفرق، بل هو ـ أيضاً ـ من أسباب انكسار أهل الكلام أمام خصومهم في المناظرة ونحوها. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لأن الرد على أهل الباطل لا يكون مستوعباً إلا إذا اتُّبِعَت السنة من كل الوجوه، وإلا فمن وافق السنة من وجه وخالفها من وجه طمع فيه خصومه من الوجه الذي خالف فيه السنة، واحتجوا عليه بما وافقهم عليه من تلك المقدمات المخالفة للسنة. وقد تدبرت عامة ما يحتج به أهل الباطل على من هو أقرب إلى الحق منهم فوجدته إنما تكون حجة الباطل قوية لما تركوه من الحق الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به كتابه، فيكون ما تركوه من ذلك الحق من أعظم حجة المبطل عليهم...»[(١)].

سادساً: التزام اللوازم الفاسدة:

وذلك فراراً من الوقوع في التناقض ـ بزعمهم ـ لكن التناقض لازم لهم فيما فروا إليه غالباً:

فمنكر بعض الصفات بحجة تعدد القدماء، يلزمه التناقض فيما أثبته، فإن نفاها جميعاً، فهو لازم له فيما أثبته من الأسماء، فإن نفى الأسماء والصفات فهو لازم له في صفة الوجود، فإن نفاها يكون قد نفى وجود مَنْ وجوده أظهر من كل موجود، والكفر لازم له لا محالة. يقول ابن تيمية رحمه الله: «استطالت الفلاسفة الدهرية على المتكلمين بالتزامهم الأقوال الفاسدة؛ فلا للإسلام نصروا، ولا لعدوه كسروا، بل قد خالفوا السلف والأئمة وخالفوا

(١) درء تعارض العقل والنقل ٦/٢١٠-٢١١.

العقل والشرع، وسلطوا عليهم وعلى المسلمين عدوهم من الفلاسفة الدهرية والملاحدة»[١].

وقال رحمه الله في موضع آخر: «المتكلمون قد يعتقدون شيئاً يرونه صحيحاً، فيلتزم أحدهم لوازم مخالفة للشرع والعقل كما فعل طوائف من الجهمية والمعتزلة والكلابية والكرامية وغيرهم، فيجيء الآخر فيرد عليه ويبين فساد ما التزمه، ويلتزم هو لوازم أخر لطردها، فيقع ـ أيضاً ـ في مخالفة الشرع والعقل»[٢]. وذكر رحمه الله عن المعتزلة أنهم احتجوا بحجج عقلية ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، أو تَلَقَّوْها عَمَّن احتج بها من غير أهل الإسلام، فاحتاجوا أن يطردوا أصول أقوالهم التي احتجوا بها لتسلم عن النقض والفساد، فوقعوا في أنواع من رد معاني الأخبار الإلهية، وتكذيب الأحاديث النبوية[٣].

وذكر شيخ الإسلام في موضع آخر استدلال المتكلمين على حدوث العالم بحدوث الأعراض، وهي صفات الأجسام القائمة بها وامتناع خلو الجسم عن الصفات، وأن ما لا يخلو عنها فهو محدث، وعلى هذا نفوا الصفات عن الله (تعالى)؛ لأن إثباتها يستلزم الجسمية على حد زعمهم، ثم ذكر رحمه الله أن من اعتمد على هذه الطريقة في أصل دينه فأحد الأمرين

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥٧/١٣ (بتصرف) .
(٢) النبوات ص : ٤١ (بتصرف) .
(٣) انظر : درء تعارض العقل والنقل ١٠٦/٧ .

لازم له : إما أن يطلع علـى ضعفهـا، وإمـا أن يلتزم لأجلهـا لـوازم معلومـة الفساد في الشرع والعقل؛ كما التزم الجهم لأجلها فناء الجنـة والنـار، والتزم أبـو الهذيـل لأجلهـا انقطـاع حركـات أهـل الجنـة، والتزم قـوم لأجلهـا ـ كالأشعري وغيره ـ أن الماء والهواء له طعم ولون ورائحة ونحو ذلك، والتزم قوم لأجلها وأجل غيرهـا: أن جميـع الأعـراض كـالطعم واللـون وغيرهمـا لا يجوز بقاؤها بحال، والتزم طوائف من أهل الكلام مـن المعتزلـة وغـيرهم نفـي صفات الرب مطلقـاً، أو نفـي بعضهـا؛ ولهـذا التزموا القـول بخلـق القـرآن، وإنكار رؤية الله (تعالى) في الآخرة، وعلوه على عرشه إلى أمثال ذلـك مـن اللوازم التي التزمها من طرد مقدمات هذه الحجـة الـتي جعلهـا المعتزلـة ومـن اتبعهم أصل دينهم[1].

ومن أمثلة ما يلتزمه بعض المبتدعـة عنـد مضـايق المنـاظرات مـن اللـوازم الفاسدة ما قاله هشام بن الحكم الرافضي حين قال له رجل : أتـرى الله عـز وجل في فضله وكرمه وعدله كلفنا ما لا نطيق ثم يعذبنا ؟ فقال هشام : قـد والله فعل! ولكننا لا نستطيع أن نتكلم[2].

سابعاً: اعتمادهم الدليل العقلي:

وذلـك بـإعراضهم عـن الدليـل الشـرعي؛ بحجـة أن العقلـي قطعـي وأن الشرعي ظني، ومع ذلك فاختلافهم في العقل واسع لا يكاد ينحصر؛ ولهذا لا

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/٣٠٣-٣٠٥ .

(٢) عيون الأخبار ـ ابن قتيبة ٢/١٤٢ .

تجد لأحدهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل أو يوجبه، بل منهم من يزعم أن العقل جَوَّز وأوجب ما يدعي الآخر أن العقل أحاله، فياليت شعري بأي عقل يوزن الكتاب والسنة، فرضي الله عن الإمام مالك بن أنس حيث قال: أوكلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد ﷺ لجدل هؤلاء[١].

يقول ابن قتيبة رحمه الله: «وقد تدبرتُ ـ رحمك الله ـ مقالة أهل الكلام فوجدتهم يقولون ما لا يعلمون، ويفتنون الناس بما يأتون، ويبصرون القذى في عيون الناس وعيونهم تطرف على الأجذاع، ويتهمون غيرهم في النقل ولا يتهمون آراءهم في التأويل، ومعاني الكتاب والحديث وما أودعاه من لطائف الحكمة وغرائب اللغة لا يدرك بالطفرة والتولد والعرض والجوهر والكيفية والأينية[٢]، ولو ردوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما لوضح لهم المنهج واتسع لهم المخرج، ولكن يمنع من ذلك طلب الرياسة، وحب الأتباع، واعتقاد الإخوان بالمقالات، والناس أسراب طير يتبع بعضها بعضاً، ولو وجد لهم من يدعي النبوة أو الربوبية لوجد على ذلك أتباعاً وأشياعاً، وقد كان يجب مع ما يدعونه من معرفة القياس، وإعداد آلات النظر أن لا يختلفوا كما لا يختلف الحُسَّاب والمُسَّاح والمهندسون، فما بالهم أكثر الناس اختلافاً، ليس منهم واحد إلا وله مذهب في الدين يدان برأيه وله عليه

(١) انظر: الحجة للأصبهاني ٤٥٥/٢ برقم: ٤٧٦، وشرح السنة ١٤٤/١ برقم: ٢٩٣، ٢٩٤.

(٢) هذه من ألفاظ المتكلمين جارية على ألسنتهم، ومذكورة في كتبهم.

تبع»[١].

ثامناً: رد البدعة ببدعة أخرى:

وهذا غالب عليهم وظاهر فيهم، وسبب ذلك إعراضهم عن الشرع المنزل، وإقبالهم على الأوهام والظنون التي يسمونها عقليات: فتعمق قوم منهم في النظر وزعموا أنهم يريدون تصحيح التوحيد، وذلك بنفي التشبيه عن الخالق، فأبطلوا الصفات، وهم في ذلك على تفاوت، فلما رأى قوم إفراط هؤلاء في النفي، عارضوهم بالإفراط في التمثيل فقالوا بالتشبيه المحض[٢].

وقال قوم منهم بنفي القدر وقدرة الله (تعالى) على أفعال المكلفين، حتى جعلوهم فاعلين لما لا يشاء الله (تعالى)، وقادرين على مالا يريد. فعارضهم قوم من أهل الإثبات للقدر وقابلوا غلوهم بغلو، فقالوا بالجبر المحض، وجعلوا العبد المأمور المنهي المكلّف لا يستطيع من الخير والشر شيئاً، ولا يفعل على الحقيقة[٣].

ولما أفرط المعتزلة في إثبات الحسن والقبح العقليين، وقالوا بوجوب فعل الأصلح على الله (تعالى)، قابلهم الأشاعرة بنفي ذلك مطلقاً، وإنكار أن

(١) تأويل مختلف الحديث ص : ١٣-١٤ .

(٢) انظر : اختلاف اللفظ ـ ابن قتيبة ص : ٤٥ .

(٣) المرجع السابق ص : ١٩-٢٠ .

يكون في الأشياء حُسْن وقُبْح يعرفان بالعقل، بل الحَسَن ما حسَّنه الشرع والقَبيح ما قبَّحه الشرع[١] .

وهؤلاء الوعيدية من الخوارج والمعتزلة أفرطوا في باب الإيمان وجعلوا الأعمال شرط صحة فيه، فقالوا بكفر مرتكب الكبيرة أو خروجه من الإيمان، وعدم دخوله الكفر كما قالته المعتزلة، وبتخليده في النار إن مات من غير توبة، فقابلهم المرجئة، وقالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، وإن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان مستحق لدخول الجنة ابتداء. إلى غير ذلك من البدع التي ظهرت نتيجة الرد على بدع أخرى. قال ابن تيمية رحمه الله: «واكثر المتكلمين يردون باطلا بباطل، وبدعة ببدعة»[٢] .

وقد يغلو بعض أهل الحق في إنكار بعض البدع، فيقع في التزام بدعة جديدة، كما قيل في تعليل موقف أبي حنيفة وبعض الفقهاء (رحمهم الله) في باب الإيمان، وقولهم بشيء من الإرجاء، إن ذلك كان في مقابل الرد على الوعيدية من الخوارج والمعتزلة .

وكما يروى عن مسلم بن أبي مريم أنه كان شديداً على القدرية، عائباً لهم ولكلامهم، فانكسرت رجله، فتركها و لم يجبرها، فكُلِّم في ذلك، فقال : يكسرها هو وأجبرها أنا، لقد عاندته إذاً[٣] .

(١) انظر : الرد على المنطقيين ص : ٤٢٠-٤٢١ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩٧/١٣.

(٣) انظر : عيون الأخبار ـ ابن قتيبة ١٤١/٢-١٤٢ .

تاسعاً: استعمالهم المصطلحات المبتدعة:

وهي المأخوذة عن فلاسفة اليونان وأصحاب الديانات الأخرى، وتركوا المصطلحات الشرعية، مما أوقعهم في الإجمال والإيهام، كألفاظ: الجسم والحيز والمكان والجهة ونحوها. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معرض إنكاره لفظ الجبر: «وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على إنكار ذلك وذم من يطلقه وإن قصد به الرد على القدرية ... وقالوا: هذا ردَّ بدعة ببدعة، وقابَلَ الفاسد بالفاسد، والباطل بالباطل»[(١)]؛ ولهذا أنكر الأئمة ـ كالثوري والأوزاعي والزبيدي وأحمد بن حنبل وغيرهم ـ على من قال: جَبَرَ الله العباد، وقالوا: الجبر لا يكون إلا من عاجز كما يجبر الأب ابنته على خلاف مرادها[(٢)].

فالأئمة إذا ذكرت لهم هذه الألفاظ المجملة لم يوافقوا عليها: لا إثباتاً ولا نفياً، بعكس أهل البدع الذين ابتدعوها وجعلوها هي الأصل المعتمد والمحكم الذي يجب اعتقاده والبناء عليه، ثم نظروا في الكتاب والسنة: فما أمكنهم أن يتأوَّلوه على قولهم تأوَّلوه، وإلا قالوا هذا من الألفاظ المتشابهة المشكلة: فجعلوا بدعهم أصلاً محكماً وما جاء به الرسول ﷺ فرعاً لما أسَّسُوه من معقولاتهم، ومشكلاً إذا لم يوافقه. وهذا هو أصل دين الجهمية والقدرية وأمثالهم، وهو أصل دين الملاحدة من الفلاسفة الباطنية. والواجب أن يجعل ما أنزله الله من الكتاب والحكمة أصلاً في جميع هذه الأمور، ثم يرد ما تكلم الناس فيه إلى ذلك، ويبين ما في الألفاظ المجملة من المعاني

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/٣٢٢.

(٢) انظر: منهاج السنة ٣/٣٦.

الموافقة للكتاب والسنة فتقبل، وما فيها من المعاني المخالفة للكتاب والسنة فترد.(١)

عاشراً: تعصب المتكلمين لمذاهبهم وعدم رجوعهم إلى الحق:

وذلك اتباعاً لأهوائهم، وهو الغالب عليهم، لا سيما في حال الصحة والأمن، بل تجدهم ينافحون عن مذاهبهم ، ويناظرون عليها، طالبين تقريرها وإشاعتها، والظهور على غيرهم؛ ولهذا فرجوعهم عنها عزيز.

يقول أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله: «قال علماء السلف ما وجدنا أحداً من المتكلمين في ماضي الأزمان إلى يومنا هذا رجع إلى قول خصمه، ولا انتقل عن مذهبه إلى مذهب مناظره، فدل على أنهم اشتغلوا بما تركه خير من الاشتغال به...».(٢)

وقال رجل لأيوب بن أبي تميمة العنزي (١٣١هـ): يا أبابكر، إن عمرو بن عبيد قد رجع عن قوله. قال سلام ـ أحد الرواة ـ : وكان الناس قد قالوا ذلك تلك الأيام إنه قد رجع ، قال أيوب: إنه لم يرجع. قال: بلى، إنه قد رجع. قال أيوب: إنه لم يرجع، قالها غير مرة، ثم قال أيوب : أما سمعت إلى قوله ـ يعني في الحديث ـ : «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة، ثم لا يعودون فيه حتى يرجع السهم إلى فُوقه(٣) إنه لا يرجع أبدا»(٤).

---

(١) تفسير سورة الإخلاص ـ ابن تيمية ص : ١٢١-١٢٢ .

(٢) الحجة في بيان المحجة ١/١٠٠-١٠١.

(٣) الفُوق من السهم موضع الوتر . انظر : لسان العرب ١٠/٣١٩ مادة فوق .

(٤) السنة لعبد الله بن أحمد ص : ١٥١ ح : ٨١٢ ، وانظر : شرح السنة ــ اللالكائي ١/١٤١ برقم : ٢٨٦. والحديث المذكور موجود في كتب السنة بعدة روايات، وهذه الرواية في صحيح البخاري ١٣/٥٣٥-٥٣٦ (فتح الباري) كتاب التوحيد ـ باب قراءة الفاجر والمنافق ...ح : ٧٥٦٢.

وقد يصل التعصب ببعضهم إلى أبشع صوره، كما في كـلام لعمـرو بـن عبيد المعتزلي الذي رواه عنه الخطيب البغدادي رحمه الله، وقد سمع عمرو حديثاً يخالف مذهبه، فقال: «لـو سمعـت الأعمـش يقـول هـذا لكذبتـه، ولـو سمعت زيد بن وهب (٨٣هـ) يقول هذا ما أجبتـه، ولـو سمعـت عبـدالله بـن مسعود يقول هذا ما قبلته، ولو سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا لرددته، ولـو سمعت الله (تعالى) يقول هذا لقلت له: ليس على هذا أخذت ميثاقنا»[(١)] .

حادي عشر: إحراج الخصم بالمغاليط وادعاء محاصرته:

وذلك بأن يجعلوه بين خيارين ـ كما في زعمهـم ـ إمـا أن يختـار قولهـم ويقر به، ويخضع له، وإما أن يختار قولاً يجتمع هـو وهـم علـى إنكـاره، فـإذا اختاره جعلوه سبيلاً للتشنيع به عليه، والتشهير به، ونسبته إلى أبطل البـاطل. يقول الإمام أحمـد رحمـه الله وهـو ينـاقش مذهـب الجهـم في نفـي الصفـات وادعائه خلق القرآن: «ثم إن الجهم ادعى أمراً آخر وهو مـن المحـال، فقـال: أخبرونا عن القرآن: أهو الله أو غير الله؟ فادعى في القرآن أمراً يوهم الناس، فإذا سئل الجاهل عن القرآن هـو الله أو غـير الله، فـلا بـد لـه مـن أن يقـول بأحد القولين، فإن قال : هو الله قال له الجهمي: كفرت. وإن قال هـو غـير الله. قال: صدقت، فلم لا يكون غير الله مخلوقاً، فيقع في نفـس الجـاهل مـن ذلك ما يميل به إلى قول الجهمي. وهذه المسألة من الجهمي من المغاليط.

---

(١) تأريخ بغداد ١٧٢/١٢ ، ونحوه في السنة لعبد الله بـن أحمـد ص: ١٥٣ ح: ٨٢٨، وانظـر: ميزان الاعتدال ٢٧٨/٣ ، والتنكيل للمعلمي ٢٦/١ .

فالجواب للجهمي إذا سأل فقال: أخبرونا عن القرآن هو ا لله أو غير ا لله؟ قيل له: وإن ا لله جل ثناؤه لم يقل في القرآن: إن القرآن أنا، و لم يقل غيري، وقال هو كلامي، فسمَّيْنَاه باسم سمَّاه ا لله به، فقلنا كلام ا لله. فمن سمَّى القرآن باسم سمَّاه ا لله به كان من المهتدين، ومن سماه باسم غيره كان من الضالين»[١].

وقال بشر المريسي لعبد العزيز الكناني في مناظرتهما المشهورة: «تقول: إن القرآن شيء أم غير شيء، فإن قلت: إنه شيء، فقد أقررت أنه مخلوق إذ كانت الأشياء كلها مخلوقة بنص التنزيل، وإن قلت إنه ليس بشيء فقد كفرت لأنك تزعم أنه حجة ا لله على خلقه وأن حجة ا لله ليست بشيء» فقال عبدالعزيز في الجواب: «ما رأيت أعجب منك! تسألني وتجيب نفسك عني، وتكفرني و لم تسمع كلامي ولا قولي... فإني أحسن أن أعبر عن نفسي، وأحتج لمقالتي ومذهبي...» ثم بيَّن رحمه ا لله أنه إن كان المراد بالشيء إثبات الوجود ونفي العدم فالقرآن شيء، وإن كان المراد بالشيء أنه اسم للقرآن وأنه كالأشياء المخلوقة، فالقرآن ليس كذلك. ثم استدل لمذهبه - وهو الحق - بما بينه وأظهره على مقالة بشر حتى انقطع عن الجواب، وشهد بذلك أمير المؤمنين والحاضرون[٢].

(١) الرد على الجهمية ص : ١١٠ .

(٢) انظر : الحيدة ص : ٢٨ فما بعدها .

ثاني عشر: ضعف المتكلمين في المناظرة:

وذلك عند مناظرتهم لأهل الديانات الأخرى أو ممن هو أسوأ حالاً منهم؛ كما روى عمرو بن الهيثم قال: «خرجنا في سفينة وصحبنا فيها قدري ومجوسي فقال القدري للمجوسي: أسلم. قال المجوسي: حتى يريد الله. فقال القدري: إن الله يريد ولكن الشيطان لا يريد. قال المجوسي: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان، هذا شيطان قوي» وفي رواية: فأنا مع أقواهما(١).

ويذكر ابن تيمية رحمه الله أن ردود المتكلمين على أهل الديانات الأخرى غير كافية، وهو يلومهم على عدم عنايتهم العناية اللائقة بهذا الهدف ويقول رحمه الله: «وكثير من المصنفين في الكلام لا يردون على أهل الكتاب إلا ما يقولون: إنه يعلم بالعقل؛ مثل تثليث النصارى، ومثل تكذيب محمد، ولا يناظرونهم في غير هذا من أصول الدين، وهذا تقصير منهم ومخالفة لطريقة القرآن، فإن الله يبين في القرآن ما خالفوا به الأنبياء، ويذمهم على ذلك، والقرآن مملوء من ذلك، إذ كان الكفر والإيمان يتعلق بالرسالة والنبوة، فإذا تبين ما خالفوا فيه الأنبياء ظهر كفرهم»(٢).

ويبين رحمه الله في موضع آخر قصور مناظرة أهل الكلام للفلاسفة المشركين، فيقول: «ولهذا كانت مناظرة كثير من أهل الكلام لهم مناظرة قاصرة، حيث لم يعرف أولئك حقيقة ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه

(١) عيون الأخبار ـ ابن قتيبة ١٤٢/٢، وحز الغلاصم ص: ٣١، وشرح الطحاوية ٣٢٣/١.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٨٨/١٩.

وما ذمَّه من الشرك. ثم يكشفون بنور النبوة ما عند هؤلاء من الضلال؛ كما ناظرهم الشهرستاني في كتاب الملل والنحل[(١)] لما ذكر فصلاً في المناظرة بين الحنفاء، وبين الصابئة المشركين، فإن الحنفاء يقولون بتوسط البشر، وأولئك يقولون بتوسط العلويات. فأخذ يبين أن القول بتوسط البشر أولى من القول بتوسط العلويات. ومعلوم أنه إذا أخذ التوسط على ما يعتقدونه في العلويات كان قولهم أظهر. فكان الرد عليهم ضعيفاً لضعف العلم بحقيقة دين الإسلام؛ فإن الحنفاء ليس فيهم من يقول بإثبات البشر وسائط في الخلق والتدبير والرزق والإحياء والإماتة، وسماع الدعاء وإجابة الداعي؛ بل الرسل كلهم وأتباع الرسل متفقون على أنه لا يعبد إلا الله وحده فهو الذي يُسأل ويُعبد، وله يُصلى ويُسجد، وهو الذي يجيب دعاء المضطرين، ويكشف الضر عن المضرورين، ويغيث عباده المستغيثين...»[(٢)].

ثالث عشر: اشتماله على ما أوجب تسلطهم وتسلط خصومهم عليهم:

ويتبين ذلك فيما يلي:

١- مخالفتهم الطرق الشرعية والعقلية الصحيحة كانت سبباً في تسلط الفلاسفة والملاحدة عليهم حيث ألزموهم باللوازم الفاسدة؛ حتى أخرجوهم إلى أنواع البدع والضلالات. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في وصف المتكلمين: «وهم وإن كان لهم من نصر بعض

(١) ٢/٩ وما بعدها من كتاب الملل والنحل للشهرستاني .

(٢) الرد على المنطقيين ص : ٥٣٦-٥٣٧.

الإسلام أقوال صحيحة، فهم فيما خالفوا فيه السنة سلّطوا عليهم وعلى المسلمين أعداء الإسلام، فلا للإسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا»[(١)].

ويقول رحمه الله مخاطباً نفاة بعض الصفات لله (تعالى): «ومن هنا تسلّط عليكم القرامطة والفلاسفة والمعتزلة ونحوهم من النفاة، وكلام أئمتكم معهم كلام قاصر يظهر قصوره لمن كان خبيراً بالعقليات؛ وسبب ذلك تقصيرهم في مناظرتهم حيث سلّموا لهم مقدمات عقلية ظنوها صحيحة وهي فاسدة، فاحتاجوا إلى إثبات لوازمها فاضطروهم إما إلى موافقتهم على الباطل، وإما إلى التناقض الذي يظهر به فساد قولهم، وإما إلى العجز الذي يظهر به قصورهم وانقطاعهم»[(٢)].

ولهذا لما ناظر السمنية جهماً في ذات الله (تعالى) ولم يكن جهم يعرف الطرق الشرعية والعقلية الصحيحة التزم نفي الصفات عن الله (تعالى) النفي المطلق الذي يستلزم تعطيل الرب (تعالى) عن صفاته كلها بل عن وجوده في الحقيقة؛ ولهذا قال علي بن عاصم (٢٠١هـ): «ناظرت جهمياً فتبين من كلامه أنه لا يرى أن في السماء رباً»[(٣)]، ومر بنا ما رواه عمرو بن الهيثم حين قال: خرجنا في سفينة وصحبنا فيها قدري ومجوسي، فقال القدري للمجوسي: أسلم. قال المجوسي حتى يريد الله. فقال القدري: إن الله يريد ولكن الشيطان لا يريد. قال المجوسي: أراد

(١) درء تعارض العقل والنقل ١٠٧/٧.
(٢) المرجع السابق ١٣٧/٧.
(٣) المرجع السابق ٢٦١/٦.

الله وأراد الشيطان فكان ما أراد الشيطان، هذا شيطان قوي. وفي رواية: فأنا مع أقواهما[(١)].

٢- عدم إيمانهم بالكتاب كله كان سبباً في تسلُّط المتكلمين بعضهم على بعض، كتسلُّط نفاة نصوص المعاد والأسماء والصفات على نفاة الأسماء والصفات دون المعاد. وتسلُّط نفاة الأسماء والصفات على نفاة الصفات دون الأسماء، وتسلُّط نفاة الصفات دون الأسماء على نفاة بعض الصفات. وذلك لبطلان حجة كل فريق في التفريق بين ما أثبته وبين ما نفاه، إذ التفريق بين المتماثلات ممتنع في العقل وباطل في الشرع.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «وافق الأشاعرة المعتزلة في قولهم إن الشرع لا يعتمد عليه في إثبات الصفات، وإنما المعتمد العقل؛ ولهذا طمع فيهم المعتزلة وطمعت الفلاسفة في الطائفتين بإعراض قلوبهم عما جاء به الرسول، وعن طلب الهدى من جهته، وجعل هؤلاء يعارضون بين العقل والشرع كفعل المعتزلة والفلاسفة، ولم يكن الأشعري وأئمة أصحابه على هذا»[(٢)].

ويقول جمال الدين القاسمي (١٣٣٢هـ) رحمه الله: «إن المتكلمين المتأخرين المنسوبين للأشعرية يرجع كثير من مسائلهم إلى مذهب

---

(١) عيون الأخبار ـ ابن قتيبة ١٤٢/٢، وحز الغلاصم ص : ٣١ ، والدليل القويم للعبدري ص : ٦٢ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١٣/٢ بتصرف.

الجهمية كما يدريه المتبحر في الكلام، والموازن بين أقوال هؤلاء وأقوال السلف»[(١)].

ومن أمثلة ذلك ما قاله ابن تيمية رحمه الله وهو يصور موقف ابن كلاب والأشعري ونحوهما من كلام الله (تعالى)، فقال رحمه الله: «فلما نبغ ابن كلاب وأضرابه ـ يعني القلانسي والمحاسبي والأشعري ونحوهم ـ وحاولوا الرد على المعتزلة من طريق العقل، وهم لا يخبرون أصول السنة، ولا ما كان عليه السلف ولا يحتجون بالأخبار الواردة في ذلك زعماً منهم أنها أخبار آحاد وهي لا توجب علماً، وألزمتهم المعتزلة بأن الكلام حرف وصوت يدخله التعاقب والتأليف، وهو مُكوَّن من أجزاء وأبعاض، وما كان كذلك لا يجوز أن يكون من صفات الله فالتزموا ما قالته المعتزلة، وركبوا مكابرة العيان، وخرقوا الإجماع المنعقد بين الكافة: الكافر والمسلم، وقالوا للمعتزلة: الذي ذكرتموه ليس بحقيقة الكلام، وإنما سمي كلاماً على المجاز؛ لكونه حكاية أو عبارة عنه، وحقيقة الكلام معنى قائم بذات المتكلم»[(٢)].

٣- تسلطهم على ضعفاء المسلمين وعوامهم وصيالهم عليهم؛ وذلك لما عجزوا عن كسر الفلاسفة ونحوهم من صنوف الملاحدة. فكانوا كما وصفهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «... بمنزلة من قصَّروا في جهاد من يليهم من الكفار حتى غلبوهم وهزموهم، فقاموا يقاتلون من

(١) تأريخ الجهمية ص: ٩.

(٢) موافقة صحيح المنقول ٢/٤٥-٤٦ (بتصرف).

يليهم من المسلمين كما قاتلهم أولئك الكفار حتى ظهر الباطل والكفر والضلال؛ بتفريطهم أولاً في جهاد من يليهم من الكفار وعدوانهم ثانياً على من يليهم من المسلمين»[(١)].

ويقول أبو العباس القرطبي رحمه الله وهو يعدد شناعات المتكلمين: «ثانيتهما: قول جماعة منهم: إن من لم يعرف الله(تعالى) بالطرق التي طرقوها، والأبحاث التي حرروها، فلا يصح إيمانه، وهو كافر، فيلزمهم على هذا تكفير أكثر المسلمين من السلف الماضين، وأئمة المسلمين، وأول من يبدأ بتكفيره آباؤه وأسلافه وجيرانه، وقد أُورد على بعضهم هذا، فقال لا تشنّع عليَّ بكثرة أهل النار»[(٢)].

رابع عشر: اشتماله على ردهم لعلوم صحيحة تتعلق بالطبيعيات ونحوها تكون عند بعض خصومهم من الفلاسفة ونحوهم، فيكون ذلك سبباً في أمور من أهمها:

١- تنفير الخصم عن الإسلام .

٢- تسلط الملاحدة على الإسلام والمسلمين.

٣- نزع الثقة في الإسلام من قلوب ضعاف الإيمان.

(١) درء تعارض العقل والنقل ١٣٨/٧.

(٢) المفهم ص : ١١٣ (مخطوط) ، وانظر : فتح الباري ٣٥٠/١٣.

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله وهو يتحدث عن علوم الفلاسفة ومنها: الرياضيات والطبيعيات، معددا آفاتها، فقال: «الآفة الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم؛ فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع، فلما قرع ذلك سمْع من عرف ذلك بالبرهان القاطع لم يشك في برهانه، لكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل، وإنكار البرهان القاطع، فازداد للفسلفة حباً وللإسلام بغضاً، ولقد عظمت على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية»[(١)].

ويؤكد ابن تيمية رحمه الله هذه المعنى في قوله: «وهؤلاء ـ يعني الفلاسفة ـ عندهم أمور معلومة من الحسابيات؛ مثل وقت الكسوف والخسوف، ومثل كرية الأفلاك ووجود السحاب من البخار ونحو ذلك من الأمور الطبيعية والرياضية، فيحتجون بها على من يظن أنه من أهل الشرع، فيسرع ذلك المنتسب إلى الشرع برد ما يقولونه بجهله؛ فيكون ردُّ ما قالوه من الحق سبباً لتنفيرهم عما جاء به الرسول من الحق بسبب مناظرة هذا الجاهل»[(٢)]. وقال رحمه الله في موضع آخر[(٣)]: «وكذلك ما يعلم

(١) المنقذ من الضلال ص: ٩٠.

(٢) الرد على المنطقيين ص: ٢٧٤.

(٣) المرجع السابق ص: ٢٦٠.

بالمشاهدة والحساب الصحيح من أحوال الفلك علم صحيح لا يُدفع، والأفلاك مستديرة ليست مضلّعة، ومن قال إنها مضلّعة، أو جوَّز ذلك من أهل الكلام فهو وأمثاله ممن يرد على الفلاسفة وغيرهم ما قالوه من علم صحيح معقول مع كونه موافقاً للمشروع، وهذا من بدع أهل الكلام الذي ذمَّه السلف وعابوه...وكان ذلك من أسباب ضلال كثير من الناس؛ حيث ظنوا أن ما يقوله هؤلاء المبتدعون هو الشرع المأخوذ عن الرسول، وليس الأمر كذلك، بل كل ما علم بالعقل الصريح فلا يوجد عن الرسول إلا ما يوافقه ويصدقه».

وقال ـ أيضاً ـ: «فإن غلط هؤلاء ـ يعني المتكلمين ـ مما سلط أولئك المتفلسفة وظنوا أن ما يقول هؤلاء وأمثالهم هو دين المسلمين أو قول الرسول وأصحابه»[(١)].

ومن غريب أمر المتكلمين أنهم قد يخالفون الفلاسفة في أمور صحيحة كما تقدم في مسائل الرياضيات والطبيعيات ونحوها، كما أنهم قد يوافقونهم في أمور باطلة، كما في باب الإلهيات، ولهذا كانت المناظرات بينهم دولاً، وإن كان المتكلمون أصح مطلقاً في العقليات الإلهية، كما أنهم أقرب إلى الشرعيات من الفلاسفة، وكلام الفلاسفة في الأمور الحسية الطبيعية، وفي كلياتها غالبه جيد[(٢)].

---

(١) المرجع السابق ص: ٣١١.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧/٣٣٤-٣٣٥ ، والرد على المنطقيين ص :٣١١.

هـذا ما تيسر ذكره من خصائص الجدل عند المتكلمين، ومع ذلك فأهل العلم من أهل السنة والجماعة يعترفون لأهل الكلام بجهودهم في الرد على البدع الكبار كبدعة الرفض والتجهم، وبجهودهم في الرد على اليهود والنصارى والمشركين والفلاسفة الملحدين ونحوهم. ولهذا شكرهم المسلمون على هذا، واستحمدوا مواقفهم التي فيها النصرة لدين الله (تعالى). يقول ابن تيمية رحمه الله: «وكذلك متكلمة أهل الإثبات مثل الكُلابيَّة والكراميَّة والأشعريَّة إنما قُبلوا واتبعوا استُحْمِدُوا إلى عموم الأمة بما أثبتوه من أصول الإيمان؛ من إثبات الصانع وصفاته وإثبات النبوة، والرد على الكفار من المشركين وأهل الكتاب، وبيان تناقض حججهم، وكذلك استحمدوا بما ردوه على الجهمية والمعتزلة والرافضة والقدرية من أنواع المقالات التي يخالفون فيها أهل السنة والجماعة»[(١)].

ويقول رحمه الله في باب المفاضلة بين طوائف المثبتة من الكلابية والأشعرية ونحوهم، وطوائف النفاة من المعتزلة والجهمية ونحوهم: «وإن كان في كلامهم من الأدلة الصحيحة وموافقة السنة ما لا يوجد في كلام عامة الطوائف، فإنهم أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة والحديث، وهم يعدون من أهل السنة والجماعة عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة وغيرهم، بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها هم المعتزلة والرافضة ونحوهم»[(٢)].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/١٢-١٣ ، وانظر : الرد على المنطقيين ص : ١٤٢-١٤٣ .
(٢) نقض تأسيس الجهمية ٢/٨٧ .

هذا مع ما قد يكون في بعض أدلتهم من القصور أو الفساد، لكن فسادهم أقل من فساد غيرهم من الطوائف؛ قال ابن تيمية رحمه الله: «قال ﷺ: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وبأقوام لا خلاق لهم»[1] وهذا كالحجج والأدلة التي يذكرها كثير من أهل الكلام والرأي، فإنه ينقطع بها كثير من أهل الباطل، ويُقوَّى بها قلوب كثير من أهل الحق، وإن كانت في نفسها باطلة، فغيرها أبطل منها، والخير والشر درجات، فينتفع بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير منه.

وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين: «من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار فأسلم على يديه خلق كثير، وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين وهو خير من أن يكونوا كفاراً...وأكثر المتكلمين يردون باطلاً بباطل، وبدعة ببدعة؛ لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهي بدعة أهل السنة»[2].

فهذا يبين أن كلام أهل الإسلام في نفسه متفاضل، وكذلك كلام أهل الإسلام أفضل من كلام الفلاسفة والملاحدة ونحوهم. يقول شيخ الإسلام

---

(١) هذه العبارة ـ عدا قوله: وبأقوام لا خلاق لهم فإني لم أقف عليها فيما بين يدي من كتب السنة ـ قطعة من حديث طويل عند البخاري ٤٧١/٧ (فتح الباري) كتاب المغازي ـ باب غزوة خيبر ح: ٤٢٠٣ و١١/٤٩٨-٤٩٩ (فتح الباري) كتاب القدر ـ باب العمل بالخواتيم ح: ٦٦٠٦ ، وصحيح مسلم ١/١٠٥-١٠٦ كتاب الإيمان ـ باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ... ح : ١١١ وغيرهما من كتب السنة.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/٩٥-٩٧.

رحمه الله: «مع أنه يمكن بيان أن قول الأشعري أقرب إلى صريح المعقول من قول المعتزلة، كما يمكن أن يُبيَّن أن قول المعتزلة أقرب إلى صريح المعقول من قول الفلاسفة، لكن هذا يفيد أن هذا القول أقرب إلى المعقول وإلى الحق، لا يفيد أنه هو الحق في نفس الأمر، فهذا ينتفع به من ناظر الطاعن على الأشعرية من المعتزلة والطاعن على المعتزلة من الفلاسفة، فتُبيِّن له أن قول هؤلاء خير من قول أصحابك؛ فإنه كما أن كل من كان أقرب إلى السنة، فقوله أقرب إلى الأدلة الشرعية، فكذلك قوله أقرب إلى الأدلة العقلية...»[1].

(١) درء تعارض العقل والنقل ٧/٢٣٨.

المطلب الخامس
حكم الاشتغال بعلم الكلام

المشهور عن السلف والأئمة ذم الكلام وذم أهله، وهم لا يذمون إلا ما هو باطل وحرام، ونصوصهم في ذلك بلغت حدا من الكثرة والتواتر ما جعل ذلك شعارا لهم يتميزون به عن غيرهم، كما سيتبين ذلك لاحقا.

ثم ظهر في المتأخرين من يقسم الكلام إلى نوعين: محمود ومذموم، والمذموم هو كلام أهل الاعتزال والرفض ونحوهم من فرق الضلال. والمحمود هو كلام الأشاعرة ونحوهم[(١)].

قال البيهقي (٤٥٨هـ) رحمه الله عقب إيراده مشهور كلام الإمام الشافعي[(٢)] رحمه الله في ذم الكلام وأهله، قال: «إنما أراد الشافعي رحمه الله بهذا الكلام حفصاً وأمثاله من أهل البدع، وهذا مراده بكل ما حكي عنه في ذم الكلام وذم أهله»[(٣)].

وقد يكون مقصود البيهقي بالكلام: الجدل والمناظرة في نصرة الباطل، ولهذا قال بعد كلامه الأول: «وكيف يكون كلام أهل السنة والجماعة مذموماً عنده ـ أي الشافعي ـ وقد تكلم فيه، وناظر من ناظره فيه، وكشف

---

(١) انظر: تبيين كذب المفتري ص: ٣٣٣ وما بعدها، وإشارات المرام ص: ٤٧-٤٨، ٣٤-٣٧.

(٢) ستأتي نصوص الإمام الشافعي قريبا.

(٣) مناقب الشافعي ـ للبيهقي ١/٤٥٤.

عن تمويه من ألقى إلى سمع بعض أصحابه من أهل الأهواء شيئاً مما هم فيه»[١].

وحمل ـ أيضاً ـ ابن عساكر (٥٧١هـ) رحمه الله ما ورد عن الشافعي من ذم الكلام وأهله على كلام أهل البدع كالقدرية، وكلام حفص الفرد وأمثاله[٢].

ويقول ابن حجر الهيتمي (٩٧٤هـ) رحمه الله: «محل الذم البليغ، والزجر الأكيد ما يؤدي الخوض فيه إلى زيغ أو ارتكاب شبهة لا مخلص له منها، وغير ذلك من المفاسد التي كانت من أهله في زمن أولئك الأئمة، وأما بعدهم فقد تميز أهل السنة من أهل البدع، وحرروا كتبهم فيه، واجتهدوا في قمع البدع، فلا مساغ في ذمه، بل هو آكد فروض الكفايات»[٣]. ويقول طاش زادة: «ولا يخفى أن إنكار السلف لا ينبغي أن يكون على كلام الأشاعرة والماتريدية[٤] بل على كلام الفلسفة وأهل الاعتزال، وعلى كلام أهل الجدال بالباطل إذ الكلام الشائع في زمان الأئمة المجتهدين هو كلام

---

(١) المرجع السابق ١/٤٥٤-٤٥٥.

(٢) انظر: تبيين كذب المفتري ص: ٣٣٦-٣٣٧ .

(٣) إشارات المرام ص:.٤٨.

(٤) الماتريدية : هم أتباع أبي منصور، محمد بن محمد الماتريدي، الملقب بإمام الهدى، من مذاهبهم قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين، والتأويل والتفويض، وأن المسموع من كلام الله إنما هو عبارة عنه، وأصولهم قريبة من أصول الأشاعرة، انظر : كلاما مفصلا وجيدا عنهم في كتاب الماتريدية دراسة وتقويما لأحمد عوض الله الحربي.

الاعتزال والإرجاء وأمثالهما، وأما كلام أهل السنة والجماعة فقد حدث بعد انقراضهم بزمان كثير»[(١)].

فهذه محاولة للتفريق بين كلام أهل الاعتزال والفلسفة، وكلام المنتسبين إلى السنة من الأشاعرة والماتريدية ونحوهم، وجعْل الذم الوارد عن السلف والأئمة ينال كلام الفلاسفة والمعتزلة دون الأشاعرة ونحوهم، لكن ما ذكر من الآفات التي لأجلها ذم السلف الصالح والأئمة الكلام موجودة في كلام الأشاعرة ونحوهم، فيكون حكمه حكم كلام أهل الفلسفة والاعتزال. فهذا أبوعمر بن عبدالبر رحمه الله ينقل عن ابن خويز منداد المالكي قوله: «لا تجوز الإجارات في شيء من كتب الأهواء والبدع والتنجيم» وذكر كتبا، ثم قال: «وكتب أهل الأهواء والبدع عند أصحابنا هي كتب أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم...» وقال رحمه الله في موضع آخر عند شرح قول مالك: "لا تجوز شهادة أهل البدع وأهل الأهواء" قال: «أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعرياً كان أو غير أشعري، ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبداً، ويُهْجر ويُؤَدَّب على بدعته، فإن تمادى عليها اُسْتُتِيبَ منها»[(٢)].

فالمقصود أن الذم والتحريم يقع على كل كلام يتضمن الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب والسنة، ويتضمن القول على الله بلا علم، إضافة إلى

---

(١) مفتاح السعادة ٢/١٦١.

(٢) جامع بيان العلم ٢/١١٧.

التعصب والحميَّة دون طلب الحق والالتزام بـه، فهـذا إن وجـد في أي كـلام فهو كلام مذموم محرَّم بغض النظر عن المتكلم به.

يقول ابن تيميــة رحمـه الله: «... الأصـل في ذم السـلف للكـلام هـو اشتماله على القضايا الكاذبة والمقدمات الفاسدة المتضمنـة للافـتراء علـى الله (تعالى) وكتابه ورسوله ودينه، فهذا هو الكلام المذموم بالذات وهــو الكـلام الكاذب الباطل ، وأما الكلام الذي هو حق وصدق فهـذا لا يـذم وإنمـا يـذم المتكلّم به أحيانا لاشتمال ذلك على مضرة عارضة مثل ما يحرم القذف، وإن كان القاذف صادقـا، إذا لم يكـن لـه أربعـة شـهداء، ومثـل مـا تحـرم الغيبـة والنميمة ونحو ذلك مما هو صدق لكن فيه ظلم للغير»[(١)].

نصوص السلف والأئمة في ذم الكلام وأهله:

وهي كثيرة ومتنوعة، أختار في هذا المقام قطوفا منها:

١- قيل لأبي حنيفة رحمـه الله: مـا تقـول فيمـا أحـدث النـاس مـن الكـلام والأعراض والأجسام، فقال: «مقالات الفلاسفة، عليـك بـالأثر وطريقـة السلف، وإياك وكل محدثة، فإنها بدعة»[(٢)].

٢- وقال أبو يوسف رحمه الله لبشر المريسـي: «مـن طلـب الديـن بـالكلام تزندق»[(٣)] وقــال أيضاً: «العلم بالكلام هو الجهل والجهل بـالكلام هـو

(١) درء تعارض العقل والنقل ١٧٧/٧ .

(٢) الحجة في بيان المحجة ١٠٥/١ .

(٣) شرح السنة ـ اللالكائي ١٤٧/١ برقم: ٣٠٥ ، والحجة ـ الأصبهاني ١٠٥/١-١٠٦.

العلم، وإذا صار الرجل رأساً في الكلام قيل: زنديق»[(١)] .

٣- وقال محمد بن شجاع البلخي: سمعت الحسن بن زياد اللؤلؤي وقد قال له رجل في زفر بن الهذيل: أكان ينظر في الكلام؟ فقال: «سبحان الله، ما أحمقك، ما أدركت مشيختنا: زفر وأبا يوسف وأبا حنيفة ومن جالسنا وأخذنا عنه يهمهم غير الفقه والاقتداء بمن تقدمهم»[(٢)] .

٤- وقال مالك رحمه الله: «الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه نحو الكلام في رأي جهم والقدر وكل ما أشبه ذلك...فأما الكلام في دين الله وفي الله عز وجل فالسكوت أحبُّ إلي؛ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل» قال أبوعمر رحمه الله بعد أن نقل هذا الكلام عن مالك: «والذي قاله مالك رحمه الله عليه جماعة الفقهاء والعلماء قديماً وحديثاً من أهل الحديث والفتوى، وإنما خالف ذلك أهل البدع المعتزلة وسائر الفرق، وأما الجماعة فعلى ما قال مالك رحمه الله»[(٣)].

٥- وقال الشافعي رحمه الله: «ما تردى أحد بالكلام فأفلح»[(٤)]، وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول وناظره رجل من أهل العراق، فخرج إلى

---

(١) شرح الطحاوية ١/١٧ .

(٢) جامع بيان العلم ٢/١١٧.

(٣) جامع بيان العلم ٢/١١٦ ، وانظر : ١/١٤٨-١٤٩ .

(٤) شرح السنة ـ اللالكائي١/١٤٦ برقم : ٣٠٣ .

شيء من الكلام، فقال: هذا من الكلام، دعه[(١)]. واشتهر عنه أنه قال يوم ناظره حفص الفرد: «لأن يلقى الله عز وجل العبدُ بكل ذنب ما خلا الشرك خير من أن يلقاه بشيء من الكلام...لقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه»[(٢)]. ومن المشهور عنه أيضاً قوله: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ويحملوا على الإبل، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام»[(٣)].

٦- وقال الإمام أحمد رحمه الله: «إنه لا يفلح صاحب كلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل»[(٤)].

٧- وقال أبو عمر رحمه الله: «أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولا يعدون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء...»[(٥)].

---

(١) شرح السنة - اللالكائي ١٤٥/١ برقم: ٢٩٩، والحجة ١٠٦/١، وكذب المفتري ص:٣٣٨.

(٢) جامع بيان العلم ١١٦/٢، والحجة ١٠٤/١، وشرح السنة ١٤٦/١ برقم: ٣٠٠، وتبيين كذب المفتري ص: ٣٣٥.

(٣) شرف أصحاب الحديث ص: ١٦٨، مناقب الشافعي - البيهقي ٤٦٢/١، وانظر: شرح الطحاوية ١٧/١-١٨.

(٤) جامع بيان العلم ١١٦/٢.

(٥) جامع بيان العلم ١١٧/٢.

٨- وقال الذهبي رحمه الله: «وصح عن الدارقطني أنه قال ما شيء أبغض إلي من علـم الكلام ـ قال الذهبي ـ: لم يدخل الرجل أبداً في علـم الكـلام ولا الجدال، ولا خاض في ذلك، بل كان سلفياً»[١].

٩-وقال أبوحامد الغزالي رحمه الله بعد أن ساق أقوال العلماء والأئمة في ذم الكلام والجدل[٢] واعتراض المعترضين وأدلتهـم، قـال: «ونقـول : إن فيـه منفعة وفيه مضرة، فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليـه أو واجـب كمـا يقتضيـه الحـال، وهـو باعتبـار مضرتـه في وقـت الاستضرار ومحله حرام.

أمـا مضرتـه: فإثـارة الشـبهات، وتحريـك العقـائد، وإزالتهـا عـن الجـزم والتصميم، فذلك مما يحصل في الابتداء، ورجوعها بالدليل مشكوك فيـه، ويختلف فيه الأشخاص، فهذا ضرره في اعتقاد الحق. ولـه ضـرر آخـر في تأكيد [المبتدعة][٣] للبدعة وتثبيته في صدورهم، بحيـث تنبعـث دواعيهـم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصـب الذي يثورمن الجدل...فهذا ضرره.

وأما منفعته، فقد يظن أن فائدته كشـف الحقـائق ومعرفتهـا علـى مـاهي عليه، وهيهـات، فليـس في الكـلام وفـاء بهـذا المطلـب الشـريف، ولعـل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف، وهـذا إذا سمعتـه مـن

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/٤٥٧ ترجمة رقم : ٣٣٢.

(٢) ساق الغزالي الحديث عن الكلام والجدل سـوقاً واحـداً، مـع أن بينهمـا فرقـاً، إذ الجـدل منـه المحمود ومنه المذموم ـ كما سيتبين ذلك ـ وأما الكلام فكله مذموم، وهو المعني بالبحث هنا.

(٣) في الأصل : [المبدعة] ، ولعل الصواب ما أثبته .

محدث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممن خَبرَ الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة، وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر تناسب نوع الكلام، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود. ولعمري، لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الندور... بل منفعته شيء واحد وهو: حراسة العقيدة(١) التي ترجمناها على العوام، وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل، فإن العامي ضعيف يستفزه جدل المبتدع، وإن كان فاسداً، ومعارضة

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن نقل كلام أبي حامد المذكور وغيره: «وحفظ مثل هذا الكلام لاعتقاد العوام كدفع المظلمة عنهم بعقوبات فيها عدوان... وأما حراسة عقيدة العوام: فيقال: أولاً: لا بد أن يكون المحروس هو نفس ما ثبت عن الرسول ﷺ أنه أخبر به لأمته، فأما إذا كان المحروس فيه ما يوافق خبر الرسول وفيه ما يخالفه، كان تمييزه قبل حراسته أولى من الذب عما يناقض خبر الرسول ﷺ، فإن حاجة المؤمنين إلى معرفة ما قاله الرسول وأخبرهم به ليصدقوا به، ويكذبوا بنقيضه، ويعتقدوا موجبه، قبل حاجتهم إلى الذب عن ذلك، والرد على من يخالفه، فإذا كان المتكلم الذي يقول إنه يذبُّ عن السنة قد كذَّب هو بكثير مما أخبر به الرسول ﷺ واعتقد نقيضه، كان مبتدعاً مبطلاً متكلماً بالباطل فيما خالف فيه خبر الرسول ﷺ كما أن ما وافق فيه خبر الرسول فهو فيه متبع للسنة، محق يتكلم بالحق. وأهل الكلام الذين ذمهم السلف لا يخلو كلام أحد منهم عن مخالفة السنة، ورد لبعض ما أخبر به الرسول، كالجهمية والمشبهة، والخوارج والروافض، والقدرية والمرجئة.

ويقال بأنها لا بد أن تحرس السنة بالحق والصدق والعدل، لا تحرس بكذب ولا ظلم، فإذا رد الإنسان باطلا بباطل، وقابل بدعة ببدعة، كان هذا مما ذمه السلف والأئمة» درء تعارض العقل والنقل ١٧٩/٧، ١٨٢.

الفاسد بالفاسد تدفعه»[(١)].

١٠-وصنف كثير من أهل العلم في ذم الكلام وأهله وبيان عواره، من ذلك: كتاب ذم الكلام للهروي، ونقد العلم والعلماء (تلبيس إبليس) لابن الجوزي، وجامع بيان العلم لابن عبد البر، وتحريم النظر لابن قدامة، وصون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام لجلال الدين السيوطي، وغير ذلك كثير.

تعليل ذم السلف والأئمة للكلام:

قد يظن بعض الناس أن السلف والأئمة ذموا الكلام وأهله لمجرد اشتماله على المصطلحات المحدثة كلفظ: الجوهر والعرض و الحيز والجهة ونحو ذلك، ومثل هذا لا يقتضي بمجرده الذم كما لو أحدث الناس آنية يحتاجون إليها، أو سلاحاً يحتاجون إليه لمقاتلة العدو، بل ذم السلف وأهل العلم للكلام كان لفساد معناه أعظم من ذمهم لمجرد هذه الألفاظ المحدثة، فذموه لاشتماله على معان باطلة مخالفة للكتاب والسنة ومخالفة للعقل الصريح[(٢)].

فالسلف لم يذموا جنس الكلام فإن كل آدمي يتكلم، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به رسوله، والاستدلال بما بينه الله ورسوله. بل ولا ذموا كلاماً هو حق، بل ذموا الكلام الباطل وهو المخالف للكتاب والسنة والعقل الصريح[(٣)].

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٩٧ .

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/٢٣٢-٢٣٣.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/١٤٧.

وعامة الكلام الذي ذمه السلف تشتمل مسائله على كذب وفرية وقول على الله بلا علم[(١)]. أما ذمهم للمصطلحات المحدثة، لا لكونها محدثة بل لما تضمنته من الباطل، أو لكونها ألفاظاً مجملة في النفي والإثبات تحتمل الحق وتحتمل الباطل، كما قال الإمام أحمد رحمه الله في وصفه لأهل البدع:"... يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يُشَبِّهُون عليهم"[(٢)] بل مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم ليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك وكانت المعاني صحيحة؛ كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم؛ فإن هذا جائز حسن للحاجة، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يُحتج إليه[(٣)].

ومن أعظم الأدلة على بطلان طريقة المتكلمين وفسادها وقصورها، بل ذمها وتحريمها: ما ثبت عن كثير منهم من ذم الكلام، وبيان فساده وقصوره وعدم جدواه، ثم رجوع بعضهم عنه، وتوبتهم منه، ووصيتهم لأتباعهم وتلاميذهم بترك الكلام، والميل لطريقة أهل السنة والحديث؛ وإليك أمثلة من ذلك:

١- روى ابن الجوزي بسنده إلى أحمد بن سنان أنه قال: «كان الوليد بن أبان الكرابيسي (٢١٤هـ)، خالي، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه: تعلمون

---

(١) انظر : درء تعارض العقل والنقل ١٧٨/٧ ، وتفسير سورة الإخلاص ص :١٢٠ .

(٢) الرد على الجهمية ص : ٨٥ .

(٣) انظر : درء تعارض العقل والنقل ٤٣/١، ٤٤.

أحداً أعلم بالكلام مني؟ قالوا: لا. قال: فتتهموني؟ قالوا: لا. قال: فإني أوصيكم، أتقبلون؟ قالوا: نعم. قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث، فإني رأيت الحق معهم»[(١)].

٢- وكان أبو المعالي الجويني يقول: «لقد جلت أهل الإسلام جولة، وعلومهم، وركبت البحر الأعظم، وغصت في الذي نهوا عنه، كل ذلك في طلب الحق وهرباً من التقليد، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف برِّه فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص فالويل لابن الجويني، وكان يقول لأصحابه: يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي مسا بلغ ما تشاغلت به»[(٢)].

٣- وقال الشهرستاني[(٣)]: إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، وأنشد:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سن نادم

وقد أجاب الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني على البيتين بالبيتين التاليين:[(٤)]

---

(١) تلبيس إبليس ص: ١٠٤.

(٢) تلبيس إبليس ص: ١٠٤-١٠٥ ، وانظر: طبقات الشافعية ـ السبكي ١٩١/٥، وانظره مختصراً في مختصر العلو ص:٢٧٥ برقم: ٣٣٥ .

(٣) نهاية الإقدام ص: ٣.

(٤) ديوان الصنعاني ص : ٣٤٥ .

لعلك أهملت الطواف بمعـــهد الـ الرسول ومن والاه من كل عالم
فما حار من يُهـدى بهـدي محمد ولستَ تـراه قـارعاً سـن نـادم

٤- وقال أبوالوفاء بن عقيل لبعض أصحابه: «أنـا أقطـع أن الصحابـة مـاتوا وما عرفوا الجوهر والعـرض، فـإن رضيـت أن تكـون مثلهـم فكـن، وإن رأيت أن طريقـة المتكلمـين أولى مـن طريقـة أبـي بكـر وعمـر فبئـس مـا رأيت. قال: وقـد أفضـى الكـلام بأهلـه إلى الشـكوك، وكثـير منهـم إلى الإلحاد، تشم رائحة الإلحاد من فلتات كلام المتكلمـين...وقـد بـالغت في الأول طول عمري ثم عدت القهقرى إلى مذهب الكتب»(١).

٥- قال أبوعبدا لله الرازي: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمنـاهج الفلسـفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيـت أقـرب الطـرق طريقـة القرآن؛ أقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [سورة فاطر: ١٠] وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سـورة الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٠] قال: ومــن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»(٢).

وقال الرازي أيضاً(٣):

---

(١) تلبيس إبليس ص: ١٠٥.

(٢) قال ذلك في كتابه أقسام اللذات كما ذكره عنه ابن تيمية. انظر: درء تعارض العقـل والنقـل ١/١٦٠. وذكر الدكتور محمد رشاد سـالم رحمـه الله أن هـذا الكتـاب مخطـوط بـالهند، ولم يذكره بروكلمان ضمن مؤلفات الرازي.

(٣) طبقات الشافعية ـ السبكي ٨/٩٦، ودرء تعارض العقل والنقل ١/١٦٠.

نــهاية إقــدام الــعقول عـــــقال وأكثر سعي العـــالمين ضلال
وأرواحنا في غفلة مـــن جسـومـنا وحـــاصل دنيـانا أذى ووبال
و لم نستفد من بحثنا طـــول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجـــال فزالـوا والجبال جبال
وكم رأينا من رجــــال ودولـــة فبادوا جميعا مُزْعَجين وزالـوا

٦- ومن المتـأخرين: محمـد بـن علي الشـوكاني رحمـه الله يخـبر عـن حالـه فيقول: «وها أنا أخـبرك عـن نفسـي، وأوضـح لـك مـا وقعـت فيـه في أمسي، فإني في أيام الطلب [وعنفـوان][1] الشـباب شُغِلتُ بهـذا العلـم الذي سموه تارة علم الكلام، وتـارة علـم التوحيـد، وتـارة علـم أصـول الدين وأكببت على مؤلفات الطوائف المختلفة منهـم، ورُمْـتُ الرجـوع بفائدة، والعود بعائدة، فلم أظفر من ذلـك بغـير الخيبـة والحـيرة، وكـان ذلك من الأسباب التي حببت إلي مذهب السلف»[2].

(١) في الأصل: [عنوان]، ولعل الصحيح ما أثبته.
(٢) التحف في مذهب السلف ص: ١٣-١٤.

المبحث الرابع
الجدل عند أهل السنة والجماعة

وفيه مطالب:

المطلب الأول: التعريف بأهل السنة والجماعة

المطلب الثاني: موقف أهل السنة والجماعة من الجدل والمناظرة

المطلب الثالث: نماذج من مواقف أهل السنة في الجدل والمناظرة

المطلب الأول

التعريف بأهل السنة والجماعة

نشأ مصطلح أهل والسنة والجماعة ـ لا سيما بعد ظهور البدع والفرق ـ استناداً إلى الأحاديث والآثار الداعية إلى الارتباط بالجماعة، التمسك بالسنة، والمحذرة من الفرقة والاختلاف في الدين والابتداع فيه:

من ذلك قوله ﷺ : «...فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية»(1). وقوله ﷺ : «... فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين؛ تمسكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة »(2). وقوله ﷺ : «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما مسكتم بهما: كتابَ الله وسنةَ نبيِّه»(3).

معنى السنة في اللغة:

السنة في اللغة: الطريقة والسيرة؛ حسنة كانت أم سيئة. قال خالد بن

---

(1) رواه البخاري في صحيحه ١٣/٥ (فتح الباري) كتاب الفتن ـ باب قول النبي ﷺ سترون بعدي أموراً تنكرونها ... ح: ٧٠٥٤.

(2) رواه أبوداود في سننه ٥/١٣-١٥ كتاب السنة ـ باب لزوم السنة ح: ٤٦٠٧، وانظر: سنن الترمذي٧/٣١٩-٣٢٠ أبوب العلم ـ باب ما جاء في الأخذ في السنة ... ح: ٢٦٧٨ وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح. وسنن ابن ماجه ١/١٥-١٦(المقدمة) باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ح :٤٢،٤٣ ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١/١٣-١٤ ح: ٤٠-٤١.

(3) رواه مالك ـ بلاغاً ـ في الموطأ ٢/٨٩٩ كتاب القدر ـ باب النهي عن القول بالقدر ح: ٣ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٣/٣٩ ح: ٢٩٣٤.

عتبة الهذلي[(١)]:

فلا تجزعن من سيرة أنت سِرْتَها فأول راضٍ سنةً من يسيرها

وفي الحديث: «...من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[(٢)].

معنى السنة في الاصطلاح:

ذكر العلماء تعريفات للسنة؛ كل بحسب ما يشتغل به من العلم، فللأصوليين تعريف، والمحدثون لهم تعريف، وكذا الفقهاء... والذي يهمنا في هذا الموضع معرفة معنى السنة عند المشتغلين بتقرير مذهب السلف في الاعتقاد:

فالسنة عندهم: هي ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من الاعتقادات والأقوال والأعمال والأحوال[(٣)].

---

(١) هكذا ذكره صاحب لسان العرب، والصحيح أنه: خالد بن زهير الهذلي،وهو ابن عم وابن أخت خويلد بن خالد الهذلي، والبيت المذكور كما في لسان العرب١٣/٢٢٥ ولفظه في شرح أشعار الهذليين:

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها فأول راضي سنةٍ من يسيرها

٢١٣/١ من شعر أبي ذؤيب الهذلي .

(٢) صحيح مسلم ٢/٥٠٧ الزكاة ـ باب الحث على الصدقة ... ح : ١٠١٧.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم ـ ابن رجب الحنبلي ص : ٢٤٩ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ١٩/٣٠٦-٣٠٧.

ومصطلح أهل السنة له إطلاقان: عام وخاص:

أما الإطلاق العام: فالمراد به مايكون في مقابل الشيعة، فتدخل جميع الطوائف المنتسبة إلى الإسلام ـ عدا الشيعة ـ في مفهوم أهل السنة.

وأما الإطلاق الخاص: فالمراد به ما يكون في مقابل أهل البدع والمقالات المحدثة؛ كالشيعة والخوارج والمرجئة والجهمية والمعتزلة ونحوهم من أهل البدع، فهؤلاء لا يدخلون في مفهوم أهل السنة بالإطلاق الخاص: قال ابن تيمية رحمه الله: «فلفظ السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة... وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة، فلا يدخل فيه إلا من أثبت الصفات لله (تعالى) ويقول: إن القرآن غير مخلوق، وإن الله يُرى في الآخرة، ويثبت القدر وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة»[1].

(١) منهاج السنة النبوية ٢/٢٢١.

معنى الجماعة الواردة في مصطلح أهل السنة والجماعة

معنى الجماعة في اللغة:

من جمع، يقال: جمع المتفرق، والجماعة ضد الفرقة[١].

معنى الجماعة في الاصطلاح:

ورد لفظ " الجماعة " في بعض الأحاديث؛ كحديث: «يد الله مع الجماعة ومن شذَّ شذَّ إلى النار»[٢] وحديث التَفَرُّق وفيه: «كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة»[٣].

وقد اختلف أهل العلم في المراد بالجماعة في هذه الأحاديث ونحوها على أقوال، أهمها خمسة: أذكرها في إيجاز[٤].

١- أنها السواد الأعظم من أهل الإسلام،ويدخل فيهم أهل العلم والاجتهاد دخولاً أولياً.

---

(١) انظر: لسان العرب ٥٣/٨ مادة جمع .

(٢) رواه الترمذي في سننه ٣٣٤/٦ أبواب الفتن ـ باب ما جاء في لزوم الجماعة ح : ٢١٦٨ وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه». ورواه الحاكم في مستدركه بطرق متعددة ١١٥/١-١١٦ كتاب العلم، وقال: «وقد روي... هذا الحديث بأسانيد يصح بمثلها الحديث فلا بد أن يكون له أصل بأحد هذه الأسانيد» .

(٣) رواه الحاكم في مستدركه١٢٨/١ كتاب العلم وقال : « هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث» وانظر : سنن أبي داود ٥/٥-٦ كتاب السنة ـ باب شرح السنة ح: ٤٥٩٧، وسنن ابن ماجه٣٦٤/٢(صحيح ابن ماجه للألباني)الفتن ح: ٣٩٩٢، ٣٩٩٣ وصححهما الألباني. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ الألباني حديث رقم: ٢٠٤.

(٤) انظر: الاعتصام ـ الشاطبي ٢٦٠/٢-٢٦٥. وفتح الباري ٣٧/١٣.

٢-أنها جماعة المجتهدين دون غيرهم من الناس، وهو اختيار البخاري[١] والترمذي[٢] رحمهما الله.

٣- أنها جماعة الصحابة على وجه الخصوص.

٤- أنها جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمر ما، وهو الإجماع.

٥- أنها جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، فلا يجوز الخروج عليهم فيه. وهو اختيار أبي جعفر الطبري رحمه الله[٣].

وهذه الأقوال لا تعارض بينها ـ بحمد الله ـ إذ الكل متفقون على تقديم أهل العلم والاجتهاد، فلا يقال: الواجب متابعة جمهور العوام ولو خالفوا أهل العلم. بل الجماعة موافقة الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى: جماعة الصحابة ﷺ وهوما عليه أهل العلم والفقه في الدين في كل زمان، وكل من خالفهم فهو من أهل الشذوذ والفرقة. قال أبو شامة (٦٦٥هـ) رحمه الله: «وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد به لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلاً، والمخالف كثيراً؛ لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، ولا ينظر إلى كثرة أهل الباطل بعده» ثم ذكر كلام ابن مسعود ﷺ: «إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك»[٤].

---

(١) انظر: صحيح البخاري١٣/٣١٦ (فتح الباري).

(٢) انظر: سنن الترمذي ٦/٣٣٥ كتاب الفتن .

(٣) انظر: فتح الباري ١٣/٣٧ .

(٤) الباعث على إنكار البدع والحوادث ص : ٢٢ ، وانظر كلام ابن مسعود في إعلام الموقعين ٣/٣٩٧، وذكره الألباني بهامش مشكاة المصابيح ١/٦١ هامش رقم : ٥ وصححه.

المطلب الثاني

موقف أهل السنة والجماعة من الجدل والمناظرة

تقدم أن السلف ذموا علم الكلام وأهله، وهذا لا يعني أنهم ذموا جنس الكلام والنظر والمناظرة، بل هذا إذا كان حقاً يكون مأموراً به تارة، ومنهياً عنه أخرى كغيره من أنواع الكلام الصدق، فقد ينهى عن الكلام الذي لا يفهمه المستمع كما روى البخاري في صحيحه [(١)] عن علي ﷺ أنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبُّون أن يُكذَّب الله ورسولُهُ». أو الذي يضر المستمع كما روى مسلم في صحيحه [(٢)] عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم». وقد ينهى عن المناظرات التي تورث شبهات وأهواء، لا تفيد علماً ولا ديناً [(٣)] كقول عمر بن عبدالعزيز ﷺ: «من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل» [(٤)]. وكقول مالك رحمه الله: «أوكلما جاء رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ [(٥)]».

---

(١) ١/٢٢٥ كتاب العلم ـ باب من خص بالعلم قوماً دون آخرين كراهية أن لا يفهموا ...

(٢) ١/١١ المقدمة ـ باب النهي عن الحديث بكل ما سمع .

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٧/١٨٤.

(٤) جامع بيان العلم ٢/١١٣ .

(٥) الحجة للأصبهاني ٢/٤٥٥ برقم: ٤٧٦ وانظر: شرح السنة للالكائي ١/١٤٤ برقم: ٢٩٣، ٢٩٤، وصححه الألباني في مختصر العلو ص: ١٤٠.

أما نهي السلف عن الجدال في الاعتقاد، نحو الجدال في صفات الله (تعالى) وأسمائه فالمراد به الجدال على طريقة أهل البدع الخائضين في دين الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ولأن المناظرة والمجادلة في الأمور الغيبية مؤذنة بعدم الإيمان بها والخضوع لها، إذ طريق معرفة أمور الغيب: الوحي فقط، لا النظر ولا القياس، وهما غالب مادة الجدل، ولهذا قال أبوعمر بن عبد البر رحمه الله: «ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصاً في كتاب الله، أو صح عن رسول الله ﷺ أو أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له ولا يناظر فيه»[(١)].

وقال رحمه الله في موضع آخر: «وتناظر القوم ـ يعني السلف ـ وتجادلوا في الفقه، ونهوا عن الجدال في الاعتقاد؛ لأنه يؤول إلى الانسلاخ من الدين، ألا ترى إلى مناظرة بشر في قوله جل وعز ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: ٧] حين قال هو بذاته في كل مكان. فقال له خصمه: هو في قلنسوتك، وفي حشك، وفي جوف حمارك. تعالى الله عما يقولون. حكى ذلك وكيع رحمه الله، وأنا والله، أكره أن أحكي كلامهم قبحهم الله، فمن هذا وشبهه نهى العلماء»[(٢)].

ويقول أبوسليمان الخطابي (٣٨٨هـ) رحمه الله: «واعلم أن الأئمة الماضين والسلف المتقدمين لم يتركوا هذا النمط من الكلام وهذا النوع

(١) جامع بيان العلم ٢/١١٧- ١١٨ .

(٢) المرجع السابق ٢/١١٩-١٢٠.

من النظر عجزاً عنه، ولا انقطاعاً دونه، وقد كانوا ذوي عقول وافرة وأفهام ثاقبة...وإنما تركوا هذه الطريقة وأضربوا عنها لما تخوفوه من فتنتها، وحذروه من سوء مغبتها، وقد كانو على بينة من أمرهم وعلى بصيرة من دينهم؛ لما هداهم الله به من توفيقه، وشرح به صدورهم من نور معرفته، ورأوا أن فيما عندهم من علم الكتاب وحكمته، وتوقيف السنة وبيانها غنى ومندوحة عما سواهما، وأن [الحاجة] (١) دفعت بهما، العلة أزيحت بمكانهما...» إلى أن قال رحمه الله: «إنا لا ننكر أدلة العقول والتوصل بها إلى المعارف، ولكنا لا نذهب في استعمالها إلى الطريقة التي سلكتموها في الاستدلال بالأعراض، وتعلقها بالجواهر، وانقلابها فيها، على حدوث العالم وإثبات الصانع، ونرغب عنها إلى ما هو أوضح بياناً وأصح برهاناً...» (٢).

وهذا الإمام أحمد إمام أهل السنة الذي اشتهر عنه النهي عن الكلام وذمه يجيز إعمال العقل والرد على الخصم بما يفحمه،وبيان الأغاليط، وتقريب الأمور بالأمثلة العقلية. ومراد الإمام أحمد بالكلام المنهي عنه هو كلام الخصوم، وهو الكلام الباطل والجدل الفاسد، والأغاليط وسوء

(١) في الأصل: [الحجة] ولعل الصحيح ما أثبته.

(٢) ذكره الأصبهاني في كتاب الحجة ٣٧٣/١-٣٧٤، وانظره في صون المنطق للسيوطي ص: ٩٣-٩٤ وانظر: تعليق ابن تيمية على هذا الكلام بعد أن نقله في درء التعارض ٢٨٧/٧ وما بعدها.

التأويل الذي يستخدمونه، لا يعني به الأدلة العقلية الصحيحة[١]. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن أحمد لم ينه عن نظر في دليل عقلي صحيح يفضي إلى المطلوب، بل في كلامه في أصول الدين في الرد على الجهمية وغيرهم من الاحتجاج بالأدلة العقلية على فساد قول المخالفين للسنة ما هو معروف في كتبه وعند أصحابه...

وأحمد أشهر وأكثر كلاماً في أصول الدين بالأدلة العقلية : نقلها وعقلها من سائر الأئمة؛ لأنه ابتلي بمخالفي السنة، فاحتاج إلى ذلك. والموجود في كلامه من الاحتجاج بالأدلة العقلية على ما يوافق السنة لم يوجد مثله في كلام سائر الأئمة»[٢].

أما ما يشاع عن السلف وأهل السنة من قِبَل أهل الكلام الباطل أنهم لا خبرة لهم بطرق الجدل، بل هم أعداء للعقل ونتائجه، وأنهم أصحاب دفاتر ومحابر، لا طاقة لهم بمواجهة الخصوم[٣] ولا يستدلون إلا بالخبر المجرد الذي لا يصلح حجة إلا على المؤمنين، وقد يعتذرون لهم بأنهم لم يتفرغوا لهذه العلوم، حيث كانوا منشغلين بالجهاد وفتح البلاد، حتى تفرغ لذلك الخلف من أهل الكلام المذموم، وربما فضلوا طريقتهم على طريقة السلف وساقوا قولتهم المشهورة: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أحكم وأعلم[٤].

---

(١) انظر: مقدمة كتاب الإبانة (الأشعري) لفوقية حسين ص: ١٠٣-١٠٥.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٧/١٥٣-١٥٤ ، وانظر: ٧/١٤٩.

(٣) انظر: كذب المفتري ص: ١١٦.

(٤) انظر: الكافية في الجدل ص: ٣٤٦-٣٤٧ ، وأساس التقديس ص : ٢٢٢وما بعدها، وشرح البيجوري على الجوهرة ص: ١٠٠ ، وشرح الطحاوية١/١٩ .

فهذا ظن خاطئ، وادعاء كاذب ، بل الإنصاف ما ذكره شارح الطحاوية رحمه الله بقوله: «فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف وعمق علومهم، وقلة تكلفهم، وكمال بصائرهم. وتالله، ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التي كانت همة القوم مراعاة أصولها وضبط قواعدها، وشد معاقدها، وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شيء، فالمتأخرون في شأن والقوم في شأن آخر، وقد جعل الله لكل قدراً».(١)

وهذا أبو الفضل العلثي (٦٣٤هـ) يكتب إلى ابن الجوزي (رحمهما الله) وينكر عليه أشياء ومن جملتها التأويل، وزعمه أن جماعة من السلف فوضوا. فقال: «وزعمت أن طائفة من أهل السنة الأخيار تلقوها ــ يعني نصوص الصفات ـ وما فهموا، وحاشاهم من ذلك، بل كفوا عن الثرثرة والتشدق: لا عجزاً ـ بحمد الله ـ عن الجدال والخصام، ولا جهلاً بطرق الكلام، وإنما أمسكوا عن الخوض في ذلك عن علم ودراية، لا عن جهل وعماية ...».(٢)

ويبين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كيف أن طريق السلف وأهل السنة أعلم وأحكم من طريقة غيرهم، وذلك أن السلف وأهل السنة والحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال،

---

(١) شرح الطحاوية ١/١٩-٢٠ .

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة ٢/٢٠٧ .

ويمتازون عنهم بما ليس عندهم، فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقاً أخرى مثل: المعقول والقياس والرأي والكلام والنظر والاستدلال والمحاجة والمجادلة، أو المكاشفة والمخاطبة والوجد والذوق ونحو ذلك. ثم قال رحمه الله: «وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها، فهم أكمل الناس عقلاً، وأعدلهم قياساً، وأصوبهم رأياً، وأسدهم كلاماً، وأصحهم نظراً، وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهاماً، وأحدهم بصراً ومكاشفة، وأصوبهم سمعاً ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجداً وذوقاً، وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل... وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوي الإدراك ويصححه قال (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [سورة محمد: ١٧] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا*وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا*وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [سورة النساء: ٦٦ - ٦٨]»(١).

وقال رحمه الله في موضع آخر: «ومن ظن أن الخلف أعلم بالحق وأدلته أو المناظرة فيه من السلف، فهو بمنزلة من زعم أنهم أقوم بالعلم والجهاد وفتح البلاد منهم، وكلا الظنين طريق من لم يعرف حقيقة الدين ولا حال السلف السابقين»(٢).

---

(١) نقض المنطق ص: ٧-٨ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١٧٩/٧ .

والسلف وأهل السنة لا يرفضون استعمال العقل والنظر في المعقولات، وإنما يرفضون العقل الفاسد والنظر السقيم، وإلا فإمام السنة أحمد بن حنبل رحمه الله يستعمل المثال العقلي لتقريب المعنى إلى الأذهان، فقال رحمه الله في معرض مناظرته لمنكر استواء الله (تعالى) على عرشه،وذلك بعد أن أورد النصوص الشرعية المبينة للمسألة المتنازع عليها، ثم أتبع ذلك بالتمثيل العقلي، فقال رحمه الله : «ومن الاعتبار في ذلك : لو أن رجلاً كان في يديه قدح من قوارير صاف، وفيه شراب صاف كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح، فالله ـ وله المثل الأعلى ـ قد أحاط بجميع خلقه من غير أن يكون في شيء من خلقه. وخصلة أخرى: لو أن رجلا بنى داراً بجميع مرافقها ثم أغلق بابها وخرج منها، كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيت في داره، وكم سعة كل بيت من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار، فالله ـ وله المثل الأعلى ـ قد أحاط بجميع خلقه، وعلم كيف هو، وماهو من غير أن يكون في شيء مما خلق»[(١)] .

والسلف ـ أيضاً ـ لم يمنعوا من مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم الخاص ولغتهم، فهذا ليس بمكروه عند الحاجة، وكانت المعاني صحيحة كمخاطبة العجم من الروم والفرس وغيرهم بلغتهم وعرفهم في الخطاب؛ ولهذا قال النبي ﷺ لأم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص وكانت صغيرة ولدت بأرض الحبشة؛ لأن أباها كان من المهاجرين إليها، فقال

(١) الرد على الجهمية ص : ١٣٧ .

لها: يا أم خالد، هذا سنا. والسنا بلسان الحبشة: الحسن. لأنها كانت من أهل هذه اللغة، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم ويترجمها بالعربية كما أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقرأ له ويكتب له ذلك حيث لم يأمن اليهود عليه.[(١)]

إلى غير ذلك مما يحتاجه المناظر من الوسائل المعينة على بيان الحق ودفع الباطل وكسر المبطلين والمعاندين.

---

(١) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٠٦/٣ . وحديث أم خالد رواه البخاري في صحيحه ٣٠٣/١٠ (فتح الباري) كتاب اللباس ـ باب ما يُدعى لمن لبس ثوباً جديداً ح : ٥٨٤٥.

وأما حديث زيد بن ثابت في تعلم الكتابة فرواه ـ أيضاً ـ البخاري تعليقاً ١٨٥/١٣-١٨٦ (فتح الباري) كتاب الأحكام ـ باب ترجمة الحكام ... ح : ٧١٩٥ ، والترمذي في سننه ٣٤٧/٧ أبواب الاستئذان ـ باب ما جاء في تعلم السريانية ح: ٢٧١٦ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وأبو داود في سننه ٦٠/٤ كتاب العلم ـ باب رواية حديث أهل الكتاب ح : ٣٦٤٥ .

المطلب الثالث

نماذج من مواقف أهل السنة في الجدل والمناظرة

أولاً: مناظرة أهل السنة للخوارج:

روى ابن عبدالبر بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لما اجتمعت الحرورية يخرجون على علي، قال: جعل يأتيه الرجل، فيقول: يا أمير المؤمنين، القوم خارجون عليك. قال: دعوهم حتى يخرجوا، فلما كان ذات يوم قلت: يا أمير المؤمنين، أبرد بالصلاة فلا تفتني حتى آتي القوم. قال: فدخل عليهم وهم قائلون، فإذا هم مسهمة[(١)] وجوههم من السهر، وقد أثر السجود في جباههم، كأن أيديهم ثَفِن[(٢)] الإبل، عليهم قمص مُرَحَّضَة.[(٣)] فقالوا: ما جاء بك يا ابن عباس، وما هذه الحلة عليك؟ قال: قلت: ما تعيبون مني فلقد رأيت رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من [الثياب][(٤)] اليمنية، قال: ثم قرأت هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [سورة الأعراف: ٣٢] فقالوا: ما جاء

---

(١) مسهمة: متغيرة عن حالها لعارض. انظر: النهاية لابن الأثير ٢/٤٢٩.

(٢) الثفن: جمع ثفنة، وهي ما ولي الأرض من كل ذات أربع إذا بركت كالركبتين وغيرهما، فيحصل فيها غلظ من أثر البروك. انظر: النهاية لابن الأثير ١/٢١٥-٢١٦.

(٣) مرحضة: أي مغسولة. انظر: النهاية لابن الأثير ١/٢٠٨.

(٤) في الأصل [ثياب] ولعل الصواب ما أثبته.

بك؟ فقال: جئتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله ﷺ وعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله، جئت لأبلغكم عنهم وأبلغهم عنكم. قال بعضهم: لا تخاصموا قريشاً؛ فإن الله يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٨] فقال بعضهم: فلنكلمنه. قال: فكلمني منهم رجلان أوثلاثة. قال: قلت: ماذا نقمتم عليه؟ قالوا: ثلاثا. قلت: ما هن؟ قالوا: حكَّم الرجال في أمر الله، وقال الله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[سورة يوسف: ٦٧] قال: قلت: هذه واحدة، وماذا أيضاً؟ قال: فإنه قاتل ولم يسب ولم يغنم؛ فلئن كانوا مؤمنين ما حل قتالهم، ولئن كانوا كافرين لقد حل قتالهم وسبيهم. قال: قلت: وماذا أيضاً؟ قالوا: ومحا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين. قال: قلت: أرأيتكم إن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله ما ينقض قولكم هذا أترجعون؟ قالوا: وما لنا لا نرجع! قال: قلت: أما حكَّم الرجال في أمر الله، فإن الله قال في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [سورة المائدة: ٩٥] وقال في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [سورة النساء: ٣٥] فصيَّر الله ذلك إلى حكم الرجال، فنشدتكم الله، أتعلمون حكم الرجال في دماء المسلمين وإصلاح ذات بينهم أفضل، أو في حكم أرنب ثمنها ربع درهم، وفي بُضْع امرأة؟ قالوا: بلى هذا أفضل. قال: أَخرَجْتُ من هذه؟ قالوا: نعم. قال:

فأما قولكم: قاتل فلم يسب و لم يغنم، أفتسبون أمكم عائشة؟ فإن قلتم: نسبيها، فنستحل منها ما نستحل من غيرها، فقد كفرتم، وإن قلتم: ليست بأمنا فقد كفرتم، فأنتم تردّدون بين ضلالتين. أخرجتُ من هذه؟ قالوا: بلى. قال: وأما قولكم محا نفسه من إمرة المؤمنين، فأنا آتيكم بمن ترضون؛ إن نبي الله يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو قال رسول الله ﷺ: اكتب يا علي، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ . فقال أبوسفيان وسهيل بن عمرو: ما نعلم أنك رسول الله، ولو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، قال رسول الله ﷺ : اللهم إنك تعلم أني رسولك، أمْحُ يا علي، واكتب : هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو . قال: فرجع منهم ألفان، وبقي بقيتهم فخرجوا فقتلوا أجمعين»[(١)].

وممن ناظر الخوارج أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز ﷺ حتى قطعهم وألزمهم الحجة[(٢)].

وممن ناظرهم ـ أيضاً ـ الإمام أبوحنيفة رحمه الله ، حيث أبطل مذهبهم في التحكيم، وذلك أن أحد الخوارج استغلب على الكوفة فدخلها، فأحضر أبا حنيفة وأمر بقتله، فقال له : و لم ؟ فقال : لأنك أجزت التحكيم. قال له: أناظرك عليه، فإن غلبتني قتلتني. قال: نعم. قال:

---

(١) جامع بيان العلم ١٢٦/٢-١٢٨ .

(٢) انظر : جامع بيان العلم ١٢٨/٢-١٣٠ .

فمن يحضر؟ يعني أقوالنا. قال: أحضر من يشهد على قولينا. فقال أبوحنيفة : قد حكّمتَ. فرجع عن قوله وقَتْلِهِ؛ إذ دحضت حجته[١].

ثانياً: مناظرة أهل السنة للجهمية والمعتزلة:

نشأت بدعة الجهمية بالمشرق وهي القول بنفي الصفات عن ا لله (تعالى)، ودعوى أن كلام ا لله مخلوق؛ ولهذا كان أئمة المسلمين بالمشرق أعلم بحقيقة قول الجهمية من غيرهم من علماء الحجاز والشام والعراق، ويوجد لعبدا لله بن المبارك وغيره من علماء المسلمين بالمشرق من الكلام في الجهمية أكثر مما يوجد لغيرهم. مع أن عامة أئمة المسلمين تكلموا فيهم وردوا عليهم، لكن لم يكونوا ظاهرين إلا بالمشرق، لكن قوي أمرهم لما مات الرشيد وتولى ابنه المأمون الخلافة وتلقى عن الجهمية ما تلقاه، حتى دعا إلى قولهم حتى كتب إلى نائبه ببغداد: إسحاق بن إبراهيم بن مصعب (٢٣٥هـ) كتاباً يدعو الناس فيه إلى القول بخلق القرآن، فلم يجبه أحد، ثم كتب كتاباً ثانياً يأمر فيه بتقييد من لم يجبه وإرساله إليه، فأجاب أكثرهم، ثم قيدوا سبعة لم يجيبوا، فأجاب منهم خمسة بعد القيد، وبقي اثنان لم يجيبا: **الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح (٢٢١هـ)**. فأرسلوهما إليه. فمات قبل أن يصلا إليه، ثم أوصى إلى أخيه أبي إسحاق المعتصم، وكان هذا سنة ثمان عشرة ومائتين. وبقي أحمد في الحبس إلى

---

(١) عيون المناظرات ص : ٢١٤-٢١٥ .

سنة عشرين، فجرى ما جرى من المناظرة حتى قطعهم بالحجة، ثم لما خافوا الفتنة ضربوه وأطلقوه، وظهر مذهب النفاة الجهمية وامتحنوا الناس، فصار من أجابهم أعطوه، وإلا منعوه العطاء، وعزلوه من الولايات ولم يقبلوا شهادته، وكانوا إذا افتكوا الأسرى يمتحنون الأسير، فإن أجابهم افتدوه وإلا لم يفتدوه. وكتب قاضيهم: أحمد بن أبي دؤاد (٢٤٠هـ) على ستارة الكعبة: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، لم يكتب وهو السميع البصير، ثم وليَ الواثق واشتد الأمر إلى أن ولي المتوكل فرفع المحنة، وظهرت حينئذ السنة[(١)].

وذكر الإمام أحمد رحمه الله أنه كان في دار إسحاق بن إبراهيم نائب المأمون يوجه إليه كل يوم برجلين يناظرانه ويكلمانه، حتى إنه قال لأحدهما وهو يناظره: ما تقول في علم الله؟ فقال: علم الله مخلوق. فقال الإمام أحمد: ياكافر، كفرت. قال أحمد: فقال لي الرسول الذي كان يحضر معهم من قِبَل إسحاق: هذا رسول أمير المؤمنين، قال: فقلت: إن هذا قد كفر، وكان صاحبه الذي يجيء معه خارج، فلما دخل قلت: إن هذا زعم أن علم الله مخلوق فنظر إليه كالمنكر عليه، قال: ثم انصرف[(٢)].

وكان ممن ناظرهم الإمام أحمد: عبدالرحمن بن إسحاق وأحمد بن أبي دؤاد وغيرهما، وكان يقول لهم: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة

---

(١) انظر: الفرقان بين الحق والباطل ص: ١٤٩-١٥٠.
(٢) سيرة الإمام أحمد ـ لابنه صالح ص: ٥٣.

رسوله، أقول به ذلك، أي القول بخلق القرآن، وكان كلما انقطع رجل منهم في المناظرة تصدى له ابن أبي دؤاد حتى إذا انقطعوا وعجزوا عنه ردوه إلى الحبس[(١)].

قال الإمام أحمد رحمه الله: «فلما كان في اليوم الثاني أُدخلت عليه ـ أي على المعتصم ـ فقال: ناظروه كلموه. قال: فجعلوا يتكلمون هذا من هاهنا، وهذا من هاهنا، فأرد على هذا وهذا، فإذا جاءوا بشيء من الكلام مما ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ولا فيه خبر ولا أثر، قلت: ما أدري ما هذا. فيقولون: يا أمير المؤمنين، إذا توجهت له الحجة علينا وثب. وإذا كلمناه بشيء يقول: لا أدري ما هذا. قال: فيقول: ناظروه»[(٢)].

وناظروه في اليوم الثالث. قال أحمد رحمه الله: «فجعلوا يناظروني، ويتكلم هذا فأرد عليه، ويتكلم هذا فأرد عليه، وجعل صوتي يعلو أصواتهم»[(٣)] وكان إذا انقطع الرجل منهم اعترض ابن أبي دؤاد، فيقول: يا أمير المؤمنين، والله لئن أجابك لهو أحب إلي من مائة ألف دينار ومائة ألف دينار، فيعد من ذلك ما شاء الله أن يعد[(٤)].

---

(١) انظر: سيرة الإمام أحمد ـ لابنه صالح ص: ٥٦، ٥٨، ٥٩ .

(٢) سيرة الإمام أحمد ـ لابنه صالح ص: ٦٠-٦١، وانظر: ترجمة الإمام أحمد ـ للذهبي ص: ٤٦-٤٧.

(٣) ترجمة الإمام أحمد ـ للذهبي ص: ٤٧.

(٤) انظر: سيرة الإمام أحمد ـ لابنه صالح ص: ٦١، وترجمة الإمام أحمد ـ للذهبي ص: ٤٥ .

ثم ضربوه رحمه الله مرة بعد مرة وهو ثابت على قوله لا يتزحزح عنه، حتى مات المعتصم ثم جاء الواثق ثم المتوكل، فرفع الله به المحنة وثبت به السنة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأحمد بن حنبل، وإن كان قد اشتهر بإمامة السنة والصبر في المحنة، فليس ذلك لأنه انفرد بقول، أو ابتدع قولاً، بل لأن السنة التي كانت موجودة معروفة قبله علمها ودعا إليها، وصبر على من امتحنه ليفارقها، وكان الأئمة قبله قد ماتوا قبل المحنة، فلما وقعت محنة الجهمية نفاة الصفات في المائة الثالثة على عهد المأمون وأخيه المعتصم ثم الواثق ودعوا الناس إلى التجهم وإبطال صفات الله (تعالى)، وهو المذهب الذي ذهب إليه متأخروا الرافضة، وكانوا قد أدخلوا معهم من أدخلوا من ولاة الأمور، فلم يوافقهم أهل السنة والجماعة حتى تهددوا بعضهم بالقتل، وقيدوا بعضهم، وعاقبوهم وأخذوهم بالرهبة والرغبة، وثبت الإمام أحمد بن حنبل على ذلك الأمر حتى حبسوه مدة، ثم طلبوا أصحابهم لمناظرته فانقطعوا معه في المناظرة يوما بعد يوم، ولم يأتوا بما يوجب موافقته لهم، بل بين خطأهم فيما ذكروه من الأدلة، وكانوا قد طلبوا له أئمة الكلام من أهل البصرة وغيرهم... ولم تكن المناظرة مع المعتزلة فقط، بل كانت مع جنس الجهمية من المعتزلة والنجارية والضرارية وأنواع المرجئة...وظهر للخليفة المعتصم أمرهم وعزم على رفع المحنة، حتى ألحَّ عليه ابن أبي دؤاد يشير عليه: إنك إن لم تضربه، وإلا انكسر ناموس الخلافة. فضربه، فعظمت الشناعة من العامة والخاصة، فأطلقوه...

ورفع الله قدر هذا الإمام، فصار إماماً من أئمة السنة وعلَمَاً من أعلامها؛ لقيامه بإعلامها وإظهارها واطّلاعه على نصوصها وآثارها، وبيانه لخفي أسرارها، لا لأنه أحدث مقالة، أو ابتدع رأياً. ولهذا قال بعض شيوخ المغرب: المذهب لمالك والشافعي، والظهور لأحمد، يعني أن مذاهب الأئمة في الأصول مذهب واحد وهو كما قال»[(١)].

ولهذا صار كل منتسب إلى السنة لا بد أن يواليه ويوافقه في جمل الاعتقاد[(٢)]. كما قال أبوالحسن الأشعري رحمه الله في كتابه "الإبانة"[(٣)]: «قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل، وبسنة نبينا محمد ﷺ وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبوعبدالله أحمد ابن محمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته، وأجزل مثوبته قائلون، ولما خالف قوله مخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل الذي أبان به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدَّم، وجليل معظَّم، وكبير مفهَّم».

ومناظرة أهل السنة للمعتزلة والجهمية كثيرة ومتنوعة، ولهم في الظهور عليهم وكسرهم مجالس مشهورة؛ من أشهر ذلك: مناظرة

---

(١) منهاج السنة النبوية ٢/٦٠١-٦٠٦ ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل ٢/٣٠٨، ٥/٥.

(٢) انظر : درء تعارض العقل والنقل ٥/٥.

(٣) ص : ٢٠-٢١ .

عبدالعزيز بن يحيى الكناني المكي (٢٤٠هـ) رحمه الله لبشر بن غياث المريسي بحضرة أمير المؤمنين المأمون. وقد ضمنها كتابه: **الحيدة**، وهي من نوادر المناظرات التي تدل على قوة أهل السنة في الاستدلال والاحتجاج، وسعة علومهم، وصحة فهومهم، ورباطة جأشهم. وحري بالمستزيد من هذا الفن أن يطالعها، ويقف على أسرارها. وسأقتصر هنا على ذكر التحضير لهذه المناظرة واستعداد الكناني لها، وتصوير الموقف الذي تمت فيه. قال عبدالعزيز: «اتصل بي وأنا بمكة ما قد أظهره بشر بن غياث المريسي ببغداد من القول بخلق القرآن، ودعائه الناس إلى موافقته على قوله ومذهبه، وتشبيهه على أمير المؤمنين المأمون وعامة الناس، وما قد دفع إليه الناس من المحنة، والأخذ في دخول هذا الكفر والضلال، ورهبة الناس، وفزعهم من مناظرته، وإحجامهم عن الرد عليه بما يكسرون به قوله، ويدحضون به حجته، ويبطلون به مذهبه، واستتار المسلمين في بيوتهم، وانقطاعهم عن الجمعة والجماعات، وهربهم من بلد إلى بلد خوفاً على أنفسهم وأديانهم، وكثرة موافقة الجهال والرعاع من الناس بِشْراً على كفره وضلاله، والدخول في بدعته، والانتحال لمذهبه، رغبة في الدنيا، أو رهبة من العقاب، ثم ذكر من قلقه وانزعاجه من هذا الأمر ما جعله يرحل إلى بغداد لإظهار السنة على رؤوس الخلائق في المسجد الجامع، متوسلاً بذلك إلى عقد المناظرة بينه وبين أعيان الجهمية، وعلى رأسهم: بشر المريسي، وإعلان الحق، والدعاء إليه، وتزهيق الباطل وكبت أهله بدحض حججهم، ودفع شبههم، وفي ذلك رفع منار السنة، بعد أن كادت معالمها أن تندرس، بسبب منع الفقهاء والمحدثين من القعود

في المساجد للتدريس والتعليم، وتمكين أهل البدع من إشاعة الباطل، وهو: القول بخلق القرآن.

قال عبدالعزيز: فلما كان يوم الجمعة الذي عزمت فيه على إظهار أمري، وإشهار قولي واعتقادي، صليت الجمعة في المسجد الجامع بالرصافة من الجانب الشرقي حيال القبلة والمنبر، في أول صف من صفوف العامة، فلما سلَّم الإمام من صلاة الجمعة، وثبت قائماً على رجلي؛ ليراني الناس، ويسمعوا كلامي، ولا تخفى عليهم مقالتي، وناديت بأعلى صوتي مخاطباً ابني، وكنت قد أقمته بحيالي عند الأسطوانة الأخرى، فقلت له: يا بني، ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله غير مخلوق.

قال عبدالعزيز : فلما سمع الناس كلامي ومسألتي لابني، وجوابه لي، هربوا على وجوههم خارجين من المسجد إلا يسيراً من الناس، خوفاً على أنفسهم، وذلك أنهم سمعوا ما لم يكونوا يسمعون، وظهر لهم ما كانوا يخفون ويكتمون، فلم يستتم ابني الجواب حتى أتاني أصحاب السلطان، فاحتملوني وابني وأوقفوني بين يدي عمرو بن مسعدة (٢١٧هـ)... فقال لي: أمجنون أنت؟ قلت: لا. قال: أَفَمُوَسْوَسٌ أنت؟ قلت: لا. قال: أفمعتوه أنت؟ قلت: لا، إني صحيح العقل، جيد الفهم، ثابت المعرفة، والحمد لله كثيراً. قال: أفمظلوم أنت؟ قلت: لا. فقال لأصحابه ورجاله: مُرُّوا بهما سحباً إلى منزلي. ففعلوا ، حتى صارا بين يديه. فقال لعبدالعزيز: من أين أنت؟ قال: قلت: من أهل مكة، فقال: ماحملك على ما فعلت بنفسك؟ قلت: طلب القربة إلى الله عز وجل ورجاء الزلفة

لديه، قال: فهلا فعلت ذلك سراً من غير نداء، ولا إظهار لمخالفة أمير المؤمنين (أطال الله بقاءه)؟ ولكنك أردت الشهرة والرياء والتسوُّق لتأخذ أموال الناس. فقلت: ما أردت من هذا شيئاً، ولا أردت إلا الوصول إلى أمير المؤمنين، والمناظرة بين يديه، لا غير ذلك. فقال: أو تفعل ذلك؟ قلت: نعم، ولذلك قصدت، وبلغت بنفسي ما ترى، بعد خروجي من بلدي وتغريري بنفسي، مع سلوكي البراري، أنا وولدي؛ رجاء تأدية حق الله فيما استودعني من الفهم والعلم، وما أخذ علي وعلى العلماء من البيان، فقال: إن كنتَ إنما جعلت هذا سبباً لغيره إذا وصلت إلى أمير المؤمنين، فقد حل دمك. فقلت له: إن تكلمت في شيء غير هذا، أو جعلت هذا ذريعة إلى غيره، فدمي حلال لأمير المؤمنين، وهو في حل منه.

ثم أمر به عمرو إلى دار أمير المؤمنين، فأخرج على نفس الهيئة الأولى، فدخل عمرو على أمير المؤمنين يستأذنه في أمر عبدالعزيز، فأذن له في الجمع بينه وبين مناظريه بين يديه، ويكون أمير المؤمنين هو الحاكم بينهم، فَسُرَّ الكناني بهذا الإذن سروراً بالغاً، وأظهر الشكر والدعاء لأمير المؤمنين.

فقال له عمرو: أعطنا كفيلاً بنفسك حتى تحضر معهم في يوم الاثنين - وهو موعد المناظرة - وليس بنا حاجة إلى حبسك، فقال الكناني له: أعزك الله، أنا رجل غريب، ولست أعرف في هذا البلد أحداً، ولا يعرفني من أهله أحد، فمن أين لي من يكفلني، وخاصة مع إظهاري مقالتي؟ لو

كان الخلق يعرفونني لتبرؤوا مني، وهربوا من قربي، وأنكروا معرفتي. فقال عمرو: فنوكل بك من يكون معك، حتى يحضرك في ذلك اليوم، وتنصرف فتصلح من شأنك، وتفكر في أمرك، فلعلك أن ترجع عن غيك، وتتوب من فعلك، فيصفح أمير المؤمنين (أطال الله بقاءه) عن جرمك.

فلما كان يوم الاثنين حمل الكناني ـ مكرماً ـ إلى دار أمير المؤمنين، ودخل ـ أولاً ـ على عمرو بن مسعدة، فسأله: أنت مقيم على ما كنت عليه، أم رجعت عنه؟ فقلت: بل مقيم على ما كنت عليه، وقد ازددت بتوفيق الله إياي بصيرة في أمري. فقال عمرو: أيها الرجل، قد حملت نفسك على أمر عظيم، وبلغت الغاية في مكروهها، وتعرضت لما لا قوام لك به من مخالفة أمير المؤمنين (أطال الله بقاءه) وادعيت ما لا تثبت لك به حجة على مخالفيك، وليس وراءك بعد الحجة إلا السيف، فانظر لنفسك، وبادر أمرك قبل أن تقع المناظرة، وتظهر عليك الحجة، فلا تنفعك الندامة، ولا تقبل لك معذرة، ولا تقال لك عثرة، وقد رحمتك، وأشفقت عليك مما هو نازل بك، وأنا أستقيل لك أمير المؤمنين(أطال الله بقاءه) وأسأله الصفح عن جرمك، وعظيم ما كان منك، إن أظهرت الرجوع عنه، والندم على ما كان منك، وآخذ لك الأمان منه (أيده الله) والجائزة، وإن كانت لك ظُلامة أزلتها عنك، وإن كانت لك حاجة قضيتها لك، فإنما جلست رحمة لك مما هو نازل بك بعد ساعة إن أقمت

على ما أنت عليه، ورجوت أن يخلصك الله (تعالى) على يدي من عظيم ما أوقعت نفسك فيه. فقال الكناني: ما ندمت(أعزك الله) ولا رجعت، ولا خرجت من بلدي، وغررت بنفسي، إلا في طلب هذا اليوم، وهذا المجلس، رجاء أن يبلغني الله ما أؤمل من إقامة الحق، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، وهو حسبي ونعم الوكيل. فقام عمرو على رجليه،وقال: قد حرصت على خلاصك جهدي، وأنت حريص مجتهد في سفك دمك، وقتل نفسك. فقال عبدالعزيز: معونة الله أعظم، والله عز وجل ألطف من أن يسلمني، أو يكلني إلى نفسي، وعدل أمير المؤمنين(أطال الله بقاءه) أوسع من أن يقصر عني، وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم أمر بالكناني، فأدخل إلى الدهليز ومعه جماعة موكلون به، وقد حضر القضاة والفقهاء الموافقون لمذهب الجهمية، وسائر المتكلمين والمناظرين، وأمر القواد والأمراء والأولياء أن يركبوا بالسلاح، كل ذلك ليبعثوا الرعب والخوف في نفس الكناني، ومُنع الناس من الانصراف إلى أن ينقضي المجلس، فلما اجتمع الناس وتكاملوا ولم يتخلف منهم أحد ممن يعرف بالكلام والجدل، أذن له بالدخول، فلم يزل ينتقل من دهليز إلى دهليز، حتى صار إلى الحاجب صاحب الستر، الذي على باب الصحن، قال عبدالعزيز: فلما رآني أمر بي، فأدخلت إلى حجرته، ودخل معي، فقال لي: إن احتجت أن تجدد طهراً فافعل، فقلت: لا حاجة لي إلى ذلك،

فقال لي: صل ركعتين قبل دخولك، فصليت أربع ركعات، ودعوت الله عز وجل وتضرعت إليه، فلما فرغت أمر من كان بحضرته فخرج من الحجرة، ثم تقدم إلي فقال لي وهو يسارني: يا هذا، إن أمير المؤمنين بشر مثلك من ولد آدم، وكذلك كل من يناظرك بحضرته فهو مثلك بشر، فلا تتهيبهم، واجمع فهمك وعقلك لمناظرتهم، وإياك والجزع، واعلم علماً يقيناً أنه إن ظهرت حجتك عليهم انكسروا، وانقطع كلامهم عنك، وأذللتهم وغلبتهم، ولم يقدروا لك على مضرة، ولا مكروه، وصار أمير المؤمنين والرعية معك عليهم، وإن ظهرت حجتهم عليك أذلوك، وقتلوك، وشهروك، وجعلوك للخلق عبرة، فاجمع همتك ومعرفتك، ولا تدع شيئاً مما تحسنه، أو تحتاج أن تتكلم به، خوفاً من أمير المؤمنين، أو من أحد غيره، وتوكل على الله واستخر الله، وقم وادخل. فقلت: جزاك الله خيراً، فقد أديتَ النصيحة، وسكّنتَ الروعة، وآنست الوحشة، وخرج، وخرجت معه إلى باب الصحن.

ودخل الكناني إلى الصحن، فكاد عقله أن يتغير لعظم ما رأى فيه من السلاح والرجال، فقربوه حتى انتهى إلى الموضع الذي يجلس فيه المتناظرون بين يدي أمير المؤمنين. قال الكناني: فسمعت رجلاً من جلسائه يقول: وقد دخلت من باب الإيوان، يا أمير المؤمنين (أطال الله بقاءك) يكفيك من هذا قبح وجهه، لا والله، ما رأيت خلقاً لله قط أقبح وجهاً منه. سمعته يقول هذا، وفهمت كلامه كله، ورأيت شخصه على ما بي من الرعدة والجزع.

قال الكناني: وتبين أمير المؤمنين ما أنا فيه، وما قد نزل بي من الجزع والخوف، فجعل ينظر إلي وأنا أرتعد وأنتفض، فأحب أن يؤنسني، وأن يسكّن عني بعض ما قد لحقني، وأن يبسطني، فجعل يكثر كلام جلسائه، ويكلم خليفته عمرو بن مسعدة، ويتكلم بأشياء كثيرة مما لا يحتاج أن يتكلم بها؛ يريد بذلك كله إيناسي، وجعل يطيل النظر إلى الإيوان، ويدير طرفه فيه، فوقعت عينه على موضع من نقش الجص قد انتفخ، فقال: يا عمرو، أما ترى هذا الذي قد انتفخ من النقش في الجص، وسيقع، فبادره في يومنا هذا، فقال عمرو: قطع الله يدي صانعه، فإنه قد استحق العقوبة على عمله هذا.

وأقبل أمير المؤمنين على الكناني يسأله عن اسمه وقبيلته وموطنه وعن جماعة من بني هاشم بمكة، كل ذلك يريد إيناسه، وتسكين روعه وجزعه، حتى ذهب ما كان يجده من ذلك. ثم أخبره أنه قد جمع بينه وبين مخالفيه للمناظرة بين يديه، وأن يكون هو الحاكم بينهم، ثم قال المأمون: فإن تكن لك الحجة عليهم والحق معك تبعناك، وإن تكن الحجة لهم عليك والحق معهم عاقبناك أو استتبناك. ثم أقبل المأمون على بشر المريسي، فقال: يا بشر، قم إلى صاحبك فناظره وأنصفه. قال عبدالعزيز: فوثب بشر إلي من موضعه الذي كان فيه كالأسد إلى فريسته، فجاء فانحط علي، فوضع فخذه اليسرى على فخذي اليمنى، فكاد أن يحطمها، واعتمد علي بقوته كلها، فقلت له: مهلاً، فإن أمير المؤمنين(أطال الله

بقاءه) لم يأمرك بقتلي ولا بظلمي، وإنما أمرك بمناظرتي وإنصافي، فصاح به المأمون: تنحَّ عنه، وكرَّر ذلك عليه مراراً، حتى باعده عني.

قال عبدالعزيز: ثم أقبل علي المأمون، فقال: يا عبدالعزيز: ناظره على ما تريد، واحتج عليه، ويحتج عليك، وسله ويسألك، وتناصفا في كلامكما، وتحفظا ألفاظكما، فإني مسمتع لكما، ومتحفظ ألفاظكما.

قال عبد العزيز: فقلت: السمع والطاعة يا أمير المؤمنين، ولكني أقول شيئاً، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فيه فعلت. فقال: قل ما تريد، فقلت: يا أمير المؤمنين (أطال الله بقاءك) إني رجل عربي، وفي كلامي دقة و لم يسمع أمير المؤمنين من كلامي قبل هذا الوقت شيئاً، فجليل كلامي في سمع أمير المؤمنين دقيق، وبشر يا أمير المؤمنين، رجل قد كثر سماع أمير المؤمنين لكلامه، فصار دقيق كلامه في سمع أمير المؤمنين جليلاً، فإن رأى أمير المؤمنين (أطال الله بقاءه) أن يأذن لي، فأقدم شيئاً من كلامي في هذا المجلس؛ ليقيس ما يدق بعده من كلامي على ما يتقدم، ويعرف مذهبي في كلامي، ثم يجمعني ومَنْ أحب للمناظرة بعد هذا اليوم في أي وقت شاء. قال المأمون: أنا مشغول عن هذا بما يلزمني من أمر المسلمين، وإنما جمعتك ومخالفيك، لما أظهرت من مخالفتك إياهم، وذمك لمذهبهم، وادعائك الرد عليهم، ومسألتك الجمع بينك وبينهم، ولست أجمعك وإياهم بعد هذا المجلس إلا لاستتمام ما بقي عليكم من المناظرة.

قال عبدالعزيز: فقلت في نفسي هذا الذي سألت الله عز وجل أن يبلغنيه،

وعاهدته لئن بلغنيه لأقومن بحقه، ولأَذُبَّنَّ عن دينه بما يُلْهِمُنِي من توفيقه صابراً محتسباً، ولو عُرِضْتُ على السيف والقتل، حتى إذا بلغني الله ما أمَّلْته، وأعطاني ما سألته، وأيدني بالمعونة، وكفاني المؤونة، عطف بقلوب عباده علي، وصرف عني ما كنت أُحاذر من سوء بادرة تكون قبل قيامي بحق الله، أأنقض عهده، وأُخلف وعده، وأَكْفُر نعمه، فيسخط علي ويخذلني ويكلني إلى نفسي؟! والله، والله لا فعلت، ولو تَلِفَت نفسي.

قال عبدالعزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين، إني لم أتهيَّب المناظرة، ولم أعجز عنها، وإنما أحببت أن أقدم في هذا المجلس شيئاً من كلامي ليقف من بحضرة أمير المؤمنين (أطال الله بقاءه) ومن في مجلسه، على معنى كلامي ودقته، فلا يخفى عليهم بعض ما يجري بيننا. فقال المأمون لبشر: ناظر صاحبك على ما يريد.

قال عبدالعزيز: فقلت يا أمير المؤمنين (أطال الله بقاءه) إن رأيت أن تأذن لي فأتكلم بشيء قد شغل قلبي قبل مناظرتي لبشر، فقال لي: تكلم بما شئت، فقد أذنت لك، فقلت: أسألك بالله يا أمير المؤمنين، من بلغك أنه كان أجمل البشر من ولد آدم عليه السلام؟ قال، فأطرق مليًّا ثم رفع رأسه، فقال: يوسف عليه السلام. فقلت: صدقت يا أمير المؤمنين، فوالله ما أعطي يوسف على حسن وجهه حبتين، ولقد سُجِن وضُيِّقَ عليه من أجل حسن وجهه، بعد أن وُقِفَ على براءته بالشاهد الذي أنطقه الله عز وجل بتصديقه، وبعد إقرار امرأة العزيز أنها هي التي راودته عن نفسه،

فاستعصم، فحبس بعد ذلك كله لحسن وجهه، قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [سورة يوسف: ٣٥] فدلَّ بقوله على أنه سجن بغير ذنب لعلة حسن وجهه، وليغيبوه عنها وعن غيرها، فطال في السجن حبسه حتى إذا عبَّر الرؤيا، ووقف الملك على علمه ومعرفته، اشتاق إليه، ورَغِبَ صحبته، فقال عز وجل ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [سورة يوسف: ٥٤] وكان هذا القول من الملك بعد تعبير يوسف الرؤيا، ووقوف الملك على علم يوسف، ومعرفته قبل أن يسمع كلامه، فلما دخل عليه وسمع كلامه وحسن عبارته، صيَّره على خزائن الأرض، وفوَّض إليه الأمور كلها، وتبرَّأ منها، وصار كأنه من تحت يده، فكان هذا الذي بلغه يوسف عليه السلام بكلامه وعلمه لا بحسنه ولا بجماله، قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: ٥٥] ولم يقل إني حسن جميل، وقال الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [سورة يوسف: ٥٦] فوالله يا أمير المؤمنين، ما أبالي أن وجهي أقبح مما هو، وإني أُحْسِن من الفهم والعلم أكثر مما أُحْسِن.

قال عبدالعزيز: فقال لي المأمون: وأي شيء أردتَ بهذا القول، وما الذي دعاك إلى ذكر هذا؟ فقلت: سمعت بعض من هاهنا يقول لأمير المؤمنين: يكفيك من كلامه قبح وجهه، فما يضرني قبح وجهي مع ما قد رزقني الله عز وجل من فهم كلامه والعمل بسنة نبيه ﷺ. قال: فتبسم

المأمون حتى وضع يده على فيه، ثـم قلـت: يـا أمـير المؤمنـين (أطـال ا لله بقاءك) قد رأيتك تنظر إلى هذا النقش في الحـائط وتنكـر انتفـاخ الجـص، وسمعت عمراً يعيب ذلك، ويدعـو علـى صانعـه، ولا يعيـب الجـص، ولا يدعو عليه، فقال المأمون: العيب لا يقع على الشيء المصنـوع، وإنمـا يقـع على الصانع. قال: قلت: صدقـتَ يـا أمـير المؤمنـين، وقلـتَ الحـق، فهـذا يعيب ربي لم خلقني قبيحاً، فازداد تبسمه حتى ظهرت ثناياه.

ثم جرت المناظرة، وكان موضوعها: دعـوى بشـر ومـن شـايعه مـن القول بخلق القرآن، حتى قطعه المكي، وأظهر ا لله مـن كسـر قـول بشـر، ودحض حجته وبطلان مذهبـه، ووقـوف المـأمون وسـائر الأوليـاء وأهـل القرآن والفقه، ومن كان ببغداد من سائر الناس على ذلك، ما أعزَّ ا لله به الإسـلام وأهلـه، وأضـلَّ بـه أهـل الضلالـة والـردى، والدعـاة إلى مخالفـة الإسـلام ونقـض أخبـار القـرآن، والتلبيـس علـى عبـاده، فقويـت قلـوب المؤمنين، وظهر سرورهم، وعلا الحق وجُهِـرَ بـه القـول، وأُمْحِـقَ البـاطل واسْتُخفي به الصوت، وكبت ا لله أعداءه، وأقـام منـار الإسـلام والسـنة، والحمد لله رب العالمين.

ومن عيــون المناظرات التي تمت أيام المحنة بين شيوخ السنة والقـائلين بخلق القرآن من المعتزلة والجهمية، ما ذكره أبوبكر الآجـري رحمـه ا لله في كتاب الشريعة[(١)] حيث قال: «بلغني عن المهتدي رحمـه ا لله أنـه قـال: مـا

---

(١) ص :٦٢-٦٤، وانظر : تاريخ بغداد ١٥٢/٤، ومروج الذهب ١٠٤/٤-١٠٦، ومناقب الإمام أحمد ـ ابن الجوزي ص : ٤٣١- ٤٣٧، ومحنة الإمام أحمد ــ عبـد الغني المقدسـي ص : ١٦٧-١٧٥.

قطع أبي - يعني الواثق - إلا شيخ[1] جيء به من المصِّيصَة، فمكث في السجن مدة، ثم إن أبي ذكره يوماً، فقال علي بالشيخ فأتي به مقيداً، فلما وقف بين يديه سلَّم عليه، فلم يرد عليه السلام. فقال له الشيخ: يا أمير المؤمنين، ما استعملت معي أدب الله عز وجل، ولا أدب رسوله ﷺ؛ قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [سورة النساء: ٨٦] وأمر النبي ﷺ برد السلام. فقال له: وعليك السلام، ثم قال لابن أبي دؤاد سله، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا محبوس مقيد أصلي في الحبس بتيمم، مُنِعْتُ الماء، فمُرْ بقيودي تُحَل، ومُرْ لي بماء أتطهر وأصلي، ثم سلني. فأمر فحل قيده، وأمر له بماء فتوضأ وصلَّى لله. ثم قال لابن أبي دؤاد: سله، فقال الشيخ: المسألة لي[2]، فأْمُرْه أن يجيبني. فقال: سل، فأقبل الشيخ على ابن أبي دؤاد يسأله، فقال: خبِّرني عن هذا الأمر الذي تدعو الناس إليه، أشيء دعا إليه رسول الله ﷺ؟ قال:لا. قال: فشيء دعا إليه أبوبكر الصديق ﷺ بعده؟ - ثم ذكر عمر وعثمان وعلياً، وفي كل مرة يقول ابن أبي دؤاد: لا. قال الشيخ: فشيء لم يدع إليه رسول

---

(١) جاء في بعض الروايات أن اسمه: أبوعبدالرحمن بن محمد بن إسحاق الأذرمي. انظر : سير أعلام النبلاء ٣١٢/١١ وما بعدها .

(٢) وجاء في رواية أن الواثق قال للشيخ: أجب أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد عما يسألك عنه، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، أحمد يقِلُّ ويضعف عن المناظرة. قال المهتدي: فرأيت الواثق قد صار مكان الرقة والرحمة له غضباً. فقال له: أبو عبد الله يضعف عن المناظرة؟! فقال له: هوِّن عليك يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في كلامه، فأذن له ، فكلمه حتى قطعه . مروج الذهب ١٠٤/٤.

ا لله ﷺ ولا أبوبكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ﷺ تدعو إليه أنت الناس؟ ليس يخلو أن تقول: علموه أو جهلوه. فإن قلت: علموه وسكتوا عنه، وسعنا وإياك من السكوت ما وسع القوم. فإن قلت جهلوه وعلمته أنت، فيا لكع ابن لكع يجهل النبي ﷺ والخلفاء الراشدون رضي ا لله عنهم شيئاً وتعلمه أنت وأصحابك. قال المهتدي: فرأيت أبي وثب قائماً ودخل الحيرى، وجعل ثوبه في فيه، فضحك، ثم جعل يقول: صدق، ليس يخلو من أن تقول: علموه أو جهلوه، فإن قلت: علموه وسكتوا عنه وسعنا من السكوت ما وسع القوم، وإن قلنا: جهلوه وعلمته أنت، فيا لكع ابن لكع، يجهل النبي ﷺ وأصحابه رضي ا لله عنهم شيئاً تعلمه أنت وأصحابك؟ ثم قال: يا أحمد. فقلت: لبيك، فقال: لست أعنيك، إنما أعني ابن أبي دؤاد، فوثب إليه، فقال: أعط هذا الشيخ نفقته وأخرجه عن بلدنا».

وجاء في سياق هذه القصة عند ابن الجوزي[1] أن المهتدي لما أمر الواثق بقطع قيد الشيخ ضرب الشيخ بيده إلى القيد حتى يأخذه، فجاذب الحداد عليه، فقال الواثق: دع الشيخ يأخذه، فأخذه فوضعه في كمه، فقال له الواثق: يا شيخ، لم جاذبت الحداد عليه؟ قال: لأني نويت أن أتقدم إلى من أوصي إليه إذا أنا متُّ أن يجعله بيني وبين كفني، حتى أخاصم به هذا الظالم عند ا لله يوم القيامة، وأقول: يا رب، سل عبدك هذا لم قيدني، وروّع أهلي وولدي وإخواني بلا حق أوجب ذلك علي؟

(١) مناقب الإمام أحمد ص : ٤٣٥-٤٣٦ .

وبكى الشيخ وبكى الواثق وبكينا، ثم سأله الواثق أن يجعله في حل وسعة مما ناله، فقال الشيخ: والله يا أمير المؤمنين، لقد جعلتك في حل وسعة من أول يوم إكراماً لرسول الله ﷺ إذ كنت رجلاً من أهله. فقال الواثق: لي إليك حاجة. فقال الشيخ: إن كانت ممكنة فعلتُ. فقال له الواثق: تقيم قبلنا ننتفع بك وينتفع بك فتياننا. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، إنّ ردّك إياي إلى الموضع الذي أخرجني عنه هذا الظالم أنفع لك من مقامي عليك، وأخبرك بذلك: أصير إلى أهلي وولدي فأكف دعاءهم عليك، فقد خلفتهم على ذلك، ثم أذن له الواثق أن يخرج إلى الثغر الذي جيء به منه.

وقال المهتدي: وسقط من عينه - يعني الواثق - ابن أبي دؤاد، و لم يمتحن بعد ذلك أحداً»[1]. وجاء - أيضاً - أن المهتدي قال: رجعت عن هذه المقالة، وأظن أن الواثق رجع عنها منذ ذلك الوقت.[2]

ومن مناظرات متأخري أهل السنة ما وقع لشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره مع أهل البدع والإلحاد، وأذكر - هنا - على سبيل المثال المناظرة الموسومة بمناظرة الواسطية، والواسطية هي عقيدة أملاها الشيخ لأحد قضاة واسط، لتكون عمدة له ولأهل بيته. قال الشيخ رحمه الله: «فقد سُئلتُ غير مرة أن أكتب ما حضرني ذكره مما جرى في المجالس الثلاثة المعقودة للمناظرة في أمر الاعتقاد بمقتضى ما ورد به كتاب السلطان من

(١) انظر : المرجع السابق ص : ٤٣٢ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص : ٤٣٦ .

الديار المصرية إلى نائبه أمير البلاد، لمَّا سعى قوم من الجهمية والاتحادية[(١)] والرافضة وغيرهم من ذوي الأحقاد.

فأمر الأمير بجمع القضاة الأربعة: قضاة المذاهب الأربعة، وغيرهم من نوابهم، والمفتين والمشائخ، ممن له حرمة وبه اعتداد، وهم لا يدرون ما قصد بجمعهم في هذا الميعاد، وذلك يوم الاثنين ثامن رجب المبارك عام خمس وسبعمائة.

فقال لي: هذا المجلس عقد لك، فقد ورد مرسوم السلطان بأن أسألك عن اعتقادك، وعما كتبت به إلى الديار المصرية من الكتب التي تدعو بها الناس إلى الاعتقاد، وأظنه قال: وأن أجمع القضاة والفقهاء، وتتباحثون في ذلك. فقلت: أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني، ولا عمن هو أكبر مني، بل يؤخذ عن الله ورسوله ﷺ وما أجمع عليه سلف الأمة، فما كان في القرآن وجب اعتقاده، وكذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة مثل صحيح البخاري ومسلم... وكان يرد علي من مصر وغيرها من يسألني

---

(١) الاتحادية : الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ألفاظ متقاربة، وقد يكون هناك نوع تفريق بينها؛ كأن يكون في الاتحاد والحلول الاعتراف بالاثنينية : وجود الخالق ووجود المخلوق، ثم حدث الامتزاج؛ إما بارتفاع المخلوق ليتحد بالخالق، أو أن ينزل الخالق ليحل في المخلوق. أما وحدة الوجود، ففيها نفي الاثنينية، فما ثم إلا شيء واحد؛ إما أن يسمى الخالق أو المخلوق. وهذه الاصطلاحات شاعت في غلاة الرافضة والمتصوفة من أمثال السبئية والحلمانية والحلاجية ونحوها من فرق الغلاة. انظر: الفرق بين الفرق ص: ٢٥٤، واعتقادات فرق المسلمين ص: ١١٦، والمعجم الفلسفي (مجمع اللغة) ص: ٢، ٢٠٩، والموسوعة الميسرة ـ غربال ص: ٤٥.

عن مسائل في الاعتقاد وغيره فأجيبه بالكتاب والسنة، وما كان عليه سلف الأمة. فقال: نريد أن تكتب لنا عقيدتك. فقلت: اكتبوا. فأمر الشيخ كمال الدين (٧٢٧هـ) أن يكتب، فكتب له جمل الاعتقاد في أبواب الصفات والقدر، ومسائل الإيمان والوعيد والإمامة والتفضيل... ثم قلت للأمير والحاضرين: أنا أعلم أن أقواماً يكذبون علي كما قد كذبوا علي غير مرة، وإن أمليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون: كتم بعضه، أو داهن وداري، فأنا أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين، قبل مجيء التتر إلى الشام ... فحضرت العقيدة الواسطية... فأشار الأمير بأن لا أقرأها أنا لرفع الريبة، وأعطاها لكاتبه الشيخ كمال الدين، فقرأها على الحاضرين حرفاً حرفاً، والجماعة الحاضرون يسمعونها، ويورد المورد منهم ما شاء، ويعارض فيما شاء، والأمير ـ أيضاً ـ يسأل عن مواضع فيها، وقد علم الناس ما كان في نفوس طائفة من الحاضرين من الخلاف والهوى، ما قد علم الناس بعضه، وبعضه بسبب الاعتقاد، وبعضه بغير ذلك.

ولا يمكن ذكر ما جرى من الكلام والمناظرات في هذه المجالس، فإنه كثير لا ينضبط، لكن أكتب ملخص ما حضرني من ذلك، مع بعد العهد بذلك، ومع أنه كان يجري رفع أصوات ولغط لا ينضبط».

وجاء فيما كتبه الشيخ عما جرى في هذه المجالس أنه كان يجيب على اعتراضات الحاضرين ويبين مواضع الإشكال، ويستدل بالكتاب والسنة وأحوال السلف، ويبين أنه استعمل الاصطلاح القرآني السني السلفي

متجنباً اصطلاحات المتـأخرين. ثـم قـال رحمـه الله: «وقلت مـرات: قـد أمهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين، فإن جاء بحرف واحـد عن أحد من القرون الثلاثة ـ التي أثنى عليها النبي ﷺ حيـث قـال: «خير القرون القرن الذي بعثت فيه، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهـم" يخالف ما ذكرته، فأنا أرجع عن ذلك، وعلي أن آتي بنقول جميع الطوائف ـ عن القرون الثلاثة توافق ما ذكرته مـن الحنفيـة والمالكيـة والشـافعية والحنبليـة والأشعرية وأهل الحديث والصوفية وغيرهم». ثم ذكر الشـيخ أنـه جـرى الكلام بينه وبين بعـض مـن في المجلس في مسـائل؛ منهـا: مسـألة الحـرف والصوت، وكان قد أشيع أن الإمام أحمد وأصحابه يقولون بقـدم صـوت القارئ ومداد المصاحف، وكان بعض الحاضرين يتربص بالشـيخ في هـذه المسألة. وهو إمـا أن يجيـب الشيخ بمـا في ظنهـم أن أهـل السـنة يقولونـه فيحصـل مقصودهـم مـن الشناعة، أو يجيب بمـا يقولونـه هـم فيحصـل مقصودهم من الموافقـة. فلمـا أجـابهم الشيخ بالفرقـان الـذي عليـه أهـل السنة، وليس هو مـا يقولـه هـؤلاء المخـالفون، ولا مـا ينقلونـه عـن أهـل السنة، بهتوا بذلك. ثم جرى الكلام في مسـألة القـرآن، وبيّـن الشـيخ أن القرآن كلام الله حقيقة، وأنه إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لا مـن قاله مبلغاً. فاستحسنوا ذلك الكلام وعظموه، حتى أكـبر خصـوم الشـيخ أخذ يظهر تعظيم هذا الكـلام كـابن الوكيـل (٧١٦هـ) وغـيره، وأظهـر الفرح، وقال: «إنك قد أزلت عنا هذه الشبهة، وشفيت الصدور».

ثـم جـرى كـلام في تصحيـح بعـض الأحـاديث الـتي وردت في الواسطية، وأنكروا على الشيخ تصحيحه إياها، فبيّن حجته، وأجاب على اعتراضهم، حتى وافقوه على ذلك، وذكروه بالمدح والثناء.

وهكذا، حتى أظهر الله من قيام الحجة وبيان المحجة ما أعز الله به السنة والجماعة، وأرغم به أهل البدعة والضلالة[١].

ثالثاً: مناظرة أهل السنة للشيعة:

وهي مناظرات كثيرة، لكني أذكر هنا واحدة منها، هي من أعظمها بركة على الإسلام وأهله، قد سطرها من قام بها وأشرف عليها وهو العلامة عبدالله بن الحسين السويدي (١١٧٤هـ) رحمه الله، وعرفت بمؤتمر النجف[٢]، وكان ذلك سنة ست وخمسين ومائة وألف للهجرة حين أرسله الوزير أحمد باشا (١٧٧٣م) إلى الشاه نادر (١١٤٧هـ)، إذ طلب الأخير عالماً يبحث مع علماء العجم في شأن مذهب الشيعة، ويقيم الدلائل على بطلانه، وكان الشيخ عبدالله السويدي قد هاب الأمر أولاً، فقال لرسول الوزير: أنت تعلم أن الروافض أهل عناد ومكابرة، فكيف يسلمون لما أقول؟! لا سيما وهم في شوكتهم وكثرة عددهم، وهذا الشاه ظالم غشوم، فكيف أتجاسر على إقامة الدليل على بطلان مذهبه وتسفيه رأيه؟! وكيف تحصل المباحثة معهم وهم ينكرون كل حديث عندنا، فلا يقولون بصحة الكتب الستة ولا غيرها، وكل آية أحتج بها يؤولونها

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/١٦٠-٢٠١.

(٢) انظر: النفحة المسكية في الرحلة المكية ص: ١٢-٢٧ (مخطوط)، ونشرها محب الدين الخطيب مطبوعة مع كتابه الخطوط العريضة باسم: مؤتمر النجف. انظر: ٦٤ وما بعدها.

ويقولون: الدليل إذا تطرقه الاحتمال يبطل به الاستدلال، كما أنهم يقولون: شرط الدليل أن يتفق عليه الخصمان، فكيف أثبت لهم جواز المسح على الخفين وهو قد ثبت بالسنة، فإن قلت: روى حديث المسح على الخفين نحو سبعين صحابياً، منهم الإمام علي، قالوا: عندنا ثبت عدم جواز المسح برواية أكثر من مائة صحابي منهم: أبوبكر وعمر، فإن قلت: إن هذه الأحاديث التي توردونها في عدم صحة المسح موضوعة مفتراة، قالوا: كذلك الأحاديث التي توردونها في صحة المسح موضوعة، فما هو جوابهم هو جوابنا. فكيف يلزموننا بهذه الأحاديث. فأرجو من جناب الوزير أن يرفع هذه المحنة عني، وليرسل المفتي الحنفي أو المفتي الشافعي، فإنهما الأنسب في مثل هذه الحادثة.

فقال رسول الوزير: هذا أمر لا يمكن، وجناب الباشا اختارك لذلك، فما يسعك سوى الامتثال، فلا تحرك لسانك بخلاف مراده.

ثم اجتمع السويدي بالوزير وتباحثا في هذا الأمر، ثم دعا له الوزير بأن يقوي الله حجته، ويطلق بالصواب لسانه، ثم ذكر له أنه مخير بين المباحثة مع العجم وتركها، لكنه إن رأى الإنصاف منهم، وإرادة الصواب فليبحث معهم.

ثم خرج السويدي رحمه الله يطلب النَجَف، وهو في الطريق يصور في نفسه الدلائل من الطرفين، واعتراضاتها، وأجوبة تلك الاعتراضات. قال السويدي: ولم يزل هذا دأبي وديدني، لا فكر لي إلا في تصوير

الدلائل، ودفع الشبه، حتى أني صورت أكثر من مائة دليل، وعلى كل دليل جعلت جواباً، أو جوابين أو ثلاثة على حسب الشبه ومظنتها.

وأخبره بعض أهل السنة في الطريق أن الشاه جمع لهذه المسألة كل مفت في بلاده، وأنهم بلغوا الآن سبعين مفتياً، كلهم روافض، قال السويدي: فلما طرق سمعي ذلك، حوقلت واسترجعت.

فلما وصل السويدي النجف طلبه الشاه قبل أن ينزل ويستريح، فأدخل ذلك في نفسه الخوف. قال السويدي: وقلت في نفسي: ما طلبك الشاه مستعجلاً إلا ليلجئك على الإقرار والتصديق بمذهب الإمامية؛ فأولاً يرغبك في الأموال، فإن أجبته، وإلا أكرهك على ذلك، فما رأيك؟ فخرجت على أني أقول الحق ولو كان فيه تلف نفسي، ولا يميلني ترغيب، ولا يزعجني ترهيب. ثم ذكر موقف أبي بكر الصديق ﷺ في حروب الردة، وموقف أحمد بن حنبل رحمه الله في المحنة، فقويت نفسه بذلك، ووطنها على الموت حتى استسهلته.

ثم لقي السويدي الشاه الذي أخبره أن بمملكته فرقتين: تركستان وأفغان، يقولون للإيرانيين: أنتم كفار، والكفر قبيح، ولا يليق أن يكون في مملكتي قوم يكفر بعضهم بعضاً. ثم قال له: فالآن أنت وكيل من قبلي، ترفع جميع المكفرات، وتشهد على الفرقة الثالثة بما يلتزمونه...ثم رخص لي بالخروج. قال السويدي: فخرجت وأنا في غاية الفرح والسرور؛ لأن حكم العجم صار بيدي.

وأمر الشاه أن يجتمع السويدي مع الملا باشا علي أكبر، وهو من علماء الشيعة، وفي الطريق إليه نصح مفتي الأفغان السويدي بأن لا يغتر بقول الشاه الذي فيه توكيله برفع المكفرات، وذلك أن الشاه إنما أرسل السويدي إلى الملا باشا للمباحثة، فليكن منه على حذر.

ثم جرت المباحثة بين السويدي والملا في مسألة أحقية علي ﷺ بالخلافة، وفي قوله ﷺ لعلي: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي.[1] واستدلال الشيعة به على خلافة علي ﷺ، فناظره السويدي في ذلك بوجوه من الردود بليغة، ومفحمة، حتى قطعه. وحتى قال بعض الحاضرين من الشيعة مخاطباً الملا باشا: اترك المباحثة مع هذا، فإنه شيطان مجسِّم، وكلما زدت في الدلائل وأجابك عنها انحطت منزلتُك.

ثم جرت المناظرة في الموضوع نفسه لكن على منحى آخر، بيَّن فيه السويدي كيف أن علياً ﷺ زوج ابنته أم كلثوم من عمر بن الخطاب رضي الله عن الجميع، وأن اعتذار الشيعي بأن علياً كان مكرهاً على التزويج منقصة في علي أضافوها إليه، لا يرضى بها أدنى العرب، فضلاً عن بني هاشم الذين هم سادات العرب وأكرمها أرومة، وذلك أن أدنى العرب يبذل نفسه دون عرضه، ويُقتل دون حرمه، فكيف يضيفون ذلك لعلي وهو الشجاع، ليث بني غالب، وفارس المشارق والمغارب.

(١) رواه البخاري في صحيحه ٧/٧١ كتاب فضائل الصحابة ـ باب مناقب علي بن أبي طالب ﷺ ح: ٣٧٠٦ ، ومسلم في صحيحه ٤/١٨٧١ كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ ح : ٢٤٠٤.

فانتقل الشيعي إلى شبهة أخرى يتعلق بها، وهي أنه ربما زفت لعمر جنيَّة[١] في صورة أم كلثوم، فبين له السويدي أن هذا أشنع، وأنه لو فتح هذا الباب لانسدت أبواب الشريعة؛ لأن باب الاحتمالات والتجويزات لا نهاية له، ولا ضابط له.

ثم قال السويدي: ثم قلت له: ما حكم أفعال الخليفة الجائر؟ هل هي نافذة عند الشيعة؟

فقال: لا تصح، ولا تنفذ.

فقلت: أنشدك الله، أي عشيرة محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب ؟

فقال: من بني حنيفة.

فقلت: من سبى بني حنيفة؟

قال: لا أدري. وهو كاذب.

فقال بعض الحاضرين من علمائهم: سباهم أبوبكر رضي الله عنه.

فقلت: كيف ساغ لعلي أن يأخذ جارية من السبي ويتولدها، والإمام ـ على زعمكم ـ لا تنفذ أحكامه لجوره، والاحتياط في الفروج أمر مقرر.

فقال: لعله استوهبها من أهلها، يعني زوجوه بها.

قلت: يحتاج هذا إلى دليل. فانقطع، والحمد لله.

ثم قال السويدي رحمه الله للشيعي: إنما لم آتك بحديث أو آية؛ لأني مهما بالغت في صحة الحديث، أقول رواه أهل الكتب الستة وغيرهم، فتقول: أنا لا أقول بصحتها، وشرط الدليل أن يتفق عليه الخصمان.

---

(١) انظر هذه الفرية والجواب عليها ـ أيضاً ـ في العثمانية ـ للجاحظ ص : ٢٤٢ .

ولو أتيتك بآية وقلت: أجمع أهل التفسير على أن حكمها كذا، وأنها نزلت في شأن أبي بكر. قلت: إجماع أهل التفسير لا يكون حجة علي، وتذكر تأويلاً بعيداً، وتقول: الدليل إذا تطرقه الاحتمال بطل به الاستدلال.فهذا الذي دعاني إلى ترك الاستدلال بالآية أو الحديث.

قال السويدي:ثم إن الشاه أُخبِر بهذه المباحثة طبق ما وقع، فأمر أن يجتمع علماء إيران وعلماء الأفغان وعلماء ما وراء النهر، ويرفعوا المكفرات، ويكون السويدي ناظراً عليهم، ووكيلاً عن الشاه، وشاهداً على الفرق الثلاث بما يتفقون عليه.

لعل هذه المباحثة التي جرت بين السويدي والملا من باب اختبار قدرة السويدي في تقرير مذهبه، مما يطمع الشيعة في الوصول معه إلى أكبر مستوى ممكن من التنازلات، وعلى ضوئها يتم جمع الطوائف، أي على معتقد يكون أقرب إلى الشيعة منه إلى السنة.

ثم قال السويدي: فخرجنا نشق الخيام ــ معسكر الشاه ــ والأفغان والأزبك والعجم يشيرون إلي بالأصابع، وكان يوماً مشهوداً.

ثم اجتمع علماء إيران وكانوا نحو سبعين، كلهم شيعة غير مفتي أردلان. وعلماء الأفغان، وكانوا سبعة. وعلماء ما وراء النهر وهم ـ أيضاً ـ سبعة. واتفقوا جميعا بحضور الشيخ السويدي على رفع المكفرات، وهي:

سب الشيخين أبي بكر وعمر، وتضليل الصحابة حتى شهدوا بعدالتهم جميعاً. وحل المتعة، وتفضيل علي على أبي بكر، وكونه الخليفة الحق بعد رسول الله ﷺ . ثم شرط علماء السنة على الشيعة ألا يحلوا حراماً معلوماً من الدين بالضرورة، وحرمته مجمعاً عليها، ولا يحرموا حلالاً مجمعاً عليه معلوماً حله بالضرورة، وبذلك جعلوهم داخلين في الفرق الإسلامية إن هم التزموا ذلك وعملوا به.

ثم أمرهم الشاه أن يكتبوا جميع ماقرروه والتزموه في رقعة، ويضع كل منهم خاتمه تحت اسمه، ثم يكتب الشيخ السويدي شهادته على صدر الرقعة، ويضع خاتمه. وقد فعلوا جميع ذلك، وكان نصراً عظيماً للسنة وأهلها، وظهوراً للحق وأنصاره، والحمد لله رب العالمين.

رابعاً: مناظرة أهل السنة لأهل الملل الكافرة:

وهي ـ أيضاً ـ كثيرة ومتنوعة لا يخلو منها زمان، وقد أشارت إلى ذلك كتب التأريخ، لكن من أعجب ذلك وألطفه ما وقع في العصر الحديث من مناظرتين كانتا بين بعض علماء الإسلام وبعض قساوسة النصارى:

الأولى وقعت في الديار الهندية، والثانية في الديار السودانية، ظهر فيهما الحق، وعلا صوت الإيمان والتوحيد، وانقمع أهل الزيغ والتثليث.

والذي دعاني لاختيار هاتين المناظرتين في هذا الموضع أمران:

أحدهما: كونهما وقعتا في العصر الحديث كما تقدم. والثاني: وجودهما في صورة كاملة، وفي مؤلّفين موثقين[(١)]، وبأسلوب معاصر يؤكد على قدرة علماء الإسلام على مواجهة خصوم الإسلام في كل زمان ومكان.

فالمناظرة الأولى تمت لما رأى الشيخ رحمت الله[(٢)] الهندي اشتداد الحملات التنصيرية، وأن كثيرين من شباب المسلمين أصبحوا حيارى في أمر دينهم، وبخاصة في أكرا المدينة الهندية التي تعد عاصمة التنصير، وفيها يسكن زعيم المنصرين فندر، وأن المسلمين المخلصين راغبون في حصول مناظرة علنية لكسر شوكة المنصرين، فقرر الشيخ رحمت الله دخول هذه المناظرة مع القس فندر، فأخذ الشيخ يراسل القس مؤمِّلاً أن يوافق على حصول المناظرة بينهما، ووصل عدد الرسائل بينهما إلى تسع رسائل من كل جانب، حرص الشيخ فيها على تحريض القس على المناظرة، وقبوله إياها، ودخوله فيها[(٣)]، بل تجده ـ أحياناً ـ ينعت القس بمثل قوله: «ولكم همة عالية... وحصل لكم الامتياز عن جميع القسس...» وكان القس يضع للمناظرة شروطاً صعبة بغية الهروب منها وتثبيط عزم الشيخ عنها،

---

(١) الأول: المناظرة الكبرى لرحمت الله الهندي، والثاني: مناظرة بين الإسلام والنصرانية.

(٢) هو: رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي الحنفي، نزيل الحرمين، باحث، عالم بالدين والمناظرة، جاور مكة وتوفي بها سنة ١٣٠٦هـ.من مصنفاته إظهار الحق. انظر: هدية العارفين ١/٣٦٦، والأعلام ٣/١٨.

(٣) المناظرة الكبرى ص: ١٦٥-١٦٦.

فكان الشيخ يقبل بعضها، ويتلطف في رد البعض الآخر، كل ذلك رجاء دفع القس إلى المناظرة[١]. وقد تم له ذلك بحمدا لله وتوفيقه، وزاد من أهميتها التزام كل طرف الدخول في دين الغالب منهما[٢] فكانت المناظرة صباح الاثنين الحادي عشر من رجب سنة سبعين ومائتين وألف للهجرة، واستمرت لمدة يومين، واتفق الطرفان أن تكون المباحثة في الموضوعات التالية:

النسخ والتحريف ـ ألوهية المسيح ـ التثليث ـ نبوة محمد ﷺ ـ حقيقة القرآن الكريم[٣].

اعترف القس فندر في يومي المناظرة بوقوع النسخ والتحريف في كتب العهدين؛ القديم والجديد: التوراة والإنجيل، ثم أغلق باب المناظرة في بقية الموضوعات حتى لا تتوالى عليه الهزائم[٤]. وكان على رأس الحضور أمراء المسلمين والهندوس والحكام الإنجليز وأعيان البلد والوجهاء وكبار والموظفين المدنيين والعسكريين من الإنجليز والهنود، كما حضرها القضاة والعلماء المسلمون والقساوسة والمنصرون ومراسلو الصحف،وقد زاد عدد الحضور في اليوم الأول على خمسائة نفس، فلما تناقل الناس خبر المناظرة في اليوم الأول، وعرف الناس هزيمة فندر واعترافه بوقوع

---

(١) المرجع السابق ص: ١٩٣-١٩٤.

(٢) المرجع السابق ص: ٣٣٦.

(٣) المرجع السابق ص: ٢١٠-٢١١.

(٤) المرجع السابق ص: ٣٦٤-٣٦٨.

التحريف في كتب العهدين تضاعف عدد الحاضرين في اليوم التالي وزاد على ألف نسمة من جميع الأطراف[1].

وكان لهذه المناظرة أثرها الحسن في نفوس المسلمين برفع روحهم المعنوية وتثبيت المتحيرين والمتشككين منهم، وعدوا ذلك انتصاراً للإسلام على النصرانية، وللمسلمين على الإنجليز والمنصرين، مما دفعهم إلى استعجال الثورة على الإنجليز طلباً للخلاص منهم ومن شرورهم[2].

وفي المقابل كان للمناظرة ونتائجها ردة فعل عنيفة لدى النصارى والمنصرين، وأخذ الإنجليز ينظرون إلى القس فندر نظرة احتقار واتهام بأنه جر على الكنيسة خزياً وعاراً، فلم يستطع فندر البقاء في الهند حتى رحل عنها إلى بلاد الغرب، ثم إلى تركيا، ليباشر مرحلة جديدة من التنصير في مقر الخلافة الإسلامية. فلما علم بذلك أمير مكة ـ وكان الشيخ رحمت الله وقتئذ بمكة ـ أمر بإرسال الشيخ إلى تركيا،فلما حلَّ الشيخ بها فرَّ القس فندر هارباً منها، وذلك خوفاً من ملاقاة الشيخ[3].

وأما المناظرة الثانية، فعقدت في الخرطوم في الفترة ما بين الثالث والعشرين من محرم إلى التاسع والعشرين منه من سنة إحدى وأربعمائة وألف للهجرة، وكانت بين مجموعتين من رجال الفكر في الديانتين: الإسلامية والنصرانية.

---

(١) المناظرة الكبرى ص: ٢٠١-٢٠٣ .

(٢) انظر: المرجع السابق ص: ٣٧٩-٣٨٠ .

(٣) انظر: المرجع السابق ص: ٣٧٤-٣٧٦.

يمثل الجانب الإسلامي: الدكتور محمد جميل غازي رحمه الله، واللواء المهندس أحمد عبدالوهاب، والأستاذ إبراهيم خليل أحمد، وكان قسيساً ومبشراً، ثم أعلن إسلامه سنة ١٩٥٩م بعد دراسة مقارنة متأنية، وله جهود في الدعوة إلى الله (تعالى) ، ومؤلفات كثيرة في نصرة الإسلام.

ويمثل الجانب النصراني: البشير جيمس بخيت سليمان، والأستاذ تيخا رمضان، وغيرهما من شباب النصارى.

وقد تم هذا اللقاء بناء على طلب من الجانب النصراني توجهوا به إلى رئيس وأعضاء هيئة النشاط الإسلامي بالسودان، والملحق الديني بسفارة المملكة العربية السعودية بالخرطوم.

أما موضوع المناظرة فكان يدور حول قضايا كثيرة؛ من أهمها:

* المسيح والإنجيل في القرآن الكريم.
* الصلب وموقف القرآن منه.
* النسخ والتحريف في الإنجيل.
* موقف القرآن من نبوة عيسى عليه السلام.
* موقف المسلمين من مريم.
* محمد ﷺ : حياته ونزول القرآن عليه.
* ختم النبوة.
* مسائل منها: الجهاد في سبيل الله، وتعدد الزوجات، وتحريم الخمر، وأكل لحم الخنزير، ومنع السلطات السعودية دخول غير المسلمين إلى الأماكن المقدسة.

وبعد حوار ونقاش هادئ انكشفت الجلسات الست عن إعلان رئيس الجانب النصراني دخوله ومن معه في الإسلام، ومما جاء في كلامه قوله: «... لا شك أنكم تتوقعون منا في هذه اللحظة أن ندخل في حوار معكم للرد على إجابتكم وتفصيلاتكم للعقيدتين: الإسلامية والمسيحية، ولكننا نقول أمام الله ونحن صادقون: إننا لا نملك أي رد غير إعلان الإسلام ديناً لنا، والتمسك بكل قيمه ومثله؛ لأنه الحق والنور لخير الأمم في الدنيا والآخرة...

سادتي: من هذا المنطلق الروحي الهادف علينا أن نعلن أن هناك مسئوليات عديدة تنتظرنا، ليس تجاه هؤلاء الإخوان الذين أسلموا فقط، وإنما هناك - أيضاً - قساوسة وقادة مسيحيون ومسيحيات في حاجة لمعرفة ما خرجنا به في الحوار الذي دار بيننا، وهذا لا شك جزء من مهمتنا الأساسية التي يجب أن نتعاون فيها ونحن صادقون، لا لأجل شيئ وإنما لإبلاغ الجميع مسلمين كانوا أو مسيحين بكل الحقائق التي أوحى بها سبحانه وتعالى إلى خير خلقه سيدنا محمد ﷺ»[١].

(١) انظر: مناظرة بين الإسلام والنصرانية ص: ٤٨٢ - ٤٨٣.

ما يجب فعله مع من لم يرجع عن باطله بالمناظرة

أهل السنة يحرصون على هداية الخلق، ويسعون إلى ذلك بضروب من الوسائل، منها: الوعظ والإرشاد، والجدال والمناظرة وإقامة الحجة، وتبديد الشبهات، وإزالة الإشكالات، ويبذلون لذلك كل غال ونفيس، لكن يبقى هناك نوع من الناس لا يستجيب لوعظ، ولا يلتزم بما تنكشف عنه مجالس المناظرة وإقامة الحجة من الحق الواضح، والدليل الساطع، بل يتمادى في غيه، ويضرب عن الحق صفحاً، ثم يبذل جهده ليغمس الناس في ضلالته، ويحشرهم في نحلته، وذلك بالتزيين وإلقاء الشبهات، فمثل هذا لا بد من إنزال العقوبة به، عساه أن يتوب، أو يكفَّ شره عن الأبرياء، والتغرير بالضعفاء، وربما كان الأنفع للمسلمين أن يقتل فتحسم مادته، ويعتبر به غيره. ولذلك نماذج في تأريخ المسلمين، من أبرزها:

١- تأديب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لصَبِيغ بن عِسْل بأن ضربه على رأسه بعراجين النخل وكان صبيغ يتطلب السؤال عن متشابه القرآن، وقد مر خبره، وفيه أن عمر بن الخطاب أرسله إلى أبي موسى الأشعري بالبصرة، وكتب إليه: أن حرِّم عليه مجالسة الناس، فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف بالأيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجده شيئاً، فكتب إلى عمر ﷺ يخبره، فكتب إليه: ما أخاله إلا قد صدق، خل بينه وبين مجالسة الناس، وفي رواية عن رجل يدعى زرعة قال: لقد رأيت صبيغ بن عسل بالبصرة كأنه بعير أجرب،

يجيء إلى الحلق، فكلما جلس إلى قوم لا يعرفونه ناداهم أهل الحلقة الأخرى: عزمة أمير المؤمنين[١]. وقال الزهري: لما خرجت الحرورية قيل لصبيغ: قد خرج قوم يقولون كذا وكذا، قال: هيهات، قد نفعني الله بموعظة الرجل الصالح[٢].

٢- تحريق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ للزنادقة الذين كانوا يقولون بإلهيته وهم أصحاب عبدالله بن سبأ اليهودي. قال أبو الحسين الملطي رحمه الله[٣]: «... الفرقة الغالية من السبئية وغيرهم وهم أصحاب عبدالله بن سبأ، قالوا لعلي عليه السلام: أنت أنت. قال: ومن أنا؟ قالوا: الخالق البارئ، فاستتابهم، فلم يرجعوا فأوقد لهم ناراً ضخمة وأحرقهم، وقال مرتجزاً:

لما رأيت الأمر أمراً منكـــراً أججت ناري ودعوت قنبرا

وخبر تحريق علي ﷺ الزنادقة رواه البخاري عن عكرمة قال: «أتي علي ﷺ بزنادقة فأحرقهم ...»[٤].

---

(١) انظر: الحجة في بيان المحجة ١/١٩٤-١٩٥، والإبانة لابن بطة ١/٤١٤-٤١٥ برقم: ٣٢٩، ٣٣٠.

(٢) التنبيه والرد ـ للملطي ص: ١٨١، وانظر: الإبانة لابن بطة ١/٤١٧ برقم: ٣٣٢.

(٣) التنبيه والرد ـ الملطي ص: ١٨، وانظر: الرد على الجهمية ـ للدارمي ص: ٢٠٠-٢٠١.

(٤) صحيح البخاري ١٢/٢٦٧(فتح الباري) كتاب استتابة المرتدين ـ باب حكم المرتد والمرتدة ... ح: ٦٩٢٢.

وقال الحافظ ابن حجر[١] : «روينا في الجزء الثالث من حديث أبي طاهر المخلص من طريق عبدا لله بن شريك العامري عن أبيه قال: قيل لعلي: إن هنا قوما على باب المسجد يدعون أنك ربهم، فدعاهم فقال لهم: ويلكم ما تقولون؟ قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا. فقال: ويلكم، إنما أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون، وأشرب كما تشربون، إن أطعت ا لله أثابني إن شاء، وإن عصيته خشيت أن يعذبني، فاتقوا ا لله وارجعوا، فأبوا، فلما كان الغد، غدوا عليه. فجاء قنبر فقال: قد وا لله رجعوا يقولون ذلك الكلام، فقال: أدخلهم. فقالوا كذلك، فلما كان الثالث قال: لئن قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث قِتْلة، فأبوا إلا ذلك، فقال: يا قنبر، ائتني بفَعَلَةٍ معهم مَرورهم[٢]، فخد لهم أخدوداً بين المسجد والقصر، وقال: احفروا فأبعدوا في الأرض، وجاء بالحطب فطرحه بالنار في الأخدود. وقال: إني طارحكم فيها أو ترجعوا، فأبوا أن يرجعوا فقذف بهم فيها حتى إذا احترقوا قال:

إني إذا رأيت أمراً منكــرا ... أوقدت ناري ودعوت قنبرا»

٣- قتال علي رضي الله عنه ومن معه من المسلمين الخوارج المارقين وذلك بعد مناظرتهم، وإقامة الحجة عليهم ورجوع طائفة منهم إلى الحق، وكانوا

(١) فتح الباري ١٢/٢٧٠ وقال الحافظ: وهذا سند حسن .

(٢) مَرور: جمع مَر، وهو المسحاة، وكذلك هو من المحراث. انظر: لسان العرب ٥/١٧٠ مادة مر .

قد خرجوا عن طاعة الإمام بحجة أنـه كفـر، وقـالوا بتكفـير مرتكـب الكبيرة وتخليده في النار مع أشياء أخرى منكـرة، وعقـد البخـاري في صحيحه باب قتل الخوارج والملحدين بعـد إقامـة الحجـة عليهـم، ثـم ساق بسنده إلى سويد بن غَفَلَة قال: قال علي ﷺ: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثا فوالله لأن أخرَّ مـن السـماء أحـبُّ إلي مـن أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خُدعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: سـيخرج قـوم في آخـر الزمـان أحـداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، لايجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كمـا يمـرق السـهم مـن الرميـة، فأينمـا لقيتموهم فاقتلوهم، فـإن في قتلهـم أجـراً لمـن قتلهـم يـوم القيامـة»[١] وكان ﷺ قد قال هذا الكلام حال قتاله إياهم، مستدلاً بحكـم النبي ﷺ فيهم[٢].

٤- وقتل هشام بن عبد الملك غيلان الدمشقي، وكان قد تكلم في القـدر على مذهب القدرية النفاة، فناظره عمر بن عبدالعزيز ﷺ، فأقام عليه الحجة حتى قـال غيـلان: والله يـا أمـير المؤمنـين، لقـد جئتـك ضـالاً فهديتني، وأعمى فبصرتني، وجاهلاً فعلمتني، والله لا أتكلـم في شـيء

(١) صحيح البخـاري ٢٨٣/١٢ (فتـح البـاري) كتـاب اسـتتابة المرتديـن والمعـاندين ... ح: ٦٩٣٠.

(٢) انظر: فتح الباري ٢٨٦/١٢-٢٨٧.

من هذا الأمر أبداً. فقال عمر: وا لله، لئن بلغني أنك تكلمت في شيء منه لأجعلنك للناس، أو للعالمين نكالاً، فلم يتكلم في شيء منه حتى مات عمر، فلما مات سال فيه سيل الماء[(١)]. حتى أمر هشام بن عبدالملك بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه[(٢)].

٥- وقتل خالد بن عبدا لله القسري الجعد بن درهم وهو أول من أظهر في الإسلام مقالة التعطيل[(٣)]. وروى البخاري رحمه ا لله في كتاب أفعال العباد[(٤)] بسنده عن عبدالرحمن بن محمد بن حبيب بن أبي حبيب عن أبيه عن جده قال: «شهدت خالد بن عبدا لله القسري بواسط في يوم أضحى، وقال: ارجعوا فضحوا تقبل ا لله منكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، زعم أن ا لله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، و لم يكلم موسى تكليماً، تعالى ا لله علواً كبيراً عما يقول ابن درهم، ثم نزل فذبحه».

إلى غير ذلك من المواقف المشكورة لأهل السنة في قمع رؤوس المبتدعة بعد استتابتهم وإقامة الحجة عليهم، وفي ذلك منفعة عظيمة لدين ا لله أن يتبدل، ولعباد ا لله أن ينحرفوا. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه

---

(١) انظر: التنبيه والرد ـ الملطي ص: ١٦٨.

(٢) انظر: تأريخ الأمم والملوك للطبري٧/٢٠٣، والكامل لابن الأثير ٥/٢٦٣، والشريعة للآجري ص: ٢٢٨.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/١٧٧.

(٤) ص: ٨ برقم: ٣، وذكره في التاريخ الكبير ١/٦٤ ترجمة رقم: ١٤٣، وانظر: رد الدارمي على بشر المريسي ص: ١١٨، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/٢٠٥-٢٠٦ كتاب الشهادات ـ باب ما ترد به شهادة أهل الأهواء . وانظر: العلو للذهبي ص: ٧٨.

الله: «فإن الحق إذا كان ظاهرا قد عرفه المسلمون وأراد بعض المبتدعة أن يدعو إلى بدعته، فإنه يجب منعه من ذلك، فإذا هُجِرَ وعُزِّرَ كما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بصبيغ بن عِسْل التميمي، وكما كان المسلمون يفعلونه، أو قُتِل كما قَتَل المسلمون الجعد بن درهم وغيلان القدري وغيرهما، كان ذلك هو المصلحة، بخلاف ما إذا ترك داعياً، وهو لا يقبل الحق: إما لهواه، وإما لفساد إدراكه، فإنه ليس في مخاطبته إلا مفسدة وضرر عليه[1] وعلى المسلمين...

والمقصود أن الحق إذا ظهر وعرف، وكان مقصود الداعي إلى البدعة إضرار الناس قوبل بالعقوبة. قال (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[سورة الشورى:٢٦] [2].

(١) لأن مخاطبته والجلوس إليه وترك عقوبته بالزجر، أو ما هو أبلغ كالقتل، يفسده، وذلك بتعميق البدعة في نفسه واغتراره بذلك فيزداد ضلالاً، وإثماً وخسارة في العاقبة .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٧/١٧٢-١٧٣.

الباب الثاني

الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة
مشروعيته وخصائصه وتطبيقاته

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مشروعية الجدل والمناظرة

الفصل الثاني: الجدل والمناظرة في القرآن الكريم: خصائصه، وأساليبه، وتطبيقاته

الفصل الثالث: الجدل والمناظرة في السنة: خصائصه، وأساليبه، وتطبيقاته

الفصل الأول
مشروعيـــة الجـدل والمناظـرة

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: أنواع الجدل وأحكامه

المبحث الثاني: حكم مناظرة الكفار والمشركين

المبحث الثالث: حكم مناظرة أهل الكتاب

المبحث الرابع: حكم مناظرة أهل البدع

المبحث الخامس: حكم المراء

المبحث الأول
أنواع الجـــدل وأحكامه

الناظر في نصوص الشريعة التي ورد فيها ذكر الجدال والمجادلة يجدها على ضربين:

الأول: فيه الأمر بالجدال والحث عليه، والإخبار بأنه طريقة للأنبياء في تبليغ الدعوة والدفاع عنها.

والثاني: فيه النهي عن الجدال والتحذير منه، والإخبار بأنه طريقة للكفار والمعاندين يريدون به دحض الحق وتقرير الباطل.

وقد نظر المحققون من أهل العلم إلى هذه النصوص مجتمعة: النصوص التي أمرت بالجدال وحثت عليه، والنصوص التي نهت عنه وحذرت منه، فعلموا أنها كلها حق وصدق، ولا تعارض بينها، فعلموا يقيناً أن الجدال المأمور به غير الجدال المنهي عنه، فقالوا: الجدل نوعان: محمود ومذموم. وعلى ذلك تتنزل نصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف وعلماء الأمة، ويزول ما قد يشتبه على بعض الناس من أقوال بعض السلف التي فيها النهي عن الجدال والتحذير منه، ويتبين مقصودهم بذلك على ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

المطلب الأول

النصوص والآثار التي فيها الأمر بالجدال والحث عليه وبيان أنه طريقة الأنبياء وأتباعهم

أولاً: نصوص القرآن الكريم:

١- قوله (تعالى): ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] وفي المراد بالضمير المنصوب في " وجادلهم " - في المشار إليهم - قولان[(١)] : أحدهما: أنهم أهل مكة. والثاني: أنهم أهل الكتاب. قال الشوكاني رحمه الله: «الداعي قد يحتاج مع الخصم الألد إلى استعمال المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة النحل: ١٢٥] أي بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة، وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقاً وغرضه صحيحاً، وكان خصمه مبطلاً وغرضه فاسداً»[(٢)].

٢- قوله (تعالى) :﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦] قال مجاهد رحمه الله : «هي محكمة فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل والتنبيه على حججه وآياته؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة»[(٣)].

---

(١) انظر : زاد المسير - ابن الجوزي ٤/٥٠٦ .

(٢) فتح القدير ٣/٢٠٣ .

(٣) تفسير القرطبي ١٣/٣٥٠ .

٣- قوله (تعالى): ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة يونس: ٦٨] قال أهل التفسير: من حجة، والسلطان: الحجة. حكاه عنهم أبوعمر بن عبدالبر رحمه الله[1] وقال (تعالى): ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٩].

٤- قوله (تعالى) حكاية عن قوم نوح: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة هود: ٣٢]. وكان نوح قد دعاهم إلى عبادة الله وحده، وخوَّفهم من عذابه الأليم، فاعترضوا عليه بكونه بشراً، وأن أتباعه من أراذل القوم ـ بزعمهم ـ فأجابهم نوح عليه السلام بجواب قاطع وبيان ساطع، لم يجدوا معه رداً غير استعجال عذاب الله (تعالى) ونقمته.

٥- مجادلات إبراهيم عليه السلام مع الملك الظالم وقومه والملائكة:

أ- مجادلة إبراهيم عليه السلام للملك الظالم كما في قوله (تعالى) :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨] قال أبوعمر ابن عبدالبر رحمه الله: «فانقطع ـ أي الملك ـ وخُصِمَ ولحقه البهت عند أخذ الحجة [عليه][2] »[3].

(١) انظر : جامع بيان العلم ٢/١٢٢.

(٢) في الأصل : [له] ولعل الصحيح ما أثبته .

(٣) جامع بيان العلم ٢/١٢٢.

ب- مجادلة إبراهيم عليه السلام لقومه كما في قوله (تعالى) :﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ٧٦-٨٣] .

ج- مجادلة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة عليهم السلام، وذلك كما في قوله (تعالى) : ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [سورة هود: ٧٤-٧٦] وكما في قوله (تعالى): ﴿ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ(٣١)قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٣١ - ٣٢] .

وجاء في تفسير آية هود المتقدمة عن سعيد بن جبير رحمه الله أنه قال: لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له : إنا مهلكوا أهل هذه القرية.

قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال : أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً، قالوا: لا. قال: ثلاثون، قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا، قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا: لا. فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: إن فيها لوطاً. قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجينه وأهله إلا امرأته... الآية . فسكت عنهم واطمأنت نفسه.[(١)]

٦- المجادلة التي وقعت بين الملائكة والرب جل جلاله في شأن آدم عليه السلام، كما في قوله (تعالى):﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢)قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣٠-٣٣].

والملائكة قالوا ذلك استيضاحاً للحكمة من استخلاف آدم، لا ممانعة للحق، كيف وهم القائلون: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء:٢٧][(٢)] .

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٤٨/١٢-٤٩ ط. شاكر ، وتفسير القرطبي ٧٢/٩، وتفسير ابن كثير ٤٥٢/٢ .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٦٩/١ .

ثانياً: نصوص السنة النبوية:

١-روى مسلم في صحيحه[(١)] عن عبدالله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريُّون وأصحابٌ يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلُوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل». ولا شك أن مجادلة المشركين والمخالفين عموماً ومقارعتهم بالحجة، ودفع صيالهم عن الإسلام وأهله ضرب من ضروب الجهاد باللسان.

٢-وروى أبو داود في سننه[(٢)] عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم». قال ابن حزم رحمه الله: «وهذا حديث في غاية الصحة، وفيه الأمر بالمناظرة، وإيجابها كإيجاب الجهاد والنفقة في سبيل الله»[(٣)]. قال الصنعاني (١١٨٢هـ)

(١) ٧٠/١ كتاب الإيمان ـ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ح: ٥٠ .

(٢) ٢٢/٣-٢٣ كتاب جهاد ـ باب كراهية ترك الغزو ح: ٢٥٠٤ ، وانظر: سنن النسائي ٧/٦ كتاب الجهاد ـ باب وجوب الجهاد ح: ٣٠٩٨، ومسند الإمام أحمد ١٢٤/٣،١٥٣،٢٥١ وقوّى إسناده الخطابي في هامش سنن أبي داود ٢٣/٣، وانظر صحيح ابن حبان(كما في الإحسان) ١٠٤/٧ كتاب الجهاد ـ باب فرض الجهاد ح: ٤٦٨٨، ومستدرك الحاكم ٨١/٢ وقال هذا صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وصحّح النووي إسناد أبي داود في رياض الصالحين ص: ٤٠٢ كتاب الجهاد ح: ١٣٤٩، وصحّح الألباني إسناده في مشكاة المصابيح ٣٥٥/٢ برقم: ٣٨٢١ هامش رقم: ١.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام ٢٥/١.

رحمه الله: «الحديث دليل على وجوب الجهاد بالنفس وهو بالخروج والمباشرة للكفار، وبالمال وهو بذله لما يقوم به من النفقة في الجهاد والسلاح ونحوه...والجهاد باللسان بإقامة الحجة عليهم ودعائهم إلى الله(تعالى)، وبالأصوات عند اللقاء والزجر ونحوه من كل ما فيه نكاية للعدو...»[1].

٣- وروى مسلم في صحيحه[2] عن أنس بن مالك ﷺ قال: «كنا عند رسول الله ﷺ فضحك. فقال: هل تدرون مم أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مخاطبة العبد ربه. يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال يقول: بلى. قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً. قال فيختم على فيه. فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله. قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعداً لكن وسحقاً، فعنكن كنت أناضل» أي أدافع وأجادل، وقد أورد ابن عبدالبر رحمه الله هذا الحديث محتجاً به على إثبات المناظرة والجدل[3].

٤- وروى البخاري في صحيحه[4] عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

---

(١) سبل السلام ٨٢/٤ .

(٢) ٢٢٨٠/٤-٢٢٨١ كتاب الزهد والرقائق ح :٢٩٦٩ .

(٣) انظر : جامع بيان العلم ١٢٢/٢.

(٤) ٤٣٤/٨-٤٣٥(فتح الباري) كتاب التفسير ـــ باب ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾[طه:١١٧] ح: ٤٨٣٨، وانظر ٤٣٤/٨ كتاب التفسير ـــ باب ﴿واصطنعتك لنفسي﴾[طه:٤١] ح: ٤٧٣٦ و٥٠٥/١١ كتاب القدر - باب تحاج آدم وموسى عند الله ح: ٦٦١٤، و٤٧٧/١٣ كتاب التوحيد ـ باب ما جاء في قوله عز وجل ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾[النساء:١٦٤] ح: ٧٥١٥، وانظر صحيح مسلم ٢٠٤٢/٤-٢٠٤٤ ح: ٢٦٥٢ والتي بعده.

«حاجَّ موسى آدمَ، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم، قال: قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله ﷺ فحج آدمُ موسى».

ثالثاً: أحوال الصحابة في الجدل والمناظرة:

فقد كانوا أحياناً يناظرون النبي ﷺ مناظرة استرشاد واستيضاح، من ذلك ما وقع لعمر رضي الله عنه في صلح الحُدَيْبِيَّة، وذلك بعد توقيع الصلح مع المشركين وكتابة الكتاب، فجاء عمر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال له: ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قال: قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري. قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال: قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به. قال: فأتيتُ أبابكر، فقلت: يا أبابكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به. قال الزهري: قال عمر:

فعملت لذلك أعمالاً[١]، أي لأجل الذهاب والمجيء والسؤال والجواب، و لم يكن ذلك شكاً منه ﷺ بل طلباً لكشف ما خفي عليه، وحثاً على إذلال الكفار لما عرف من قوته في نصرة الدين[٢].

أما مناظرة الصحابة فيما بينهم أو مع غيرهم من المارقين والمبتدعة، فأكثر من أن تحصى، وقد سبق لذلك أمثلة، منها: مناظرتهم رضي ا لله عنهم في وفاته ﷺ، وفي موقع دفنه، ثم مناظرة المهاجرين والأنصار يوم السقيفة في الخليفة بعد رسول ا لله ﷺ، وفي قتال مانعي الزكاة، وأيضاً مناظرة علي وابن عباس للخوارج، وغير ذلك من مواقفهم المشهودة ومناظراتهم المحمودة؛ لأن ماكان منها بينهم إنما كان لطلب الحق وكشف اللبس، وما كان منها بينهم وبين غيرهم من أهل البدع فإنما لقمع الباطل وإقامة الحق، وقد كان الفلج وظهور الحق على أيديهم (رضي ا لله عنهم وأرضاهم) .

رابعاً: أحوال الأئمة وسلف الأمة ممن هم دون الصحابة في الجدل والمناظرة:

ولذلك أمثلة مرت بنا في الباب الأول، منها: مناظرة عمر بن عبدالعزيز رحمه ا لله للخوارج، وكذلك مناظرة أبي حنيفة رحمه ا لله لهم، ومناظرة الشافعي رحمه ا لله لحفص الفرد، ومناظرة أحمد بن حنبل رحمه ا لله للجهمية

(١) صحيح البخاري ٥/٣٣١-٣٣٢ كتاب الشروط ح: ٢٧٣١، ٢٧٣٢، وصحيح مسلم ٣/١٤١١-١٤١٢ كتاب الجهاد ـ باب صلح الحديبية ح: ١٧٨٥.

(٢) انظر: فتح الباري ٥/٣٤٦.

في خلافة المأمون وأخيه المعتصم، مما كان له أعظم الأثر في إقامة السنة ونشرها، وقمع البدع وتبديدها.

قال ابن عبد الحكم (٢٦٨هـ): «ما رأيت الشافعي يناظر أحداً إلا رحمته، ولو رأيت الشافعي يناظرك لظننت أنه سبع يأكلك، وهو الذي علم الناس الحجج»[(١)].

وتناظر أهل العلم فيما بينهم طلباً لبلوغ الحق، واستكشاف الأدلة، وإزاحة الشبه، من ذلك ما وقع بين الإمامين المتحابين أحمد بن حنبل وعلي بن المديني رحمهما الله: ساق ابن عبدالبر رحمه الله بسنده إلى عبدالعظيم العنبري قال: كنت عند أحمد ابن حنبل وجاءه علي بن المديني (٢٣٤هـ) راكباً على دابة، قال: فتناظرا في الشهادة[(٢)]، وارتفعت أصواتهما، حتى خفت أن يقع بينهما جفاء، وكان أحمد يرى الشهادة وعلي يأبى ويدفع، فلما أراد علي الانصراف قام أحمد فأخذ بركابه، وسمعت أحمد في ذلك المجلس يقول: لا ننظر بين أصحاب محمد ﷺ فيما شجر بينهم ونكل أمرهم إلى الله، والحجة في ذلك حديث[(٣)] حاطب»[(٤)].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٤٩-٥٠ .

(٢) لعلها الشهادة على أحد بدخول الجنة أو النار.

(٣) لعله حديث: "وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" في قصة حاطب المشهورة . انظر : صحيح مسلم ٤/١٩٤١-١٩٤٢ كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن أبي بلتعة ح: ٢٤٩٤.

(٤) جامع بيان العلم ٢/١٣٠.

فهذا وغيره كثير مما يبين مشروعية الجدل والمناظرة، وأن الصحابة والتابعين وغيرهم من أهل العلم والإيمان قد طرقوا هذا السبيل في الدعوة إلى الله، ودفع حجج المبطلين، وكشف الحق وبيان أدلته.

وقال أبو عمر بن عبدالبر رحمه الله: «وأما تناظر العلماء وتجادلهم في مسائل الأحكام من الصحابة والتابعين ومن بعدهم فأكثر من أن تحصى»[(١)].

ثم ذكر طائفة من ذلك يستدل بها.

خامساً: أقوال الأئمة والعلماء في مشروعية الجدل والمناظرة:

١- ذكر أبوبكر بن الطيب الباقلاني رحمه الله في كتابه الهداية له ما يدل على وجوب النظر والاحتجاج المأمور به شرعاً، واستدل على ذلك بما وقع بين الصحابة من المناظرات على نحو ما تقدم ذكره[(٢)].

٢- وقال أبو محمد بن حزم رحمه الله في كتاب الإحكام[(٣)] ما نصه: «وقد أمرنا (تعالى) في نص القرآن باتباع ملة إبراهيم عليه السلام وخبَّرنا (تعالى) أن من ملة إبراهيم المحاجة والمناظرة ـ فمرَّة للملك ومرَّة لقومه ـ والاستدلال كما أخبرنا (تعالى) عنه، ففرض علينا اتباع المناظرة لنصرف أهل الباطل إلى الحق، وأن نطلب الصواب بالاستدلال فيما اختلف فيه المختلفون؛ قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ

---

(١) جامع بيان العلم ١٣١/٢.

(٢) انظر : عيون المناظرات ص:١٥٧-١٦٢.

(٣) ٢١/١-٢٦.

وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٨] فنحن المتّبعون لإبراهيم ﷺ في المحاجة والمناظرة فنحن أولى الناس به، وسائر الناس مأمورون بذلك. قال الله (تعالى) : ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٥] ومن ملته المناظرة، كما ذكرنا، فمن نهى عن المناظرة والحجة، فليعلم أنه عاص لله عز وجل، ومخالف لملة إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما...

وقال (تعالى): ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [سورة التوبة: ١٢٠] ولا غيظ أغيظ على الكفار والمبطلين من هتك أقوالهم بالحجة الصادعة، وقد تهزم العساكر الكبار، والحجة الصحيحة لا تغلب أبداً؛ فهي أدعى إلى الحق وأنصر للدين من السلاح الشاكي، والأعداد الجمة... لأن السيف مرة لنا، ومرة علينا، وليس كذلك البرهان بل هو لنا أبداً، ودامغ لقول مخالفينا، ومزهق له أبداً، وربَّ قوة باليد قد دمغت بالباطل حقاً كثيراً فأزهقته؛ منها: يوم الحرة، ويوم قتل عثمان ﷺ، ويوم قتل الحسين وابن الزبير رضي الله عنهما... وقُتِل أنبياءُ كثيرون وما غُلِبت حجتهم قط...» إلى أن قال رحمه الله: «وبالجملة فلا أضعف ممن يروم إبطال الجدال بالجدال، ويريد هدم جميع الاحتجاج بالاحتجاج، ويتكلف فساد المناظرة بالمناظرة؛ لأنه مقر على نفسه أنه يأتي بالباطل؛ لأن حجته هي بعض الحجج التي يريد إبطال جملتها، وهذه طريق لا يركبها إلا جاهل ضعيف، أو معاند سخيف» .

٣- وعقد أبوعمر بن عبدالبر رحمه الله في كتابه: جامع بيان العلم وفضله[(١)]

(١) ١٢٢/٢.

باباً بعنوان : **إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة** ثم ساق الأدلة على ذلك من القرآن الكريم والأحاديث النبوية وأحوال الأنبياء مع أممهم، ومجادلات الصحابة رضي الله عنهم التي كانت فيما بينهم، أو بينهم وبين غيرهم من ملل الكفر وأهل البدع، وكذلك مجادلات أهل العلم من بعد الصحابة رضي الله عنهم، وقال في أثناء كلامه: «فهذا كله تعليم من الله للسؤال والجواب والمجادلة»[(١)] .

٤- وقسم أبو المعالي الجويني رحمه الله الجدل إلى محمود ومذموم، واستدل على النوعين بنصوص الكتاب والسنة، ثم قال عقب استدلاله على النوع المحمود: «وهذه الألفاظ عموم في التوحيد والشريعة، وهي أيضاً ــ سيرة الرسل عليهم السلام مع أممهم وسيرة رسولنا ﷺ، وسيرة علماء الصحابة رضي الله عنهم بعده، وَمَنْ بعدهم من التابعين وأتباعهم، إلى يومنا هذا، وعليه عادة العقلاء في أديانهم ومعاملاتهم ومعاشراتهم، ويفزع العقلاء إلى النظر والمناظرة فيما غاب عن حواسهم، فعُلِمَ صِحَّةُ النظر وكونُه طريقاً إلى العلم فيما لا يكون الحس وخبر التواتر طريقاً له[(٢)] ... حتى إن

(١) جامع بيان العلم ١٢٣/٢.

(٢) هذه من طوام المتكلمين وهي قصر إفادة العلم على الحس وخبر التواتر دون خبر الآحاد؛ لأنه ـ يفيد عندهم ـ الظن مطلقًا، فلا يعتمدونه في مسائل الاعتقاد، ومنهم من لا يعتمده مطلقاً ــ في الاعتقاد والأحكام ـ ومنهم ـ كالرازي وغيره ـ من لا يعتمد الخبر مطلقاً ـ المتواتر والآحاد ـ بل حتى نصوص القرآن الكريم؛ لأنها -كما يزعمون- أدلة لفظية لا تفيد اليقين، فلا يجعلونها عمدة في استدلالتهم، ويقدمون عليها عقلياتهم عند التعارض. وهذه البدعة لا سلف

=

من أنكر صحة النظر والمناظرة لجأ إلى النظر فيما يروم فيه بيان فساد النظر، إذ لا يجد طريقاً إلى فساده من جهة الحس والبديهة وخبر التواتر، لاشتراك العقلاء في طرق الضرورات والبدائه.

ومما يدل على حسن الجدال، بل على وجوبه من طريق المعنى: ما ثبت من وجوب معرفة الشريعة على الجملة، فرضاً على الكافة، وتفاصيلها فرضاً على الكفاية...» ثم قال رحمه الله: «فإذا رأى العالم مثله يزل ويخطئ في شيء من الأصول والفروع وجب عليه من حيث وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاؤه عن الباطل وطريقه، إلى الحق وطريقه، وطريق الرشد والصواب فيه، فإذا لجَّ في خطابه، وقوَّى على الحق شبهته، وجب على المصيب دفعه عن باطله، والكشف له عن خطئه بما أمكنه من طريق البرهان وحسن الجدال، فحصل ـ إذ ذاك ـ بينهما المجادلة، من حيث لم يجدا بداً منه في تحقيق ماهو الحق، وتمحيق ما هو الشبهة والباطل.

وصار ـ إذ ذاك ـ بهذا المعنى الجدال من آكد الواجبات، والنظر من أولى المهمات، وذلك يعم أحكام التوحيد والشريعة»[1].

= فيها من الصحابة والتابعين وأئمة الدين المهديين. وقد رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العظيم: درء تعارض العقل والنقل، وتلميذه ابن القيم في كتابه : الصواعق المرسلة ، وفي مواضع من كتبهما الأخرى.

والصحيح أن خبر الواحد المحتف بالقرائن يفيد العلم النظري الاستدلالي، ولا شك أنه دون المتواتر، ولكنه يحتج به في العقائد والأحكام، والتفريق بينهما لا دليل عليه.

(١) الكافية في الجدل ص:٢٣-٢٤.

٥–وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «السلف لم يحرموا معرفة الدليل على الخالق وصفاته وأفعاله، بل كانوا أعلم الناس بذلك، وأعرفهم بأدلة ذلك، ولا حرموا نظراً صحيحاً في دليل صحيح يفضي إلى علم نافع، ولا مناظرة في ذلك نافعة: إما لهدي مسترشد، أو لإعانة مستنجد، وإما لقطع مبطل متلدد، بل هم أكمل الناس نظراً واستدلالاً واعتباراً»[1].

وقال رحمه الله في موضع آخر[2]: «وأما جنس المناظرة بالحق، فقد تكون واجبة تارة ومستحبة أخرى».

(١) درء تعارض العقل والنقل ١٦٦/٧ بتصرف قليل .

(٢) المرجع السابق١٧٤/٧.

المطلب الثاني

النصوص والآثار التي فيها النهي عن الجدل والتحذير منه وبيان أنه طريقة للكفار والمعاندين

أولاً: نصوص القرآن الكريم:

ونصوص القرآن الكريم التي ورد فيها ذم الجدل كثيرة جداً؛ قال عبدالرحمن ابن نجم الحنبلي رحمه الله: «فأما الجدل فهو مذموم في كل موضع ذكر إلا ثلاثة مواضع»(١) وهي التي في سورة النحل [آية:١٢٥] والعنكبوت [آية:٤٦] والمجادلة [آية:١]، وقصده بهذا كل موضع ذكر فيه لفظ الجدل، وإلا فقد ورد معناه بألفاظ أخرى بعضها محمود والآخر مذموم.

والجدل المذموم في القرآن نوعان: جدل الكفار وجدل المسلمين:

الأول: جدل الكفار وهو ما كان في آيات الله (تعالى)، أو لدحض الحق، أوكان بغير حجة وبرهان، أو كان لتقرير الباطل والدفاع عنه، والدعوة إلى عودة الجاهلية. ومن أمثلة ذلك:

قوله (تعالى): ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة غافر: ٤] أي ما يدفع الحق، ويجادل فيه بعد بيانه وظهور دليله إلا الذين كفروا، أي الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه(٢).

(١) استخراج الجدل من القرآن الكريم ص :٥١.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٧٢.

وقال (تعالى): ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [سورة غافر: ٥] قال ابن كثير رحمه الله: «أي ماحلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي»[(١)].

وقال (تعالى): ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٧-٥٨]. وذلك أن قريشاً اعترضت على قوله (تعالى): ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٨] بأن اليهود يعبدون عزيراً والنصارى يعبدون المسيح، واعتراضهم مجرد مماراة، لأنهم يعلمون أن الآية لما لا يعقل: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله ﴾ وهي ــ أيضاً ــ خطاب لقريش وقد كانوا يعبدون الأصنام والأنداد لم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوا هذا الاعتراض، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدونها[(٢)].

وقال (تعالى) :﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة الشورى:١٦] قال مجاهد: هم المشركون طمعوا أن تعود الجاهلية بعد إجابة الناس إلى الإسلام، فخصومتهم باطلة[(٣)].

وقال (تعالى): ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [سورة الحج: ٨]. وقال (تعالى): ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٧٢ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٤/١٣٣-١٣٤ .

(٣) انظر : زاد المسير ٧/٢٧٩-٢٨٠ .

﴿إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سورة لقمان: ٢٠-٢١] فهؤلاء ليس معهم نقل صحيح ولا عقل صريح، ولا اقتداء بالمهديين، بل مجرد الهوى: استكباراً عن الحق ومتابعته، وتقليداً لآبائهم الضالين. قال ابن تيمية رحمه الله: «كل من جادل في الله بغير هدى ولا كتاب منير فقد جادل بغير علم - أيضاً - فنفي العلم يقتضي نفي كل ما يكون علماً بأي طريق حصل، وذلك ينفي أن يكون مجادلاً بهدى أو كتاب منير، لكن هذه حال الضال المتبع لمن يضله... وهي حال مقلد أئمة الضلال من أهل الكتاب وأهل البدع، فإنهم يجادلون في الله بغير علم ويتبعون من شياطين الجن والإنس من يضلهم»[1].

وقال (تعالى): ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة غافر: ٣٥]. فالجدال بغير حجة وصف لازم لكل من يعارض الحق؛ لأن الحق لا يعارضه شيء: لا شرعي ولا عقلي ولا حسي[2].

وقال (تعالى): ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [سورة الأعراف: ٧١] وهم إنما جادلوا دفاعاً عن الأصنام التي عبدوها وآباؤهم من دون الله (تعالى)، مع أنها لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لهم على عبادتها حجة ولا دليلاً[3].

الثاني: جدل المسلمين، ولذلك أمثلة، منها:

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٢٦٥/٥ (بتصرف).
(٢) تفسير السعدي ٣٦٤/٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٢١٥/٢.

قوله (تعالى): ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٠٧-١٠٩] وذكر في سبب نزولها أن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ فسرقت درع لأحدهم، فاتهموا بها رجلاً من الأنصار، وبلغ خبره النبي ﷺ، فلما علم الأنصاري ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل بريء، وجاءت عشيرته إلى النبي ﷺ يجادلون عن صاحبهم، ويطلبون من النبي ﷺ أن يجادل عنه ويعذره على رؤوس الناس، ففعل، فنزلت الآية(١).

وقال (تعالى): ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٥-٦]. فيها قولان: أحدهما: قول ابن عباس والجمهور، وهو أن الآية نزلت في طائفة من المسلمين أخذوا يجادلون طلباً للرخصة في ترك القتال؛ إذ أنهم لم يكونوا قد خرجوا للقاء العدو. والثاني: أن الآية في المشركين، وجدالهم إنما في التوحيد لا في القتال(٢).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٥٢٢/١ ، وزاد المسير ١٩٣/٢.

(٢) انظر: زاد المسير ٣٢٣/٣ .

وقال (تعالى) :﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [سور البقرة: ١٩٧]. وفي تفسيرها قولان(١):

أحدهما: المراد أنه لا جدال في وقت الحج ومناسكه بعد أن بينها ا لله (تعالى) أتم البيان. قاله مجاهد وغيره. قال مالك بن أنس رضي ا لله عنه: «والجدال في الحج أن قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة بقُزَح وكانت العرب وغيرهم يقفون بعرفة، فكانوا يتجادلون؛ يقول هؤلاء: نحن أصوب، ويقول هؤلاء: نحن أصوب، فقال ا لله (تعالى): ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ*وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الحج: ٦٧-٦٨] فهذا الجدال فيما نرى وا لله أعلم، وقد سمعت ذلك من أهل العلم»(٢).

الثاني: الجدال بمعنى مخاصمة الأخ لأخيه في الحج ومماراته حتى يغضبه. قاله ابن مسعود وابن عباس رضي ا لله عنهما.

ثانياً: نصوص السنة النبوية

١- عن أبي أمامة قال: قال رسول ا لله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم قرأ :﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٨]»(٣).

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢٢٦/١ والقرطبي ٤١٠/٢.
(٢) الموطأ ٣٨٩/١.
(٣) مسند الإمام أحمد ٢٥٦،٢٥٢/٥ وانظر: سنن ابن ماجه ١٩/١ المقدمة ح : ٤٨. وسنن الترمذي ٦/٩-٧ أبواب التفسير - تفسير سورة الزخرف ح : ٣٢٥٠ وقال : هذا حديث حسن صحيح، إنما نعرفه من حديث حجاج بن دينار، وحجاج ثقة مقارب الحديث ... وحسَّنه الألباني في صحيح ابن ماجه ١٥/١ ح: ٤٥ .

٢- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران: ٧] فقال: يا عائشة، إذا رأيتم الذين يجادلون فيه، فهم الذين عناهم الله فاحذروهم»[١].

٣- وروى أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جدال في القرآن كفر»[٢]. ولعل هذا هو الذي جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «إنه سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله»[٣].

---

(١) سنن ابن ماجه ١/١٨-١٩ ح: ٤٧ المقدمة، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١/١٤-١٥ وهذه الرواية هي التي جاء فيها لفظ الجدال. وانظر: صحيح البخاري ٢٠٩/٨ (فتح الباري) كتاب التفسير ـ باب ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ...﴾[آل عمران:٧] ح: ٤٥٤٧، وصحيح مسلم ٢٠٥٣/٤ كتاب العلم ـ باب النهي عن اتباع متشابه القرآن ... ح: ٢٦٦٥، وسنن أبي داود ٦/٥ كتاب السنة ـ باب النهي عن الجدال واتباع المتشابه من القرآن ح: ٤٥٩٨، وسنن الترمذي ١٧٧/٨-١٧٨ أبواب التفسير ـ سورة آل عمران ح: ٢٩٩٦ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٥٨/٢، ٤٧٨، ٤٩٤.

(٣) سنن الدارمي ٤٩/١ المقدمة.

٤- وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها ترفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[(١)] قال البخاري: الألد الخصم: وهو الدائم في الخصومة، لُدًّا : عوجا ، أَلَـدُّ: أعوج. وقال الحافظ ابن حجر: يحتمل أن يكون المراد: الشديد الخصومة[(٢)] وقال محمد بن كعب: الألد: الكذاب. قال ابن حجر: وكأنّه أراد أن من يكثر المخاصمة يقع في الكذب كثيراً[(٣)].

٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»[(٤)].

ثالثاً: نصوص أهل العلم في النهي عن الجدال

١- عن فاطمة بنت الحسين عن علي رضي عنهم قال: «إياكم والخصومة، فإنها تمحق الدين»[(٥)].

---

(١) صحيح البخاري ٨/١٨٨ (فتح الباري) كتاب التفسير ــ باب ﴿وهو ألد الخصام﴾[البقرة:٢٠٤] ح: ٤٥٢٣، و ١٣/١٨٠ كتاب الأحكام ـ باب الألد الخصم ح: ٧١٨٨، وصحيح مسلم ٤/٢٠٥٤ كتاب العلم ـ باب في الألد الخصم ٢٦٦٨.
(٢) فتح الباري١٣/١٨٠، وانظر النهاية لابن الأثير ٤/٢٤٤.
(٣) فتح الباري ١٣/١٨١.
(٤) صحيح البخاري١٣/٢٥١ (فتح الباري) كتاب الاعتصام ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ح: ٧٢٨٨.
(٥) شرح السنة ـ اللالكائي ١/١٢٧ برقم: ٢١١.

٢- قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم بما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات»[(١)]. وقال - أيضاً-: «ما اجتمع رجلان يختصمان فافترقا حتى يفتريان على الله عز وجل»[(٢)].

٣- وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه: «لا تنقضي الدنيا حتى تكون خصومات الناس في ربهم»[(٣)].

٤- وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: «من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل»[(٤)].

٥-وجاء رجل إلى الحسن البصري رحمه الله فقال: «يا أبا سعيد، تعال أخاصمك في الدين، فقال الحسن: أما أنا فقد أبصرت ديني، فإن كنت أضللت دينك فالتمسه»[(٥)].

٦-وقال أبو العالية (٩٠أو٩٣هـ) رحمه الله: «آيتان في كتاب الله ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة غافر: ٤]، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [سورة البقرة: ١٧٦]»[(٦)].

---

(١) شرح السنة - اللالكائي ١/١٢٧ برقم : ٢١٢ .

(٢) الإبانة - ابن بطة ٢/٥١٩ برقم : ٦١٣ .

(٣) شرح السنة ١/١٢٧ برقم : ٢١٣ والإبانة - ابن بطة ٢/٥٢١ وجامع بيان العلم ٢/١١٤.

(٤) الشريعة - الآجري ص : ٥٦ . وجامع بيان العلم ٢/١١٣. والإبانة ٢/٥٠٣ برقم : ٥٦٥ وسنن الدارمي ١/٩١ باب من قال العلم الخشية وتقوى الله، والحجة ٢/٤٥٥برقم : ٤٧٧ وشرح السنة ١/١٢٨ برقم: ٢١٦ .

(٥) الشريعة - الآجري ص : ٥٧ ، والإبانة - ابن بطة ٢/٥٠٩، وشرح السنة ١/١٢٨ برقم : ٢١٥ .

(٦) الإبانة - ابن بطة ٢/ ٤٩٤، والدر المنثور ١/١٦٩.

٧-وقال جابر: قال لي أبو جعفر الباقر (١١٤هـ): يا جابر، لا تخاصم، فإن الخصومة تكذب القرآن[١].

٨-وقال العوام بن حوشب: سمعت إبراهيم النخعي يقول في قوله عز وجل: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [سورة المائدة: ١٤] قال: أغرى بعضهم ببعض في الخصومات والجدال في الدين[٢].

٩-وقال أبوالزناد (١٣١هـ): «وهل هلك أهل الأهواء وخالفوا الحق إلا بأخذهم بالجدل والتفكير في دينهم، فهم كل يوم على دين ضلال وشبهة جديدة، لا يقيمون على دين، وإن أعجبهم، إلا نقلهم الجدل والتفكير إلى دين سواه، ولو لزموا السنن وأمر المسلمين وتركوا الجدل لقطعوا عنهم الشك»[٣].

١٠-وقال الأوزاعي رحمه الله: «بلغني أن الله إذا أراد بقوم شراً ألزمهم الجدل ومنعهم العمل». وروي مثله عن بكر بن نصر، ونحوه عن معروف[٤].

١١-وقيل لمالك بن أنس رحمه الله: يا أبا عبدالله، الرجل يكون عالماً بالسنة، أيجادل عنها؟ قال: لا ولكن يخبر بالسنة، فإن قبلت منه، وإلا

---

(١) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٤٩٥ رقم: ٥٤٢.

(٢) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٥٠٠، ٥٠١ رقم: ٥٥٨، ٥٥٩، وجامع بيان العلم ٢/١١٤.

(٣) الحجة ـ الأصبهاني ١/٢٨٣-٢٨٤ وانظر: الإبانة ـ ابن بطة ٢/٥٣٢ برقم: ٦٥٨.

(٤) انظر: الإبانة ـ ابن بطة ٢/٥١٠ تر: ٥٨٩، والحجة ٢/٤٥٥.

سكت[١]. وذكر رحمه الله الجدال في الدين فأنكره ونهى عنه، وقال: «أوكلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ»[٢].

١٢- قال محمد بن الحسين الآجري رحمه الله بعد أن ساق طائفة من النصوص التي فيها النهي عن الجدال والمراء في الدين، قال: «لما سمع هذا أهل العلم من التابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين لم يتماروا في الدين، ولم يجادلوا، وحذروا المسلمين المراء والجدل، وأمروهم بالأخذ بالسنن، وبما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وهذا طريق أهل الحق ممن وفقه الله عز وجل»[٣].

(١) جامع بيان العلم ٢/١١٥، وانظر: رسالة السجزي إلى أهل زبيد ص: ٢٣٥.

(٢) الحجة ٢/٤٥٤-٤٥٥ برقم: ٤٧٦.

(٣) الشريعة ص: ٥٥-٥٦ .

المطلب الثالث
التحقيق في المسألـة

تقدم أن الجدل نوعان: محمود ومذموم، وعليه فالنصوص والآثار التي ورد فيها الأمر بالجدل والحث عليه تحمل على النوع المحمود. وأما النصوص والآثار التي ورد فيها النهي عن الجدل وذمه والتحذير منه، فتحمل على النوع المذموم، وعندئذ نكون آمنا بالكتاب كله، وأعملنا الأدلة جميعها، إذ لا تعارض بين نصوص الكتاب والسنة، ولهذا من تأمل نصوص النهي وجد علة النهي بارزة:

أما نصوص القرآن الكريم فقد ذمت جدل الكفار وأهل الضلال في آيات الله، أو الجدل لدحض الحق، أو بغير حجة ولا علم، أو لتقرير الدين الباطل والدفاع عنه، أو الجدل بعد بيان الحق وظهوره.

أما نصوص السنة؛ فقد ذمت الجدل الذي يكون سبباً في تحول المؤمنين إلى الضلال بعد الهدى، أو الجدل الذي يُتتبع به الآيات المتشابهات ومعارضة المحكمات بها ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها على غير مراد الشارع، مما يقتضي التكذيب ببعض النصوص، ونهت عن الجدل الذي يكون مماراة وخصومة شديدة في وجه أهل الحق، أو سبباً للفرقة والاختلاف والتنازع المذموم.

وعلى هذا ونحوه يتنزل ما ورد عن السلف والأئمة من الذم والنهي عن الجدل؛ فمقصودهم: ذم الجدل على طريقة أهل الأهواء، وما كان سبباً لإثارة العصبية والفرقة بين المؤمنين، ثم التكفير والاقتتال؛ لأن في ذلك هلاك الأمة كما هلكت الأمم قبلها. ونهوا عن الجدل الذي يشكك في الثوابت، ويدعو للتنقل بين الأهواء والبدع طلباً ـ فيما يزعم المجادل ـ للحق، لكنه لا يستقر على شيء، بل هو كل يوم على دين جديد، ولو جادله نصراني أو يهودي فقطعه لتحول إلى دينه؛ لأن الحق عنده مع من غلب، أي كان شديد الخصومة، ونهوا عن الجدل الذي يؤدي إلى التكذيب بالقرآن وأحكامه؛ لأنه ما ابتدع أحد بدعة إلا كذّب ببعض النصوص التي لا توافقه، فسائر البدع تقوم على التفريق بين النصوص في الإيمان بها والإذعان لها، ونهوا عن الجدل على سبيل التعمق والتنقير والأغاليط والمماراة لأهل العلم. يقول ابن بطة رحمه الله عن الجدل المذموم: «إنما هو لهو يُتعلّم، ودراية يُتفكّه بها، ولذة يُستراح إليها، ومهارشة العقول، وتذريب اللسان بمحق الأديان، وضرواة على التغالب واستمتاع بظهور حجة المخاصم، وقصد إلى قهر المناظر، والمغالطة في القياس، وبهت في المقاولة، وتكذيب الآثار، وتسفيه الأحلام الأبرار، ومكابرة لنص التنزيل، وتهاون بما قاله الرسول، ونقض لعقدة الإجماع، وتشتيت الألفة، وتفريق لأهل الملة، وشكوك تدخل على الأمة، وضراوة السلاطة، وتوغير القلب، وتوليد للشحناء في النفوس، عصمنا الله وإياكم من ذلك، وأعاذنا من مجالسة أهله»[1].

---

(١) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٥٣١-٥٣٢.

وعلى كل حال، فالسلف والأئمة نهوا عن الجدل بين المسلمين على طريقة أهل الأهواء والبدع، وهذا يدخل ضمن معاملة السلف والأئمة لأهل البدع من الهجر والزجر وترك مفاتحتهم ومجالستهم ومجادلتهم، على ما سيأتي بيانه عند الحديث عن حكم مناظرة أهل البدع، إن شاء الله.

نصوص العلماء المحققين في هذه المسألة:

١- قول أبي محمد بن حزم رحمه الله، وذلك عند قوله تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة الشورى: ١٥-١٦] قال: «وهذه الآية مبينة وجه الجدال المذموم، وهو قوله (تعالى) فيمن يحاج بعد ظهور الحق، وهذه صفة المعاند للحق، الآبي من قبول الحجة بعد ظهورها، وهذا مذموم عند كل ذي عقل، ومنها قوله (تعالى): ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٨].

قال أبو محمد: وإنما ذم (تعالى) في هذه الآية من خاصم وجادل في الباطل وعارض الآلهة التي كانوا يعبدون من حجارة لا تعقل بعيسى النبي العبد المؤيَّد بالمعجزات من إحياء الموتى وغير ذلك. ومنها قوله (تعالى): ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ [سورة الشورى: ٣٥] ومنها قوله (تعالى): ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠].

قال أبو محمد: قال (تعالى): ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

[سورة النساء: ٨٢] فصح بهذه الآية أن كلام الله (تعالى) لا يتعارض ولا يختلف، فوجدناه (تعالى) أثنى على الجدال بالحق، وأمر به، فعلمنا يقيناً أن الذي أمر به (تعالى) هو غير الذي نهى عنه بلا شك، فنظرنا في ذلك لنعلم وجه الجدال المنهي عنه المذموم، ووجه الجدال المأمور به المحمود؛ لأنا قد وجدناه (تعالى) قد قال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سورة فصلت: ٣٣] ووجدناه (تعالى) قد قال: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة النحل: ١٢٥]. فكان (تعالى) قد أوجب الجدال في هذه الآية، وعلّم فيها (تعالى) جميع آداب الجدال كلها من الرفق والبيان، والتزام الحق، والرجوع إلى ما أوجبته الحجة القاطعة...» ثم ذكر رحمه الله الآيات التي فيها الأمر بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام واتباع ملته، وأن من ملته المناظرة والمحاجة. ثم قال رحمه الله: «فلما وجدنا الله (تعالى) أمر في الآيات ـ التي ذكرنا ـ بالحجاج والمناظرة، ولم يوجب قبول شيء إلا ببرهان، وجب علينا تطلب الحجاج المذموم على ما قدمنا، فوجدناه قد قال: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [سورة الكهف: ٥٦] فذم (تعالى) -كما ترى- الجدال بغير حجة والجدال في الباطل... وقال (تعالى): ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: ٣٥] فقد جمعت هذه

الآيات بين الجدال المذموم والجدال المحمود الواجب، فالواجب هو الذي يجادل متوليه في إظهار الحق، والمذموم وجهان بنص الآيات التي ذكرنا: أحدهما من جادل بغير علم. والثاني: من جادل ناصراً للباطل بشغب وتمويه بعد ظهور الحق إليه...»(١).

٢- قول الخطيب البغدادي رحمه الله، وذلك بعد أن أورد حجج من ذهب إلى إبطال الجدل، فقال رحمه الله: «فنظرنا في كتاب الله (تعالى) وإذا فيه ما يدل على الجدال والحجاج؛ فمن ذلك قوله (تبارك وتعالى): ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] فأمر الله رسوله في هذه الآية بالجدال، وعلمه منها جميع آدابه؛ من الرفق والبيان والتزام الحق والرجوع إلى ما أوجبته الحجة». ثم ذكر رحمه الله طائفة من الآيات التي فيها الأمر بالجدال، وحكاية الاحتجاج على نحو ما تقدم عن ابن حزم رحمه الله، ثم قال: «وكتاب الله تعالى لا يتعارض، ولا يختلف؛ فتضمن الكتاب ذم الجدال والأمر به، فعلمنا علماً يقيناً أن الذي ذمّه غير الذي أمر به، وأن من الجدال ما هو محمود مأمور به، ومنه ما هو مذموم منهي عنه، فطلبنا البيان لكل واحد من الأمرين، فوجدناه (تعالى) قد قال: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [سورة الكهف: ٥٦] وقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة غافر: ٣٥] فبين الله في هاتين الآيتين الجدال المذموم،

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١/١٩-٢٣.

وأعلمنا أنه الجدال بغير حجة، والجدال في الباطل. فالجدال المذموم وجهان: أحدهما: الجدال بغير علم، والثاني : الجدال بالشغب والتمويه نصرةً للباطل بعد ظهور الحق وبيانه؛ قال الله تعالى:﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [سورة غافر: ٥].

أما جدال المحقين فمن النصيحة في الدين، ألا ترى إلى قوم نوح عليه السلام حيث قالوا :﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جدالنا﴾ [سورة هود: ٣٢] وجوابه لهم: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [سورة هود: ٣٤] وعلى هذا جرت سنة رسول الله ﷺ ...». ثم ساق طائفة من الأحاديث في بيان مشروعية الجدال، ثم أردف ذلك ببعض أقوال الصحابة وأحوالهم في ذلك، ثم قال رحمه الله: «وما أنكر أحد من الصحابة قط الجدال في طلب الحق، وأما التابعون ومن بعدهم فتوسعوا في ذلك، وثبت أن الجدال المحمود هو طلب الحق ونصره، وإظهار الباطل وبيان فساده، وأن الخصام بالباطل هو اللدد ...»[(١)].

٣- قول أبي الوليد الباجي، قال رحمه الله: «وقد نطق الكتاب بالمنع من الجدل لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده، فقال (تعالى): ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ علم﴾ [سورة آل عمران: ٦٦] وقد ورد الأمر به لمن علم وأتقن، فقال (تعالى): ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٤][(٢)].

(١) الفقيه والمتفقه ١/٢٣٠-٢٣٥ .

(٢) المنهاج في ترتيب الحجاج ص : ٨.

٤- قول أبي المعالي الجويني. قال رحمه الله: «ثم من الجدل ما يكون محموداً مرضياً، ومنه ما يكون مذموماً محرماً؛ فالمذموم منه ما يكون لدفع الحق، أو تحقيق العناد، أو ليُلْبِس الحق بالباطل، أو لما لا يطلب به تعرُّف ولا تقرُّب، أو للمماراة وطلب الجاه والتقدم، إلى غير ذلك من الوجوه المنهي عنها، وهي التي نص الله (سبحانه) في كتابه على تحريمها فقال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٨] وقال (تعالى): ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [سورة الكهف: ٥٤] وغيرهما من الآيات، وفي مثله قال ﷺ: «دع المراء وإن كنت محقاً»[(١)] وهذا فيمن خرج عن أدب الجدل، أو لم يقطع اللجاج بعد ظهور الحق كدأب الكفار مع الرسل.

وأما الجدال المحمود والمدعو إليه، فهو الذي يحقق الحق ويكشف عن الباطل، ويهدف إلى الرشد مع من يرجى رجوعه عن الباطل إلى الحق، وفيه قال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ

---

(١) الحديث في سنن الترمذي ٢٠٧/٦-٢٠٨ أبواب البر والصلة ـ باب ما جاء في المراء عن أنس بن مالك بلفظ : " من ترك الكذب وهو باطل بني له في ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها..." ح : ١٩٩٤ قال أبو عيسى : وهذا الحديث حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن وردان عن أنس بن مالك. وفي سنن أبي داود ١٥٠/٥ كتاب الأدب باب في حسن الخلق ح : ٤٨٠٠ عن أبي أمامة بلفظ " أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً..." وفي سنن أبي ماجة ١٩/١-٢٠ المقدمة رقم : ٥١ من حديث أنس بنحو رواية الترمذي .

أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] وقال لرسوله: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة: ١١١] وقال الطَّيِّلاً : " يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين،وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"[١] »[٢] .

٥- قول ابن عقيل، قال رحمه الله: «وكل جدل لم يكن الغرض فيه نصرة الحق، فإنه وبال على صاحبه، والمضرة فيه أكثر من المنفعة؛ لأن المخالفة توحش، ولولا ما يلزم من إنكار الباطل، واستنقاذ الهالك بالاجتهاد في رده عن ضلالته، لما حسنت المجادلة للإيحاش فيها غالباً، ولكن فيها أعظم المنفعة إذا قصد بها نصرة الحق والتقوي على الاجتهاد؛ ونعوذ بالله من قصد المغالبة وبيان الفراهة»[٣] .

٦- قول أبي عبدالله القرطبي، قال رحمه الله وذلك عند تفسير قوله (تعالى): ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة ٣٧/١، وابن عساكر في تاريخه ٤٦٣/٢-٤٦٤، والعقيلي في الضعفاء الكبير ٩/١-١٠، وابن عبد البر في التمهيد ٥٩/١، وابن عدي في الكامل ١٥٢/١-١٥٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٤٠/١ ونسبه إلى البزار، وفيه عمرو بن خالد القرشي، كذبه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ونسبه إلى الوضع. ورواه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث ص : ٢٨-٢٩ برقم : ٥٢-٥٥ وروى الخطيب عن ابن يحيى قال : سألت أحمد ـ يعني ابن حنبل ـ عن حديث معان بن رفاعة : يحمل هذا العلم... الحديث فقلت لأحمد: كأنه كلام موضوع. قال : لا، هو صحيح. فقلت : ممن سمعته أنت؟ قال : من غير واحد. قلت : من هم . قال : حدثني به مسكين، إلا أنه يقول معان عن القاسم بن عبد الرحمن قال أحمد : معان بن رفاعة لا بأس به .انظر ص : ٢٩ من شرف أصحاب الحديث .

(٢) الكافية في الجدل ص :٢٢-٢٣ .

(٣) انظر : شرح الكوكب المنير ص : ٣٧٢ .

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تعلمون﴾ [سورة آل عمران: ٦٦]: «في الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده، فقال عز وجل: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [سورة آل عمران: ٦٦]. وقد ورد الأمر بالجدال لمن علم وأيقن، فقال (تعالى): ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] وروي عن النبي ﷺ أنه أتاه رجل أنكر ولده، فقال:" يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاما أسود. فقال رسول الله ﷺ : هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: ما ألوانها؟ قال: حُمْرٌ. قال: هل فيها من أَوْرَق؟ قال: نعم. قال: فمن أين ذلك؟ قال: لعل عرقاً نزعه. فقال رسول ﷺ: وهذا الغلام لعل عرقاً نزعه"(١) وهذا حقيقة الجدال ونهايةٌ في تبيين الاستدلال من رسول الله ﷺ»(٢).

٧-قول أبي عبدا لله الفخر الرازي، قال رحمه الله عند قوله (تعالى): ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة غافر:٤] : «الجدال نوعان: جدال في تقرير الحق، وجدال في تقرير الباطل، أما الجدال في تقرير الحق فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام قال (تعالى) لمحمد ﷺ: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

---

(١) بنحوه في صحيح البخاري ٤٤٢/٩ (فتح الباري) كتاب الطلاق ـ باب إذا عرّض بنفي الولد ح : ٥٣٠٥ و١٧٥/١٢ كتاب الحدود ـ باب ما جاء في التعريض ح : ٦٨٤٧ ، و٢٩٦/١٣ كتاب الاعتصام ـ باب من شبّه أصلا معلوما بأصل مبين ... ح : ٧٣١٤ . وصحيح مسلم ١١٣٧/٢ كتاب اللعان ح : ١٥٠٠ وما يليه.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠٨/٤-١٠٩ .

[سورة النحل: ١٢٥] وقال حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح عليه السلام: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [سورة هود: ٣٢].

وأما الجدال في تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد بهذه الآية» ثم ساق آيات أخرى في نفس المعنى، ثم قال رحمه الله: «واعلم أن لفظ الجدال في الشيء مشعر بالجدال الباطل، ولفظ الجدال عن الشيء مشعر بالجدال لأجل تقريره والذب عنه». وقال ـ أيضاً ـ عند تفسير قوله (تعالى): ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [سورة الزخرف: ٥٨]: «القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية، إلا أنا قد ذكرنا في تفسير قوله (تعالى): ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة غافر: ٤] أن الآيات الكثيرة دالة على أن الجدل موجب للمدح والثناء. وطريق التوفيق أن تصرف تلك الآيات إلى الجدل الذي يفيد تقرير الحق، وأن تصرف هذه الآية إلى الجدل الذي يوجب تقرير الباطل»[١].

٨- قول أبي العباس أحمد بن تيمية، قال رحمه الله: «أما جنس النظر والمناظرة، فهذا لم ينه السلف عنه مطلقاً، بل هذا ـ إذا كان حقاً ـ يكون مأموراً به تارة ومنهياً عنه أخرى، كغيره من أنواع الكلام الصدق، فقد ينهى عن الكلام الذي لا يفهمه المستمع، أو الذي يضر المستمع، وعن المناظرات التي تورث شبهات وأهواء، فلا تفيد علماً ولا ديناً»[٢].

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/٢٩، ٢٢٢.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٧/١٨٤.

٩- قول محمد بن علي الشوكاني، قال رحمه الله عند تفسير قوله (تعالى): ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة غافر: ٤]: «قال: أي ما يخاصم في دفع آيات الله وتكذيبها إلا الذين كفروا، والمراد الجدال بالباطل والقصد إلى دحض الحق كما في قوله: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [سورة غافر: ٥] فأما الجدال لاستيضاح الحق ورفع اللبس والبحث عن الراجح والمرجوح وعن المحكم والمتشابه ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، وردهم بالجدال إلى المحكم، فهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون...»[١].

---

(١) فتح القدير ٤/٤٨١ .

المبحث الثاني
حكم مناظرة الكفار والمشركين

إن ا لله (تعالى) أرسل رسله لهداية الخلق وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ووسيلة ذلك أن يخاطب كلُّ رسول قومه بما يحسنونه من لغة التخاطب؛ قال (تعالى): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [سورة إبراهيم: ٤].

وهذا الخطاب يتم بطرق ثلاث ذكرها ا لله (تعالى) في قوله:﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

فالدعوة بالحكمة تقتضي الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبدء بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الذهن والفهم، وبما يكون قبوله أتم وأكمل، وبالرفق واللين، كما قال(تعالى) لموسى (عليه السلام) في خطابه لفرعون﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [سورة طه: ٤٤].

فإذا انقاد المدعو بالحكمة، وإلا يُنتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقترن بالترغيب والترهيب؛ إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وبما تشتمل عليه النواهي من المضار، وإما بذكر ما أكرم ا لله به المستجيبين لدين ا لله (تعالى) وأهان به المعرضين عنه، وإما بذكر ما أعده ا لله (تعالى) للطائعين من الثواب وما أعده للعاصين من العقاب.

فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق، أو كان داعية إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطريق التي تكون أدعى لاستجابته نقلاً

وعقلاً، ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي يُسلِّم بها؛ فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها[١].

فاستعمال الجدل والمناظرة في دعوة الكفار والمشركين أمر مهم، لا سيما إذا عرفنا أن الإنسان مجبول على الجدال والمخاصمة والمدافعة كما قال (تعالى): ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [سورة الكهف: ٥٤] فكثير من الناس قد لا ينقاد بمجرد الموعظة البليغة والدعوة الحكيمة، بل يحتاج إلى جدال ومناظرة لنزع ما في نفسه من موروث التبعية والتقليد للآباء والإعجاب بالقديم العتيق، كما قال (تعالى): ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [سورة لقمان: ٢٠- ٢١] .

وربما يظن بعضهم في نفسه معرفة بالمقاييس العقلية والمنطلقات العلمية، فيزعم أن اعتقاده مؤسس على علم وفهم، ثم ما يلبث أن يكتشف أنه مجرد ظنون وأوهام؛ قال (تعالى) ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [سورة الجاثية: ٢٤]. إلى غير ذلك من الدوافع التي تقدم ذكرها في أنواع الجدل المذموم.

فاحتاج الرسل في دعوتهم الكفار والمشركين إلى الجدل إما لإرشاد ضال، أو تثبيت متردد، أو إلزام منكر، أو قطع معاند، أو إفحام مبطل

(١) انظر : تفسير السعدي ٣/٩٢-٩٣ .

متلدد. فهو أحد طرق الرسل في الدعوة إلى الله (تعالى)، والقرآن الكريم حافل بمجادلات الأنبياء لأقوامهم. وستأتي نماذج من ذلك في هذا الباب إن شاء الله.

فجدال الكفار والمشركين أمر مشروع وهو يتردد بين الاستحباب والوجوب بحسب الحال وقيام المقتضي؛ قال ابن تيمية رحمه الله: «وأما جنس المناظرة بالحق، فقد تكون واجبة تارة ومستحبة أخرى»[(١)].

وأدلة كون الجدل أحد طرق الرسل والأنبياء في إقامة الحجة على الكفار والمشركين كثيرة جداً، وقد تقدم طرف منها، وإليك نماذج أخرى:

أولاً: قوله (تعالى): ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] في المشار إليهم في هذه الآية قولان: أحدهما: أنهم أهل مكة من الكفار والمشركين. والثاني: أنهم أهل الكتاب[(٢)].

وقوله: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فيه ثلاثة أقوال[(٣)]:

١- جادلهم بالقرآن. قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

٢- جادلهم بلا إله إلا الله. قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

٣- جادلهم غير فظ ولا غليظ، وأَلِنْ لهم جانبك، قاله الزجاج.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١٧٤/٧ .

(٢) زاد المسير ٥٠٦/٤.

(٣) المرجع السابق.

وقال عبدالرحمن بن نجم الحنبلي رحمه الله في هذه الآية: «فيحتمل أن يكون المراد بالأحسن الأظهر من الأدلة، ويحتمل بالتعجيز عن الإتيان بمثل القرآن؛ لأنه أحسن الأدلة نظاماً وبياناً، وأكملها حسناً وإحساناً... ويحتمل بالإصغاء إلى شبههم، والرفق بهم في حلّها ودحضها، ويحتمل بترك الغلظة عليهم في حال جدالهم، لتكون الحجة عليهم أظهر والجحد منهم أنكد، وهي سنة الأنبياء عليهم السلام مع الأمم عند الدعوة والمجادلة، من ذلك لمَّا قالوا لمحمد ﷺ مجنون. قال ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[الأعراف:١٨٨] أي جنون، من غير أن يقابلهم على ذلك بقول خشن مع النخوة العربية والعزة الهاشمية...» ثم ذكر نماذج من ذلك لنوح وصالح وهود عليهم السلام ثم قال: «فلو قابلهم الأنبياء بغلظة لنفرت طباعهم وانصرفت عقولهم عن التدبر لما قالوا، والتدبر لما جاءوا به من البينات، فلم تتضح لهم المحجة، ولم تقم عليهم الحجة. وشاهد هذه الحالة قوله (تعالى):﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٦]»[(١)].

وذكر بعض العلماء من المفسرين[(٢)] أن الأمر بمجادلة الكفار والمشركين وأهل الكتاب منسوخ بآية السيف، وقد أجاب على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في قوله: «فإن من الناس من

(١) استخراج الجدل ص:٥٢-٥٥.

(٢) انظر : تفسير القرطبي١٠/٢٠٠ ، ١٣/٣٥٠-٣٥١ ، وتفسير ابن كثير ٣/٤٠١ .

يقول: آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف، لاعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافي المجادلة وهذا غلط...» ثم أفاض رحمه الله في بيان الجواب، بما ملخصه(١):

أن النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضاً للحكم المنسوخ كمناقضة الأمر باستقبال المسجد الحرام في الصلاة للأمر باستقبال بيت المقدس بالشام، فأما قوله (تعالى): ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦] فهذا لا يناقضه الأمر بجهاد من أمر بجهاده منهم، ولكن الأمر بالقتال يناقض النهي عنه والاقتصار على المجادلة. فأما مع إمكان الجمع بين الجدال المأمور به والقتال المأمور به، فلا منافاة بينهما، ومن ثم لم يجز الحكم بالنسخ، ومعلوم أن كلاً منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر، ويتبين ذلك من وجوه :

١- أن من كان من أهل الذمة والعهد والأمان لا يجاهد بالقتال، فهو داخل فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتي هي أحسن.

٢- أنه (تعالى) قال: ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ فالظالم لم يؤمر بجداله بالتي هي أحسن، فمن كان ظالماً مستحقاً للقتال غير طالب للعلم والدين، فهو من هؤلاء الظالمين الذين لا يُجَادَلون بالتي هي أحسن، بخلاف غيره.

---

(١) انظر : الجواب الصحيح - ابن تيمية ٢١٨/١ وما بعدها .

٣- أنه سبحانه قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [سورة التوبة: ٦] فهذا مستجير مستأمن وهو من أهل الحرب، أمر الله بإجارته حتى تقوم عليه حجة الله، ثم يبلغ مأمنه، قال رحمه الله: «وإذا كان النبي ﷺ يحاج الكفار بعد نزول الأمر بالقتال، وقد أمره الله (تعالى) أن يجير المستجير حتى يسمع كلام الله ثم يبلغه مأمنه، والمراد بذلك [تبليغه][1] رسالات الله وإقامة الحجة عليه، وذلك قد لايتم إلا بتفسيره له، الذي تقوم به الحجة، ويجاب به عن المعارضة، وما لايتم الواجب إلا به فهو واجب، علم بطلان قول من ظن أن الأمر بالجهاد ناسخ للأمر بالمجادلة مطلقاً»[2].

٤- أن يقال: إن المنسوخ هو الاقتصار على الجدال؛ لأنه ﷺ كان أول الأمر مأموراً بالجهاد باللسان فقط، والكف عن القتال حتى تمكن فأذن له فيه، ثم أوجب الله ذلك، أما مجاهدة الكفار باللسان، فما زال مشروعاً من أول الأمر إلى آخره.

٥- أنه من المعلوم أن القتال إنما شرع للضرورة، فلو آمن الناس بالبرهان والآيات، لما احتيج إلى قتالهم، فبيان آيات الإسلام وبراهينه واجب مطلقاً وجوباً أصلياً، وأما الجهاد فمشروع للضرورة، فكيف يكون هذا مانعاً من هذا.

---

(١) في الأصل: [تبليغ] وما أثبته موجود في إحدى نسخ الكتاب كما أشار إليه المحقق، ولعله الصحيح .

(٢) الجواب الصحيح ١/٢٣١-٢٣٢ .

٦- أن القتال لايكون إلا لظالم، كمن قاتل المسلمين، أو قامت عليه الحجة فشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى. وأما المجادلة فقد تكون لظالم كالطاعن في الدين، والممتنع عن قبول الحجة الظاهرة عليه، وقد تكون لمسترشد طالب حق لم يبلغه. فإذا كان القتال الذي لا يكون إلا لدفع ظلم المقاتل مشروعاً، فالمجادلة التي تكون لدفع ظلمه ولانتفاعه، وانتفاع غيره مشروعة بطريق الأولى.

٧- أن كثيراً من أهل الكتاب يزعم أن محمداً ﷺ وأمته إنما أقاموا دينهم بالسيف لا بالهدى والعلم والآيات، فإذا طلبوا العلم والمناظرة قيل لهم: ليس لكم جواب إلا السيف، كان هذا مما يقرر ظنهم الكاذب، وكان هذا من أعظم ما يحتجون به عند أنفسهم على فساد الإسلام، وأنه ليس دين رسول من عندالله، وإنما هو دين ملك أقامه بالسيف.

ثانياً: قوله ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[(١)].

قال ابن حزم رحمه الله: «وهذا حديث في غاية الصحة، وفيه الأمر بالمناظرة وإيجابها كإيجاب الجهاد والنفقة في سبيل الله»[(٢)] وقال الأمير الصنعاني رحمه الله: «الحديث دليل على وجوب الجهاد بالنفس وهو بالخروج والمباشرة للكفار، وبالمال وهو بذله لما يقوم به من النفقة في الجهاد والسلاح ونحوه... والجهاد باللسان بإقامة الحجة عليهم

---

(١) تقدم تخريجه ص: .

(٢) الإحكام في أصول الأحكام ٢٥/١.

ودعائهم إلى الله (تعالى) ، وبالأصوات عند اللقاء والزجر ونحوه من كل ما فيه نكاية للعدو...»[١].

ثالثاً: لأبي محمد بن حزم رحمه الله استدلالات لطيفة على مشروعية المناظرة، ومنها مناظرة الكفار والمشركين، من ذلك قوله رحمه الله: «وقد أمرنا تعالى في نص القرآن باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، وخبّرنا (تعالى) أن من ملة إبراهيم المحاجة والمناظرة ـ فمرّة للملك ومرّة لقومه ـ والاستدلال كما أخبرنا (تعالى) عنه، ففرض علينا اتباع المناظرة لنصرف أهل الباطل إلى الحق، وأن نطلب الصواب بالاستدلال فيما اختلف فيه المختلفون، قال الله عز وجل:﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٨] فنحن المتبعون لإبراهيم عليه السلام في المحاجة والمناظرة؛ فنحن أولى الناس به، وسائر الناس مأمورون بذلك، قال الله (تعالى) ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٥] ومن ملته المناظرة، كما ذكرنا...»[٢].

وقال رحمه الله في موضع آخر: «وقال (تعالى):﴿ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [سورة التوبة: ١٢٠]. ولا غيظ أغيظ على الكفار والمبطلين من هتك أقوالهم بالحجة الصادعة، وقد تهزم العساكر الكبار، والحجة الصحيحة لا تغلب أبداً،

(١) سبل السلام ٨٢/٤ .

(٢) الإحكام في أصول الأحكام ٢١/١ .

فهي أدعى إلى الحق، وأنصر للدين من السلاح الشاكي والأعداد الجمَّة، وأفاضل الصحابة الذين لا نظير لهم إنما أسلموا بقيام البراهين على صحة نبوة محمد ﷺ عندهم، فكانوا أفضل ممن أسلم بالغلبة بلا خلاف من أحد من المسلمين، وأول ما أمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن يدعو له الناس بالحجة البالغة بلا قتال، فلما قامت الحجة وعاندوا الحق أطلق الله (تعالى) عليهم السيف حينئذ، وقال (تعالى) ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٩] وقال (تعالى):﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [سورة الأنبياء: ١٨]. ولا شك في أن هذا إنما هو بالحجة؛ لأن السيف مرة لنا ومرة علينا، وليس كذلك البرهان بل هو لنا أبداً، ودامغ لقول مخالفينا، ومزهق له أبداً، ورب قوة باليد قد دمغت بالباطل حقاً كثيراً فأزهقته، منها يوم الحرَّة، ويوم قتل عثمان ﷺ ويوم قتل الحسن وابن الزبير رضي الله عنهم ... وقد قتل أنبياء كثير وما غلبت حجتهم قط»[1].

رابعاً: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين»[2].

---

(١) المرجع السابق ١/٢٤-٢٥ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١/٣٥٧ .

المبحث الثالث
حكم مناظـــرة أهل الكتـــاب

لأهل الكتاب في الإسلام وضع خاص يتميزون به عن سائر الكفرة والمشركين، فهم يشتركون مع المسلمين في جنس الكتاب المنزل ـ مع ما أصاب كتبهم من التحريف والتبديل والضياع ـ وفي الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام مع أن أولى الناس به هو محمد ﷺ وأتباعه؛ لأن انتسابهم إليه عن متابعة وتأسٍ قال (تعالى): ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٨]، أما انتساب اليهود والنصارى إليه فهو مجرد دعوى لا حقيقة لها، أكذبهم الله فيها كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٧] ثم قال بعدها: ﴿إن أولى الناس﴾ ...الآية.

ويشترك أهل الكتاب ـ أيضاً ـ مع المسلمين في الإيمان ــ في الجملة ــ بالقضايا الكبرى؛ كالتوحيد وجنس النبوات مع ما فيهم من مخالفات واعتقادات فاسدة.

ولهذا كانت العلاقة مع أهل الكتاب أخص منها مع الكفار والمشركين، حيث جعلهم الله (تعالى) أمام خيارات ثلاثة: الإسلام أو الجزية أو السيف، ثم أحل الله (تعالى) للمسلمين أكل طعامهم ونكاح المحصنات من نسائهم.

وقد أمر الله (تعالى) في أكثر من آية بدعوة أهل الكتاب إلى التوحيد الخالص وصدق المتابعة لأنبيائهم والتي تقتضي التصديق بالرسول محمد ﷺ، من ذلك قوله (تعالى): ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مسلمون﴾ [سورة آل عمران: ٦٤]. وقال (تعالى): ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [سورة المائدة: ٦٨].

والقرآن الكريم أمر بمجادلة أهل الكتاب، لكن بالتي هي أحسن؛ قال (تعالى): ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]. قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف.

وقال آخرون: بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه. قال ابن كثير رحمه الله: وهذا القول اختاره ابن جرير وحكاه عن ابن زيد(١).

وذكر القرطبي أنها محكمة، فيجوز مجادلة أهل الكتاب على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبيه على حججه وآياته؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاط والمخاشنة(٢). وهذا هو الصحيح،

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤٠١/٣ وتفسير الطبري ٣/٢١ ط. دار المعرفة .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٥٠/١٣.

ويؤكده ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيما يتعلق بمجادلة الكفار على ما مرَّ ذكره.

ويقول السعدي رحمه الله: «ينهى (تعالى) عن مجادلة أهل الكتاب إذا كانت على غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف، ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد الباطل وتهجينه بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة، والمغالبة، وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق»(١).

ومن الإحسان في مجادلة أهل الكتاب عدم تكذيب ما عندهم تكذيباً عاماً لمجرد كونه من كتبهم، بل ينبغي السكوت عن ذلك؛ فلا يصدقون ولا يكذبون؛ وذلك خشية أن نصدق بباطل أو نكذب بحق، فإن صدقنا بباطلهم نكون قد وافقناهم فيه فيستطيلون به علينا. وإن كذبنا بالحق الذي معهم أسأنا إليهم، بل الواجب السكوت عما سكت عنه شرعنا. فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: «كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦] الآية»(٢) قال الحافظ ابن حجر رحمه

---

(١) تفسير السعدي ٤/٦٤.

(٢) صحيح البخاري ٨/١٧٠ كتاب التفسير ـ باب ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [سورة البقرة: ١٣٦] ح:٤٤٨٥، و ١٣/٣٣٣ كتاب الاعتصام ـ باب قول النبي ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ح:٧٣٦٢.

الله: «أي إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً لئلا يكون في نفس الأمر صدقاً فتكذبوه، أو كذباً فتصدقوه، فتقعوا في الحرج. ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه. نبه على ذلك الشافعي رحمه الله»[(١)].

ومن الإحسان في مجادلة أهل الكتاب عدم تفضيل نبينا محمد ﷺ على أنبيائهم على وجه الحميَّة والتنقص؛ فقد روى البخاري رحمه الله في صحيحه[(٢)] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «استب رجلان: رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين. فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين. قال: فغضب المسلم عند ذلك، فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فقال رسول الله ﷺ : لا تُخَيِّروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان موسى فيمن صُعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله». وفي رواية[(٣)] قال أبو هريرة: «بينما يهودي يعرض سلعته أُعطي بها شيئاً كرهه، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار، فقام فلطم وجهه، وقال: تقول والذي اصطفى

---

(١) فتح الباري ٨/١٧٠ .

(٢) ١١/٣٦٧ كتاب الرقاق ـ باب نفخ الصور ...ح : ٦٥١٧، والحديث في مواضع أخرى من صحيح البخاري، وفي صحيح مسلم وغيره .

(٣) صحيح البخاري ٦/٤٥٠-٤٥١ كتاب الأنبياء ـ باب قول الله تعالى : ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ [سورة يونس: ١٣٩] ح : ٣٤١٤ .

موسى على البشر والنبي ﷺ بين أظهرنا، فذهب إليه فقال: أبا القاسم، إنَّ لي ذمَّةً وعهداً، فما بال فلان لطم وجهي؟ فقال: لم لطمت وجهه؟ فذكره، فغضب النبي ﷺ حتى رؤي في وجهه، ثم قال: لاتُفَضِّلوا بين أولياء الله...» إلى تمام الحديث.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قال العلماء في نهيه ﷺ عن التفضيل بين الأنبياء: إنما نهى عن ذلك من يقوله برأيه لا من يقول بدليل، أو من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع، أو المراد لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يُترك للمفضول فضيلة...» ثم قال رحمه الله: «وقال الحليمي (٤٠٣هـ): الأخبار الواردة في النهي عن التخيير إنما هي في مجادلة أهل الكتاب، وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة؛ لأن المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يُؤْمَن أن يخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر فيفضي إلى الكفر، فأما إذا كان التخيير مستنداً إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان، فلا يدخل في النهي»[1].

وقال شارح الطحاوية رحمه الله: «التفضيل إذا كان على وجه الحميَّة والعصبيَّة وهوى النفس كان مذموماً، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرجل حمية وعصبية كان مذموماً، فإن الله حرَّم الفخر، وقد قال (تعالى) ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [سورة الأسراء: ٥٥] وقال (تعالى): ﴿ تلك الرسل فَضَّلْنَا

(١) فتح الباري ٦/٤٤٦.

بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣] فعلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر، أو على وجه الانتقاص بالمفضول»[(١)].

وأما قوله (تعالى): ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦] ففيها قولان: أحدهما: الذين أقاموا على كفرهم. الثاني: الذين رفضوا أداء الجزية ونصبوا لذلك حرباً. قاله مجاهد وسعيد بن جبير واختاره ابن جرير رضي الله عنهم[(٢)].

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «أي حادوا عن وجه الحق وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ يُنتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم».[(٣)] وقال السعدي (١٣٧٦هـ) رحمه الله: «﴿إلا الذين ظلموا﴾ من أهل الكتاب بأن ظهر من قصد المجادل منهم وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله؛ لأن المقصود منها ضائع[(٤)].

وقوله (تعالى): ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]. أي: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على

---

(١) شرح الطحاوية ١٥٩/١ .

(٢) انظر: تفسير الطبري ٣،٢/٢١ ط. دار المعرفة ، والجامع لأحكام القرآن ٣٥٠/١٣-٣٥١.

(٣) تفسير ابن كثير ٤٠١/٣ .

(٤) تفسير السعدي ٦٤/٤.

الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى الإله الواحد، ولاتكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم يقدح في جميع ما معهم من حق وباطل، فهذا ظلم، وخروج عن الواجب وآداب النظر، فإن الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله ولو كان كافراً[(١)]. وقد تقدم حديث أبي هريرة الذي يؤكد هذا المعنى.

فهذا حكم مناظرة أهل الكتاب، وهي مناظرة مشروعة تدور بين الاستحباب والوجوب. قال ابن القيم رحمه الله وهو يعدد الفوائد التي اشتملت عليها قصة وفد نصارى نجران قال: «ومنها جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة، فليؤد ذلك إلى أهله، وليُخَلِّ بَيْنَ المَطِيِّ وحَادِيها والقوسِ وبَارِيهَا»[(٢)].

وقال الحافظ ابن حجر في سياق فوائد القصة نفسها: «وفيها جواز مجادلة أهل الكتاب، وقد تجب إذا تعينت مصلحته»[(٣)].

(١) انظر : المرجع السابق٤/٦٤-٦٥.

(٢) زاد المعاد ٣/٦٣٩ .

(٣) فتح الباري ٨/٩٥ .

المبحث الرابع
حكم منـــــاظرة أهل البدع

اشتهر عن السلف والأئمة (رحمهم الله) نهيهم عن مجالسة أهل البدع ومناظرتهم، والمتأمل في أقوالهم يجدها تندرج تحت أصل عام وهو معاقبة المبتدعة وزجرهم بالهجر، وترك مجالستهم ومكالمتهم ومعاشرتهم رجاء أن يرتدعوا ويتوبوا إلى الله (تعالى) من بدعتهم، ويرجعوا إلى جماعة المسلمين، أو يكفوا شرهم عن المسلمين، فلا تعلق بقلوب الضعفاء منهم بعض بدعتهم، ولأن في مجالسة المبتدعة ومكالمتهم ومناظرتهم إذاعة للبدعة ورواجاً لها بين المسلمين، وفيها خطر على كثير ممن لا يقوى على دفع شبهاتهم من عوام المسلمين؛ فالسلف والأئمة كانوا يراعون المصلحة في ذلك:

فلا ينهون عن مجالسة المبتدعة ومحادثتهم إذا كانت في ذلك مصلحة، نحو إرشاد مسترشد، أو قطع معاند وكشف زيفه وتلبيسه للناس؛ لئلا يغتر به أحد من المسلمين، لا السلاطين ولا العامة، وقد مرت بنا أمثلة كثيرة من ذلك، وسأشير إلى بعضها في موضع لاحق بإذن الله (تعالى).

أما هنا فسأذكر طائفة من أقوال السلف والأئمة في النهي عن مجالسة أهل البدع ومكالمتهم، وهي على نوعين:

النوع الأول: أقوال مطلقة في النهي عن مجالسة أهل البدع ومكالمتهم ومعاشرتهم، وقد تقدم أنها تدخل ضمن أمر السلف والأئمة بهجر أهل البدع.

النوع الثاني: أقوال تنهى عن مناظرة أهل البدع ومجادلتهم في أحوال معينة، وهي بمثابة التقييد للإطلاق في النوع الأول، وبه يتبين لنا أن نهي السلف عن مناظرة المبتدعة منوط بالمصلحة الشرعية؛ ولهذا ثبت عنهم أنهم تصدوا للمبتدعة والزنادقة - في كل عصر ومصر - بالرد والمناظرة والمجادلة حتى كشفوا زيفهم، وقطعوا حجتهم، وأدخلوهم في أقماع السمسم.

أمثلة من النوع الأول: وهو النهي المطلق عن مجالسة المبتدعة ومجادلتهم.

استدل بعض أهل العلم على هجر المبتدعة بمثل:

١- قوله (تعالى): ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [سورة النساء: ١٤٠] وقوله (تعالى): ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٦٨]. قال مجاهد: «نهي محمد ﷺ أن يقعد معهم إلا أن ينسى فإذا ذكر فليقم»[١].
وقال قتادة: «نهاه الله أن يجلس مع الذين يخوضون في آيات الله، يكذبون بها، وإن نسي فلا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين»[٢].

---

(١) الإبانة - ابن بطة ٤٣٠/٢ برقم: ٣٥١ .
(٢) المرجع السابق ٤٣١/٢ برقم: ٣٥٢.

وقال محمد بن سيرين: «كنا نعدهم أصحاب الأهواء»[(١)].

٢-وقوله ﷺ: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالل»[(٢)] فمن خالط أهل الأهواء والبدع فهو منهم.

٣-وموقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ مع صبيغ بن عسل وهو رجل من بني يربوع كان يسأل عن متشابه القرآن، فسأل عمر عن الذاريات والنازعات والمرسلات، أو عن إحداهن فقال له عمر: ضع عن رأسك، فوضع عن رأسه فإذا له وفيرة، فقال: لو وجدتك محلوقاً لضربت الذي فيه عيناك. وفي رواية: أن عمر قام إليه وحسَّر عن ذراعيه فلم يزل يجلده حتى سقطت عمامته... ثم كتب إلى أهل البصرة أن لا تجالسوه قال ـ الراوي ـ فلو جلس إلينا ونحن مائة لتفرقنا عنه[(٣)].

٤- وقال عطاء: «أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام لا تجالس أهل الأهواء، فإنهم يحدثون في قلبك ما لم يكن فيه»[(٤)].

٥- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: « لا تجالس أهل الأهواء، فإن

---

(١) المرجع السابق ٤٩٦/٢ برقم: ٥٤٥.

(٢) سنن الترمذي ١١٠/٧-١١١ ديوان الزهد ـ باب الرجل على دين خليله ح: ٢٣٧٩ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب ، وسنن أبي داود ١٦٨/٥ كتاب الأدب ـ باب من يؤمر أن يجلس ح: ٤٨٣٣.

(٣) مرَّ ذكره. وانظر : سنن الدارمي ٥٥/١-٥٦ ، والإبانة ـ ابن بطة ٤١٤/١.

(٤) الإبانة ـ ابن بطة ٤٣٣/٢ برقم: ٣٥٨، وانظر: ٤٣٤/٢ برقم: ٣٥٩-٣٦٢ ، والشريعة ص: ٥٧.

مجالستهم ممرضة للقلوب »[١]. وروي مثله عن الحسن[٢].

٦- وقال محمد بن الحنفية رحمه الله: «لا تجالسوا أصحاب الخصومات، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله»[٣].

٧- وقال مجاهد رحمه الله: «لا تجالسوا أهل الأهواء، فإن لهم عُرَّة[٤] كعرَّة الجرب»[٥].

٨- وقال الحسن وابن سيرين (رحمهما الله): «لا تجالسوا أصحاب الأهواء، ولا تجادلوهم، ولا تسمعوا منهم»[٦].

٩- وكان الحسن رحمه الله ينهى عن مجالسة معبد الجهني ويقول: لا تجالسوه فإنه ضال مضل[٧].

١٠- ودخل رجلان من أهل الأهواء على محمد بن سيرين، فقالا: «يا

---

(١) الشريعة ص: ٦١. والإبانة ـ ابن بطة ٤٣٨/٢ برقم: ٣٧١.

(٢) الإبانة ٤٣٨/٢ برقم: ٣٧٣.

(٣) المرجع السابق ٤٤١/٢ برقم : ٣٨٣، ٣٨٤.

(٤) عُرَّة : العُرَّة : القذر، وعذِرَة الناس. انظر: لسان العرب ٥٥٨/٤ مادة عرر.

(٥) المرجع السابق ٤٤٣/٢ برقم: ٣٨٩.

(٦) سنن الدارمي ١١٠/١ باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة، وجامع بيان العلم ١١٨/٢ ، وشرح السنة ـ اللالكائي ١/ ١٣٣ برقم: ٢٤٠، والإبانة ـ ابن بطة ٤٤٤/٢، ٤٦٤ برقم: ٣٩٥، ٤٥٨.

(٧) السنة لعبدالله بن أحمد ص: ١٢٣ برقم: ٦٨٢، والشريعة ـ الآجري ص: ٢٤١، وشرح السنة ٦٣٧/٤ برقم: ١١٤٢.

أبا بكر، نحدثك بحديث. قال: لا. قالا : فنقرأ عليك آيــة مـن كتـاب ا لله؟ قال: لا، لتقومان عــني، أو لأقومـن، قـال فخرجـا. فقـال بعـض القوم : يا أبا بكر، وما كان عليك أن يُقرأ عليك آية مــن كتـاب ا لله (تعالى) ؟! قال: إني خشيت أن يقرآ علي آية فيحرفانهـا، فيقـر ذلـك في قلبي»[(١)].

١١- وقال عبدا لله بن البسري: «ليـس السـنة عندنـا أن تـرد علـى أهـل الأهواء، ولكن السنة عندنا أن لا نكلم أحدا منهم»[(٢)].

١٢- وكان طاوس (١٠٦هـ) جالساً هو وطلـق بـن حبيـب (تـوفي قبـل المائة) فجاءهما رجل من أهل الأهواء، فقال: «أتـأذن لي أن أجلـس؟ فقال له طاوس: إن جلست قمنا، فقال: يغفر ا لله لك أبا عبدالرحمن! فقال: هو ذاك، إن جلست وا لله قمنا، فانصرف الرجل»[(٣)].

١٣- وقال محمد بن واسع (١٢٣هـ): «رأيت صفوان بـن محـرز المـازني وأشار بيده إلى ناحية من المسجد وشببة قريب منه يتجادلون، فرأيتـه ينفض ثوبه وقـام، وقال: إنما أنتم جرب»[(٤)].

---

(١) سنن الدارمي ١٠٩/١ بـاب اجتنـاب أهـل الأهـواء... ، والشـريعة ــ الآجـري ص : ٥٧.وترجمة الإمام أحمد ـ الذهبي ص: ٧٣-٧٤ شرح السنة ــ اللالكـائي ١٣٣/١ رقـم : ٢٤٢ والشريعة ـ الآجري ص : ٥٧.

(٢) الإبانة ٤٧١/٢ برقم : ٤٧٨ .

(٣) الإبانة ـ ابن بطة ٤٤٧/٢ برقم : ٤٠٣ .

(٤) الشريعة ـ الآجري ص : ٥٨ والإبانـة ٥١٣/٢ -٥١٤ برقـم : ٥٩٥-٥٩٨ والحجـة ـ الأصبهاني ٤٥٥/٢-٤٥٦ برقم: ٤٧٧ .

١٤- وقال رجل من أصحاب الأهواء لأيوب السختياني: «يا أبا بكر، أسألك عن كلمة، فولّى أيوب وجعل يشير بأصبعه، ولا نصف كلمة»[(١)].

١٥- وقال أيوب رحمه الله: «لستُ براد عليهم بشيء أشدّ من السكوت»[(٢)].

١٦- وقال عبدالرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: «وايم الله، إن كنا لنلتقط السنن من أهل الفقه والثقة، ونتعلمها شبيهاً بتعلمنا آي القرآن، وما برح من أدركنا من أهل الفقه والفضل من خيار أولية الناس يعيبون أهل الجدل والتنقيب والأخذ بالرأي، وينهون عن لقائهم ومجالستهم ويحذرون مقاربتهم أشد التحذير، ويخبرون أنهم أهل ضلال وتحريف لتأويل كتاب الله وسنن رسول الله ﷺ...»[(٣)].

١٧- وكان ابن طاوس (١٣٢هـ) رحمه الله جالساً فجاء رجل من المعتزلة فجعل يتكلم، فأدخل ابن طاوس أصبعيه في أذنيه، وقال لابنه: أي بني أدخل أصبعيك في أذنيك واشدد، ولاتسمع من كلامه شيئاً. قال الراوي ـ معمر ـ يعني أن القلب ضعيف[(٤)].

(١) سنن الدارمي ١٠٩/١ باب اجتناب أهل الأهواء ....، وترجمة الإمام أحمد ـ الذهبي ص: ٧٤ والشريعة ـ الآجري ص: ٥٧ والإبانة ـ ابن بطة ٢/ ٤٤٧،٤٧٢ رقم: ٤٠٢،٤٨٢.
(٢) الشريعة ـ الآجري ص :٦١ ، والإبانة ٤٧١/٢ رقم : ٤٧٩.
(٣) جامع بيان العلم ١٢٠/٢ والحجة ـ الأصبهاني ٢٨٣/١.
(٤) الإبانة ـ ابن بطة ٤٤٦/٢ برقم : ٤٠٠ وترجمة الإمام أحمد ـ الذهبي ص : ٧٤ وشرح السنة ـ اللالكائي ١٣٥/١ برقم : ٢٤٨ .

١٨- وقال يحيى بن كثير (١٢٩هـ): «إذا لقيت صاحب بدعة في طريق فخذ في غيره»[١]. وروي نحوه عن الفضيل بن عياض[٢].

١٩- وروى أبو عمر بن عبدالبر[٣] بسنده إلى أحمد بن زهير قال: قال لي مصعب بن عبدا لله (٢٣٦هـ أو ٢٣٣هـ): ناظرني إسحاق بن أبي إسرائيل (٢٤٥هـ) فقال: لا أقول كذا، ولا أقول غيره، يعني في القرآن، فناظرته، فقال: لم أقف على الشك، ولكني أقول كما قال [القوم][٤]، أسكت كما سكت القوم، قال: فأنشدته هذا الشعر فأعجبه وكتبه، وهو شعر قيل منذ أكثر من عشرين سنة:

أأقعد بعدما رجفت عظامي ... وكان الموت أقرب ما يليني
أجادل كل معترض خصيم ... وأجعل دينه غرضاً لديني
فأترك ما علمت لرأي غيري ... وليس الرأي كالعلم اليقين
وما أنا والخصومة وهي لَبْس ... تصرف في الشمال وفي اليمين
وقد سُنت لنا سنن قِوام ... يَلُحْنَ بكل فج أو وجين
وكان الحق ليس له خفاء ... أغر كغرة الفلق المبين
وما عوض لنا منهاج جهم ... بمنهاج ابن آمنة الأمين
فأما ما علمت فقد كفاني ... وأما ما جهلت فجنبوني

(١) الشريعة ـ الآجري ص: ٦٤ والإبانة ـ ابن بطة ٢/٤٧٤،٤٧٥ برقم: ٤٩٠-٤٩٢ .

(٢) الإبانة ٢/٤٧٥ برقم: ٤٩٣ .

(٣) جامع بيان العلم ٢/١١٥-١١٦ وذكر أنه لأبي مصعب الزبيري وانظر: شرح السنة ـ اللالكائي ١/١٤٨ برقم: ٣٠٨.

(٤) [القوم] ليست في الأصل، ولكني أضفتها لتمام المعنى.

فلست مكفراً أحـــداً يصلي ... وما أحرمكم أن تكفـــــروني
وكنا إخوة نرمـــــي جميعًا ... فنرمي كـــــل مرتاب ظنين
فما بـــرح التكلف أن رمينا ... بشأن واحـــــد فوق الشؤون
فأوشك أن يخر عمــاد بيت ... وينقطع القرين عـــن القرين

٢٠- وقال أبو الحارث: «سألت أبا عبدا لله ــ يعني أحمد بن حنبل ــ فقلت: إن ههنا رجلاً يناظر الجهمية ويُبيِّــن خطأهم ، ويدقق عليهم المسائل، فما ترى؟ قال: لست أرى الكلام في شيء من هذه الأهواء، ولا أرى لأحد أن يناظرهم، أليس قال معاوية بن قُرَّة (١١٣هــ): الخصومة تحبط الأعمال، والكلام الرديء لا يدعو إلى خير، لا يفلح صاحب كلام، تجنبوا أصحاب الجدال والكلام، عليكم بالسنن، وما كان عليه أهل العلم قبلكم؛ فإنهم كانوا يكرهون الكلام والخوض في أهل البدع والجلوس معهم، وإنما السلامة في ترك هذا، لم نؤمر بالجدال والخصومات مع أهل الضلال، فإنه سلامة له منه»[(١)] .

٢١-وقال أبوبكر الآجري رحمه ا لله : «ولا نناظر ولا نجادل ولا نخاصم، وإذا لقي صاحبَ بدعة في طريق أخذ في غيره، وإن حضر مجلساً هو فيه قام عنه، هكذا أدبنا من مضى من سلفنا»[(٢)] . وقال

(١) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٥٣٩-٥٤٠ برقم : ٦٧٧ .

(٢) الشريعة ـ الآجري ص :٦٤.

رحمه الله في موضع آخر: «سكوتك عنهم وهجرتك لما تكلموا به أشد عليهم من مناظرتك لهم»[(١)].

٢٢-وقال أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله: «ترك مجالسة أهل البدع، ومعاشرتهم سنة؛ لئلا تعلق بقلوب ضعفاء المسلمين بعض بدعتهم، وحتى يعلم الناس أنهم أهل البدعة، ولئلا [تكون][(٢)] مجالستهم ذريعة إلى ظهور بدعتهم، والخوض[(٣)] في الكلام المذموم ومجانبة أهله محمود ليعلم أنهم ناكبون عن طريق الصحابة رضي الله عنهم»[(٤)].

النوع الثاني: وهو أقوال السلف والأئمة في النهي عن مجادلة المبتدعة ومناظرتهم في أحوال معينة، وهي ـ كما تقدم ـ تفسير لما ورد عنهم من النهي المطلق. فمن ذلك:

١-المبتدع يعارض بين نصوص الشرع مما قد يوقع الشك في نفسه تجاه بعض هذه النصوص التي لا تعارض بينها، وهو داء يذهب بالإيمان بنصوص الكتاب والسنة. قال (تعالى): ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ٨٢]. فنهى السلف عن مناظرة هذا المتشكك لاحتمال توريث شكه هذا لسليم معافى. قال عبدالله بن

---

(١) المرجع السابق ص :٦١.

(٢) في الأصل : يكون ، ولعل ما أثبته هو الأصح .

(٣) المراد : ترك الخوض؛ عطفاً على أول كلام الأصبهاني رحمه الله.

(٤) الحجة ٥٠٩/٢ .

عباس رضي الله عنهما: «لاتضربوا كتاب الله بعضه ببعض؛ فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم»[(١)].

وجاء رجل إلى الحسن البصري رحمه الله فقال: «يا أبا سعيد تعال أخاصمك في الدين. فقال الحسن أما أنا، فقد أبصرت ديني، فإن كنت أضللت دينك فالتمسه »[(٢)].

وقال ابن وهب (١٩٧هـ): «سمعت مالكاً يقول: كان ذلك الرجل إذا جاءه بعض هؤلاء ـ يعني أصحاب الأهواء ـ يسأله، قال: أما أنا فعلى بينة من ربي، وأما أنت فشاك، فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه، وقال ذلك الرجل: يُلَبِّسُونَ على أنفسهم ثم يطلبون من يعرفهم»[(٣)].

٢–والمبتدع الذي يعارض بين نصوص الشرع قد توقعه هذه المعارضه ـ وهو الغالب ـ في التكذيب ببعض النصوص؛ إما التكذيب بألفاظها كأخبار الآحاد، أو التكذيب بمعانيها كالأخبار المتواترة من الكتاب والسنة؛ ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله: «فإذا كانت المناظرة تتضمن أن كل واحد من المتناظرين يُكَـذِّبُ ببعض الحق نهي عنها لذلك،

(١) ترجمة الإمام أحمد ـ الذهبي ص : ٧٢ .

(٢) الشريعة ـ الآجري ص : ٥٧ والحجة ـ الأصبهاني ١/٢٨٠-٢٨١ وشرح السنة ١/١٢٨ برقم : ٢١٥ والإبانة ـ ابن بطة ٢/٥٠٩ برقم : ٥٨٦ .

(٣) الإبانة ـ ابن بطة ١/٤٠٤ برقم: ٣٠٧، وانظر: مختصر العلو ص: ١٤٢ برقم: ١٣٣.

وأكثر الاختلاف بين ذوي الأهواء من هذا الباب»[(١)].

فالسلف والأئمة نهوا عن مثل هذه المجادلة والمناظرة: قال جابر: «قال لي محمد بن علي الحسين، أبو جعفر الباقر: يا جابر، لا تخاصم، فإن الخصومة تكذب القرآن»[(٢)].

وقال عون بن عبدالله رحمه الله: «لا تفاتح أصحاب الأهواء في شيء، فإنهم يضربون القرآن بعضه ببعض»[(٣)].

وكان مالك بن أنس رحمه الله يعيب الجدال في الدين ويقول: «كلما جاءنا رجل أجدل من رجل أردنا أن نرد ما جاء به جبريل إلى النبي ﷺ»[(٤)].

٣- الغالب على المبتدعة وأهل الأهواء التنقل بين الأهواء والبدع، وذلك متابعة منهم لما تقتضيه نتائج الجدل والمناظرات، فالدين عندهم مع من غلب، وهذا أمر لا يكاد ينتهي، كما قال الخليل بن أحمد رحمه الله: «ما كان جدل إلا أتى بعده جدل يبطله».[(٥)] فالسلف والأئمة نهوا عن مثل هذا الجدل:

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٧/١٨٤-١٨٥.

(٢) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٤٩٥ برقم: ٥٤٢.

(٣) المرجع السابق ٢/٥٢٢ برقم: ٦٢٥.

(٤) المرجع السابق ٢/٥٠٧ برقم : ٥٨٢ ، وشرح السنة ١/١٤٤ رقم :٢٩٣ ، والفقيه والمتفقه ـ ١/٢٣١ .

(٥) شرح السنة ١/١٢٨ برقم : ٢١٧ .

قال حذيفة ﷺ: «إن الضلالة حق الضلالة أن تعرف ما كنت تنكر، وتنكر ما كنت تعرف، وإياك والتلوُّنَ في الدين».(١)

واشتهر عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله قوله: «من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل».(٢)

وقال سعيد بن جبير لذر الهمداني(٣): ياذر، مالي أراك كل يوم تُجَدِّدُ ديننا(٤).

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: «كانوا يرون التلون في الدين من شك القلوب في الله»(٥).

وقال معن بن عيسى: «انصرف مالك بن أنس ﷺ يوماً من المسجد وهو متكئ على يدي فلحقه رجل يقال له: أبو الحورية(٦) كان يُتَّهَمُ

---

(١) الإبانة ـ ابن بطة ٥٠٥/٢ برقم : ٥٧٣ وجامع بيان العلم ١١٤/٢.

(٢) وسنن الدارمي ٩١/١ باب من قال العلم الخشية وتقوى الله، والشريعة ـ الآجري ص: ٥٦، وجامع بيان العلم ١١٣/٢، والإبانة ٥٠٣/٢ برقم : ٥٦٨-٥٦٩ ، والحجة٤٥٥/٢ رقم : ٤٧٧، وشرح السنة ١٢٨/١ رقم : ٢١٦ ، وترجمة الإمام أحمد ـ الذهبي ص: ٧٤.

(٣) هو : أبو عمر، ذر بن عبد الله بن زرارة المرهبي الهمداني، الكوفي، روى عن سعيد بن جبير وعبد الله بن شداد، وعنه عطاء بن السائب وجماعة، كان على معتقد المرجئة، هجره النخعي وسعيد بن جبير لذلك، وكان من عباد أهل الكوفة . انظر : تهذيب التهذيب ٢١٨/٣ برقم : ٤١٦ .

(٤) السنة لعبد الله بن أحمد ص : ٩٠ برقم : ٤٩٢ وشرح السنة ٩٩٠/٥ برقم : ١٨١١ .

(٥) الإبانة ـ ابن بطة ٥٠٥/٢ برقم : ٥٧٥ .

(٦) أبو الحورية، ويقال : أبو الجويرية، عبد الله بن عمران، كوفي، روى عن حماد بن أبي سليمان، وعنه حماد ابن خالد ومعن بن عيسى القزاز، ونزل بالمدينة . انظر : التهذيب ٦٢/١٢ تر : ٢٤٨ .

بالإرجاء، فقال: يا أبا عبدا لله، اسمع مني شيئاً أكلمك بـه، وأحـاجك وأخبرك برأي. قال مالك: فإن غلبتني؟ قال: إن غلبتـك اتبعـني. قـال: فإن جاء رجل آخر فكلمنا فغلبنا؟ قال: نتبعه، فقال: مالك رحمه ا لله: يا عبدا لله، بعث ا لله عز وجل محمـدا ﷺ بديـن واحـد، وأراك تنتقـل من دين إلى ديـن، قـال عمـر بـن عبدالعزيـز: مـن جعـل دينـه غرضـاً للخصومات أكثر التنقل»[(١)].

٤- والسلف والأئمة نهوا الضعيف عن منـاظرة المبتدعـة، والضعـف هـو الغالب على جمهور المسلمين، فمنعهـم مـن التصـدى لمنـاظرة المبتدعـة أنفع لهم في دينهـم وآخرتهـم، وسـبق كـلام ابـن تيميـة رحمـه ا لله أن السلف قد ينهون عن المجادلة والمناظرة إذا كان المنـاظر ضعيـف العلـم بالحجة وجواب الشبهة، فيخاف عليه أن يفسـده ذلـك المضـل، كمـا يُنهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجاً قوياً من علوج الكفـار، فـإن ذلك يضر المسلمين بلا منفعة.[(٢)] قـال عبـدا لله بـن عبـاس رضـي ا لله عنهما: «باب شـرك فتـح على أهـل الصـلاة التكذيـب بـالقدر، فـلا تجادلوهم فيجري شركهم على أيديكم »[(٣)]. وروي نحـوه عـن جبـير ابن نفير[(٤)].

---

(١) الشريعة ـ الآجري ص : ٥٦-٥٧ والإبانة ـ ابن بطة ٥٠٨/٢ برقم : ٥٨٣ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١٧٣/٧.

(٣) شرح السنة ـ اللالكائي ٦٣٠/٤ رقم : ١٢٦ والشريعة ص : ٢١٥ .

(٤) الإبانة ـ ابن بطة ٥٢٣/٢ برقم : ٦٢٧ .

وقال أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي (١٠٤هـ) رحمه الله: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في الضلالة، أو يُلَبِّسُوا عليكم في الدين بعض ما لُبِّس عليهم»[(١)].

وقال عبدالرزاق الصنعاني (٢١١هـ): «قال لي إبراهيم بن أبي يحيى (١٨٤هـ): إني أرى المعتزلة عندكم كثيرا، قلت: نعم، وهم يزعمون أنك منهم قال: أفلا تدخل معي هذا الحانوت حتى أكلمك، قلت لا، قال: لم؟ قلت: لأن القلب ضعيف، والدين ليس لمن غلب»[(٢)].

٥- ونهى السلف والأئمة عن مجادلة المبتدعة إذا كان المجادل يرغب في رجوعهم وتوبتهم؛ لأن ذلك لا يقع منهم إلا على الندور، فإن المبتدع يعتقد أنه على الحق وغيره على الباطل، فتوبة مثل هذا عزيزة بخلاف العاصي؛ ولهذا لما قال رجل لأيوب: يا أبا بكر، إن عمرو بن عبيد قد رجع عن رأيه، فقال: إنه لم يرجع. قال الرجل: بلى يا أبابكر، إنه قد رجع. قال أيوب: إنه لم يرجع - ثلاث مرات - أما إنه لم يرجع، أما سمعت إلى قوله - يعني ﷺ في الحديث - يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة، ثم لا يعودون فيه حتى يرجع السهم إلى فُوْقه[(٣)].

(١) الشريعة ص :٥٦ والإبانة - ابن بطة ٤٣٥/٢، ٤٣٧ برقم : ٣٦٤، ٣٦٧ شرح السنة ١٣٤/١ برقم : ٢٤٤ وترجمة الإمام أحمد - للذهبي ص : ٧٣.

(٢) الإبانة ٤٤٦/٢-٤٤٧ برقم: ٤٠١ ، وشرح السنة ١٣٥/١ برقم: ٢٤٩ .

(٣) شرح السنة ١٤١/١ برقم: ٢٨٦ وتقدم. والحديث في الصحاح والسنن، وهذا اللفظ للبخاري ٥٣٥/١٣-٥٣٦(فتح الباري) كتاب التوحيد - باب قراءة الفاجر والمنافق برقم: ٧٥٦٢. وفُوْقُ السهم موضع الوتر منه. انظر: لسان العرب ٣١٩/١٠-٣٢١ مادة فوق.

وهذا الحديث وإن كان في الخوارج، لكنه يعم كل مبتدع بحكم الجامع، وهو أن المبتدع يتدين ببدعته، ويعتقد أنها الحق، فرجوعه عزيز، والمناظرة معه مضيعة للأزمان، لاسيما إذا كان من أهل العناد، بل السلامة في تركه والابتعاد عنه.

قال أبو علي حنبل بن إسحاق بن حنبل (٢٧٣هـ) كتب رجل إلى أبي عبدالله رحمه الله كتاباً يستأذنه فيه أن يضع كتاباً يشرح فيه الرد على أهل البدع، وأن يحضر مع أهل الكلام فيناظرهم، ويحتج عليهم، فكتب إليه أبو عبدالله: بسم الله الرحمن الرحيم، أحسن الله عاقبتك، ودفع عنك كل مكروه ومحذور. الذي كنا نسمع وأدركنا عليه من أدركنا من أهل العلم أنهم كانوا يكرهون الكلام والجلوس مع أهل الزيغ، وإنما الأمور في التسليم، والانتهاء إلى ما كان في كتاب الله أو سنة رسول الله، لا في الجلوس مع أهل البدع والزيغ لترد عليهم، فإنهم يُلَبِّسُون عليك، وهم لا يرجعون. فالسلامة ـ إن شاء الله ـ في ترك مجالستهم والخوض معهم في بدعتهم وضلالتهم، فليتق الله امرؤ، وليصر إلى ما يعود عليه نفعه غداً من عمل صالح يقدمه لنفسه...» إلى آخر ما قال رحمه الله[(١)].

٦- ونهوا عن الجدل إذا كان سبباً لترك الاشتغال بالأعمال ووظائف العبادات مع ما يصحبه من قساوة القلوب ووحشة النفوس.

---

(١) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٤٧١-٤٧٢ برقم: ٤٨١ ونحوه في ترجمة الإمام أحمد ـ للذهبي ص: ٣٦.

قال الأوزاعي رحمه الله: «إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل ومنعهم العمل»[١]. وروي مثله عن بكر بن نصر[٢].

وقال أبو العباس القرطبي رحمه الله: «وأفضى الكلام بكثير من أهله إلى الشك، وببعضهم إلى الإلحاد، وببعضهم إلى التهاون بوظائف العبادات...»[٣].

وقال جعفر بن محمد: إياكم والخصومة في الدين، فإنها تشغل القلب وتورث النفاق[٤].

٧- ونهى السلف والأئمة عن مجالسة المبتدع ومجادلته هجراً وزجراً، عساه أن يتوب ويرجع إلى رشده، ويلتزم الجماعة.

قال إسحاق بن هانئ رحمه الله: «سألت أبا عبدالله ـ أي الإمام أحمد ـ عن رجل مبتدع داعية يدعو إلى بدعته يُجالس؟ قال أبو عبدالله: لا يُجالس، ولا يُكلم؛ لعله يتوب»[٥].

وغالب ما روي عن السلف والأئمة من النهي المطلق عن مجالسة المبتدعة ومجادلتهم فمحمول على هذا القصد، وهو هجرهم وزجرهم ابتغاء توبتهم ورجوعهم، أو قطع شرهم عن المسلمين.

---

(١) شرح السنة ١/١٤٥ برقم: ٢٩٦، وجامع بيان العلم ٢/١١٤.

(٢) انظر: جامع بيان العلم ٢/١١٤.

(٣) فتح الباري ١٣/٣٥٠، ونحوه في المفهم كتاب العلم ـ باب كراهة الخصومة في الدين (مخطوط).

(٤) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٥٢٦ رقم: ٦٣٥.

(٥) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٤٧٥ برقم: ٤٩٤.

٨- ونهوا عن مجادلة المبتدعة إذا كان المجادل لهم يسلك سبيل التكلف، لا سبيل العلم، فيكون قصده كسرهم بأي سبيل كان، فيضطره ذلك إلى الخروج عن السنة أحياناً، أو عدم إنصافهم. قال الإمام أحمد رحمه الله في كتابه الذي وجهه إلى من استأذنه في الرد على أهل البدع بالمناظرة والتأليف. فقال رحمه الله فيما قال: «ولا يكن ممن يحدث أمراً، فإذا هو خرج منه أراد الحجة، فيحمل نفسه على المحال فيه، وطلب الحجة لِمَا خرج منه بحق أو بباطل، ليزين به بدعته، وما أحدث، وأشد من ذلك أن يكون قد وضعه في كتاب قد حُمِل عنه، فهو يريد أن يزين ذلك بالحق والباطل، وإن وضح له الحق في غيره...»[1].

٩- ونهى السلف والأئمة عن الجدال في دين الله على طريقة المبتدعة؛ لأنه يقود إلى الاختلاف والتكفير والاقتتال؛ لأن كل طائفة لا تقر بالحق الذي مع الطائفة الأخرى: إما بسبب نقصان العلم أو الفهم أو الجحود مطلقاً، وهذا ما خافه ابن عباس رضي الله عنهما من مسارعة الناس في عهد عمر بن الخطاب ﷺ في الأخذ بالقرآن من غير فهم ولا إحاطة بعلم نزوله وتفسيره، فقد روى الإمام أحمد بن حنبل عن ابن عباس أنه قال: «قدم على عمر بن الخطاب رجل فجعل يسأله عن الناس، فقال: يا أمير المؤمنين، قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا، قال ابن عباس: فقلت: والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه

---

(١) الإبانة ٤٧٢/٢ برقم: ٤٨١ .

المسارعة، قال: فزبرني عمر ثم قال: مه، فانطلقت إلى منزلي كئيباً حزيناً، فبينا أنا كذلك إذا أتاني رجل، فقال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت فإذا هو بالباب ينتظرني، فأخذ بيدي، فخلا بي فقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفاً؟ قلت: يا أمير المؤمنين، متى ما تسارعوا هذه المسارعة يَحْتَقُّوا[1] ومتى ما يَحْتَقُّوا يختصموا، ومتى ما يختصموا يختلفوا، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا، قال لله أبوك، إن كنتُ لأكتمها الناس حتى جئت بها»[2].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن بني إسرائيل كانوا على شريعة ومنهاج ظاهرين على من ناوأهم حتى تنازعوا في القدر، فلما تنازعوا اختلفوا وتباغضوا وتلاعنوا، واستحلوا بعضهم حرمات بعض، فسُلِّط عليهم عدوهم فمزقهم كل ممزق»[3].

وقال الحسن بن عبدالعزيز الجروي: كان الشافعي ينهى النهي الشديد عن الكلام في الأهواء، ويقول أحدهم إذا خالفه أخوه قد كفرت، والعلم إنما يقال فيه أخطأت[4]. ولهذا فأهل السنة أهل علم ورحمة

---

(١) أي يقول كل منهم : الحق في يدي ومعي .

(٢) السنة لعبد الله بن أحمد ص: ٢٢-٢٣ ح: ٨٨ ، ونحوه في مصنف عبد الرزاق ٢١٧/١١-٢١٨ برقم: ٢٠٣٦٨ ، وذكره الذهبي في ترجمة الإمام أحمد ص: ٧٢-٧٣، وانظر : سير أعلام النبلاء ٣٤٨/٣-٣٤٩ .

(٣) شرح السنة ـ اللالكائي ٦٣٣/٤ برقم: ١١٣٣ .

(٤) الإبانة ـ ٥٤٥/٢ برقم: ٦٨٨، وشرح السنة ١٤٦/١ برقم: ٣٠٢، ومناقب الشافعي للبيهقي ٤٥٩/١.

يعلمون الحق ويرحمون الخلق، فلا يكفرون ولا يبدعون بمجرد الاختلاف، بخلاف أهل البدع، فلا يعلمون الحق ولا يرحمون الخلق فلا علم ولا رحمة.

١٠-ونهوا رحمهم الله عن الجدل والمناظرة إذا كانت على سبيل الامتحان والتعمق كما قال ابن سيرين رحمه الله: «سؤال الرجل أخاه: أمؤمن أنت؟ محنة بدعة، كما يمتحن الخوارج»[(١)].

وقال الأوزاعي رحمه الله وقد سئل أمؤمن أنت حقاً؟ فقال: «إن المسألة عما سئل من ذلك بدعة، والشهادة عليه تعمق لم نكلفه في ديننا، ولم يشرعه نبينا، ليس لمن سأل ذلك فيه إمام إلا مثله القول به جدل، والمنازعة فيه حدث، ولعمري ما شهادتك لنفسك بالتي توجب لك تلك الحقيقة إن لم تكن كذلك، ولا تركك الشهادة لنفسك بها بالذي يخرجك من الإيمان إن كنت كذلك، وإن الذي يسألك عن إيمانك ليس يشك في ذلك منك، ولكنه يريد أن ينازع الله علمه في ذلك، حين يزعم أن علمه وعلم الله في ذلك سواء، فاصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل فيما قالوا وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم»[(٢)].

---

(١) شرح السنة ٩٨٨/٥ برقم: ١٨٠٤.

(٢) الإبانة ٨٨١/٢ برقم: ١٢١٦، وانظر: والشريعة ص: ١٤٢ .

ومما يدل على أن السلف والأئمة لا يكرهون الجدل والمناظرة لأهل البدع مطلقاً وفي كل حال: ما ثبت عنهم من مناظرتهم لصنوف أهل البدع والأهواء في كل عصر، وقد تقدم ذكر نماذج من ذلك؛ كمناظرة علي وابن عباس وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهم للخوارج، وكذا مناظرة أبي حنيفة رحمه الله لهم، ومناظرة الصحابة كابن عمر وجابر وغيرهما رضي الله عنهم للقدرية، ومناظرة الأئمة كأحمد وغيره للجهمية والمعتزلة، وغير ذلك كثير، وسيأتي ذكر طوائف منها في الباب الأخير إن شاء الله.

وقال الشافعي رحمه الله : «ما ناظرت أحداً أحببت أن يخطئ، إلا صاحب بدعة؛ فإني أحب أن ينكشف أمره للناس...»[(١)].

وقال الحافظ ابن عساكر رحمه الله: «وإنما سَمَّى أبو الحسن رحمه الله مناظرة المعتزلة بدعة وكرهها؛ لأن السلف كانوا يرون مكالمة أهل البدع ومناظرتهم خطأ وسفهاً... » ثم قال رحمه الله: «فلما ظهرت فيما بعد أقوال أهل البدع، واشتهرت، وعظمت البلوى بفتنتهم على أهل السنة وانتشرت، وانتدب للرد عليهم ومناظرتهم أئمة أهل السنة لما خافوا على العوام من الابتداع والفتنة كفعل أبي الحسن رحمه الله وأشباهه خوفاً من التباس الحق على الخلق واشتباهه»[(٢)].

---

(١) تبيين كذب المفتري ص : ٣٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص : ٩٩ .

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «السلف لم يحرموا معرفة الدليل على الخالق وصفاته وأفعاله بل كانوا أعلم الناس بذلك وأعرفهم بأدلة ذلك، ولا حرموا نظراً صحيحاً في دليل صحيح يفضي إلى علم نافع، ولا مناظرة في ذلك نافعة إما لهدي مسترشد، وإما لإعانة مستنجد، وإما لقطع مبطل متلدد، بل هم أكمل الناس نظراً واستدلالاً واعتباراً»[(١)].

وقال رحمه الله في موضع آخر: «فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور، وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين»[(٢)].

فهذا وغيره يدل على أن السلف والأئمة كانوا يناظرون أهل البدع، وما ورد عنهم من النهي والتحذير من الجدل والمناظرة، فإنما كان في أحوال مخصوصة؛ ولهذا قال ابن عون: سمعت محمد بن سيرين ــ وهو ممن روي عنه النهي عن الجدل كما تقدم ـ ينهى عن الجدال إلا رجلاً إن كلمته طمعت في رجوعه[(٣)].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١٦٦/٧ (بتصرف قليل) .

(٢) المرجع السابق ٣٥٧/١.

(٣) الإبانة ـ ابن بطة ٥٤١/٢ برقم : ٦٨١ .

بل عمر بن عبدالعزيز الذي اشتهر عنه النهي عن الجدل والتحذير منه، وجعله سبباً من أسباب التنقل بين الأديان والأهواء، ثبت عنه ـ كما تقدم ـ أنه ناظر الخوارج والقدرية، ومنهم غيلان الدمشقي[١].

وسئل بشر بن الحارث الحافي عن الرجل يكون مع هؤلاء أهل الأهواء في موضع جنازة أو مقبرة، فيتكلمون ويعرضون، فترى لنا أن نجيبهم؟ فقال: إن كان معك من لا يعلم، فردوا عليه؛ لئلا يرى أولئك أن القول كما يقولون، وإن كنتم أنتم وهم، فلا تكلموهم ولا تجيبوهم[٢].

والأئمة الذين رووا عمن تقدمهم ذم وكراهة مناظرة أهل البدع، خصوا الكراهة بوقت الاختيار لا الحاجة والاضطرار؛ ولهذا يرى أبوبكر الآجري رحمه الله المناظرة لأهل الزيغ إذا احتيج إليها في وقت من الأوقات ليدفع المناظر بالحق باطل المخالف والخارج عن الجماعة، فتكون غلبته لأهل الزيغ عائدة بالبركة على المسلمين[٣].

وقال رحمه الله في كتاب الشريعة[٤] وذلك بعد أن أورد نصوص النهي عن مناظرة المبتدعة: "وإن كان رجل قد علّمه الله عز وجل

(١) انظر : الشريعة ـ الآجري ص : ٢٨٨ وما بعدها .

(٢) الإبانة ـ ابن بطة ٥٤٢/٢ رقم : ٦٨٣ .

(٣) انظر : من أخلاق العلماء للآجري، وهو ملخص في مقدمة كتاب من أخلاق العلماء لأحد المعاصرين ـ لم يظهر اسمه على الغلاف ـ ص : ١٦ .

(٤) ص : ٦١-٦٢ .

علماً فجاءه رجل يسأله عن مسألة في الدين؛ ينازعه ويخاصمه، ترى له أن يناظره حتى تثبت عليه الحجة، ويرد عليه قوله؟ قيل له: هذا الذي نُهينا عنه، وهو الذي حذرناه من تقدم من أئمة المسلمين. فإن قال قائل: فماذا نصنع؟ قيل له: إن كان الذي يسألك مسألته، مسألة مسترشد إلى طريق الحق، لامناظرة، فأرشده بأرشد مايكون من البيان بالعلم، من الكتاب والسنة وقول الصحابة وقول أئمة المسلمين، وإن كان يريد مناظرتك ومجادلتك فهذا الذي كره لك العلماء، فلا تناظره، واحذره على دينك، كما قال من تقدم من أئمة المسلمين إن كنت لهم متبعاً. فإن قال: ندعهم يتكلمون بالباطل ونسكت عنهم؟ قيل له: سكوتك عنهم وهجرتك لما تكلموا به أشد عليهم من مناظرتك لهم، كذا قال من تقدم من السلف الصالح من علماء المسلمين ..." ثم قال رحمه الله: "فمن اقتدى بهؤلاء الأئمة سَلِمَ له دينُه إن شاء الله (تعالى) . فإن قال قائل: فإن اضطر في الأمر وقتاً من الأوقات إلى مناظرتهم وإثبات الحجة عليهم ألا يناظرهم؟ قيل: الاضطرار إنما يكون مع إمام له مذهب سوء، فيمتحن الناس ويدعوهم إلى مذهبه، كفعل من مضى في وقت أحمد بن حنبل رحمه الله: ثلاثة خلفاء امتحنوا الناس ودعوهم إلى مذهبهم السوء، فلم يجد العلماء بداً من الذب عن الدين، وأرادوا بذلك معرفة العامة الحق من الباطل، فناظروهم ضرورة لا اختياراً، فأثبت الله عز وجل الحق مع أحمد ومن كان على طريقته، وأذلَّ الله العظيم المعتزلة وفضحهم، وعرفت العامة أن الحق ما كان عليه أحمد بن حنبل ومن تابعه إلى يوم القيامة، وأرجو أن يعيذ الله الكريم أهل العلم من أهل السنة

والجماعة من محنة تكون أبداً».

وأبو عبدا لله بن بطة العكبري ـ وهو أيضاً ممن ساق نصوص الأئمة في النهي عن الجدل والمناظرة للمبتدعة ـ يقول: «فإن قال قائل: قد حذرتنا الخصومة والمراء والجدال والمناظرة، وقد علمنا أن هذا هو الحق، وأن هذه سبيل العلماء وطريق الصحابة والعقلاء من المؤمنين والعلماء المستبصرين، فإن جاءني رجل يسألني عن شيء من هذه الأهواء التي قد ظهرت، والمذاهب القبيحة التي قد انتشرت، ويخاطبني منها بأشياء يلتمس مني الجواب عليها، وأنا ممن قد وهب ا لله الكريم علماً بها وبصراً نافذاً في كشفها، أفأتركه يتكلم بما يريد ولا أجيبه، وأُخَلِّيه وهواه وبدعته، ولا أردُّ عليه قبيح مقالته؟

فإني أقول له: اعلم يا أخي، رحمك ا لله، أن الذي تبلى به من أهل هذا الشأن لن يخلو أن يكون واحداً من ثلاثة: إما رجلاً قد عرفتَ حسن طريقته، وجميل مذهبه، ومحبته للسلامة، وقصده طريق الاستقامة، وإنما قد طرق سمعه من كلام هؤلاء الذين قد سكنت الشياطين قلوبهم، فهي تنطق بأنواع الكفر على ألسنتهم، وليس يعرف وجه المخرج مما قد بلي به، فسؤاله سؤال مسترشد يلتمس المخرج مما بُلي والشفاء مما أُوذي... وأنت قد إستشعرت طاعته وأمنت مخالفته، فهذا الذي قد اُفترض عليك توفيقه وإرشاده من حبائل كيد الشياطين، وليكن ما ترشده به، وتوقفه عليه من الكتاب والسنة والآثار الصحيحة من علماء الأمة من الصحابة والتابعين، وكل ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، وإياك والتكلف لما لا تعرف، وتمحُّل الرأي، والغوص على دقيق الكلام؛ فإن ذلك من فعلك بدعة،

وإن كنت تريد به السنة، فإن إرادتك للحق من غير طريق الحق باطل، وكلامك على السنة من غير السنة بدعة، ولا تلتمس لصاحبك الشفاء بسقم نفسك، ولا تطلب صلاحه بفسادك... فهذا أحد الثلاثة.

ورجل آخر يحضر في مجلس أنت فيه حاضر، تأمن فيه على نفسك، ويكثر ناصروك ومعينوك، فيتكلم بكلام فيه فتنة، وبليَّةٌ على قلوب مستمعيه ليوقع الشك في القلوب؛ لأنه هو ممن في قلبه زيغ، يتبع المتشابه ابتغاء الفتنة والبدعة، وقد حضر معك من إخوانك، وأهل مذهبك من يسمع كلامه إلا أنه لا حجة عندهم على مقابلته، ولا علم لهم بقبيح ما يأتي به، فإن سكتَّ عنه لم تأمن فتنته بأن يفسد بها قلوب المستمعين، وإدخال الشك على المستبصرين، فهذا أيضاً مما تردُّ عليه بدعته، وخبيث مقالته، وتنشر ما علمك الله من العلم والحكمة، ولا يكن قصدك في الكلام خصومته، ولا مناظرته، وليكن قصدك بكلامه خلاص إخوانك من شبكته؛ فإن خبثاء الملاحدة إنما يبسطون شباك الشياطين ليصيدوا بها المؤمنين، فليكن إقبالك بكلامه، ونشر علمك وحكمتك، وبشر وجهك، وفصيح منطقك على إخوانك، ومن قد حضر معك، لا عليه؛ حتى تقطع أولئك عنه، وتحول بينهم وبين استماع كلامه، بل إن قدرت أن تقطع عليه كلامه بنوع من العلم تحوِّل به وجوه الناس عنه فافعل».

ثم قال رحمه الله: «وثالث مشئوم، قد زاغ قلبه، وزلت عن سبيل الرشاد قدمه، فعشيت بصيرته، واستحكمت للبدعة نصرته،

[يجتهد][(١)] أن يشككك في اليقين، ويفسد عليك صحيح الدين، فجميع الذي رويناه، وكلما حكيناه في هذا الباب لأجله، وبسببه؛ فإنك لن تستطيع رد كيده بشيء أبلغ من الإمساك عن جوابه، والإعراض عن خطابه؛ لأن غرضه من مناظرتك أن يفتنك فتتبعه، أو يملّك وييأس منك، فيشفي غيظه بأن يسمعك في دينك ما تكرهه، فاخسئه بالإمساك عنه، وأذِلّه بالقطيعة له»[(٢)].

وقال أبو عمر بن عبدالبر رحمه الله بعد أن ساق نصوص الأئمة في النهي عن مناظرة أهل البدع: قال: «إلا أن يضطر أحد إلى الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع برد الباطل، وصرف صاحبه عن مذهبه، أو خشي ضلالة عامة أو نحو هذا »[(٣)] ثم ساق نماذج من مناظرات الأئمة للمبتدعة، بل عقد بابا لذلك، وعنونه بـ: **باب إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة .**

(١) في الأصل : [يجهده] ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) الإبانة ـ ابن بطة ٢/٥٤٠-٥٤٣ (بتصرف قليل) .

(٣) جامع بيان العلم ٢/١١٦ .

المبحث الخامس

حكـم المـــــراء

* معنى المراء في اللغة[(١)]:

ماريت الرجل أماريه مراءً: إذا جادلته. والمِرْية والمُرْية بالكسر والضم: الشك والجدل. وقال الراغب: «المرية: الـتردد في الأمـر وهـو أخـص مـن الشك...والامـتراء والممـاراة : المحاجـة فيمـا فيـه مريـة» والمراء: الممـاراة والجدل، وهو أيضاً من الامتراء والشك.

والتماري والمماراة: المجادلة على جهة الشك والريبة. قال في المصباح: ولا يكون المراء إلا اعتراضاً، بخلاف الجدال فإنه يكون ابتداء واعتراضاً.

والذي يظهر لي أن المراء يـأتي بمعنـى الشـك كمـا في قولـه (تعـالى): ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾[سورة هود: ١٠٩]. ويأتي بمعنى الجـدال والمحاجـة لكن على جهة الشك كمـا في قولـه (تعـالى): ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [سورة مريم: ٣٤].

* معنى المراء في الشرع:

جاء لفظ المراء ومشتقاته في القرآن الكريم في نحـو عشـرين موضعـاً، كلها بمعنى الريبـة والشـك، أو الجـدال المذمـوم، و لم يـأت بمعنـى الجـدال الحسـن إلا في موضـع واحـد، وهـو قولـه (تعـالى) :﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً

---

(١) انظـر : لسـان العـرب ١٥/٢٧٧-٢٧٨ مـادة مـرا ، والصحـاح ٦/٢٤٩١ مـادة مـرا ، والمفردات للراغب ص: ٤٦٧.

ظَاهِرًا﴾ [سورة الكهف: ٢٢] وهو هنا على المشاكلة، فضلاً عن القيد "ظاهراً" الذي صاحب الكلمة مما يؤكد المعنى[١].

يقول الغزالي رحمه الله: «واحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه؛ إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم...»[٢].

* حكم المراء:

أولاً: ذكر المراء في نصوص القرآن الكريم:

لقد تقدم أن المراء جاء في القرآن الكريم بمعنى الريبة والشك أو الجدال المذموم، وهذا هو الغالب ـ عدا موضع واحد وهو آية الكهف وسيأتي الكلام فيها ـ مما يدل على أن المراء جاء في القرآن الكريم مذموماً منهياً عنه، ولذلك أمثلة.

أ- المراء بمعنى الريبة والشك:

١- قال (تعالى): ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[سورة الأنعام:٢] أي: تشكون في أمر الساعة . قاله السدي وغيره[٣] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٨٤/١٠ ، وأدب الحوار ـ جريشة ص : ٢٧ .

(٢) إحياء علوم الدين ١١٧/٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ١١٧/٢.

٢- وقال (تعالى): ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ [سورة الحج: ٥٥] أي: في شك من هذا القرآن [١] .

ب- المراء بمعنى الجدال المذموم:

١- قال (تعالى) :﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [سورة الشورى: ١٨] أي: يجادلون في وجودها، ويدفعون وقوعها [٢] .

٢- وقال (تعالى) :﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ [سورة النجم: ١٢] أي: أتجادلونه، وقرئت: "أفتمرونه" معناها: أفتجحدونه [٣] .

الكلام في آية الكهف:

وهي قوله (تعالى) :﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ [سورة الكهف: ٢٢]، فهذه الآية هي الوحيدة التي ينسب فيها المراء إلى النبي ﷺ ويؤذن له فيه، وهو المراء الظاهر، فما معنى المراء في هذه الآية؟

إن الموضوع الذي وقع فيه المراء هو عدة أصحاب الكهف، فقد قال (تعالى) قبل هذه الآية: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: ٢٢]، فالرسول ﷺ في هذه الآية نهي عن مراء، وأذن له في مراء، فأما المراء الذي نهي عنه، فهو

(١) المرجع السابق ٢٢٤/٣ .

(٢) المرجع السابق ١١٢/٤ .

(٣) زاد المسير ٦٨/٨.

ماكان على جهة الشك والرجم بالغيب، وأما المراء الذي أذن له فيه فهو ما كان ظاهراً، أي سهلاً هيناً مبنياً على العلم واليقين مما علمه الله (تعالى)؛ ولهذا روي عن ابن عباس وقتادة والضحاك قولهم في تفسيرها : حسبك ماقصصت عليك فلا تمار فيهم[(١)]. وقال مجاهد: إلا بما قد أظهرنا لك من أمرهم[(٢)]. وقال ابن زيد: أن يقول لهم: ليس كما تقولون، ليس تعلمون عدتهم، إن قالوا كذا وكذا فقل: ليس كذلك، فإنهم لا يعلمون عدتهم[(٣)]. وقيل (إلا مراء ظاهراً) أي: بحجة واضحة[(٤)]. وقال ابن الأنباري: معنى الآية: لاتجادل إلا جدال متيقن عالم بحقيقة الخبر، إذ الله (تعالى) ألقى إليك ما لا يشوبه باطل[(٥)]. هذا إذا علمنا أن الخائضين في عدة أصحاب الكهف هم من أهل الكتاب، وقد جاءوا يسألون النبي ﷺ عن قصتهم امتحاناً، فأمر النبي ألا يخوض في أصحاب الكهف كما يخوض أهل الكتاب الذي يعتمدون في ذلك على كتبهم وقد أصابها التحريف والتبديل، فيرجمون بالغيب، ولكن يقول في ذلك قولاً ظاهراً مبنياً على العلم الذي أنزله الله عليه.

ثم إن هذه المسألة ـ وهي عدة أصحاب الكهف ـ لا طائل تحتها ولا

(١) انظر : تفسير الطبري ١٥/١٥٠ ط. المعرفة.

(٢) انظر : تفسير الطبري ١٥/١٥٠ ط. المعرفة .

(٣) انظر : المرجع السابق .

(٤) انظر : زاد المسير ٥/١٢٧.

(٥) زاد المسير ٥/١٢٧.

فائدة من ورائها، فالمصيب والمخطئ فيها سيان، غير ما يحدث بين الخائضين من الشحناء والبغضاء، قال الألوسي رحمه الله: «﴿ إلا مراء ظاهرا﴾: غير متعمق فيه، وذلك بالاقتصار على ما تعرَّض له الوحي المبين، من غير تجهيل لجميعهم؛ فإن فيهم مصيباً وإن قل، ولا تفضيح وتعنيف للجاهل فإن ذلك مما يخل بمكارم الأخلاق التي بعثت لإتمامها»[(١)] .

وقال السعدي رحمه الله: «﴿ إلا مراء ظاهرا﴾: أي مبنياً على العلم واليقين ويكون أيضاً فيه فائدة، وأما المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها إما أن يكون الخصم معانداً، أو تكون المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فيها فائدة دينية بمعرفتها كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن في كثرة المناقشات فيها والبحوث المتسلسلة تضييعاً للزمان، وتأثيراً في مودة القلوب بغير فائدة»[(٢)]. ولهذا جاء في معنى المراء: استخراج غضب المجادل من قولهم: مريت الشاة: إذا استخرجت لبنها[(٣)].

ثانياً: ذكر المراء في نصوص السنة النبوية:

والغالب على نصوص السنة النبوية النهي عن المراء، ولذلك أمثلة، منها:

١- عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم ببيت في ربض

---

(١) روح المعاني ٢٤٧/١٥/٨.

(٢) تفسير السعدي ١٥٠/٣-١٥١ ، وانظر للفائدة: في ظلال القرآن ــ سيد قطب ٨٧/١٥/٥ .

(٣) زاد المسير ١٢٧/٥.

الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً...»[(١)]. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك الكذب وهو باطل بُني له في ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بُني له في وسطها، ومن حسَّن خلقه بُني له في أعلاها»[(٢)].

٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تمار أخاك، ولا تمازحه، ولا تَعِدْهُ موعدة فتخلفه»[(٣)].

٣- وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تَعَلَّمُوا العلم لتُباهوا به العلماء، ولا لتُماروا به السفهاء، ولاتخيَّروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»[(٤)].

---

(١) تقدم تخريجه. وانظر: سنن أبي داود ٥/١٥٠ كتاب ـ باب في حسن الخلق ح: ٤٨٠٠. ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٥٧ عن معاذ بن جبل، وعزاه إلى الطبراني في معاجمه الثلاثة وحسَّن إسناده.

(٢) سنن الترمذي ٦/٢٠٧-٢٠٨ أبواب البر والصلة ـ باب ما جاء في المراء ح: ١٩٩٤ قال الترمذي: وهذا الحديث حديث حسن لانعرفه إلا من حديث سلمة بن وردان عن أنس بن مالك. وفي تحفة الأحوذي أن الترمذي حسَّن الحديث لشواهده ٦/١٣٠، وانظر: سنن ابن ماجة ١/١٩-٢٠ المقدمة ـ باب اجتناب البدع والجدل ح: ٥١.

(٣) سنن الترمذي ٦/٢٠٨-٢٠٩ أبواب البر والصلة ـ باب ماجاء في المراء ح: ١٩٩٦ وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٤) سنن ابن ماجه ١/٩٣ ح:٢٥٤ قال في الزوائد: رجال إسناده ثقات، ورواه ابن حبان في صحيحه ١/١٤٧ برقم: ٧٧ والحاكم في المستدرك ١/٨٦ كتاب العلم عن جابر، وابن جريج، وكعب بن مالك، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١/٤٨ ح: ٢٠٦ وفي الباب عن حذيفة وأبي هريرة وحسنها الألباني. وعن كعب بن مالك عند الترمذي ٧/٣٠٥ أبواب العلم ـ باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا ح: ٢٦٥٦ وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسحاق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم، تُكُلِّمَ فيه من قِبَلِ حفظه.

٤- وعن السائب بن يزيد بن سعيد بن ثمامة قال للنبي ﷺ : «كنت شريكي في الجاهلية، فكنت خير شريك، كنت لا تداريني، ولا تماريني»[(١)].

ثالثاً: ذكر المراء في أقوال السلف:

قال أبوبكر الآجري رحمه الله بعد أن ساق نصوص الكتاب والسنة في النهي عن المراء والجدل: «لما سمع هذا أهل العلم من التابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين لم يتماروا في الدين، ولم يجادلوا، وحذروا المسلمين المراء والجدال، وأمروهم بالأخذ بالسنن وبما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم وهذا طريق أهل الحق ممن وفقه الله عز وجل»[(٢)]. وإليك بعضاً من أقوالهم في هذا المجال:

١- قال مهدي بن ميمون الأزدي: «سمعت محمد بن سيرين وماراه رجل، ففطن له، فقال: إني أعلم بما تريد، إني لو أردت أن أماريك كنت عالما بأبواب المراء» وفي لفظ: «إني قد أعلم ما تريد، وأنا أعلم بالمراء منك، ولكني لا أماريك »[(٣)].

٢-وقال عبدالله بن الحسين القاضي: « المراء يفسد الصداقة القديمة، ويحل العقدة الوثيقة، وأقل ما فيه أن تكون المغالبة، والمغالبة أمتن أسباب القطيعة»[(٤)].

---

(١) سنن ابن ماجه ٧٦٨/٢ كتاب التجارات ـ باب الشركة والمضاربة ح: ٢٢٨٧ وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة ٢٩/٢ ح: ١٨٥٣، وهو في سنن أبي داود ١٧٠/٥-١٧١ كتاب الأدب ـ باب في كراهية المراء ح: ٤٨٣٦، ومسند الإمام أحمد ٤٢٥/٣ .

(٢) الشريعة الآجري ص: ٥٥-٥٦.

(٣) الإبانة ـ ابن بطة ٥٢٢/٢ برقم :٦٢٢،٦٢٣ ، والشريعة ص : ٦١-٦٢.

(٤) الإبانة ٥٣٠/٢-٥٣١ برقم : ٦٥٥ ، وجامع بيان العلم ١٢١/٢.

٣- وقال مسلم بن يسار (١٠٠هـ): «إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته»[(١)].

٤- وقال وهب (١١٠ أو ١١٣هـ): «دع المراء والجدال عن أمرك، فإنك لا تعجز أحد رجلين: رجل هو أعلم منك فكيف تماري وتجادل من هو أعلم منك؟ ورجل أنت أعلم منه فكيف تماري وتجادل من أنت أعلم منه، ولا يطيعك، فاقطع ذلك عنك»[(٢)].

٥- وقال الأوزاعي: «سمعت بلال بن سعد يقول: إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً، يعجب برأيه فقد تمت خسارته»[(٣)].

٦- وقال سفيان بن عيينة: «سمعت رجلاً من أهل البصرة يذكر عن الحسن قال: ما أدركت فقيهاً قط يماري ولا يداري، ينشر حِكَمَ الله فإن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله»[(٤)].

٧- وقال مالك بن أنس: «المراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغن»[(٥)].

وبعد هذه النصوص من الكتاب والسنة وأقوال العلماء من سلف الأمة يتبين لنا أن المراء كله مذموم، وليس فيه ما يحمد، إلا ما كان منه

---

(١) الشريعة ـ الآجري ص :٥٦ والإبانة ٤٩٦-٤٩٧ برقم ٥٤٧،٥٤٨ وسنن الدارمي ١٠٩/١ باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة .

(٢) الشريعة ـ الآجري ص :٦٠ ، والإبانة ٥٢٦/٢ برقم : ٦٣٨ .

(٣) الإبانة ٥١٠/٢-٥١١ برقم : ٥٩١ .

(٤) المرجع السابق ٥١٨/٢-٥١٩ برقم : ٦١١.

(٥) المرجع السابق ٥٣٠/٢ برقم : ٦٥٣ .

ظاهراً سهلاً مبنياً على العلم، كما تقدم في آية الكهف؛ إذ لا فائدة ترجى من ورائه غير قساوة القلوب، وفسادها، وما يكون من القطيعة والمدابرة بين المسلمين، ودفع الحق بالباطل، فإذا خرجت المناظرة عن الحسن في الجدال، والوصول إلى الحق بأقرب طريق، وقبول الحجة بعد وضوحها فإنما هي مراء لا خير فيه، فعلى من نصح نفسه أن يمسك عنه ولو كان الحق في جهته حفاظاً على المودة بين المسلمين، أو صيانة للوقت من سفه المعاندين.

حكم المراء في القرآن:

لقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «مراء في القرآن كفر».[1] وقد اختلف أهل العلم في المراد بالمراء في القرآن الذي هو كفر على أقوال، أهمها:[2]

١- أنه الشك في القرآن، أي في كونه من عندا لله كقوله (تعالى) ﴿فلا

(١) رواه الحاكم عن أبي هريرة ٢/٢٢٣ كتاب التفسير ـ وصححه وسكت عنه الذهبي ، وفي رواية : الجدال في القرآن كفر ، ورواه أحمد في مسنده ٤/٢٤٠ وصحح إسناده أحمد شاكر ح :٧٨٣٥ وروي بلفظ: جدال في القرآن كفر ح :٧٤٩٩ وصحح إسناده أحمد شاكر، ورواه أبو داود ٥/٩ كتاب السنة ـ باب النهي عن الجدال في القرآن ح : ٤٦٠٣ وابن عبدالبر في جامع بيان العلم ٢/١١٣ وقال : لا يصح عن النبي ﷺ فيه غير هذا بوجه من الوجوه ، ورواه الطيالسي في مسنده ص : ٣٠٢، والسجزي كما في الجامع الصغير للسيوطي ٢/٧٣٠، وانظر : مشكاة المصابيح ١/٢٣٧ كتاب العلم ح : ٢٣٦ قال الألباني: وإسناده حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وهو صحيح باعتبار أن له شواهد صحيحة .... وانظر : سلسلة الصحيحة للألباني ٥/٥٤٥.

(٢) معالم السنن ـ الخطابي ٤/٢٩٧ ، وجامع بيان العلم ٢/١١٣ ، والشريعة ص : ٦٩-٧١، والإبانة ٢/٦١٣ وما بعدها

تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ [سورة هود: ١٧] أي في شك، فالمراد هنا هو الجدال المشكك فيه.

٢- أنه الاختلاف في ألفاظه، بأن يتمارى اثنان في آية أو سورة: يجحدها أحدهما ويدفعها، أو يصير فيها إلى الشك، فيقول: ليس هكذا القرآن، أو ليس هكذا علمنا رسول الله ﷺ ، ومثل هذا وقع في عهده ﷺ حيث كان القرآن يقرأ على سبعة أحرف، فنهاهم وزجرهم عن المراء في القرآن، والاختلاف في ألفاظه. ووقع في عهد الصحابة والتابعين، فرفع هذا الاختلاف بجمع عثمان رضي الله عنه المصحف على حرف واحد، وحرق بقية الأحرف.

أما ما وقع في عهده ﷺ فقد أخرجه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «سمعتُ رجلا قرأ آية وسمعتُ النبي ﷺ يقرأ خلافها، فجئت به للنبي ﷺ فأخبرتُه،فعرفت في وجهه الكراهية، وقال: كلاكما محسن، ولا تختلفوا؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا» (١).

وروى البخاري - أيضاً - عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبَّرت حتى سلَّم، فلببتُه بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول

---

(١) صحيح البخاري ٦/٥١٣-٥١٤ (فتح الباري) كتاب الأنبياء ح : ٣٤٧٦

الله ﷺ ، فقلت: كذبت[(١)] فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأتَ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تُقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ : أرسله، اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه»[(٢)].

وأما ما وقع في عهد الصحابة رضي الله عنهم: فقد أخرج ـ أيضاً ـ البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن حذيفة بن اليمان أنه قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أَرْمِينِيَة وأَذْرَبِيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال

(١) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «فيه إطلاق ذلك على غلبة الظن، أو المراد بقوله: كذبت، أي أخطأت؛ لأن أهل الحجاز يطلقون الكذب في موضع الخطأ» فتح الباري ٢٥/٩ .وعليه يتنزل ما ورد عن بعض الصحابة كعائشة وغيرها من إطلاق الكذب في مثل هذه المواطن.

(٢) صحيح البخاري ٢٣/٩ كتاب فضائل القرآن ـ باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ح:٤٩٩٢.

عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.[1]

وجاء في بعض الروايات: أنهم تذاكروا القرآن فاختلفوا فيه حتى كاد يكون بينهم فتنة، وفي رواية: «فإذا أهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، وإذا أهل العراق يقرءون بقراءة عبدالله بن مسعود، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام، فيكفر بعضهم بعضاً»[2].

فهذا المراء في القرآن منهي عنه، وإطلاق اسم الكفر عليه من حيث إنه يؤدي إلى الكفر؛ لأنه يؤدي إلى التكذيب ببعض القرآن، وجاء في بعض روايات[3] حديث الباب: «أن رجلين اختلفا في آية من القرآن، فقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ، وقال الآخر: تلقيتها من رسول الله ﷺ، فسألا النبي ﷺ، فقال: القرآن يقرأ على سبعة أحرف، فلا تماروا في القرآن، فإن مراء في القرآن كفر».

(١) صحيح البخاري ٩/١١ (فتح الباري) كتاب فضائل القرآن ـ باب جمع القرآن ح: ٤٩٨٧.

(٢) فتح الباري ٩/١٨.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/١٦٩-١٧٠ ط. دار صادر.

ويلحق بهذا الاختلافُ في القراءات لا سيما المتواترة، فإن كان الاختلاف في الأحرف قد رفع بالرسم العثماني، فلا ينبغي الاختلاف ـ على جهة الإنكار والجحود ـ في القراءات؛ لأنها كلها حق، ينبغي التصديق والتسليم لكل من قرأ بها أو ببعضها.

٣- الاختلاف في معنى القرآن، وهو الاختلاف الذي يقتضي ضرب الكتاب بعضه ببعض، والتكذيب ببعض معاني القرآن وأحكامه، على مذاهب أهل الأهواء والابتداع، وقد حذّر النبي ﷺ من ذلك أشد التحذير؛ فقد روى الأمام أحمد في مسنده من حديث عبدا لله بن عمرو بن العاص قال: لقد جلست أنا وأخي مجلسا ما أُحب أنَّ لي به حُمْرَ النَّعَم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول ا لله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرِّق بينهم، فجلسنا حَجْرَة[1]، إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها، حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول ا لله ﷺ مُغْضَبَا، قد احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول مهلا ياقوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكُتُب بعضَها ببعض، إن القرآن لم ينزل يُكذِّب بعضُه بعضَاً، بل يصدِّق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»[2].

---

(١) حَجْرَة : ناحية، أي جلسنا ناحية. انظر : لسان العرب ٤/١٦٨ مادة حجر .

(٢) المسند ١٠/٢٢٨-٢٣٠ ح:٦٧٠٢ وصحح أحمد شاكر إسناده، ونحوه عند البخاري في خلق أفعال العباد ص : ٦٢ برقم : ١٦٥ ، وانظر نحوه في مصنف عبد الرزاق ١١/٢١٦-٢١٧ برقم : ٢٠٣٦٧ باب الخصومة في القرآن . وانظر : شرح السنة للبغوي ١/٢٦٠ برقم : ١٢١ باب الخصومة في القرآن . وابن ماجه ١/٣٣ المقدمة برقم: ٨٥ باب في القدر . قال في الزوائد : هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات .

وجاء في رواية: أنهم كانوا يتنازعون في القدر، هـذا ينزع آية وهـذا ينزع آية.[١] وفي رواية: فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا، وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا، فذكر الحديث[٢].

ويدخل في هذا الباب ما وقع ويقع بين أهل الأهواء من ضرب النصوص بعضها ببعض، والإيمان ببعضها وجحد البعض الآخر؛ كما تفعله الوعيدية والمرجئة في نصوص الوعد والوعيد، وما تفعله القدرية والجبرية في نصوص القدر وأفعال العباد، وما تفعله المعطلة النفاة والمشبهة في نصوص الأسماء والصفات.[٣]

ويدخل فيه ـ أيضاً ـ من عارض النصوص بعقله ورأيه مما يوجب وقوع الشك والريبة في كلام الله ورسوله، وقد قال رسول الله ﷺ : «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار». وفي رواية : «من قال في القرآن برأيه»[٤].

ويدخل في هذا الباب الجدال في تأويل متشابه القرآن، وهو ما اختص الله (تعالى) بعلمه؛ مثل كيفية صفات الله تعالى وأسمائه، وحقائق اليوم الآخر، وأحوال البرزخ، ونحو ذلك مما علمنا معناه بمقتضى لغة

(١) مسند الإمام أحمد ٨٢/١١ ح : ٦٨٤٦ قال أحمد شاكر: صحيح الإسناد .

(٢) المسند ٨٢/١١ ح : ٦٨٤٥ قال أحمد شاكر : صحيح الإسناد .

(٣) انظر : الإبانة ـ ابن بطة ٦١٨/٢ وما بعدها.

(٤) سنن الترمذي ١٤٦/٨-١٤٧ أبواب التفسير ـ باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه ـ برقم ٢٩٥١، ٢٩٥٢ وحسنهما الترمذي .

التخاطب، وجهلنا كيفيته، فالجدال فيه ابتغاء معرفته جدال في القرآن بالباطل، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران: ٧] فقال: يا عائشة إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم الله، فاحذروهم»[(١)].

ولا يدخل في هذا الباب ما يقع بين أهل العلم من التنازع في معاني القرآن وأحكامه على جهة البيان والنصيحة، لمعرفة الناسخ من المنسوخ، والخاص من العام، والمقيد من المطلق، وما اختلف معناه، وطلب الترجيح لبعض المعاني ونحو ذلك، لا على جهة المماراة والمغالبة، ولا ابتغاء تخطئة الخصم والاستظهار عليه[(٢)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: الشريعة الآجري ص: ٧١.

الفصـل الثاني

الجـدل والمناظـرة في القـرآن الكريـم

خصائصه، وأساليبه، وتطبيقاته

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: خصائص الجدل القرآني

المبحث الثاني: أساليب الجدل القرآني

المبحث الثالث: الأصناف الذين وردت مجادلتهم في القرآن الكريم

المبحث الرابع: الأصناف الذين ذكر القرآن جدلهم

المبحث الأول
خصائص الجدل القرآني

خصائص الجدل القرآني كثيرة ومتنوعة، لكني أذكر هنا أظهر ما وقفت عليه.

أولاً: القرآن كل مافيه معجز: فإيجازه معجز، وإطنابه معجز، وألفاظه معجزة، وأساليبه معجزة، ونظمه معجز، كل هذا معجز، وكذا استدلاله وجدله وبيانه لا يصل إلى درجته نوع من الكلام... والفرق بين القرآن وكلام أعلى أئمة البيان يجعل الموازنة غير مستقيمة، فالفرق بينه وبين القرآن هو كالفرق بين الخالق والمخلوق؛ لأنه فرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق[1].

فالجدل القرآني معجز إعجاز القرآن، بمعنى أنه يستمد إعجازه من إعجاز القرآن، والقرآن معجز في كل مواد الجدل من : بلاغة، وفصاحة، وأدلة، وبراهين وغير ذلك. ومحال أن يعارض أحد القرآن في جداله، فيأتي بما يناقض القرآن، أو يعارضه، أو يماثله في صدق المعنى وصحة العبارة، وجودة الأسلوب، وبلوغ الهدف والغاية. يقول أبوبكر الباقلاني رحمه الله وهو يتحدث عن وجوه الإعجاز في القرآن: «إن المعاني التي تضمنها ـ أي القرآن ـ في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على

(١) انظر : المعجزة الكبرى ـ أبو زهرة ص :٣٤٣.

الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر ويمتنع»[(١)].

القرآن أثار في العرب دافع التحدي، وباعث المواجهة وهو سجية فيهم، ثم إنه نزل بلغتهم، وتحداهم في أعلى ما يفاخرون به، وهذا غاية التحدي، وحَفَّزهم على ذلك في أكثر من موضع، وتدرج معهم في التحدي ـ على سبيل التنزل ـ فتحداهم أن يأتوا بمثله، ثم بعشر سور منه، ثم بسورة منه ولو من أصغر سوره، فما استطاعوا، ولو كان بعضهم لبعضهم ظهيراً[(٢)].

فالقرآن واجه المشركين، وتصدى لهم، وناظرهم فيما يعتقدونه، وقطعهم بالحجة البالغة والسلطان القاهر، فما استطاعوا له رداً، ولا عنه حولاً. قال الزركشي في قصة الوليد بن المغيرة وإيفاد قريش له إلى النبي ﷺ بغية أن يقطعه ويكفّه عنهم، قال رحمه الله: إن الوليد بن المغيرة (لعنه الله) كان سيد قريش، وأحد فصحائهم، لما سمعه ـ أي القرآن ـ أُخرس لسانه، وبَلُد جنانُه، وأُطفئ بيانُه، وقُطعت حجتُه، وقُصم ظهرُه، وظَهَرَ عَجْزُهُ، وذَهلَ عقلُهُ[(٣)]، حتى قال قوله المشهور، وهو: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو ولا يُعلى[(٤)].

---

(١) كتاب الإعجاز ص : ٤٢.

(٢) انظر : البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ٢/١٠٨-١١٠.

(٣) انظر : البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ٢/١١٠ .

(٤) انظر : البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ٢/١١٠-١١١ .

فللقرآن الكريم قوة تأثير عظيمة على النفوس، حتى جعلت أهل الكفر والإلحاد يصفونه بالسحر وما هو بسحر، وجعلتهم يتناهون عن الاستماع إليه؛ قال (تعالى):﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [سورة فصلت: ٢٦]. ونطق بعض هؤلاء بالحق كُرْهاً مثلما كان من أمر الوليد وغيره.

وقال (تعالى) في شأن بعض النصارى:﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [سورة المائدة: ٨٢-٨٣].

وقال (تعالى) في شأن بعض الجن:﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مستقيم﴾ [سورة الأحقاف:٢٩-٣٠].

إن بقاء حجة القرآن ودوامها في صدقها وقوتها وحجيتها وشمولها، فحجته باقية ما بقيت السموات والأرض، وعامة لكل الناس على مختلف أزمانهم، ومواقعهم، ومراتبهم في الفهم والإدراك، وهذا البقاء والشمول مستمدان من بقاء الرسالة وشمولها:

قال (تعالى): ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٨]، وقال (تعالى): ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة سبأ: ٢٨].
وقال ﷺ: «مامن الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه

البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[١].

فلا يتصور أن أحداً ـ في أي وقت أو أي موقع ـ يجرؤ على معارضة حجة القرآن بما يقطعها، أو يشكك في مصداقيتها، على ما يكون من حجج بعض الناس التي قد تكون قاطعة لبعضهم، وفي وقت من الأوقات، ثم لا تلبث أن يعرف بعض الناس بطلانها أو ضعفها؛ فالقائلون ـ مثلاً ـ بعدم بقاء العرض زمانين، وبنوا على ذلك نفي الصفات عن الله (تعالى)، قد عرف أهل العلم والإيمان بطلان حجتهم في ذلك الوقت[٢]، وتبين لغيرهم ممن تأخر زمانهم بطلانها بدليل الحس، وذلك بعد ظهور الأجهزة التي تعنى بحفظ الأصوات والصور ونحوها من الأعراض.

أما حجة القرآن الكريم فتبقى قاطعة لكل حجة، لا يُغيِّر من ذلك زمان ولامكان ولا إنسان.

ثانياً[٣]: ومن خصائص الجدل القرآني: أنه يخاطب العقل والوجدان جميعاً، فيأتي بالفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً وعلى مستوى واحد، مما لا يوجد مثله عند أي إنسان عالماً كان أو حكيماً أو

---

(١) صحيح البخاري ٣/٩ (فتح الباري) كتاب فضائل القرآن ـ باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل ح: ٤٩٨١.

(٢) ولابن حزم كلام جيد في مناقشة هذه الشبهة وتفنيدها . انظر : الفصل ٥/٢٣٧-٢٣٨.

(٣) انظر : النبأ العظيم ــ دراز ص : ١٠٧-١١٠ ، ومناهل العرفان ٢/٢٠٩-٢١١، وخصائص القرآن الكريم ــ فهد الرومي ص :٣٥-٣٨ ، ومناهج الجدل في القرآن الكريم ـ الألمعي ص :٤٢٢.

شاعراً، يستطيع أن يمسك بالأمر من طرفيه، فيأتي بكلام واحد فيه قوة الحجة العقلية وجمال العبارة، ولو وجدا عنده فلا يعملان إلا مناوبة، كلما قويت واحدة اضمحلت الأخرى، وكاد أن ينمحي أثرها، وكلنا يحس من نفسه تناقص قوة الوجدان عند استيلاء قوة التفكير، والعكس بالعكس.

فمن نظر في كلام الناس من الفلاسفة والحكماء، وكلام الشعراء والأدباء، لم يجد إلا غلواً في جانب وقصوراً في الجانب الآخر. فالحكماء ـ مثلاً ـ يقدمون لك ثمار عقولهم، وعصارة أفكارهم غذاء لعقلك من غير أن تتطلع نفوسهم إلى إشباع عاطفتك وإرواء وجدانك.

وأما الشعراء فيقصدون إلى استثارة وجدانك، وتهييج عاطفتك، ولا يبالون بما صوروه لك أن يكون غياً أو رشداً، أو حقيقة أو خيالاً، وتراهم جادين وهم هازلون؛ يستبكون وإن كانوا لايبكون، ويَطْرَبُون وإن كانوا لا يُطْرِبُون، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ. . .﴾ [سورة الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧].

ولهذا لا تكاد تجد بشراً وفّى بحق العقل إلا وبخس بحق الوجدان، أو وفّى بحق الوجدان إلا وبخس بحق العاطفة. أما القرآن الكريم، فقد جمع الله (تعالى) فيه بين القوتين: قوة الحجة العقلية البرهانية حتى إنه ليقنع، أويقطع أرباب المعارف العقلية والفلسفية، وقوة المتعة

الوجدانية والعاطفية حتى إنه ليرضي ويشبع فحول الأدباء والشعراء، فهو كلام الله عز شأنه، لا يشغله شأن عن شأن، فهو القادر على مخاطبة العقل والقلب معاً وبلسان واحد، وأن يمزج بين الحق والجمال.

انظر ـ مثلاً ـ إلى قوله (تعالى): ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: ٢٢] وتأمل وتدبر كيف اجتمع في كلمات سبع عمق المقدمات اليقينية، ووضوحها، ودقة تصوير ما يعقب التنازع من الفساد الرهيب؛ مما لو ابتغى تقرير مثله فلاسفة العصور كلها لما استطاعوا إلا بعبارة طويلة جافة، كما هو واضح في دليل التمانع الذي صوره المتكلمون، وجعلوا هذه الآية دليلاً عليه، فأخطأوا.

وانظر ــ أيضاً ــ إلى هذه الآية من قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[سورة يوسف: ٢٣] كيف تخرج من خلالها البراهين الساطعة والعظات البالغة، فتأمل كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث: الحسب، وتغليق الأبواب، وكونه أجيراً عند امرأة العزيز. بدواعي العفاف الثلاث: الاعتصام با لله، والأمانة، وعدم الظلم. مقابلة صوَّرت من هذه القصة الممتعة جدالاً عنيفاً بين جند الرحمن وجند الشيطان، ووضعته أمام صاحب العقل المنصف في كفتي ميزان لينتصر اختيار الصِّدِّيق، ويخسر اختيار الشيطان.

ثالثاً: ومن خصائص الجدل في القرآن الكريم أن أدلته لها من القطعية في الثبوت مثلما للقرآن الكريم من ذلك، إذ نصوصه وردت بطريق التواتر الذي يفيد العلم اليقيني الاضطراري؛ فلا شك ولا ظن في ثبوت أدلته، كما لاشك ولا ظن في ثبوت نصوصه، هذا من جهة الورود، وكذلك من جهة المعاني والدلالات فأدلة الجدل قطعية؛ لأن المراد بها تقرير القواعد الاعتقادية، وإقامة الأدلة والبراهين على قضايا الاعتقاد، والرد على الخصوم، وهذا من أعظم ما جاء القرآن لتقريره، فلا بد أن يكون في وضوح معانيه، وقوة دلالته، ودقة مقاصده ما يجعله هداية للضالين، وقطعا للمعاندين، وحجة على الخلق أجمعين. فلا تناقض بين أدلته وبراهينه كما قال (تعالى) ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ٨٢].

ولا ضعف في قوة حجة القرآن ووضوح محجته، كما قال (تعالى): ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: ٤١-٤٢]. فلا أحد في قديم الزمن ولا في حديثه يُعرف أنه أقام دليلاً صحيحاً وحجة قاطعة يعارض بها أدلة القرآن الكريم وحججه، بل لم يذكروا إلا ما يدل على عجزهم وانقطاعهم، وذلك حين وصفوا القرآن بالسحر والشعر وهم أول من يعرف براءته من ذلك؛ كما كان من أمر الوليد بن المغيره المتقدم ذكره.

بل هؤلاء الذين أخبر القرآن أنهم صالوا النار ـ كأبي لهب والوليد ـ لم يجرؤ أحدهم على تكذيب القرآن بإبطال حجته، وإظهار تناقضه ـ مع حرصهم على معارضته ـ فيعلن إسلامه، ولو على سبيل المعارضة، فلله الحجة البالغة أبداً.

ولهذا قال أبو عبدا لله الرازي ـ مع خبرته في الكلام ـ في آخر عمره: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن؛ أقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [سورة فاطر: ١٠]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [سورة طه: ١١٠] ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»(١).

رابعاً: تميُّز الجدل القرآني عن الجدل اليوناني والكلامي، وذلك من وجوه كثيرة، أهمها:

١ – القرآن نزل لهداية الناس كافة، وما فيه من الاستدلال والجدل إنما هو لمخاطبة الناس جميعاً، وعلى مختلف مستوياتهم العقلية والعاطفية، بعكس طريقة المناطقة والمتكلمين في الجدل والاستدلال، فلا يفهمها إلا طائفة خاصة من الناس؛ وذلك لما فيها من الغموض، والإلغاز في الاستدلال، والتطويل في العبارات(٢).

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/١٦٠ ، والرد على المنطقيين ص :٣٢١.

(٢) انظر : من أسرار البلاغة ـ محمود شيخون ص :٢٢٣ .

٢-القرآن الكريم لم يلتزم طريقة المناطقة والمتكلمين الاصطلاحية في المقدمات والنتائج من الاستدلال بالكلي على الجزئي في قياس الشمول [(١)] ، أو الاستدلال بأحد الجزئين على الآخر في قياس التمثيل [(٢)] ، أو الاستدلال بالجزئي على الكلي في قياس الاستقراء [(٣)] ، وذلك [(٤)] :

أ-لأن القرآن جاء بلسان العرب، وطريقتهم في التخاطب، فطريقته تجمع بين عمق المعنى ودقة التصوير، ووضوح التعبير، وسلامة التركيب دون إخلال بالصورة البيانية التي تثير الضمير وتوقظ المدارك النفسية، وتدفع بالعقول إلى النظر دون ارتباط بالاصطلاحات المنطقية الفلسفية المعقدة [(٥)] . «فطريق القرآن الكريم في الاستدلال وتوجيه العقول

---

(١) قياس الشمول : اشتراك الأفراد في حكم عام وشموله لها . انظر : الرد على المنطقيين ص: ٣٦٤ .

(٢) قياس التمثيل : إثبات حكم في أمر لثبوته في آخر لعلة مشتركة بينهما، ويسمى المحكوم عليه فرعاً، والشيء المنقول منه الحكم أصلاً، أو مثالاً، والعلة المشتركة بينهما جامعة. وهو قياس الأصوليين، ويسمى الشرعي. انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ١١٩٣/٥-١١٩٤، والمعجم الفلسفي (مجمع اللغة العربية) ص: ٥٥

(٣) الاستقراء : هو الحكم على الكلي لثبوت ذلك الحكم في جزئياته أو أفراده، إما كلها وهو الاستقراء التام، وإما أكثرها وهو الاستقراء المشهور، معتمداً على مبدأ الحتمية، كقولنا : لكل طائر جناحان . انظر : المعجم الفلسفي (مجمع اللغة العربية) ص : ١٢ ، والمعجم الفلسفي ـ صليبا ٧١/١-٧٢ .

(٤) انظر : مباحث في علوم القرآن ـ القطان ص :٢٩٩-٣٠٠.

(٥) انظر : منهاج الجدل ـ الألمعي ص : ٤١٦-٤١٧ .

والمشاعر لإدراك أعمق الحقائق أيسر وأشمل وأقوم... فعلى الناظرين في القرآن الكريم والداعين إلى نشر قضاياه ومبادئه أن يعملوا على إشاعة الأسلوب القرآني، وتقريبه بما يرفع الحجب الاصطلاحية عن وجهه الجميل، حتى لا تغرق معانيه في خضم الاصطلاحات المنطقية والفلسفية»(١).

ب-ولأن الاعتماد في الاستدلال على ما فُطِرَت عليه النفس من الإيمان بما تشاهده وتحس به دون عمل فكري معقد أقوى أثراً وأبلغ حجة.

ج- ولأن ترك الجلي من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفي نوع من الغموض والإلغاز لايفهمه إلا الخاصة، وينافي قصد الشارع من هداية الناس وبيان الحق لهم.

يقول الزركشي رحمه الله: «اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله (تعالى) قد نطق به، لكن أورده (تعالى) على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين:

أحدهما: بسبب ما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [سورة إبراهيم: ٤].

والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجَّة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون

---

(١) القرآن العظيم ـ عرجون ص : ٢٨٣-٢٨٤ بتصرف .

لم يتخطَّ إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، ولم يكن مُلْغِزاً، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلِّ صورة تشتمل على أدق دقيق، لتفهم العامة من جليلها ما يُقنعهم ويُلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهم الخطباء ...»[١].

٣- الجدل القرآني يدل على الحقائق في ذاتها، فبراهين القرآن وحججه دالة على الأمور المعيَّنة، كأسماء الله وصفاته، والملائكة، والرسل، والكتب، والعرش، والكرسي، والجنة والنار، وما وقع للأنبياء مع أقوامهم من قصص وأحداث معيَّنة، وكذلك ما أخبر به الله (تعالى) ورسوله ﷺ من الأمور المستقبلية وغير ذلك، كلها أمور معينة ليست من نوع القضايا الكلية التي لا تكون إلا في الذهن، ولا تمنع من وقوع الشركة فيها، كما هو حال كلام المناطقة وجدلهم، فأقيستهم التي هي عندهم برهانية لا تفيد إلا أموراً كلية، لا تدل على شيء معين.

٤-«إن أسلوب القرآن أسمى من الخطابة وأسمى من منطق أرسطو ومن لفَّ لفه، تراه قد اعتمد في مسالكه على الأمر المحسوس أو الأمور البدهية التي لا يمتري فيها عاقل، وليس فيه قيد من قيود الأشكال المنطقية، من غير أن يخل بدقة التصوير، وقوة الاستدلال، وصدق كل ما اشتمل عليه من مقدمات ونتائج في أحكام العقل، وإنك لترى بعض أوصاف الأسلوب الخطابي قد أتى فيها بالمثل الكامل فيه، وهو أعلى من أن يوصف بأنه جاء على منهاج من مناهج الخطابة...

(١) البرهان ص : ٢٤ وانظر : معترك الأقران ـ السيوطي ٤٥٦/١.

ومهما يكن من قول في استدلالات القرآن الكريم، فإن له مناهج في الاستدلال تعلو على براهين المناطقة، والأخيلة المثيرة للإقناع، والأدلة الخطابية»(١).

وبهذا يُعلم بطلان ما يزعمه المعظّمون للمنطق من أن القرآن جاء بالطرق البرهانية والخطابية والجدلية، وهذا يعني أن القرآن قد جاء بما عند المناطقة من طرق الاستدلال، واستدلوا على ذلك بقوله (تعالى): ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

وقد ردَّ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذه الفرية بقوله: «إن ما يجعلونه من القرآن مطابقاً لأصولهم ليس كما يقولون، فإن قيل: لا ريب أن ما جاء به الرسول من الحكمة والموعظة الحسنة والجدل يخالف أقوال هؤلاء الفلاسفة أعظم من مخالفته لأقوال اليهود والنصارى. لكن المقصود أن الثلاثة المذكورة في القرآن هي: البرهان الصحيح والخطابة الصحيحة والجدل الصحيح، وإن لم تكن هي عين ما ذكره اليونان، إذ المنطق لا يتعرض لشيء من المواد، وإنما الغرض أن هذه الثلاثة هي جنس هذه الثلاثة.

قيل: وهذا ـ أيضاً ـ باطل، فإن الخطابة عندهم ما كان مقدماته مشهورة، سواء كانت علماً مجرداً أو علماً يقينياً، والوعظ في القرآن

---

(١) المعجزة الكبرى ـ أبو زهرة ص: ٣٧٢-٣٧٣ .

هو الأمر والنهي والترغيب والترهيب؛ كقوله (تعالى): ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [سورة النساء: ٦٦-٦٨] فقوله ﴿ما يوعظون به﴾ أي ما يؤمرون به. وقال: ﴿يَعِظُكُمَ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النور: ١٧] أي ينهاكم عن ذلك.

وأيضاً ـ فالقرآن ليس فيه أنه قال: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل، بل قال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ﴾ وذلك لأن الإنسان له ثلاثة أحوال: إما أن يعرف الحق ويعمل به، وإما أن يعرفه ولا يعمل به، وإما أن يجحده.

فأفضلها أن يعرف الحق ويعمل به. والثاني: أن يعرفه ولكن نفسه تخالفه فلا توافقه على العمل به. والثالث: من لا يعرفه بل يعارضه. فصاحب الحال الأول هو الذي يُدعى بالحكمة، فإن الحكمة هي العلم بالحق والعمل به، فالنوع الأكمل من الناس من يعرف الحق ويعمل به، فيُدعون بالحكمة. والثاني: من يعرف الحق لكن تخالفه نفسه، فهذا يوعظ بالموعظة الحسنة. فهاتان هما الطريقان: الحكمة، والموعظة، وعامة الناس يحتاجون إلى هذا وهذا، فإن النفس لها أهواء تدعوها إلى خلاف الحق وإن عرفته، فالناس يحتاجون إلى الموعظة الحسنة وإلى الحكمة فلا بد من الدعوة بهذا وبهذا.

وأما الجدل فلا يدعى به، بل هو من باب دفع الصائل، فإذا عارض الحق معارض جودل بالتي هي أحسن؛ ولهذا قال: ﴿وجادلهم﴾ فجعله

فعلاً مأموراً بـه مـع قولـه ﴿ادع﴾ فـأمره بـالدعوة بالحكمـة والموعظـة الحسنة، وأمره أن يجادل بالتي هي أحسن، وقال في الجدال: ﴿بالتي هي أحسن﴾ ولم يقـل "بالحسـنة" كمـا قـال في الموعظـة؛ لأن الجـدال فيـه مدافعة ومغاضبة، فيحتاج أن يكون بالتي هي أحسن حتـى يصلـح مـا فيه من الممانعة والمدافعة. والموعظة لا تُدافع كما يُدافـع المجـادل. فمـا دام الرجل قابلاً للحكمة أو الموعظة الحسنة، أو لهما جميعاً لم يحتج إلى مجادلة، فإذا مانع جودل بالتي هي أحسن...»[1].

٥- والقرآن لا يحتجُّ في مجادلته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم بهـا كمـا هـي الطريقة الجدلية عند أهل المنطق وغيرهم، بل بالقضايا والمقدمات الـتي يسلمها الناس، وهي برهانيـة. وإن كـان بعضهـم يسـلمها، وبعضهـم ينازع فيها ذكر الدليل على صحتها كقولـه (تعـالى): ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [سورة الأنعام: ٩١] فإن الخطاب لما كان مع من يُقـرُّ بنبـوة موسـى من أهل الكتاب ومع مـن ينكرهـا مـن المشـركين، ذكـر ذلـك بقولـه (تعالى): ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ [سورة الأنعام: ٩١]. وقـد بـين البراهين الدالة على صدق موسى في غير موضع[2].

---

(١) الرد على المنطقيين ص: ٤٦٧-٤٦٨.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ١٩/١٦٥-١٦٦.

خامساً: ومن خصائص الجدل القرآني أنه إذا أراد إلزام الخصوم وإفحامهم، فعل ذلك بأقرب الطرق وأقواها إلزاماً وإفحاماً، فلا يجد الخصم لنفسه ملاذاً، ولا فكاكاً غير التسليم والإذعان، من ذلك ما حكاه الله (تعالى) عن إبراهيم عليه السلام في مجادلة مدعي الربوبية، قال (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨].

ووسائل أخذ الخصم وإلزامه وإفحامه بأقرب الطرق كثيرة في القرآن الكريم، من ذلك:

١- التحدي، كما تحدى الله (تعالى) كفار قريش بأن يأتوا بمثل القرآن، ثم بعشر سور مفتريات، ثم بسورة واحدة.

٢- أخذ الخصم بموجب كلامه، وإثبات أنه عليه وليس له، من ذلك قول المنافقين كما في قوله (تعالى): ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [سورة المنافقون: ٨] فقال (تعالى) راداً عليهم: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة المنافقون: ٨] فسلّم لهم أن الأعز يُخرج الأذل، ولكن من هو الأعز؟! فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

٣- مجاراة الخصم؛ وهو موافقته فيما يقول في بعض المقدمات، ثم التعقيب عليه بما يقلب عليه نتائج قوله، ويبطل دعواه. من ذلك قوله (تعالى) حكاية عن الرسل مع أقوامهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة إبراهيم: ١١]. فالرسل سلّموا بالمقدمة التي بنى عليها أقوامهم إنكارهم، ولكنهم نقضوا النتيجة بقولهم: ﴿ولكن الله يمنُّ على من يشاء من عباده﴾.(١)

سادساً: ومن خصائص الجدل القرآني أنه يعرض القضية الواحدة المراد إيضاحها وتقريرها في أكثر من أسلوب(٢). فمثلاً: قضية البعث بعد الموت مرة يذكرها بصيغة الخبر المؤكّد بالقسم، كما في قوله (تعالى): ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة التغابن: ٧].

ومرة يذكرها بالخبر عن قصة واقعية؛ كما في قوله (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠].

---

(١) انظر : المعجزة الكبرى ص : ٣٨٥-٣٨٦ .

(٢) انظر: منهج الحوار في القرآن ـ عبدالحليم حفني ص:١٨ مقال بمجلة الهداية ـ العدد ١٠٠ السنة التاسعة ـ جمادى الثانية ١٤٠٦هـ.

ومرة ثالثة يعرضها بذكر جدال مع منكري البعث؛ كما في قوله (تعالى): ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة يس: ٧٧-٨٣].

وهكذا فتنوع عرض القضية الواحدة يزيد في سبل الإقناع وضروب الهداية، حتى يوافق مشارب الناس، على تباين مقاصدهم، وتفاوت مداركهم، فتجد كلُّ طائفة منهم في القرآن ما يقنعها أو يرشدها أو يقطعها.

سابعاً: ومن خصائص الجدل القرآني؛ أنه يرشد مخاصميه إلى العقل الصريح، والعقل هو أغلى ما يفاخر به المخاصم، والقرآن لا يخاف نتائج العقل؛ لأنها دائماً ـ إذا كانت صحيحة صريحة ـ لا تتعارض مع الحقائق الإيمانية، بل القرآن يأمر بإعمال الفكر والنظر، واستخدام العقل إلى الغاية الممكنة. قال (تعالى): ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سورة سبأ: ٤٦] وقال (تعالى): ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة يونس: ١٠١].

وهناك قوانين عقلية لا يمكن الاختلاف والتنازع فيها، كوجوب الجمع بين المتماثلات، والتفريق بين المختلفات، وإلحاق الشيء بنظيره، وإعطاء الفرع حكم أصله، ونحو ذلك. ولهذا ذم الله (تعالى) الذين يجادلون في الله بغير حجة: لا من كتاب ناطق، ولا من عقل صادق. فقال (تعالى): ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [سورة الحج: ٨].

ونجد آيات كثيرة فيها المطالبة بالتزام ما يقتضيه العقل، والإذعان إلى حكمه - وهو موافق لا محالة لحكم الشرع - فمن ذلك قوله (تعالى) مخاطباً أهل الكتاب: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٤٤] ويقول لهم في شأن انتسابهم إلى إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران ٦٥-٦٨].

وسفّه الخليل عليه السلام مَنْ عَبَدَ من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره، وطالبه أن يُحكّم عقله، قال (تعالى): ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٦٦-٦٧].

واشتمال الجدل القرآني على القوانين العقلية الصريحة يجعله حجة على كل الناس، لاسيما الذين غلبت عليهم الدراسات العقلية والفلسفية، أو الذين لهم مذاهب دينية سابقة يتعصبون لها، ولا ينقلبون عنها إلا بقناعات جديدة، وهذا ما يضمنه الجدل القرآني لهؤلاء الأصناف من البشر، إذا تخلوا عن التعصب والعناد.

ثامناً: ومن خصائص الجدل القرآني أن المقصود به في المقام الأول هداية الخلق، وهو أحرص ما يكون عليها، فهذه غايته وهدفه، بعكس المجادل من البشر فقد تكون له غايات فاسدة من حبِّ العلوِّ في الأرض، والإفساد فيها وغير ذلك على ما مر بيانه في الجدل الباطل.

فلهذا تجد القرآن الكريم يقر ـ في أدب رفيع وإنصاف بليغ ـ للخصم ما معه من الحق؛ كما في قوله (تعالى) لما قالت ملكة سبأ ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [سورة النحل الآية ٣٤] فلما كان هذا هو الغالب على الملوك قال ا لله (تعالى): ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(١) [سورة النمل: ٣٤] .

وفي جدال القرآن أسلوب التنزل مع الخصم إلى درجة أن يساوي بين المحق والمبطل أمام القضية المراد المناظرة فيها، قال (تعالى): ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة سبأ: ٢٤] إلى غير ذلك مما يستنكف كثير من الناس أن يخضعوا له.

---

(١) هذا على أحد القولين في تفسير الآية، والثاني أنه من كلام بلقيس تأكيداً للمعنى. انظر : تفسير القرطبي١٣/١٩٥.

فجدل القرآن الكريم لا يتجه إلى مجرد الإفحام والإلزام، بل يتجه في الكثير الغالب إلى إرشاد الخلق المخاصمين، والأخذ بأيديهم إلى الحق، وتوجيه النظر إلى الحقائق وما في الكون من دلائل الحق والإيمان[(١)].

ولهذا كان جدال القرآن بالتي هي أحسن، وأَمَرَ الله المؤمنين أن يجادلوا بالتي هي أحسن، وإذا جاء في جدال القرآن الشدة والتعنيف على الخصم، فهذا لا يرجع إلى أسلوب الدعوة والطريقة العامة التي يسلكها القرآن في جداله، ولكنه يرجع إلى أمور ذاتية تتعلق بالخصم المجادل؛ لأنه لم يصغ للحق على الرغم من وضوحه، ولم يستخدم عقله فيما يلقى إليه من بيان معزز بالبراهين والحجج الواضحة، ونحو ذلك من صنوف العناد، ولعلَّ ذلك يفهم من الاستثناء الوارد في قوله (تعالى): ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]. بل الأصل في جدال القرآن أنه هداية للضال، وتنبيه للغافل، وتعليم للجاهل، وإرشاد للمسترشد، ثم قطع للمعاند لدفع صياله، وحسم شرِّه المتعدي للغير.

ولهذا فجدال القرآن مع المشركين كثيراً ما يكون جدال هداية ودلالة، مع اشتماله على تخطئة مزاعمهم وإبطالها، بينما يكون جدال القرآن مع أهل الكتاب جدال تخطئة وإلزام؛ لأنهم على علم كتموه وأخفوه، أما جدال القرآن مع المنافقين، فتبدو عليه سمات الشدة والتعنيف، مصحوباً بالتهديد والوعيد. وهذه نماذج لما تقدم ذكره:

---

(١) انظر : المعجزة الكبرى ـ أبو زهرة ص :٣٨١ .

١- مجادلة القرآن للمشركين: قال (تعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٤-١٩٨]. فهذه مجادلة هادئة على الرغم من اشتمالها على أسلوب التحدي والإفحام والتخطئة.

٢- مجادلة القرآن لأهل الكتاب: قال (تعالى): ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٥-٦٧]. وهنا نلاحظ أسلوب التخطئة والإلزام لأهل الكتاب إذ أنهم على علم، لكنهم تواطئوا على كتمانه.

٣- مجادلة القرآن للمنافقين: قال (تعالى): ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ

مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: ٨-١٦]. فمجادلة المنافقين تبدو عليها سمات الشدَّة والتعنيف؛ لأنهم كفروا بقلوبهم، مع إعلانهم الإيمان بألسنتهم، مخادعة، وخوفا من سيف الشرع.

تاسعاً: ومن خصائص الجدل القرآني أنه قد يأتي في صورة قصة تجذب أنظار المخاصمين وتستدعي انتباههم، لا سيما إذا كان موضوع القصة رسولاً يعرفونه ويدَّعون متابعته، فتأتي الحجة على لسانه، فيكون ذلك أقوى تأثيراً وأشدَّ إلزاماً وإفحاماً للمخاصمين.

فمجيء الدليل أو الحجة على لسان رسول يُقرُّ المخاصمون بفضله؛ كإبراهيم عليه السلام عند العرب وبني إسرائيل، وموسى عليه السلام عند بني إسرائيل يعطي الدليل قوة فوق قوته الذاتية، فالحجة تقوم عليهم من جهتين: من جهة قوة الدليل الذاتية، ومن جهة أن الذي قاله رسول أمين يعرفونه، ويُقرُّون له بالفضل، ويدَّعون متابعته والاقتداء به[١].

مثال ذلك قوله (تعالى): ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٢٦-٢٨].

وقد تأتي القصة في صورة وصية يوصي بها الرسول أمته وذريته، فيعرف المخاصم أنه خان الرسول ـ الذي يدعي متابعته ـ في وصيته،

---

(١) انظر: المعجزة الكبرى ص: ٣٧٤-٣٧٥ .

و لم يقم بواجبها، قال (تعالى): ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٠-١٣٣].

وقد يجيء الدليل أحياناً في قصص القرآن على لسان حيوان، فيكون لذلك غرابة تثير الانتباه، وتملأ النفس إيماناً بالحقيقة التي قد يجحدها من كرَّمه ا لله بنعمة العقل. مثال ذلك ما جاء على لسان هدهد سليمان عليه السلام قال (تعالى): ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة النمل: ٢٠-٢٦] (١).

عاشراً: ومن خصائص الجدل القرآني أنه قد تتكرر المجادلة في أكثر من موضع في القرآن الكريم، لكنه تكرار فيه تنوع لا تماثل؛ ولهذا لو

---

(١) انظر : المعجزة الكبرى ص : ٣٧٥-٣٧٦ .

أعمل الناظر فهمه وقارن بدقة بين المجادلتين والمناظرتين، لوجدهما مختلفتين في طريقة العرض والأداء، وذلك لخدمة أغراض مختلفة تناسب الموضوع الذي سيقت لأجله المجادلة، ويتضح ذلك في المجادلات الواقعة بين الأنبياء وأقوامهم، فليس في القرآن تكرار أصلاً، بمعنى أن يتكرر الموضوع عرضاً وأداء وغاية وأشخاصاً، أي يتماثل تماماً، هذا لا يكون أبداً، بل يكون في كل موضع من الاعتبار والاستدلال غير ما يكون في الموضع الآخر، فهذا كما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء متعددة، كل اسم يدل على معنى لم يدل عليه الاسم الآخر، فليس في هذا تكرار، بل فيه تنويع الآيات، فالله (تعالى) سمى نفسه: الملك، والقدوس، والسلام، والمؤمن، والمهيمن، والعزيز، والجبار، والمتكبر، والخالق، والمصور، إلى غير ذلك من الأسماء، وسمى رسوله: محمداً، وأحمد، والحاشر، والعاقب، والمقفي. وسمّى كتابه: القرآن، والفرقان، وبياناً، وهدىً، وشفاءً، ونوراً، وروحاً، ونحو ذلك، وكل اسم يدل على معنى ليس هو المعنى الذي في الاسم الآخر مع كون الذات واحدة.[1] وهذا يقال ـ أيضاً ـ في المجادلات والمناظرات التي يتكرر ورودها في القرآن الكريم، فمع اتفاق الأشخاص الذين تدور بينهم المناظرة لكن تختلف المناظرة ـ كما تقدم ـ عرضاً وأداء وهدفاً؛ وذلك لاختلاف الاعتبار والاستدلال الذي سيقت المناظرة لأجله. فهذه من أعظم خصائص الجدل القرآني إذ هو كلام العليم الخبير.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٩/١٦٧-١٦٨.

حادي عشر: عادة المجادلة تحريك النفوس بالغضب والشحناء، وحملها على الاختلاف والاعتداء، فيختل توازن العقل، ويهتز ضبط الفكر مما يجعل الإنسان عيا في المناظرة، مترقباً للانكسار في كل لحظة، ولهذا يقول النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[(١)].

لكن القرآن الكريم في مجادلاته كلها، سواء المجادلة التي تكون على لسان ولي من أولياء الله (تعالى): ملكاً كان أو نبياً أو أحد عباد الله الصالحين، أو تلك التي يتولى الله (تعالى) فيها مجادلة الخصوم وإلزامهم بالحجة الدامغة، بريء من العوامل التي تؤدي إلى تشويش الفكر واهتزاز العقل مما يؤدي إلى ضعف المناظر، وحمله على الاختلاق والاعتداء. فالله (تعالى) هو الذي يؤيد أولياءه بالقول الثابت، وينصرهم بالحق الراسخ، ويثبت قلوبهم، ويشرح صدورهم، فتنطق ألسنتهم بالحجة الدامغة، والمحجة الواضحة. قال (تعالى) في حق نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [سورة النجم: ٣-٤] وقال (تعالى): ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [سورة غافر: ٥١] ومِنْ نصرهم تثبيت قلوبهم، وتأييدهم، وتقوية حجتهم، وإظهارهم على من خالفهم.

(١) صحيح مسلم ٤/٢٠١٤ كتاب البر والصلة ـ باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ... ح: ٢٦٠٩ .

أما إذا كان أحد طرفي المناظرة هو الله (تعالى) فكفى بالله شهيداً، وكفى به وكيلاً، وكفى به حسيباً: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [سورة غافر: ١٩] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٢٢] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: ٨٧]، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[سورة الأحزاب: ٦٢]، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر: ٤٣]، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [سورة غافر: ٨٥].

المبحث الثاني
أساليب الجـــــدل القرآني

إن القرآن الكريم خاطب الناس كـل النـاس في الأرض كـل الأرض، على مختلف معتقداتهم، ومذاهبهم الدينية، ومستوياتهم العقلية، فهو حجة الله (تعالى) على العالمين، وهو كذلـك الرسـالة الخاتمـة والخـالدة إلى قيـام الساعة، فلهذا كان لجدله أساليب شتى تناسب أوضـاع النـاس المختلفـة؛ باختلاف الزمان، والمكان، والمذهب الديني والعقلي. وقد عدد بعض أهل العلم ضروباً مـن أسـاليب الجـدل القرآنـي، أختـار نمـاذج منهـا في هـذا المبحث:

١- **قيـاس الخُلْـف**[١] : وهـو إثبـات الأمـر بإبطـال نقيضـه، وذلـك لأن النقيضـين لا يجتمعـان ولا يرتفعـان؛ كالمقابلـة بـين الحيـاة والمـوت، والوجود والعدم، ونحو ذلك. فدليل الخلف أن يُبطل النقيـض ليثبـت الحق، وقياس الخلف في القرآن: إبطال الباطل الذي هـو نقيـض الحـق لإثبات الحق؛ كالاستدلال على التوحيد بإبطال الشرك. كما في قولـه (تعالى): ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٩١]. فإذا ثبت بـالحسِّ أن الكوْن في غاية إتقـان الصنعـة، وإحكـام النظـام دلَّ هـذا علـى أن

(١) انظر : المعجزة الكبرى ـ أبو زهرة ص : ٣٧٦-٣٧٧ ، ومناهج الجدل ـــ الألمعي ص : ٧١-٧٢ .

خالقه واحد لا شريك له، لا معاونةً ولا منازعةً، وهو ما يسمَّى بدليل التمانع في الخلق والإيجاد؛ أي إذا امتنع بالحسِّ اختلال نظام الكون، وثبت بالحسِّ دقة صنعه، امتنع أن يكون له أكثر من خالق. ويماثل هذا دليل آخر وهو قوله (تعالى): ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٢]. فإذا كان الدليل الأول دليل الامتناع في الخلق والإيجاد، فهذا دليل الامتناع في العبادة والقصد؛ وذلك أنه لا صلاح لأمر السموات والأرض إلا بأن يكون المعبود فيهما واحداً وهو الله (تعالى)[(١)].

ومن قياس الخلف إثبات أن القرآن من عند الله (تعالى) بإبطال أن يكون من عند غيره، وذلك لانتفاء الاختلاف عنه؛ كما في قوله (تعالى): ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [سورة النساء: ٨٢] فإذا ثبت أنه لا اختلاف فيه ولا تضارب ولا تناقض، بطل أن يكون من عند غير الله (تعالى)، فلزم أن يكون من عنده سبحانه وعزَّ شأنه[(٢)].

٢- السبر والتقسيم[(٣)]: وهو أن تذكر أقسام موضوع المجادلة، ويبين المجادل أنه ليس في أحد هذه الأقسام خاصية تُسوِّغ قبول دعوى الخصم فيه، فتبطل دعواه. ومن أمثلته في القرآن الكريم ما ذكره

(١) انظر : شرح الطحاوية ١/٣٩-٤٠ .

(٢) المعجزة الكبرى ـ أبو زهرة ص : ٣٧٧ .

(٣) المعجزة الكبرى : ص : ٣٧٨ ، ومناهج الجدل ـ الألمعي ص : ٦٨ .

السيوطي رحمه الله من قوله (تعالى) :﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٣- ١٤٤] قال السيوطي رحمه الله: «فإن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة، وإناثها أخرى ردَّ (تعالى) ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم، فقال: إن الخلق لله (تعالى) خلق من كل زوج مما ذكر: ذكراً وأنثى، فممَّ جاء تحريم ما ذكرتم، أي ما علته؟! لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة أو اشتمال الرحم الشامل لهما، أو لا يدرى له علة، وهو التعبدي؛ بأن أخذ ذلك عن الله (تعالى)، والأخذ عن الله (تعالى) إما بوحي وإرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه وهو معنى قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها: والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً. والثاني: يلزم عليه أن تكون جميع الإناث حراماً. والثالث: يلزم عليه تحريم الصنفين معاً. فبطل ما فعلوه من تحريم بعضٍ في حالة، وبعضٍ في حالة؛ لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل، ولم يدَّعوه، وبواسطة رسول كذلك؛ لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي ﷺ، وإذا

بطل جميع ذلك ثبت المدَّعى، وهو أن ما قالوه افتراء على الله وضلال»[1].

٣- قياس التمثيل[2]: وهو أن يقيس المستدل الأمر الذي يدَّعيه على أمر معروف عند من يخاطبه، أو على أمر بدهي لا تنكره العقول وتُقر به الأفهام، ويبين الجهة الجامعة بينهما.

وكثير من أدلة البعث في القرآن تقوم على قياس التمثيل ومنه قياس الغائب على الشاهد بالمماثلة بينهما. من ذلك قوله (تعالى): ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة يس: ٧٨-٨١].

ومن ذلك أيضاً قوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/١٣٦-١٣٧ وانظر: معترك الأقران ١/٤٦٠-٤٦١.

(٢) انظر: المعجزة الكبرى ص: ٣٨٠ مناهج الجدل ـ الألمعي ص: ٧٢.

الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [سورة الحج ٥-٧].

٤- القول بالموجَب[١]: وهو رد كلام الخصم من فحوى كلامه ـ أي بموجَب كلامه ـ وقيل هو قسمان:

أحدهما: أن تقع صفة في كلام الخصم كناية عن شيء أثبت له حكم، فيثبتها لغير ذلك الشيء، كقوله (تعالى): ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة المنافقون: ٨] فالأعزُّ وقعت في كلام المنافقين كنايةً عن فريقهم، والأذلُّ عن فريق المؤمنين، فأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة، فردَّ الله (تعالى) ذلك عليهم، بأن أثبت صفة العزة لغير فريقهم، يعني أنها ثابتة لله ورسوله والمؤمنين، فكأنَّه قيل: صحيح ذلك، ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ، لكنْ همُ الأذلُّ المخرَج، والله ورسوله والمؤمنون هم الأعزُّ المخرِج.

والثاني: حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه. قال السيوطي رحمه الله[٢]: «ولم أر من أورد له مثالاً من القرآن، وقد ظفرتُ بآية منه وهي قوله (تعالى): ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ [سورة التوبة: ٦١]».

---

(١) انظر : معترك الأقران ٤٦١/١-٤٦٢ ، والإتقان في علوم القرآن ١٣٧/٢ ، واستخراج الجدل ص: ١١٥-١١٦.

(٢) الإتقان ١٣٧/٢.

٥- **التسليم**[(١)]: وهو أن يفرض المحال إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع ليكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلّم وقوع ذلك تسليماً جدلياً، ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه. مثال ذلك: قوله (تعالى): ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ... ﴾ [سورة المؤمنون: ٩١] المعنى ليس مع الله من إله، ولو سُلّم أن معه سبحانه إلهاً، لزم من ذلك التسليم ذهابُ كل إله بما خلق، وعلوٌّ بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله. والواقع خلاف ذلك، فوجود إلهين فصاعداً محال، لما يلزم منه المحال[(٢)]. وهذا النوع قريب من قياس الخلف المتقدم ذكره، إلا أنه ينفرد عنه بالتسليم الجدلي الوارد في الخيال لا في الواقع .

٦- **الانتقال**[(٣)]: وهو أن ينتقل المستدل إلى دليل آخر لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الدليل الأول، أو فهمها لكنه قصد المعاندة والمغالطة، فيأتيه المستدل بدليل آخر لا يملك أمامه إلا الإذعان أو الانقطاع. من أمثلة ذلك: ما جاء في مناظرة إبراهيم الخليل للذي حاجَّه في ربه؛ قال (تعالى): ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ

(١) انظر : الإتقان ـ السيوطي ٢/١٣٧ ومعترك الأقران ـ السيوطي ١/٤٦٢ .

(٢) انظر: معترك الأقران ١/٤٦٢، والإتقان ٢/١٣٧.

(٣) الإتقان ـ السيوطي ٢/١٣٧، معترك الأقران ـ السيوطي ١/٤٦٢-٤٦٣.

الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨].

قال ابن الحنبلي رحمه الله: «فلا يخلو حال نمرود إما أن يكون ما فهم حقيقة الإحياء والإماتة، أو فهم إلا أنه قصد المصادمة والمباهتة، وكلاهما يوجب العدول إلى دليل يفضح معارضته ويقطع حجاجه، ومتى كان الخصم بهذه الصفة جاز لخصمه الانتقال إلى دليل آخر أقرب إلى الفهم، وأفلج للحجة».(١) وسيأتي بيان وجه القصة في موضع آخر .

٧- **المناقضة**: كما في قوله (تعالى): ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٣] معناه: أن العلة التي توجب ـ عندكم ـ الإيمان بالرسل قد وُجدت ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ فدلَّ على أن التعليل بما ذكرتم غير صحيح، وهذا النقض وارد على معنى كلامهم، فدلَّ على جواز إيراد ما يهدم كلام الخصم على أي وجه كان.(٢)

ومن ذلك ـ أيضاً ـ قوله (تعالى) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا

---

(١) استخراج الجدل ص : ٦٧-٦٨.

(٢) انظر : استخراج الجدل ص : ١١٤.

بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [سورة القصص: ٤٨].

٨- مجاراة الخصم[١]: وذلك لتتبين عثرته بأن تُسلِّم له بعض مقدماته مع الإشارة إلى أنها لا تنتج ما يريده هو، بل هي مساعدة على إنتاج ما يريده المستدل. مثاله: قوله (تعالى): ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠-١١]. فقولهم: إن نحن إلا بشر مثلكم فيه اعتراف الرسل بكونهم مقصورين على البشرية، فكأنَّهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم، وليس هذا مرادهم، بل هو من مجاراة الخصم ليعثر، وذلك بتسليم دليله، لكن مع منع الدلالة، وذلك ببيان أن البشرية لا تنافي الرسالة؛ فكأنهم قالوا: ما ادعيتم من كوننا بشراً حق لا ننكره، ولكن هذا لا ينافي أن يمنَّ الله (تعالى) علينا بالرسالة. وكون الرسل بشراً هو سنة الله في خلقه، حيث يكون الرسول من جنس من أرسل إليهم، كما قال (تعالى): ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٥-٩٦].

٩- إظهارتشهي الخصم وتحكمه[٢]: وهو أن لايكون للخصم حجة سوى مجرد التشهي والتحكم، فإن جاءه ما يوافق هواه قبله وإلا رده

(١) انظر : معترك الأقران ٤٦٣/١ ، والإتقان ١٣٧/٢ ، ومناهج الجدل ـ الألمعي ص :٧٧

(٢) انظر : مناهج الجدل ص :٧٨.

ودفعه. مثال ذلك: قوله (تعالى): ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٨٧].

وقوله (تعالى): ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ... ﴾ [سورة البقرة: ٨٥] إذ الأخذ ببعض الكتاب موجب الأخذ بجميعه، فهو كله من عند الله، وما يكون من عند الله حق يجب الإيمان به جميعاً، فلا يجوز التفريق بين أجزائه في الإيمان والإذعان على عادة الذين جعلوا القرآن عضين.

قال ابن القيم رحمه الله بعد ذكره للآيتين السابقتين: «فهذا هو الذي تسميه النظار والفقهاء: التشهي والتحكم، فيقول أحدهم لصاحبه: لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم الباطل، فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعته ورددته، وإن كان القول موافقاً لما تهواه وتشتهيه؛ إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده قبلته وأجزته، فترد ما خالف هواك وتقبل ما وافق هواك، وهذا الاحتجاج والذي قبله مفحمان للخصم، لا جواب له عليهما البتة. فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ بجميعه، والتزام بعض شرائعه يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات، إذ لو كان الشرع تابعاً للهوى والشهوة، لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعاً له :﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]» (١) .

(١) بدائع الفوائد ٤/١٤٤ .

١٠- التحدي[(١)] : وذلك إظهاراً لعجز الخصم، ولبيان أن ما يدعيه مجرد مكابرة ولدد، لا يملك عليه حجة ولا برهاناً، وظهر ذلك جلياً في معارضة المشركين للقرآن الكريم، ونسبتهم إياه إلى قول البشر، كما في قوله (تعالى) : ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [سورة المدثر: ٢٥]، وقوله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [سورة النحل: ١٠٣] فتحداهم الله (تعالى) ـ وهم أرباب البلاغة وملوك البيان ـ أن يأتوا بمثله، إن كان القرآن ـ كما يدعون ـ من صنع البشر، بل جاء التنزل معهم في التحدي مبالغةً في أظهار عجزهم، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، ثم بسورة واحدة من مثله، ثم تحدى الثقلين جميعا: الجن والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٨].

فلما عجزوا عن الإتيان بمثله، أو بمثل بعضه ـ ومنهم أرباب البلاغة وملوك البيان ـ بطلت دعواهم أن القرآن من كلام البشر.

وقد يترقى الأمر إلى المباهلة لا سيما مع الذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، مثال ذلك دعوة القرآن بعض النصارى إلى المباهلة في شأن عيسى ﷺ قال (تعالى): ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦١] فلم يفعلوا خوفا من الافتضاح والتعرض للعنة الماحقة.

---

(١) مناهج الجدل ص : ٨١-٨٣.

المبحث الثالث
الأصناف الذين وردت مجادلتهم في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: جدل القرآن مع المشركين

المطلب الثاني: جدل القرآن مع المنافقين

المطلب الثالث: جدل القرآن مع أهل الكتاب

المبحث الثالث
الأصناف الذين وردت مجادلتهم في القرآن الكريم

في هذا المبحث ذكر وبيان من تصدى لهم القرآن الكريم من أصناف المخالفين بالإنكار عليهم، ومجادلتهم، وتفنييد مزاعمهم، وإعلان فضائحهم، كل ذلك بغية هدايتهم واستجابتهم للحق، أو قطعهم وقمع حجتهم حمايةً للمؤمنين من شرِّهم، وذوداً عن جناب الحق بدحض مفترياتهم.

ولعلَّ أشهر من تصدى لهم القرآن الكريم بالمجادلة والإنكار عليهم هم: المشركون، والمنافقون، وأهل الكتاب. وسأذكر في هذا المبحث كل صنف على حده، مع بيان أهم وأبرز القضايا التي جادلهم فيها القرآن الكريم.

المطلب الأول
جـدل القرآن مع المشركين

وأهم القضايا التي جادل فيها القرآن الكريم المشركين:التوحيد والقدر والنبوات والبعث، وسأختار نماذج من القرآن تبين طريقته في معالجة هذه القضايا الكبرى.

القضية الأولى: تقرير توحيد الألوهية

المشرك هو من يقر بوجود الله (تعالى) وربوبيته في الجملة، وإنما ينازع في توحيد الله (تعالى)، وإفراده بالعبادة، وهذه هي الغاية التي أرسل الله من أجلها الرسل وأنزل الكتب: إفراد الله (تعالى) بالعبادة؛ ولهذا فالقرآن الكريم يجادل المشركين ويحاكمهم إلى هذا الإقرار العام - الإقرار بوجود الله وبربوبيته - مبيناً لهم أن من لا يخلق ولا يرزق ونحو ذلك من صفات الربوبية لا يستحق أن يكون إلهاً يعبد بأي نوع من أنواع العبادة؛ كالدعاء والمحبة والخوف والرجاء وغير ذلك، فإما أن يعود المشرك إلى صوابه فيعبد الخالق الرازق، وإما أن يبقى في التناقض الذي هو لازم لكل من عبد غير الله (تعالى). فالقرآن الكريم لم يتعرض لتقرير توحيد الربوبية إلا لبيان لازمه، وهو توحيد الإلهية.

والقرآن الكريم سلك في تقرير توحيد الإلهية (العبادة) وإبطال مزاعم المشركين مسالك عدة منها:

١- محاصرة المشرك:

قال (تعالى): ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [سورة الطور: ٣٥-٣٨] إلى أن قال: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة الطور: ٤٣].

ففي هذه الآيات من أنواع الدلالات ما يبطل دعاوى المشركين باتخاذهم الأنداد من دون الله (تعالى)، فمن ذلك:

أ- محاصرة المشرك بين قولين باطلين لا يستطيع أن يختار واحداً منهما، وهما: إما أن يكون الإنسان قد خُلق من غير خالق، أو أنه خلَقَ نفسه وأوجدها، وكلا الأمرين ظاهر البطلان، لا يقول به عاقل يتصور ما يقول، فلم يبق إلا القول بأن الله هو الذي خلق الإنسان وخلق كل شيء.

وهذه الآية من أقوى الآيات في بيان توحيد الربوبية المستلزم لتوحيد الألوهية ولهذا كان وقعها على المشركين كبيراً، كما روى البخاري في صحيحه[(١)] عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ كاد قلبي أن يطير». قال ابن كثير رحمه الله:

---

(١) ٨/٦٠٣ (فتح الباري) كتاب التفسير - ح :٤٨٥٤.

«وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركاً، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك»(١).

ب- فلما ظهر بطلان خلقهم أنفسهم، فظهور بطلان خلقهم السموات والأرض - مع عظمها - من باب أولى، وكذلك بطلان تصرفهم في ملكوت الله (تعالى)(٢).

ج- بيان أن المشركين ليست معهم حجة تصحح أفعالهم وأقوالهم، فليس معهم إلا الهوى واتباع الظن.

د- مطالبتهم بالإتيان بتوحيد الإلهية حيث إنه من لازم الإقرار بالربوبية، ولهذا قال (تعالى): ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة الطور: ٤٣].

٢- الاستدلال بنظام الكون ودقة صنعه على أن مدبره واحد وهو الله (تعالى)، وعليه فلا ينبغي عبادة غيره معه. من ذلك:

أ- قوله (تعالى): ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢١ - ٢٤].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٤٥.

(٢) انظر : فتح الباري ٨/٦٠٣.

فبين لهم أن وجود أكثر من إله يؤدي إلى فساد العالم، وطالبهم بالدليل على صحة قولهم، وأنّى لهم مع مخالفته لما جاء به رسل الله (تعالى).

ب- وقال (تعالى): ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٩١-٩٢].

وهذه الآية حجة لدليل التمانع الذي يقرره المتكلمون[١] ويستدلون له خطأ بقوله (تعالى): ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: ٢٢] ودليل التمانع هو: أنه لو فُرض وجود صانعين متكافئين في الصفات وفي الأفعال، فعند اختلاف إرادتهما، كأن يريد أحدهما تحريك جسم ويريد الآخر سكونه، فإما أن يحصل مراد كل واحد منهما وهو جمع بين النقيضين، وهو باطل، وإما أن لا يحصل مراد واحد منهما، وهو رفع للنقيضين، وهو ـ أيضاً ـ باطل مع نسبة العجز لكل واحد منهما، وإما أن يحصل مراد واحد منهما دون الآخر فيكون هو الرب الحق،

---

(١) انظر دليل التمانع عند الباقلاني في كتابه : التمهيد ص: ٤٦، وكتابه الإنصاف ص: ٣٤، وانظر مناقشة ابن رشد لهذا الدليل في كتابه : مناهج الأدلة ص : ١٥٥ وما بعدها. ومناقشة ابن تيمية لكلام ابن رشد في كتابه : درء التعارض ٣٣٦/٩ وما بعدها . ومما جاء أثناء كلامه وصفه دليل التمانع بأنه برهان صحيح عقلي كما قرره فحول النظار . انظر: الدرء ٣٥٤/٩-٣٥٥ ، وانظر : حز الغلاصم ص: ٣١ ، والداعي إلى الإسلام ص: ٢٢٣-٢٢٦ .

والآخر عاجزاً لا يصلح للربوبية. ونظام الكون ودقة صنعه يدل على أن خالقه ومدبره واحد لا شريك له وهو الله (تعالى).

ج- وقال (تعالى): ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [سورة الاسراء: ٤٢-٤٣]. فالمعنى: أنه على فرض وجود آلهة مع الله (تعالى) - كما يزعم المشركون - فهذه الآلهة تعبد الإله الحق وتتقرب إليه وتبتغي إليه الوسيلة والقربى، فإذا كان هذا شأن آلهتكم التي تعبدونها، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونهم من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه[1] كما قال (تعالى): ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٦].

ومما يلفت الانتباه وجود لفظة " سبحان " في الآيات الثلاث المتقدمة، ومعناها التنزيه، وذلك إظهاراً لشناعة دعوى المشركين، وعظم افترائهم على الله (تعالى).

٣- بيان نعم الله وآلائه على خلقه وآثار قدرته التي لا يملكون ردها ولا إنكارها، وهو يسفه عقول المشركين وطريقة تفكيرهم التي لا تقودهم - مع ظهور الآيات الدالة على عظمة الخالق - إلى الإيمان بالله (تعالى) والاستجابة لرسله، ويطالبهم بالبرهان على صحة ما يدعونه وأنى لهم.

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٤١.

من ذلك قوله (تعالى): ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة النمل: ٥٩-٦٤].

فها هي نعم الله تعالى تترا على خلقه وعباده، وها هي آياته في الأنفس والكون ظاهرة لكل ذي بصر، فهل هناك أحد يستحق ـ مع هذا كله ـ العبادة سواه ؟! **أإله مع الله، أإله مع الله، أإله مع الله!!**

٤- تقرير المشركين بتوحيد الربوبية ثم مطالبتهم بلازمه وهو توحيد الإلهية، وإلا وقعوا في التناقض الذي هو دليل سفاهة عقولهم وسذاجة تفكيرهم.

قال الله (تعالى): ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٨٤- ٩٠].

وقال (تعالى): ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ *وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة يونس: ٣١-٣٦].

فواضح جداً أن تفريقهم بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية باطل، بل ظاهر البطلان في العقل وفي الشرع، وأنه ليس معهم إلا التكذيب، ومتابعة الظنون التي لا تغني من الحق شيئاً.

ومن الآيات ـ أيضاً ـ التي في هذا المعنى قوله (تعالى): ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦١]. وقال (تعالى): ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٣] وقال (تعالى): ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٨٧].

ولهذا يدعوهم الله (تعالى) إلى عبادته وحده لا شريك معه، كما في قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [سورة الأنعام: ١٠١-١٠٢].

٥- بيان عجز آلهة المشركين مما يبين بطلان ما يُدَّعى لها من الألوهية، ولذلك أمثلة كثيرة في القرآن، أختار منها:

أ- قال (تعالى): ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [سورة الأحقاف: ٤-٦]. والآية الأخيرة مثل قوله (تعالى): ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [سورة مريم: ٨١-٨٢]، وكقوله (تعالى): ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [سورة يونس: ٢٨-٢٩].

ب- وقال (تعالى): ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحج: ٧٣-٧٤]. وفي صحيح البخاري[(١)] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا

---

(١) ١٣/٥٢٨ (فتح الباري) كتاب التوحيد ـ باب قول الله: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [سورة الصافات]... ح: ٧٥٥٩.

حبة، أو شعيرة» وفي رواية في مسند الإمام أحمد[١]: «فليخلقوا مثل خلقي ذرة أو ذبابة أو حبة». وقال السُّدي في قوله: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ كانوا يجعلون للأصنام طعاماً فيقع عليه الذباب فيأكله.[٢] وقوله (تعالى): ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ قيل: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب، وقيل الطالب: عابد الصنم، والمطلوب: الصنم. ورجح ابن جرير رحمه الله الأول، ثم قال: «وإنما أخبر جل ثناؤه عن الآلهة بما أخبر به عنها في هذه الآية من ضعفها ومهانتها تقريعاً منه بذلك عبدتها من مشركي قريش؛ يقول (تعالى) ذكره: كيف يُجعل لي مثل في العبادة، ويُشرك فيها معي ما لا قدرة له على خلق ذباب، وإن أخذله الذباب فسلبه شيئاً عليه لم يقدر أن يمتنع منه ولا ينتصر، وأنا خالق ما في السموات والأرض، ومالك جميع ذلك... إن فاعل ذلك لا شك أنه في غاية الجهل»[٣].

ج- وقال (تعالى): ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ

(١) ٢/٣٩١.
(٢) تفسير القرطبي ١٢/٩٧.
(٣) تفسير الطبري ١٧/١٤١ ط. دار المعرفة.

يَنصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٩-١٩٨].

فبيّن سبحانه في هذه الآيات أن آلهة المشركين لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقة مربوبة، وأنها لا تنصر عابديها، بل لا تنصر نفسها إن أصابها سوء، وأنها لا تسمع دعاء من يدعوها ولا تراه، فضلاً عن أن تستجيب له.

ومن الآيات التي تبيّن عجز آلهة المشركين قوله (تعالى): ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [سورة الزمر: ٣٨]، وقوله (تعالى): ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: ١٧] وقوله (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة النحل: ٢٠-٢١] وقوله (تعالى): ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سورة لقمان:١١] إلى غير ذلك من الآيات.

٦- إبطال ما عليه المشركون بالأمثال: ولذلك نماذج كثيرة، منها:

أ- قوله (تعالى): ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الروم: ٢٨]. فهذا مثل ضربه الله (تعالى) للمشركين العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له كما كانوا يقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فضرب لهم هذا المثل من أنفسهم: يشهدونه ويفهمونه، وهو أنه هل يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله فهو وهو فيه على السواء، فما دام أنه لا يرضى ذلك، بل يأنف أن يشاركه عبده ماله، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه وعبيده، وتعتقدون فيهم أنهم شركاء لله مع أنهم من خلقه وعبيده، تعتقدون فيهم أنهم شركاء لله مع أنهم مخلوقون مربوبون له، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً[(١)].

ب-وقال (تعالى):﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سورة الزمر: ٢٩]. قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص[(٢)]، وهو: هل يستوي العبد الذي يكون لأكثر من سيد يتنازعون فيه مع العبد الواحد لسيد واحد، وعليه فكيف يستوي المشرك الذي يعبد أكثر من إله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ. . .﴾[سورة الأنعام:

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤١٦/٣.

(٢) المرجع السابق ٥٣/٤.

[٧١]. مع المخلص الذي لا يعبد إلا الله (تعالى) لا شريك له، فأين هذا من هذا؟ ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً. قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على إقامة الحجة عليهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

٧–بيان أن آلهة المشركين مع عابديها في النار، فلو كانوا آلهة حقيقة ما دخلوها. قال (تعالى): ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٨-١٠٣]. فالله (تعالى) بيَّن أن دخول آلهة المشركين النار ينفي عنها الإلهية المزعومة لها.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «جاء عبدالله بن الزِّبَعْري إلى النبي ﷺ فقال: أتزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ فقال ابن الزبعري: قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم، كل هؤلاء في النار مع آلهتنا، فنزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٧-٥٨] ثم نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾». وروي عن ابن عباس أن المشركين هم الذين قالوا هذه المقالة (٢).

(١) انظر : المرجع السابق ٥٣/٤.
(٢) تفسير ابن كثير ١٩٣/٣ .

القضية الثانية: دعوى المشركين نسبة الولد إلى ا لله (تعالى):

وهي أن الملائكة - في زعمهم - إناث، وهم بنات ا لله، تعالى ا لله عما يقولون علواً كبيراً، وقد أبطل ا لله (تعالى) هذه الفرية من عدة وجوه، وفي مواضع شتى من القرآن الكريم، أذكر نماذج منها مراعياً ترتيبها في المصحف، ثم أردفها باستخراج الحجج الربانية التي تضمنتها هذه الآيات:

قال (تعالى) في سورة النحل: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[النحل: ٥٧-٥٩] ثم قال بعدها بقليل ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

وقال (تعالى): ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.[الإسراء: ٤٠].

وقال (تعالى) في سورة مريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾.[مريم: ٨٨-٩٥]

وقال (تعالى): ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[الصافات: ١٤٩-١٦٠].

وقال (تعالى): ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[الزخرف: ١٥-١٩]

وقال (تعالى): ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى * أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى* إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[النجم: ١٩-٢٨].

بيان الحُجج الربانية التي تضمنتها الآيات السابقة:

أذكر هنا ما تيسر لي الوقوف عليه من الحجج التي أبطل الله بها دعوى المشركين نسبة الولد إلى الله (تعالى) :

١- إن الملائكة عباد لله (تعالى) يدخلون تحت ربوبيته، ويدينون له بالعبادة، كما في قوله (تعالى): ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [سورة الزخرف: ١٥] وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [سورة الزخرف: ١٩] ،

وقوله (تعالى): ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [سورة النجم: ٢٦] وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [سورة الصافات: ١٥٨] قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله (تعالى) فقال أبوبكر ﷺ: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن. وكذا ذكر قتادة وابن زيد(١). وقوله ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ قيل: إن الجن ستحضر للحساب. قال مجاهد، وقيل: إن قائلي هذا القول سيحضرون العذاب في النار. قاله السُّدي ورجحه الطبري رحمهما الله(٢).

٢- أن المشركين يختارون لأنفسهم ما يشتهونه، ثم يتحكمون في اختيار الله (تعالى)، فيجعلون له ما يتأففون عنه. قال (تعالى): ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سورة النحل: ٥٧] ولهذا قال (تعالى) في الآيات التي بعدها ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[سورة النحل: ٥٩]، وقال في سورة الصافات: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، وقال في سورة النجم: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾.

٣- أن فعلهم هذا يدور بين أمرين:

أحدهما: أنهم تحكموا في الاختيار، فجعلوا لأنفسهم ما يشتهون وجعلوا لله (تعالى) أدنى القسمين وقد تقدم بطلانه.

---

(١) انظر : تفسير الطبري ٦٩/٢٣ ط دار المعرفة، وتفسير ابن كثير ٢٤/٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٦٩/٢٣ ط دار المعرفة .

الثاني: أن ا لله (تعالى) اختار لنفسه أدنى القسمين وأصفاهم بالبنين، وبطلانه أظهر من الأول؛ لأنه يقتضي أن ا لله فضل خلقه عليه، والعلم بأن ا لله أفضل من خلقه في كل شيء ضروري عليه دلائل الكتاب والسنة والعقل الصريح. قال (تعالى): ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [سورة الإسراء: ٤٠]، وقال: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [سورة الصفات: ١٥٣-١٥٤]، وقال: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ [سورة الزخرف: ١٦].

٤- ليس كل ما يتمناه المرء هو لاقيه، بل لله الأمر من قبل ومن بعد. قال (تعالى): ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ [سورة النجم: ٢٤-٢٥].

٥- أنهم جعلوا لله (تعالى) أدنى القسمين مع أنهم لا يرضونه لأنفسهم، بل إذا ابتلي أحدهم بالبنت كان بين أمرين: إما أن يئدها حيةً، وإما أن تبقى عنده مهانة ذليلة، فكيف يجعلون لله (تعالى) ما يكرهون. قال (تعالى): ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(٥٨)يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [سورة النحل: ٥٨-٥٩] ، ثم قال بعدها: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾[سورة النحل: ٦٢] ، وقال (تعالى): ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [سورة الزخرف: ١٧].

ثم إن المرأة ناقصة ولهذا تكمل نقصانها بلبس الحلي، وإذا خاصمت كانت ضعيفة المنطق والحجة قال (تعالى) بعد الآية التي سبقت: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [سورة الزخرف: ١٨].

٦- بيان أنه لا ينبغي أن يكون لله (تعالى) ولد؛ لأنه الأحد الذي لم يلد ولم يولد، بل ما في السموات وما في الأرض خلقه وعبيده. قال (تعالى): ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [سورة مريم: ٩٢-٩٥]. وقال (تعالى): ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [سورة النجم: ٢٥-٢٦].

٧- أن هذه الدعوى لا يملكون عليها برهاناً ولا دليلاً؛ لا حسياً ولا عقلياً ولا نقلياً، بل محض الكذب والافتراء، ومتابعة الهوى والظن. قال (تعالى): ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [سورة الصافات: ١٥٠-١٥٢] ثم قال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة الصافات: ١٥٥-١٥٧] ، وقال (تعالى): ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [سورة الزخرف: ١٩]، وقال (تعالى): ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى * أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ [سورة النجم: ٢٣-٢٤] ثم قال: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [سورة النجم: ٢٨].

وقال (تعالى): ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ [سورة النحل: ٦٢] وقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة الصافات: ١٥١-١٥٢].

٨- أن دعواهم هذه إفك عظيم وقول بَشِع كما قال (تعالى): ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [سورة الإسراء: ٤٠] وقال: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [سورة مريم: ٩١].

٩- تنزيه الله (تعالى) عن هذه الفرية العظيمة؛ قال (تعالى): ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ [سورة النحل: ٥٧] وقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة الصفات: ١٥٩-١٦٠] أي أن عباد الله المخلصين ينزهونه ـ أيضاً ـ عن هذه الفرية.

القضية الثالثة: احتجاج المشركين على أفعالهم بالقدر:

قال (تعالى): ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[سورة الأنعام: ١٤٨-١٤٩].

فتعلق المشركين بالقدر باطل من عدة وجوه تبينها هذه الآيات:

١- أن هذا تكذيب لدعوة الرسل.

٢- أنها الحجة نفسها التي تعلق بها السابقون فما منعت لحوق بأس الله بهم من النكال والعذاب، فلو كانت حجة صحيحة، لحالت بينهم وبين عقاب الله (تعالى).

٣- ليس معهم علم صحيح؛ لا نقلي ولا عقلي يؤيد هذه الحجة الواهية، كما قال (تعالى): ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٢٠-٢١]. وقال (تعالى): ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾[سورة الروم: ٣٥].

٤- أن ذلك متابعة منهم للظنون الفاسدة.

٥- أنه مجرد تخرص منهم، أي كذب على الله (تعالى) ومحض افتراء، وكون الشرك واقعاً بمشيئة الله لا يدل على رضاء الله به، فليس كل ما هو واقع كوناً وقدراً يكون من محبوبات الله تعالى.

٦- لله الحجة البالغة والحكمة التامة في هداية من هدى وإضلال من أضل، وحجة الله على خلقه شرعُه ودينُه ورسلُه، وقد قامت وظهرت.

٧- أن هدايتهم بقدرته تعالى ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين، ويأمر بالإيمان ويرضاه، وينهى عن الكفر ولا يرضاه. كما قال (تعالى): ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [سورة الزمر: ٧].

وقال (تعالى): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [سورة النحل: ٣٥-٣٧].

فهنا ـ أيضاً ـ يتعلق المشركون بالقدر ويحتجون به على أفعالهم الفاسدة من الشرك وغيره، فيرد الله عليهم هذه الحجة بأنواع من الحجج الدامغة منها:

١- أن حجة الله على خلقه في إرساله الرسل كما قال (تعالى): ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ١٥] فلا عذر لأحد في فعل محرم أو ترك واجب بعد البلاغ من الله ورسوله.

٢- أن كل رسول دعا إلى عبادة الله وتوحيده، ونبذ الشرك والكفر بالطاغوت كما قال (تعالى): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٥].

٣- أن هداية الله (تعالى) لبعض خلقه أو إضلالهم تابع لمشيئته وإرادته، وهو مقتضى حكمته وعدله وفضله،أما الحجة على الخلق فبالشرع لا غير: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [سورة النساء: ١٦٥].

٤- أن سنة الله في المكذبين عقابهم وهلاكهم، مما يدل على أن أعمالهم غير مرضية لله (تعالى) .

٥- أن الهداية بيد الله وحده، ومن أضله الله لا أحد يهديه، كما قال (تعالى): ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[سورة الأعراف: ١٨٦].

القضية الرابعة: الاعتراض على شخصية الرسول ﷺ:

وذلك من عدة جهات كلها تدل على عنادهم واستكبارهم، فتارة يعترضون ببشرية الرسول، وتارة يعترضون على تخصيص محمد بن عبد الله بالرسالة، فيقولون هل كان غيره؛ من مكة أو الطائف. وتارة يقترحون نزول مَلَك معه، أو أن يأتيهم بآيات حسية تشهد بصحة رسالته.

أولاً: اعتراض المشركين ببشرية الرسول ﷺ:

أما الاعتراض على الرسل بأنهم بشر فقد حكاه الله عن سائر الأمم المكذبين بالرسل؛ كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠-١١] .

وقال (تعالى) : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٤]. فردَّ عليهم بقولـه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾[سورة الإسراء: ٩٥] فهذا من لطف الله (تعالى) ورحمته بعباده أن أرسل إليهم الرسول من جنسهم وبلسانهم ليفقهوا عنه، ويفهموا منه؛ لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته، ولا الأخذ عنه، كما قال (تعالى): ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٤] (١).

بل ذهب المشركون إلى أبعد من ذلك، فنفوا أن يكون الله (تعالى) أنزل على بشر من شيء؛ قال (تعالى): ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٩١-٩٢].

وفي هذه الآيات أنواع عدة من الردود، منها:

أ- أن السلب العام، وهو قولهم: ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ مُنتقض بإثبات قضية جزئية موجبة، وهي إنزال التوراة على موسى، وهم

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٦٣/٣.

يعترفون بذلك، بدليل أنهم يجعلونه قراطيس أي قطعاً يكتتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم، ويحرفون منها ما يحرفون.

ولعل هذه الآية ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ..... ﴾ هي حجة من قال: إن الآية نزلت في طائفة من اليهود، لكن الصحيح -وهو اختيار ابن جرير[١] وابن كثير[٢] وهو، قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما- أنها نزلت في قريش؛ لأن الآية مكية؛ ولأن اليهود لا ينكرون إنزال جنس الكتاب من السماء، أما قريش والعرب فهم الذين كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ ؛ بحجة أنه من البشر[٣].

ب- قوله (تعالى): ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُم ﴾ أي: ومن أنزل القرآن الذي علّمكم الله فيه خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي، مالم تكونوا تعلمون ذلك لا أنتم ولا آباؤكم[٤]. فهي دليل على أن القرآن من عند الله، وأنه منزَّل من عنده (تعالى) على محمد ﷺ، فما كان له أن يخبر عن هذه الأمور من تلقاء نفسه.

ج- قوله (تعالى) : ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ أي أن الذي أنزله هو الله (تعالى).

د- قوله (تعالى): ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ تأكيد على أن القرآن من عند الله (تعالى).

---

(١) انظر : تفسير الطبري ٥٢٤/١١ ط. شاكر .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ١٤٨/٢ .

(٣) انظر : المرجع ١٤٨/٢.

(٤) انظر : المرجع السابق ١٤٨/٢.

هـ- قوله (تعالى): ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مما يدل على كونه من عند الله أنه يصدق ما جاء في الكتب المتقدمة عليه في زمن النزول كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

و- أن الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بهذه الحقيقة وبكل ما أخبر الله به ورسوله، لكن المشركين لا يؤمنون بالآخرة فلا يؤمنون بإنزال الكتاب من عند الله (تعالى).

والرسول ﷺ أمر أن يؤكد حقيقة بشريته، وكونه بشراً لا ينفي عنه الرسالة والنبوة، كما قال (تعالى): ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [سورة الكهف: ١١٠]. بل كل رسل الله إلى البشر من جنس البشر كما قال (تعالى): ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠-١١].

ففي هذه الآيات اعتراضان للمكذبين لدعوة الرسل؛ أحدهما: كون الرسل بشراً. والثاني: طلبهم أمراً خارقاً للعادة يدل على صحة رسالتهم.

وقد أبطل الله الاعتراضين بحجتين ساقهما على ألسنة رسله: الأولى: تأكيد أن الرسل بشر، لكن هذا لا يمنع من إرسالهم رسلاً إلى بشر مثلهم. الثانية: أن السلطان إنما يكون بإذن الله، كالرسالة تماما، فالرسالة بإذن الله، وكذا السلطان إنما يكون بإذن الله (تعالى).

ثانياً: الاعتراض على صاحب الرسالة بأنه يحتاج في أمر الدنيا كسائر الناس مما يقدح - في زعمهم - في دعوى صلته با لله (تعالى).

قال (تعالى) في حكاية اعتراضهم: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٧-٨].

فتعللوا في دعواهم بحاجة الرسول ﷺ إلى الطعام والسعي طلباً للتكسب، فلو كان رسولاً لأنزل ا لله معه ملكاً يشهد بصدقه، أو يغنيه ا لله عن هذا الاحتياج بكنز ينفق منه، أو جنة تسير معه ليأكل منها[١].

فرد ا لله دعواهم بقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٩-١١]. ثم قال بعدها بآيات: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [سورة الفرقان: ٢٠].

فجاء الرد في ثلاثة مقامات:

الأول: أن ما قالوه مجرد محاولة يائسة منهم ليتوصلوا بها إلى الطعن في النبوة والرسالة وما هم بمستطيعين، فمقام النبوة والرسالة أجل

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٣٠٠.

من أن يطالهما أحد.

الثاني: أن الله (جلَّ شأنه) قادر على فعل ما ذكروه ـ إن كان مفيداً ـ وأعظم، لكنه يخلق ما يشاء ويختار.

الثالث: أن السعي في طلب الرزق وأكل الطعام هو سيرة الأنبياء جميعاً، فما كان رسول الله ﷺ بدعاً من الرسل، ثم إن ذلك لا يخالف قضية الرسالة.

ثالثاً: اعتراضهم على تعيين محمد ﷺ بالرسالة:

وذلك فيما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [سورة الزخرف: ٣١]. أرادوا بالقريتين: مكة والطائف، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقال غير واحد: إنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي؛ الأول من مكة، والثاني من الطائف[1]. فرد الله (تعالى) مقالتهم واعتراضهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٣٢]. أي أن النبوة والرسالة ليس الأمر فيها إليهم، بل إلى الله (تعالى)، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه (تعالى) يختار لها من هو أزكى الناس قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً، ثم بين سبحانه لهم أن الذي فاوت بينهم في الأرزاق والمعايش فاوت بينهم في الحظوظ[2]. والنبوة من أعظم

---

(١) تفسير ابن كثير ١٢٩/٤ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ١٢٩/٤.

الحظوظ ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة: ١٠٥].

ثم إن السعة في الدنيا والبسط في الرزق لا يدلان على إكرام الله (تعالى)، كما أن التقتير فيهما لا يدل على إهانة الله (تعالى) كما قال (تعالى): ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا﴾ [سورة الفجر: ١٥-١٧] أي ليس الأمر كما زعمتم، لا في هذا ولا في هذا(١). قال قتادة رحمه الله: «تلقاه ضعيف القوة، قليل الحيلة، عيي اللسان، وهو مبسوط له، وتلقاه شديد الحيلة، بسيط اللسان، وهو مقتّر عليه»(٢).

ولهذا قال (تعالى) بعد آيات الزخرف المتقدمة: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الزخرف: ٣٣-٣٥].

ومن أقوال المشركين التي في معنى الاعتراض على نبوة محمد ﷺ ما حكاه الله عنهم: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٤] أي: لن نؤمن حتى نكون أنبياء، فنؤتى مثل ما أوتي موسى وعيسى من الآيات، ونظيرها قوله (تعالى): ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ [سورة المدثر: ٥٢]؛ ولهذا قال الوليد بن المغيرة للنبي ﷺ: لو

(١) انظر : تفسير كثير ٤/٥١٠.

(٢) تفسير القرطبي ١٦/٨٣.

كانت النبوة حقاً لكنتُ أولى بها منك؛ لأني أكبر منك سناً، وأكثر منك مالاً. وقال أبو جهل: والله لا نرضى به ولانتبعه أبداً، إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه. فنزلت الآية. فرد الله عليهم بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٤] أي أن الله (تعالى) أعلم بمن هو أهل لرسالته.[1] فأمر الرسالة والنبوة متروك لأمر الله وعلمه وحكمته.

رابعاً: مطالبتهم الرسولَ ﷺ بالآيات تعجيزاً له على حد زعمهم:

قال (تعالى): ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٠-٩٣].

هذا كله من باب التعنت والعناد؛ ولهذا جاء الجواب بتنزيه الله (تعالى) عن أن يعجزه شيء، أو أن يُعترض عليه في فعل شيء، وقيل: هذا تعجب من فرط كفرهم واقتراحاتهم. ثم أثبت النبي ﷺ لنفسه البشرية العاجزة والرسالة المتَّبعَة، فهو ببشريته لا يستطيع إجابتهم إلى ما طلبوا، وبرسالته إنما يتبع ما يوحى إليه، وليس له أن يتخير على ربه سبحانه، فكان أبلغ جواب وأقطعه لعنادهم واستكبارهم[2]؛ ولهذا قال (تعالى)

(١) انظر: المرجع السابق ٧/٧٩-٨٠.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٠/٣٣١.

في آية أخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٢١] .

وقال (تعالى) في الرد على طلبهم نزول الكتاب والملائكة في: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٧-٩].

فموقفهم ليس موقف المسترشد الطالب للحق، بل موقف المتعنت المستكبر، وإلا فالقرآن من أعظم الآيات التي نزلت حيث أعجز بلغاءهم وأخرس فصحاءهم؛ ولهذا قال (تعالى): ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [سورة الحجر: ١٤-١٥].
ثم أخبرهم (تعالى) في موضع آخر أن الإيمان محض مِنّته وفضله، وليس موقوفاً على ظهور الآيات؛ كما قال (تعالى): ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٩-١١١].

أما طلبهم نزول الملائكة، فهم لا يستطيعون رؤية الملك على صورته، فلو جاءهم على صورته لما أَنِسُوا به ولداخلهم من الرعب من كلامه

ومعاشرته ما يكفُّهم عن الانتفاع به، ولو جاءهم على صورة بشر لقالوا له: لست ملكاً، وإنما أنت بشر[١]. فعاد الاعتراض جذعاً، وقال (تعالى): ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٥] وربما اعترضوا ـ بعد إيمانهم ـ بأنهم ليسوا في هيئته فلا يطيقون من الأعمال ما تطيقه الملائكة؛ ولهذا قال (تعالى): ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ١٢٨].

ثم إن نزول الملائكة مؤذن بالهلاك؛ لأنه جرت سنة الله (تعالى) بأن من طلب آية فأُظهرت له فلم يؤمن أهلكه الله (تعالى) في الحال، كما قال (تعالى): ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾[سورة الأنعام: ٨][٢].

أو أن نزول الملائكة مؤذن بقيام الساعة حيث لا توبة ولا رجوع، كما قال (تعالى): ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٢٢]. قال ابن كثير رحمه الله: «أي هم لا يرون الملائكة في يومٍ هو خير لهم، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم، وذلك يَصْدُق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار، ويَصْدُق على يوم القيامة حين تخبرهم بالخيبة والخسران ﴿وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾ أي: وتقول الملائكة للكافرين: حرام عليكم الفلاح اليوم»[٣].

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٦/٣٩٣-٣٩٤.

(٢) انظر : المرجع السابق ٦/٣٩٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٣٠٣. بتصرف .

القضية الخامسة: إنكار نسبة القرآن إلى الله (تعالى):

اضطربت عبارات المشركين في وصف القرآن الكريم تشكيكاً منهم في إضافته إلى الله عز وجل، وتشكيكاً منهم ـ أيضاً ـ في كون محمد ﷺ رسول الله (تعالى). فتارة يصفون القرآن بأنه إفك مفترى، وتارة يصفونه بأنه أساطير الأولين، وتارة يضيفونه إلى النبي ﷺ باعتباره ـ بزعمهم ـ شاعراً، أو مجنوناً أو ساحراً أوكاهناً، وغير ذلك من العبارات التي تدل على محاولاتهم اليائسة لتكذيب القرآن ومن أنزل عليه. وهذا الاضطراب والاختلاف في العبارات وعدم اتفاق كلمتهم على تهمة واحدة دليل افترائهم وجحودهم للحق الذي بان لهم، وعجزوا عن معارضته والإتيان بمثله، أو رده بطريق علمي لهم معتبر. قال (تعالى): ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٣٣]، وقال (تعالى) مخاطباً الكفار: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [سورة الذاريات: ٨-١٠].

وسأعرض هنا نماذج لجدل القرآن الكريم مع المشركين في هذه القضية، وكيفية رد القرآن لمفترياتهم وأكاذيبهم.

١-دعوى المشركين أن القرآن إفك مفترى:

قال (تعالى): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٤]. يقول ابن كثير رحمه الله: «أي فقد افتروا هم قولاً باطلاً، وهم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه»[١].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٩٩/٣ .

ويقرر الفخر الرازي رحمه الله أن هذا القدر يكفي جواباً على هذه الفرية المذكورة؛ لأنه قد علم كل عاقل أنه عليه الصلاة والسلام تحداهم بالقرآن، وهم في النهاية في الفصاحة والبيان مع شدة حرصهم على إبطال أمره، فلو أمكنهم أن يعارضوه لفعلوا، ولكان ذلك أقرب إلى بلوغ مرادهم فيه، مما أوردوه في هذه الآية وفي غيرها، ولو استعان محمد ﷺ في ذلك بغيره لأمكنهم الاستعانة بغيرهم، فمحمد ﷺ كأولئك المنكرين في اللغة والمكنة والاستعانة، فلما لم يفعلوا ذلك ـ مع حرصهم على إبطال أمره ـ عُلِم أن هذا القرآن قد بلغ النهاية في الفصاحة وانتهى إلى حد الإعجاز، فهو من عند الله (تعالى)[1].

وقد تحداهم الله (تعالى) ـ إن كان القرآن مفترى من قبل محمد ﷺ ـ أن يأتوا بمثله في الافتراء، كما قال (تعالى): ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[سورة هود: ١٣]. فدعاهم إلى المعارضة بمثله، بل والاستعانة بغيرهم على ذلك، ولو كان من الجن الذي ينسبون إليه هذا القرآن أحياناً؛ ولهذا قال (تعالى) في موضع آخر: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٨] . فإذا بان عجزهم، وظهر انقطاعهم: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مسلمون﴾ [سورة هود: ١٤].

(١) انظر : التفسير الكبير ـ الرازي ٢٤/٥٠ .

وقال (تعالى): ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأحقاف:٧- ١٢].

فاتهام القرآن بالافتراء افتراء رده الله (تعالى) في هذه الآيات من عدة وجوه:

أحدها: قوله (تعالى): ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لو كذبتُ عليه وزعمتُ أنه أرسلني - وليس كذلك ـ لعاقبني أشدَّ العقوبة، و لم يقدر أحد من أهل الأرض -لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [سورة الجن: ٢٢-٢٣] وقوله: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [سورة الحاقة: ٤٤-٤٧].[1]

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤/١٥٧.

الثاني: قولــه (تعالى): ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فالله (تعالى) أعلم بما تخوضون فيه من التكذيب للقرآن، والقول بأنه سحر وكهانة وشعر وغير ذلك، وهو شهيد لي بأن القرآن من عنده، وأني قد بلغتكم إياه، ويشهد عليكم بالتكذيب والجحود.

الثالث: قوله (تعالى): ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ﴾ أي شأني شأن الرسل في كونهم من عند الله وما جاءوا به الحق، وفي كونهم كُذبوا وأوذوا؛ فمنهم من قُتل، ومنهم من أُخرج، ومنهم من أهلك الله أقوامهم بضرب من ضروب الإهلاك، وعجَّل عقوبتهم؛ ولهذا قال بعدها: ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلَ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ .

الرابع: قوله (تعالى): ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندَ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـلِمِينَ﴾. أي ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب من عند الله وكفرتم به، وقد شهد بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء السابقين، حيث بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر القرآن به، فآمن هذا الشاهد من بني إسرائيل بعد أن وقف على صحة القرآن وصدقه وكونه من عند الله، واستكبرتم أنتم عن اتباعه. وقال مسروق: فآمن الشاهد بنبيه وكتابه وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـلِمِينَ﴾[1] .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤/١٥٨.

الخامس: قوله (تعالى): ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وهذا محض تحكم وتشهٍ، بل الله يختص برحمته من يشاء، كما في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٣].

السادس: قوله (تعالى): ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وهذا إظهار لكبرهم وصلفهم واستنكافهم عن متابعة الحق الذي آمن وسعد به من في نظرهم من الضعفاء، وهذا ماصرح به زعيم الكفر أبو جهل حين قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا بالركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه[(١)].

السابع: قوله (تعالى): ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة يونس: ١٥-١٦]. قال ابن كثير رحمه الله: «الدليل على أني لست أتقوّله من عندي، ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١٢٣/٢.

منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل لا تنتقدون علي شيئا تغمصوني به... أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل»[(١)].

٢- دعوى المشركين أن القرآن أساطير الأولين:

من ذلك قولهم فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٢٥]. وقال (تعالى): ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣١]. وقال (تعالى): ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة الفرقان: ٥-٦].

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه ونزاهته، وبرَّه وأمانته، وبُعْدَه عن الكذب والفجور، وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره وإلى أن بعث الأمين، لما يعلمون من صدقه وبرِّه، فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة، ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٩٢/٢.

عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذّاب. وقال الله (تعالى): ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٤٨]. وقال (تعالى) في جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، أي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج ماضياً ومستقبلاً»(١).

٣-إضافة القرآن إلى الجنون والسحر والكهانة والشعر وغير ذلك:

قال (تعالى): ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة الحجر: ٦] وقال: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [سورة الصافات: ٣٦] وقال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤].

وقد رد الله (تعالى) هذه التهمة بمثل قوله، وذلك عقب قولهم: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [سورة الصافات: ٣٦] قال (تعالى): ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الصافات: ٣٧] وبمثل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٤]. وقوله (تعالى): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سورة سبأ: ٤٦] يقول ابن كثير رحمه الله: «يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله ليس فيه تعصب ولا عناد؛ مثنى وفرادى، أي مجتمعين ومتفرقين، ثم تتفكروا في هذا الذي

(١) تفسير ابن كثير ٢٩٩/٣.

جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً»[١].

وقال (تعالى): ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سورة سبأ: ٤٣] فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [سورة سبأ: ٤٤] أي: ليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول وجه، ولا شبهة يتشبثون بها أي فمن أين كذبوك؟ و لم يأتهم كتاب ولا نذير بهذا الذي فعلوه.

ثم قال بعدها: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ...﴾ [سورة سبأ: ٤٥] أي أن أهل مكة من مشركي قريش وغيرهم من العرب على ما آتيناهم من القوة و كثرة المال لم يبلغوا عشر ما آتينا مَنْ قبلهم من ذلك فأهلكهم الله (تعالى). وقيل المعشار: عشر العشر، ثم قال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سورة سبأ: ٤٥-٤٦].

أما وصف القرآن بالكهانة والشعر فقد نفاه الله (تعالى) في مثل قوله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [سورة الطور: ٢٩]، وقوله: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الحاقة: ٤٢]. وقال (تعالى): ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [سورة

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٩.

الطور: ٣٠ - ٣٤]، وقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة يس: ٦٩].

ونفى الله أن يكون القرآن من كلام الشياطين في مثل قوله (تعالى): ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٠-٢١٢]، وقوله (تعالى): ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة التكوير: ١٩-٢٧].

وأخبر (تعالى) عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [سورة الجن: ٨-٩] وقال (تعالى): ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الأحقاف: ٢٩-٣٠].

أما الشياطين فإنما تتنزل على أوليائهم من الأفاكين الكذابين؛ قال (تعالى): ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]. قال ابن كثير رحمه الله: «فهذا هو الذي تَنَزَّل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة»[(١)].

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣٤١.

القضية السادسة: إنكار المشركين البعث والمعاد:

إن المشركين والكفار الذين أنكروا البعث، وهو إعادة الحياة للأموات وخروجهم من قبورهم ليوم الحساب إنما بنوا أمر هذا الإنكار ـ مستعملين عقولهم المدخولة ـ على مجرد استبعاد وقوعه، وتعجبهم من ذلك؛ كما حكى الله (تعالى) مقالتهم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ منها: قوله (تعالى): ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [سورة ق: ٢-٣]. وقال (تعالى): ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾[سورة المؤمنون: ٣٥-٣٦]. وجعلوا ذلك من الأساطير التي لا حقيقة لها، ولهذا ربما اتهموا قائلها بالكذب والافتراء على الله (تعالى)، أو بالجنون. قال (تعالى) حكاية عنهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[سورة المؤمنون: ٨٣]. وقال (تعالى): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾[سورة سبأ: ٧-٨].

وقد رد الله عليهم في إنكار البعث بأنواع من الردود منها:[1]

أولاً: الاستدلال على إمكان البعث بأمثلة واقعية:

من ذلك ما فعله الله (تعالى) في دار الدنيا ببعض خلقه من الإماتة والإحياء، وله أمثلة قصَّها الله (تعالى) في القرآن الكريم، أذكر خمسة منها كلها في سورة البقرة، وهي:

---

(١) انظر : معترك الأقران ـ السيوطي ١/٤٥٨-٤٥٩ ، ومناهج الجدل ـ الألمعي ص : ٣٠٥ وما بعدها

أ- ما حكاه (تعالى) عن بعض قوم موسى بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٥٥-٥٦] قال الربيع بن أنس: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه، قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال فسمعوا صوتاً فصُعِقوا، وقال الربيع: كان موتهم عقوبة لهم، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم. وكذا قال قتادة[١].

ب- قوله (تعالى) في أصحاب البقرة: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٢-٧٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما ضرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط، فقيل له: من قتلك؟ قال: بنو أخي قتلوني، ثم قُبض....[٢].

ج- قوله (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون قالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت، حتى إذا كانوا

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/٨٩-٩٠.

(٢) المرجع السابق ١/١٠٨.

بموضع كذا وكذا قال الله لهم موتوا فماتوا، فمرَّ عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم[(١)].

د- قوله (تعالى): ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٩]. وهذا الذي مرَّ هو عزير عليه السلام على المشهور، كما نبه عليه ابن كثير رحمه الله[(٢)].

هـ-وقوله (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فصرهن إليك: أوثقهن. قال ابن كثير رحمه الله: فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً؛ فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطّعهن، ونتف ريشهن ومزّقهن، وخلط بعضهن ببعض، ثم جزّأهن أجزاءً، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل: أربعة أجبل، وقيل: سبعة، قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما

---

(١) المرجع السابق ٢٨٢/١.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٢٩٧/١.

أمره الله عز وجل فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدَّم له غير رأسه يأباه، فإذا قدَّم له رأسه تركَّب مع بقية جسده بحول الله وقوته...»[1].

ثانياً: الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى:

وهو الاستدلال بدلالة الواقع المشاهد الذي لا يمكن إنكاره على المتوقع الغائب.[2] ولذلك أمثلة كثيرة، أختار نماذج منها:

١- قوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [سورة الحج: ٥-٧]. وهذه الآية فيها دليلان على إمكان البعث[3]: أحدهما: في الأنفس، وهو ما اشتمل عليه صدر الآية، وهو متعلق بالنشأة الأولى،

---

(١) المرجع السابق ١/٢٩٨.

(٢) معترك الأقران ١/٤٥٨.

(٣) انظر : مناهج الجدل ـ الألمعي ص : ٣٠٨.

والثاني: في الآفاق،وهو قوله (تعالى): ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ وسيأتي الكلام فيه.

والمقصود هنا ذكر الدليل الأول: دليل النفس، وهو الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة، وإن كانت النتائج الخمس المذكورة في الآية تترتب على الدليلين، وهي:

أ- وجود الخالق سبحانه، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحكمته.

ب- أنه يحيى الموتى.

ج- إثبات عموم قدرته على كل شيء.

د- إثبات مجيء الساعة وأنه لا ريب فيها.

هـ- أنه سبحانه يخرج الموتى من القبور كما أخرج الخلق من التراب في النشأة الأولى، وكما أخرج النبات من الأرض. يقول ابن القيم رحمه الله في معرض استدلاله بهذه الآية على قضية البعث: «يقول سبحانه: إن كنتم في ريب من البعث فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون، ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال إلى حين الموت، والبعث الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى، فهما نظيران في الإمكان والوقوع، فإعادتكم بعد الموت خلقاً جديداً كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها»[1].

---

(١) إعلام الموقعين ١/١٤٠

٢- قوله (تعالى): ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يس: ٧٧-٧٩]. قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة: جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: نعم يميتك الله (تعالى)، ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار، ونزلت هذه الآيات من آخر يس...[(١)]. وروي نحوه عن ابن عباس وغيره أن السائل هو العاص بن وائل[(٢)]، والآيات عامة في كل من أنكر البعث، وقد تضمنت عشرة من الأدلة على إمكان البعث، والتي فيها الرد على المنكرين[(٣)].

أحدها: تذكير المنكر بمبدأ خلقه، وهو كونه من نطفة ليدله به على النشأة الثانية.

الثاني: أن هذا المنكر لو ذكر خلقه لما ضرب هذا المثل، بل لـمَّا نسي خلقه ضرب المثل.

الثالث: الإجابة عن سؤال المنكر بما يتضمن أبلغ الدليل على ثبوت ما جحده، فقال: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾. قال ابن الحنبلي رحمه

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٥٨.

(٢) انظر: المرجع السابق ٣/٥٥٨-٥٥٩، وانظر: تفسير الطبري ٢٣/٢٠-٢١ ط. دار المعرفة.

(٣) انظر: إعلام الموقعين ١/١٤١-١٤٣، واستخراج الجدل ص: ٩١-٩٣.

الله: «فإن إيجاد المبادئ أصعب في مطرد العرف وحكم العقل، من رد شيء كان إلى ما كان على ما لا يخفى»[(١)].

الرابع: الإخبار بعموم علم الله (تعالى) لجميع خلقه، فإن تعذر الإعادة عليه إنما يكون لقصور في علمه أو قصور في قدرته، ولا قصور في علم من هو بكل شيء عليم، ولا قدرة فوق قدرة من خلق السموات والأرض، وإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وبيده ملكوت كل شيء؛ ومن ذلك قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [سورة ق: ٤].

الخامس: إرشاد عباده إلى دليل واضح جلي متضمن للجواب عن شبه المنكرين بألطف الوجوه وأبينها وأقربها إلى العقل. فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [سورة يس: ٨٠] . فهذا دليل على تمام قدرته، وإخراج الأموات من قبورهم، كما أخرج النار من الشجر الأخضر. وفي هذا جواب عن شبهة من قال من منكري البعث: إن الموت بارد يابس، والحياة طبعها الرطوبة والحرارة، فإذا حلَّ الموت بالجسم لم يمكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لتضاد ما بينهما، فيقال لهم: إن الحياة لا تجامع الموت في المحل الواحد ليلزم ما قالوه، بل إذا أوجد الله فيه الحياة وطبعها ارتفع الموت وطبعه، وهذا الشجر الأخضر طبعه الرطوبة والبرودة تخرج منه النار الحارة اليابسة.

---

(١) استخراج الجدل ص : ٩٢.

السادس: ذكر ما هو أوضح للعقول من كل دليل، وهو خلق السموات والأرض مع عظمهما وسعتهما، وأنه لا نسبة للخلق الضعيف إليهما، فمن لم تعجز قدرته وعلمه عن هذا الخلق العظيم الذي هو أكبر من خلق الناس كما قال (تعالى): ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة غافر: ٥٧] كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم.

السابع: تقرير المعنى السابق بذكر وصفين من أوصافه (تعالى) مستلزمين لما أخبر به، فقال: ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة يس: ٨١] فكونه خلاقاً عليماً يقتضي أن يخلق ما يشاء، ولا يعجزه ما أراده من الخلق.

الثامن: بيان عموم إرادته وشمولها، بحيث لا يقصر عنها شيء، ولا يستعصي عليه شيء، بل يأتي طائعاً منقاداً لمشيئته وإرادته، فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: ٨٢].

التاسع: تنزيه ا لله (تعالى) نفسه عما نطق به أعداؤه منكرو المعاد: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة يس: ٨٣] يتصرف تصرف المالك الحق.

العاشر: ختم السورة بقوله: ...﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة يس: ٨٣] أي كما ابتدأوا منه فكذلك مرجعهم إليه، فمنه المبدأ وإليه المعاد، وهو الأول والآخر: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [سورة النجم: ٤٢].

٣- قوله (تعالى): ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾

[سورة الإسراء: ٤٩-٥١].

لما استعظموا أن يعيدهم الله خلقاً جديداً بعد أن صاروا عظاماً ورفاتاً قيل لهم: ﴿كونوا حجارة أو حديدا * أو خلقا مما يكبر في صدوركم﴾ كالسماء والأرض والجبال ونحوهما[١]. ومضمون الدليل أنكم مربوبون مخلوقون مقهورون على ما يشاء خالقكم، وأنتم لا تقدرون تغيير أحوالكم من خلقة إلى خلقة لا تقبل الاضمحلال كالحجارة والحديد، ومع ذلك فلو كنتم على هذه الخلقة من القوة والشدة لنفذت أحكامي فيكم وقدرتي ومشيئتي، و لم تسبقوني و لم تفوتوني كما يقول القائل لمن هو في قبضته: اصعد إلى السماء فإني لاحقك. أي لو صعدت إلى السماء لحقتك[٢]. وأيضاً ـ فإن المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظام والرفاة وبين قبول الحياة، وذلك أن العظم قد كان موصوفاً بالحياة ثم عادت إليه، بخلاف الحجارة والحديد، فلم تكن لهما حياة، فكيف لا يقدر على ذلك في العظام والرفات[٣].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٤٤.
(٢) انظر : إعلام الموقعين ١/١٤٣.
(٣) انظر : مناهج الجدل ـ الألمعي ص :٣١٤.

ثم قال (تعالى): ﴿فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة﴾ أي الذي خلقكم و لم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً تنتشرون، فإنه سبحانه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال.[(١)] فهو استدلال بالنشأة الأولى على النشأة الثانية.

ثم انتقلوا إلى سؤال آخر: ﴿فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا﴾ أي: فحركوا رؤوسهم استهزاءً بعد أن لزمتهم الحجة، وتلاشت شبهتهم. فانتقلوا إلى سؤال لا تعلّق له بالشبهة التي أثاروها، فكان جوابهم: ﴿قل عسى أن يكون قريبا﴾؛ لأن كل ما هو آت آت. ومن ذلك قوله (تعالى): ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [سورة النمل: ٧١-٧٢].

٤- قوله (تعالى): ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة الروم: ٢٧]. قال ابن الحنبلي رحمه الله: «وإنما قال سبحانه: ﴿وهو أهون عليه﴾ ضَرْبُ مثلٍ؛ لأن المقدورات عندنا نحن متفاوتة في العسر واليسر باختلاف القدرة التي تزيد وتنقص في حقنا، ولما كان إيجاد شيء لا من شيء مستحيلاً منا، وإيجاد شيء من شيء ممكناً، فاستعار له كلمة أفعل، ضرب ذلك مثلاً، ولما استحال في حقه العجز والضعف عن إيجاد شيء لا من

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٤٤.

شيء قال: ﴿وله المثل الأعلى﴾ وذلك مطرد في سائر صفاته سبحانه من العلم والقدرة والحياة والرحمة والرضا والغضب...»[(١)].

ومن الآيات التي في معنى الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الثانية قوله (تعالى): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[سورة العنكبوت: ١٩-٢٠].

ومنها ـ أيضاً ـ قوله (تعالى): ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[سورة الواقعة: ٥٧-٦٢].

ومنها قوله (تعالى): ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾[سورة مريم: ٦٦-٦٧].

ومنها قوله (تعالى): ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[سورة القيامة: ٣٦-٤٠].

ومنها قوله (تعالى): ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[سورة ق: ١٥].

---

(١) استخراج الجدل ص: ٩٤.

ثالثاً: الاستدلال على إمكان البعث بخلق السماوات والأرض:

وذلك لأن خلقها أعظم من خلق الإنسان، وأبلغ في القدرة منه، ولقد مرَّ بنا قوله (تعالى): ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة يس: ٨١].

ومن ذلك قوله (تعالى) :﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٨-٩٩].

ومنه قوله (تعالى): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى...﴾ [سورة الأحقاف: ٣٣]. قال ابن القيم رحمه الله: «والمقصود أنه دلَّهم سبحانه بخلق السموات والأرض على الإعادة والبعث، وأكَّد هذا القياس بضربٍ من الأولى، وهو أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، فالقادر على خلق ما هو أكبر وأعظم منكم أقدر على خلقكم، وليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته، فليس مع المكذبين بالقيامة إلا مجرد تكذيب الله ورسله وتعجيز قدرته، ونسبة علمه إلى القصور، والقدح في حكمته؛ ولهذا يخبر سبحانه عمن أنكر ذلك بأنه كافر بربه، جاحد له، لم يقر برب العالمين فاطر السموات والأرض كما قال (تعالى): ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ...﴾ [سورة الرعد: ٥]. وقال المؤمن للكافر الذي قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [سورة

الكهف: ٣٦-٣٧]. فمنكر المعاد كافر برب العالمين، وإن زعم أنه مقر به»(١).

رابعاً: الاستدلال على إمكان البعث بإحياء الأرض الميتة، وإخراج النبات منها:

من ذلك:

١- قوله (تعالى): ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [سورة الحج: ٥-٧].

٢-وقوله (تعالى): ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٧].

٣-وقوله (تعالى): ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الروم: ٥٠].

٤-وقوله (تعالى): ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [سورة فاطر: ٩].

٥-وقوله (تعالى): ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [سورة ق: ٩-١١].

---

(١) إعلام الموقعين ١/١٤٧.

٦- وقوله (تعالى): ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة فصلت: ٣٩].

فجعل الله (تعالى) إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراج الأموات من قبورهم، فدل بالنظير على نظيره[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد كرر سبحانه ذكر هذا الدليل في كتابه مراراً لصحة مقدماته، ووضوح دلالته، وقرب تناوله، وبعده من كل معارضة وشبهة، وجعله تبصرة وذكرى، كما قال (تعالى): ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سورة ق: ٧-٨].

خامساً: الاستدلال على البعث والإعادة بإخراج الشيء من ضده:

وذلك كإخراج الموت من الحياة، والحياة من الموت، وإخراج النار من الشجر الأخضر. وفي ذلك بيان كمال قدرته وأنه لا يعجزه شيء. ولذلك أمثلة في القرآن الكريم؛ منها:

١- قوله (تعالى): ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [سورة الروم: ١٩]. فدل بالنظير على النظير؛ وقرَّب أحدهما من الآخر جداً بلفظ الإخراج، أي يخرجون من الأرض أحياء كما يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي[(٢)].

---

(١) انظر : إعلام الموقعين ١٤٤/١.

(٢) انظر : إعلام الموقعين ١٣٩/١.

٢- قولـه (تعالى): ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [سورة يس: ٨٠] وقد مرَّ الكلام في شرحها، وقال ابن كثير رحمه الله: «الذي أخرج هذه النار من الشجر قادر على أن يبعثه، وقيل: المراد بذلك شجر المرخ والعفار، ينبت في أرض الحجاز، فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء. وروي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما»(١).

٣- وقوله (تعالى): ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ [سورة الواقعة: ٧١-٧٣]، وكان قد قال قبلها: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[سورة الواقعة: ٦٢] قال ابن الحنبلي: «ووجه دلالة النار على البعث أن النار تكمن في الشجر والحجر ثم تظهر بالقدح، وتشب بالنفخ، فالحجر والشجر كالقبر، والقدح كالنفخ في الصور»(٢).

سادساً: الاستدلال على البعث بأن حكمة الله وعدله تقتضيان البعث والجزاء:

وكما دلَّ القرآن على إمكان البعث ـ على ما تقدم بيانه ـ وبطلان دعوى المنكرين، فقد دلَّ على أنه واقع لا محالة، وأن حكمة الرب تعالى وعدله ورحمته بخلقه تقتضي وقوعه:

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٥٩/٣.

(٢) استخراج الجدل ص :٩٦.

قال (تعالى): ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [سورة القيامة: ٣٦]، وقال (تعالى): ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[سورة المؤمنون: ١١٥]. فعدل الله (تعالى) وحكمته، ومحبته للحق، وبغضه للباطل، والتمييز بين الخبيث والطيب، والمسيء والمحسن، كل ذلك يأبى إلا أن يكون هناك يوم آخر بعد نهاية الدنيا ينال فيه كل إنسان جزاءه، وما يستحقه من الثواب والعقاب على ما قدَّم من خير أو شر.

فإننا نرى أُناساً يفارقون الدنيا وهم ظَلَمَة لغيرهم، لم يُقتصَّ منهم، وآخرين يفارقونها مظلومين لم تُرد إليهم مظلمتهم، ونرى أشراراً فيها منعمين، وأخياراً فيها معذبين، فإذا ذهب كل إنسان بما فعل ظالماً كان أو مظلوماً، محظوظاً كان أو مهضوماً، من غير انتصاف للمظلوم من الظالم، ومن دون تمييز للمحسن على المسيء، كان ذلك قدحاً في عدل الرب وحكمته، فكان لا بد من يوم يحضر فيه الجميع بين يدي الملك الديان (سبحانه وتعالى)، ليقتص للمظلوم من ظالمه، ولينال كل محسن ومسيء جزاءه؛ قال (تعالى): ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٧-٢٨]

وقال (تعالى): ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [سورة الجاثية: ٢١].

قال ابن الحنبلي رحمه الله: «وقد قال بعض الحكماء: ثبت أن الله عز وجل حكيم، والحكيم لا ينقض ما بنى إلا لحكمة أتمَّ من حكمة النقض، ولا يجوز أن تكون أنقص ولا مماثلة على مالا يخفى»(١).

سابعاً: الرد عليهم ببيان أن مستند دعواهم مجرد الظن:

قال (تعالى): ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سورة الجاثية: ٢٤-٢٦].

وقال (تعالى): ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [سورة الجاثية: ٣٢].

وحكى الله مقالتهم في: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [سورة المؤمنون: ٣٧] فبين الله (تعالى) أن دعواهم مبنية على غير علم بل على مجرد الظن، والظن لا يدفع به اليقين، واليقين أن الله قد أخرجكم من العدم وتلك حياة، ثم يميتكم ، ثم يحييكم مرة أخرى كما قال (تعالى): ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٨].

---

(١) استخراج الجدل ص:٩٨.

المطلب الثاني
جـدل القرآن مع المنافقين

إن الجدل مع المنافقين كان يتركز على كشـف خفاياهم الفاسـدة، وفضح نواياهم الحاقدة، والرد على ما يثيرونه من شبهات وشكوك، فقـد كانوا يظهرون للمؤمنين خلاف ما يبطنون، كما أخبر الله (تعالى) عنهـم بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٧] وكانوا يثيرون الشبهات والشكوك حول بعض مسائل الاعتقاد، ويسيئون إلى النبي ﷺ وأصحابه الأطهار بما هم منـه بـراء، وكـان القـرآن يتصـدى لهذه الشبهات والشكوك والإساءات بالإبطال والدفع وإظهار الحق وكسر شوكة المنافقين، ولقد كان المنافقون يخافون القرآن ويتحاشون أن يكشف أمرهم ويفضح كيدهم، كمـا قـال (تعـالى): ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [سـورة التوبـة: ٦٤]. قـال السدي في تفسير هذه الآيـة: قـال بعـض المنـافقين: والله وددتُ لـو أنّـي قُدمتُ فجلدتُ مائةً، ولاينزل فينا شيء يفضحنـا فنزلت الآيـة.[١] وقـال (تعالى): ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة المجادلة: ٨].

---

(١) تفسير القرطبي ١٩٥/٨.

ولهذا جاء في أسماء سورة براءة أنها الفاضحة. قال سعيد بن جبير: سألت ابن عباس رحمه الله عنهما عن سورة براءة، فقال: تلك الفاضحة، مازال ينزل: ومنهم ومنهم، حتى خفنا ألا تدع أحداً. وتسمى - أيضاً - البحوث؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين، وتسمى المبعثرة[(١)].

وفي هذا الموضع أسوق نماذج لما ذكرته آنفا من مواقف القرآن الكريم مع المنافقين:

الأول: قال الله (تعالى): ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: ٨-١٦].

فقد أبطل سبحانه في هذه الآيات بعض دعاوى المنافقين، من ذلك:

١- دعواهم الإيمان بالله واليوم الآخر: فبين سبحانه أن هذه الدعوى لا حقيقة لها، بل هي مجرد مخادعة منهم لله والذين آمنوا، بدليل أنهم إذا لقوا المؤمنين أظهروا لهم الإيمان المزيف، وإذا خلوا إلى أمثالهم في

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ٨/٦١.

الكفر كاشفوهم بحقيقة أمرهم التي هي الكفر والعداء للذين آمنوا، فبين الله (تعالى) أن هذا منهم خداع لأنفسهم، لا كما يظنونه خداعاً لله وللمؤمنين؛ كما قال (تعالى): ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [سورة النساء: ١٤٢].

وفي هذا المعنى قوله (تعالى): ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٦-٧٧]، وقال (تعالى): ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٩].

٢- دعواهم الصلاح والإصلاح، فبين سبحانه أنهم هم المفسدون حقاً، لكن من جهلهم لا يشعرون أنهم هم المفسدون.

٣- وصفهم أهل الإيمان بالسفه، فرد الله عليهم هذا الوصف؛ لأنهم أهله وأحق به، لكنهم لا يعلمون، وذلك لفرط جهلهم .

الثاني: قال (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ

عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء: ٦٠-٦٥].

ففي هذه الآيات كشف الله (تعالى) حال المنافقين الذين يزعمون الإيمان بالرسالات، ولكن أحوالهم وأفعالهم تكذب هذا الإيمان المزعوم فهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدون عن حكم الله ورسوله بعد ما دُعوا إليه، ثم يبين سبحانه أن الإيمان الحقيقي يستلزم تحكيم الله ورسوله في كل أمر، تحكيماً ظاهراً وباطناً من غير حرج ولا منازعة نفس، بل مع التسليم التام لما قضاه الله ورسوله من الأحكام.

وفي هذا المعنى قوله (تعالى): ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا

تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [سورة النور: ٤٧-٥٤].

فبين سبحانه في هذه الآيات ما عليه المنافقون من تكذيب أفعالهم أقوالَهم، وفي أعظم مسألة ألا وهي مسألة الإيمان، وبيان إعراضهم عن التحاكم إلى الله ورسوله، لا سيما إذا كانت الحكومة عليهم، أما إذا كانت الحكومة لهم جاءوا إلى الرسول ﷺ سامعين مطيعين، مما يدلُّ على مرض قلوبهم، أو شكهم في دين الله، أو سوء ظنهم بالله ورسوله، بل هم الظالمون، ثم بين سبحانه ما عليه المؤمنون من الاستجابة لله والرسول سمعا وطاعة، والخشية من الله (تعالى) وتحقيق تقواه، وأولئك هم المفلحون الفائزون.

ثم بين سبحانه ـ مرة أخرى ـ أن طاعة المنافقين مجرد قول باللسان وإن صاحبه قسم؛ ولهذا فهم كثيرو الحلف بالله، وقد تكرر ذكر ذلك في سورة التوبة. وقال (تعالى) عنهم في: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [سورة المنافقون: ٢] أي: اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحلف الآثمة.(١) فقال (تعالى): ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ [سورة النور: ٥٣] قيل معناها: طاعتكم طاعة معروفة، أي إنما هي قول لا فعل معه، وكلما حلفتم كذبتم. كما قال (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٣٦٨.

لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [سورة الحشر: ١١-١٢].

ثم أمر بطاعة الله وطاعة رسوله، وبين أن الهداية معقودة في ذلك: وإنما على الرسول البلاغ، وعليكم القبول وتعظيم أمره والقيام بمقتضاه(١).

الثالث: قال (تعالى): ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا * فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٧٢-٧٤]. فبين سبحانه في هذه الآيات أن علاقة المنافقين ـ قبحهم الله ـ مع المؤمنين علاقة تدور مع المصلحة؛ فهم لا يشاركون المؤمنين في الجهاد والقتال، ويريدون أن يشاركوهم في الغنيمة وحظوظ الدنيا؛ فهم يَعُدُّون عدم حضورهم القتال والشهادة من نعم الله عليهم، ولم يدروا ما فاتهم من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتلوا، لكنهم يتطلعون إلى نصيبهم في الغنيمة المترتبة على النصر والظفر، إذ هي أكبر قصودهم وغاية مرادهم(٢). فبين الله (تعالى) أن القتال إنما هو لإعلاء كلمة الله، لا للمغنم ونحوه من أعراض الدنيا.

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٢٨٩

(٢) انظر : المرجع السابق ١/٤٩٧ .

ومن الآيات التي في هذه المعنى قوله (تعالى): ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٤١]. قيل في المراد بالسبيل أن ذلك يوم القيامة؛ بدليل قوله: ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾. وقيل: بأن يُسلَّطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، فإن العاقبة للمتقين. وعلى هذا فيكون رداً على المنافقين فيما أمَّلوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم كما قال (تعالى): ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[1] [سورة المائدة: ٥٢]. وقيل في السبيل: إنه الحجة: شرعية أو عقلية، وقيل غير ذلك[2].

ومن الآيات التي في هذا المعنى قوله (تعالى): ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ * قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/٥٣٧.

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٥/٤١٩-٤٢٠.

فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [سورة التوبة: ٥٠-٥٢]. الحسنة: الغنيمة والظفر. والمصيبة: الانهزام. أخذنا أمرنا من قبل: احترزنا، واحتطنا لأنفسنا فلم نخرج للقتال. فأمر الله (تعالى) رسوله ﷺ أن يرد عليهم بالقدر الكوني الذي يكون باعثاً على التوكل على (تعالى)؛ لعلم المؤمن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. والمؤمن لا ينتظر من جهاده سوى الشهادة أو الظفر، بينما ينتظر المؤمن للمنافق أن يهلكه الله بعذاب من عنده، أو يأذن له في قتاله وسبيه[1].

وفي معنى هذه الآيات قوله (تعالى): ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٠]. وغير ذلك من الآيات التي تشير إلى فرح المنافقين بما يسوء المؤمنين، وحزنهم بما يسر المؤمنين.

الرابع: قوله (تعالى): ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٣٤٦-٣٤٧ وتفسير القرطبي ٨/١٥٩-١٦٠.

فهـذه طائفـة المنـافقين لا يغشـاها النعـاس الـذي أصـــاب طائفــة المؤمنين؛ لما هـم فيه من القلق والجزع والخوف ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ كمـا قـال (تعـالى) في:﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [سورة الفتح: ١٢]. وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصل، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شـأن أهـل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصـل لهـم هـذه الظنون الشـنيعة، فقـالوا وهـم في تلـك الحـال:﴿هل لنا من الأمر من شيء﴾، فقـال (تعـالى): ﴿قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾ فرد الله عليهـم بقولـه: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم...﴾ أن هـذا الأمـر قَـدَر قـدَّره الله (تعالى) وحُكْمٌ حَتْمٌ لا محيد عنه ولا مناص منه، وحكمة الله فيـه اختيار النفوس وتمييز الصفوف: ﴿والله عليم بذات الصدور﴾[١]. وقال ابن عباس رضـي الله عنـه: ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ يعـني التكذيب بالقدر. وذلك أنهم تكلموا فيه فقال الله (تعـالى): ﴿قل إن الأمر كله لله﴾ يعني القدر خيره وشره من الله[٢].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/٣٩٥.

(٢) تفسير القرطبي ٤/٢٤٢.

ومن الآيات التي في هذا المعنى: قوله (تعالى): ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٥-١٦٨].

وهذه الآيات نزلت مخرج النبي ﷺ إلى أحد حتى إذا كان بين أحد والمدينة انحاز عنه عبدا لله بن أبي بن سلول بثلث الناس، فقال: أطاعهم فخرج وعصاني، ووا لله ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق والريْب، واتبعهم عبدا لله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول: يا قوم أذكركم ا لله، أن لا تخذلوا نبيكم وقومكم عند مَنْ حضر مِنْ عدوكم. قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكن لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم ا لله، أعداء ا لله، فسيغني ا لله عنكم، ومضى رسول ا لله ﷺ[(١)].

قوله: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمن﴾ أي بينوا حالهم، وهتكوا

---

(١) انظر : سيرة ابن إسحاق ص : ٣٢٤-٣٢٥، والسيرة النبوية ـ ابن هشام ٣/٩٢-٩٣، وتفسير الطبري ٧/٣٧٨-٣٧٩ ط. شاكر ، وتفسير ابن كثير ١/٤٠٢.

أستارهم، وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن بهم الإسلام، فصاروا أقرب إلى الكفر في ظاهر الحال، وإن كانوا كافرين على التحقيق[١].

وقوله: ﴿الذين قالوا لإخوانهم﴾ وهم الشهداء المقتولون من الخزرج، الذين تربط بينهم وبين هؤلاء أخوة النسب والمجاورة، لا أخوة الدين، فقالوا في شأن هؤلاء الشهداء : لو قعدوا بالمدينة ما قتلوا.[٢] فرد الله مقالتهم بقوله: ﴿قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أي: إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آتٍ إليكم، ولو كنتم في بروج مشيدة[٣]. وقيل: مات يوم قيل هذا سبعون نفسا من المنافقين[٤].

الخامس: قوله (تعالى): ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٦١].

فقد كان في المنافقين من يبسط لسانه بالوقيعة في أذية النبي ﷺ، ويقول: إن عاتبني حلفت له بأني ما قلت هذا، فيقبله فإنه أذن

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٤/٢٦٧.

(٢) انظر : المرجع السابق ٤/٢٦٧.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ١/٤٠٢.

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٤/٢٦٧.

سامعة[١]. فرد الله مقالتهم بقوله: ﴿قل أذن خير لكم...﴾ أي: هو أذن خير لا أذن شر، أي يصدق المؤمنين، وهو حجة على الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾[٢].

السادس: قوله (تعالى): ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [سورة التوبة: ٦٥-٦٦].

عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء. فَرُفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء رسولَ الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. فقال: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ـ إلى قوله ـ مجرمين. وإن رجليه لتنسفان الحجارة، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بِنِسْعَة[٣] رسول الله ﷺ[٤].

وروى الطبري رحمه الله عن قتادة في قوله (تعالى): ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ قال: بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوته

---

(١) انظر : المرجع السابق ١٩٢/٨.

(٢) انظر : المرجع السابق ١٩٢/٨، وتفسير ابن كثير ٣٥٠/٢.

(٣) النِسْعة: سير مضفور، يجعل زماماً للبعير وغيره، وقد تنسج عريضة؛ تجعل على صدر البعير والجمع نُسْع، ونِسَع، وأنساع . انظر : النهاية ـ ابن الأثير ٤٨/٥ .

(٤) تفسير الطبري ٣٣٥/١٤ ط. شاكر، وتفسير ابن كثير ٣٥١/٢.

إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين، فقالوا: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: احبسوا علي الركب، فأتاهم فقال: قلتم كذا، قلتم كذا، قالوا: يانبي الله، إنما كنا نخوض ونلعب. فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم ما تسمعون[(١)].

السابع: قوله (تعالى): ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٣٣٤.

قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ١٢-٢٠].

إن جماعة من المنافقين قالوا يوم الخندق: كيف يعدنا ـ أي النبي ﷺ ـ كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرز[١]. وطائفة قالت: لا موضع لكم تقيمون فيه فارجعوا إلى منازلكم، أي: أمروهم بالهروب من عسكر النبي ﷺ. وقال ابن عباس: قالت اليهود لعبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه من المنافقين: ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان وأصحابه، فارجعوا إلى المدينة، فإنا مع القوم، فأنتم آمنون[٢]. وطائفة استأذنت في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة أي مكشوفة للسُّرَّاق أو العدو، فنفى الله (تعالى) ما ادعوه، وأثبت لهم إرادة الفرار والهرب من الزحف، ثم إنَّ هؤلاء المستأذنين لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة أو البيوت ثم سئلوا الفتنة، وهي الشرك، وقيل: القتال في العصبية لأجابوا مسرعين ﴿وما تلبثوا بها﴾ أي بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلاً حتى يُهلكوا. وقيل: وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلاً ولأجابوا بالشرك مسرعين؛ وذلك لضعف إيمانهم ولفرط نفاقهم. فلو اختلطت بهم الاحزاب لأظهروا الكفر[٣]. ثم ذكَّرهم الله (تعالى) بما أعطوه من العهود والمواثيق بعدم الفرار من الزحف، ثم بين لهم (تعالى) أن الفرار من

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٤/١٤٧.

(٢) انظر: المرجع السابق ١٤/١٤٨.

(٣) انظر: المرجع السابق ١٤/١٤٨-١٥٠، وتفسير ابن كثير ٣/٤٥٦.

الزحف لايؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة؛ ولهذا قال: ﴿وإذا لا تمتعون إلا قليلا﴾ ثم بين لهم أنه لا عاصم لهم من الله ولا مجير ولا مغيث، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً[(١)].

ثم أخبر (تعالى) عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب، والقائلين لأصحابهم وخلطائهم: ﴿هلم إلينا﴾ قيل: إنهم المنافقون قالوا للمسلمين: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، وهو هالك ومن معه، فهلمَّ إلينا. وقيل إنهم اليهود من بني قريظة قالوا لإخوانهم من المنافقين: هلم إلينا، وفارِقوا محمدا فإنه هالك، وإن أبا سفيان إن ظفر لم يبق منكم أحداً. وقال ابن زيد: إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ بين الرماح والسيوف، فقال أخوه ـ وكان من أمه وأبيه ـ هلمَّ إلي، قد تُبِع بك وبصاحبك، أي قد أحيط بك وبصاحبك، فقال له كذبت والله لأخبرنه بأمرك، وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله (تعالى): ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا﴾[(٢)].

وقوله (تعالى): ﴿ولايأتون البأس إلا قليلا﴾ أي خوفاً من الموت، وقيل: لا يحضرون القتال إلا رياء وسمعة[(٣)].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٤٥٦.

(٢) انظر : تفسير القرطبي ١٤/١٥٢.

(٣) انظر : المرجع السابق ١٤/١٥٢.

ثم وصفهم الله (تعالى) بـأنهم أشـحة أي بخـلاء عليكـم؛ قيـل: في حفر الخندق، وقيل: بالنفقة في سبيل الله، وقيـل: بالقتـال معكـم، وقيل: بالغنائم إذا أصابوها[1].

ثم وصفهم بالجبن عند مجيء الخوف ﴿تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾ فـإذا ذهـب الخـوف بسـطوا ألسـنتهم بـالكلام، وادعـوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة وهم كاذبون. قـال قتادة: «أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوأ مقاسمة : أعطونا أعطونـا قد شهدنا معكم، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق»[2].

ومن علامات جبنهـم ظنهـم بقـاء الأحـزاب للقتـال مـع أنهـم قـد انصرفوا، ويتمنون إذا جاءت الأحزاب للقتال أن يكونوا بعيداً مـع الأعراب حذراً من القتل، وتربصاً للدوائر. ولو كانوا حاضرين لمـا قاتلوا إلا رمياً بالنبل والحجارة عن طريق الرياء والسمعة، ولو كان ذلك لله لكان قليله كثيراً[3].

---

(١) انظر : المرجع السابق ١٤/١٥٢-١٥٣.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٥٦ ، وانظر : تفسير القرطبي ١٤/١٥٣-١٥٤ .
(٣) انظر : تفسير القرطبي ١٤/١٥٤-١٥٥، وتفسير ابن كثير ٣/٤٥٧.

المطلب الثالث
جدل القرآن مع أهل الكتاب

جادل القرآن الكريم أهل الكتاب بطائفتيهم: اليهود والنصارى في قضايا كثيرة ومتنوعة، لكنها تدور في معظمها حول محورين أساسين: التوحيد والنبوة.

الأول: التوحيد:

والقضايا التي تعرَّض لها القرآن الكريم مع أهل الكتاب مما لها تعلق بالتوحيد كثيرة ومتشعبة، لكني سأقتصر هنا على ذكر أهمها وأخطرها، من ذلك:

- دعوى أهل الكتاب نسبة الولد لله سبحانه وتعالى:

فاليهود يزعمون أن عزيراً ابن لله (تعالى)، وكذا النصارى يزعمون هذه الفرية ويضيفونها إلى عيسى ﷺ، فيقولون المسيح ابن ا لله. فتصدى القرآن الكريم للطائفتين في هذه القضية مبيناً ضلالهم وكفرهم. فقال (تعالى): ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة التوبة: ٣٠] وقال (تعالى): ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[سورة البقرة: ١١٦-١١٧].

واليهود لم يجتمعوا على هذه المقالة، بل هو مذهب طائفة منهم، وقد خرج الخبر مخرج العموم المراد به الخصوص، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٣] ولم يقل ذلك كل الناس[(١)]، ولهذا لم يَرِد قولهم الشنيع هذا إلا في هذا الموضع، بعكس النصارى، فقد كان مذهباً لعامتهم؛ ولهذا جاء ذمهم وتكذيبهم في مواضع شتى من القرآن الكريم.

والنصارى يستندون في دعواهم بنوّة المسيح إلى ولادته من غير أب، فرد الله (تعالى) عليهم فريتهم وحجتهم الباطلة كما في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩-٦٠]. فآدم - أيضاً - مخلوق من غير أب، بل ومن غير أم، فإن كان عيسى ابناً لله؛ لأنه خلق من غير أب، فآدم أولى منه؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم .

٢- دعوى النصارى إلهية عيسى عليه السلام وأمه:

ومستند دعواهم هذه : هي أن عيسى ولد من غير أب، وأنه أتى بالخوارق من إحياء الموتى، وشفاء المرضى. وقد أبطل الله (تعالى) هذه الفرية من عدة وجوه، من أهمها:

أ- ما تقدم من تشبيه عيسى بآدم عليه السلام في كونه مخلوقاً لله (تعالى).

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٨/١١٦-١١٧ ، وتفسير السعدي ٢/٢٣٩ .

ب-إضافة عيسى الطَّيْلاً إلى أمه من حيث هي الرحم التي حملته، وإلى كلمة الله التي بها يقول للشيء كن فيكون، وإلى الله (تعالى) الذي خلقه وأمر بالنفخ في مريم ليكون عيسى بأمر الله وكلمته من غير أب. قال (تعالى): ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا منسيا﴾ [سورة مريم: ٢٢-٢٣] ، وقوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ...﴾ [سورة مريم: ٢٧]، وقوله على لسان عيسى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي..﴾[سورة مريم: ٣٢] وقوله على لسان مريم: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[سورة آل عمران: ٤٧].

وقال (تعالى): ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وكيلاً﴾ [سورة النساء: ١٧١].

فعيسى بالكلمة كان و لم يكن هو الكلمة.(١) كما قال (تعالى) لمريم : ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران: ٤٧] والعرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان صادراً عنه.(٢) وقيل: "كلمته": بشارة الله (تعالى) مريم، ورسالته إليها على لسان جبريل

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/٥٥٩.

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٦/٢٢.

ﷺ كما في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مريم﴾[١] [سورة آل عمران: ٤٥].

وقوله: ﴿وروح منه﴾ الإضافة هنا إلى الله (تعالى) إضافة تشريف؛ لأنها من باب إضافة الأعيان كبيت الله وناقة الله ورسول الله، فهذه إضافة تشريف، ولو كان كل ما يضاف إلى الله يكون جزءاً منه لقيل ذلك في البيت والناقة والرسول، بل كل ما في السموات والأرض؛ لأن الله (تعالى) يقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾[سورة الجاثية: ١٣]. وهذا لا يقوله عاقل يتصور ما يقول، و"من" في قوله ﴿وروح منه﴾ ليست للتبعيض كما تدعيه النصارى، بل لابتداء الغاية[٢].

جاء في كتاب الداعي إلى الإسلام[٣]: «فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [سورة الأنبياء: ٩١] وقوله: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾ [سورة النساء: ١٧١].

قلنا: أما قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [سورة الأنبياء: ٩١] أراد بالروح جبريل، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣]، فإن خلق عيسى عليه السلام إنما كان من نفخة جبريل التراب في درع مريم بإذن الله تعالى وأمره، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ

(١) انظر: المرجع السابق.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١/٥٥٩ .
(٣) ص: ٣٧٤-٣٧٧ .

رُوحِنا﴾ [سورة الأنبياء: ٩١] الآية ، فأضاف الفعل إليه، لأنه سبحانه هو الآمِر، والفعل يضاف إلى الآمِر، كما يضاف إلى المباشر، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نُنفَخُ[(١)] فِي الصُّورِ...﴾ [سورة طه: ١٠٢] والله تعالى لا ينفخ في الصور، وإنما إسرافيل هو الذي ينفخ في الصور، إلا أنه لما كان عن أمره أضاف الفعل إليه، فقال: ﴿ننفخ﴾، فكذلك لما كان نفخ جبريل بإذن الله تعالى أضاف الفعل إليه فقال: ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ فكان جبريل عليه السلام سبباً في خلق عيسى في حال صغره، ومقوماً له في حال كبره، وإضافة جبريل إلى الله تعالى في قوله: ﴿من روحنا﴾ إضافة تشريف وتكريم، كقوله تعالى في حق آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [سورة الحجر: ٢٩] على ما قد قدمنا .

وأما قوله تعالى: ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾، ففيه وجهان :

أحدهما: أن يكون المراد بالكلمة: الآية، كقوله تعالى: ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [سورة لقمان: ٢٧] أي: آياته، وبدائع مقدوراته، وهذه الآية يترجمها قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩١].

والوجه الآخر: أن يكون المعني بإلقاء الكلمة إلى مريم تكوينه سبحانه ابنها بقدرته عند قوله ﴿كن﴾ كما كان ذلك في حق آدم، قال الله

---

(١) هذه قراءة أبي عمرو، وقراءة الجمهور : ﴿ينفخ﴾ بالياء . انظر : النشر لابن الجزري ٣٢٢/٢

تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩] ولا تمسك للنصارى بلفظ "الكلمة" لأنهم لا يريدون بها "الكلام"، وإنما يريدون بها " العلم "، ولا يسمون العلم قبل الاتحاد بالمسيح ابناً، بل المسيح مع ما تدرَّع به ابن، وقد قدمنا فساد ما ادعوه من الاتحاد.

ومن أشنع ما جرّهم إليه ـ دعوى الاتحاد ـ وأقبحه أنهم يزعمون : أن كل أقنوم من الأقانيم الثلاثة إله، والثلاثة الأقانيم ـ التي كل واحد منها إله ـ واحد، وهذا مكابرة لبدائه العقليات، ومناكرة للضروريات، فإنهم أثبتوا آلهة ثلاثة، ثم جعلوا الآلهة الثلاثة واحداً، ومن جعل الثلاثة واحداً فقد خرج عن حد المعقول، وباهت ضرورات المعقول، أعاذنا الله وإياكم من عدم العقل، وحفظنا من فضيحة الغباوة والجهل، إنه ولي الطول والفضل».

ج- إثبات أن عيسى عبد الله ورسوله لا إله ولا ابن إله كما تدعيه النصارى. قال (تعالى): ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ٣٠] وقال (تعالى): ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [سورة النساء: ١٧١].

د- إقرار عيسى عليه السلام بربوبية الله له، قال (تعالى) عنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ٥١].

هـ- إقراره عليه السلام بعبوديته لله (تعالى)، قال (تعالى) عنه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ٣٠]. وقال: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: ٣١] وقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [سورة النساء: ١٧١] وقال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ [سورة النساء: ١٧٢].

و- أن عيسى وغيره من أنبياء الله لم يأمر الناس بعبادة نفسه، وما كان له ذلك وهو عبد الله ورسوله. قال (تعالى): ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٧٩].

ز- جريان أحكام البشرية عليه؛ من الأكل والشرب والولادة والموت والبعث ونحو ذلك، قال (تعالى): ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[سورة المائدة: ١٧]. وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: ٣٣]. وقال (تعالى): ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة المائدة: ٧٥].

ح- ما وقع من عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأكمه وغيره إنما كان بإذن الله (تعالى) آية من الله لنبيه. ومثله تفعله بعض رسل الله (تعالى) من الملائكة والنبيين، فلم تدعي النصارى في واحد منهم أنه إله أو ابن إله؛ قال (تعالى): ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ

لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٤٩].

ط- براءة عيسى عليه السلام من فعل ضلال النصارى قال (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ. . .﴾ [سورة المائدة: ١١٦-١١٩].

٣- دعوى التثليث عند النصارى:

النصارى يقولون: إنَّ الله جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم، فيجعلون كل أقنوم إلهاً، ويعنون بالأقانيم: الوجود والحياة والعلم، وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس، ولهم في ذلك خبط وافتراق واسع.[1] فرد الله مقالتهم وأكفرهم بها؛ قال (تعالى): ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا

(١) انظر : تفسير القرطبي ٦/٢٣.

فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٧١] وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة المائدة: ٧٣].

٤- نسبة صفات النقص إلى الله (تعالى):

حيث وصف اليهود (عليهم لعنة الله) الله (تعالى) بالبخل والفقر؛ قال (تعالى): ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [سورة المائدة: ٦٤] .

٥- نسبتهم أنفسهم إلى الله (تعالى) نسبة البنوّة:

حيث زعمت اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه مثلما ادعوه في عزير والمسيح؛ قال (تعالى): ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [سورة المائدة: ١٨].

٦- اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله:

وذلك بطاعتهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله قال (تعالى): ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة: ٣١] رُوي عن عدي

بن حاتم ﷺ أنه قال: «أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي، اطرح هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبنهم أربابا من دون الله﴾. قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه»[(١)].

وفي رواية للطبري في تفسيره[(٢)] أن عدياً قال: «يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم. فقال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال : قلت : بلى. قال: فتلك عبادتهم».

هذا ما تيسر ذكره من القضايا المتعلقة بالتوحيد والتي جادل فيها القرآن الكريم أهل الكتاب، وقد أمر الله (تعالى) رسوله أن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة التوحيد قال (تعالى) :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مسلمون﴾ [سورة آل عمران: ٦٤].

---

(١) رواه الترمذي في سننه ٢٤٨/٨ أبواب التفسير ـ سورة براءة ح : ٣٠٩٤ وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث . وذكر السيوطي هذه الرواية في الدر المنثور ٢٣٠/٣ وعزاها إلى ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في السنن. وذكر الشيخ أحمد شاكر أنه لم يجدها في سنن البيهقي ولا في طبقات ابن سعد . انظر : هامش تفسير الطبري ٢١٠/١٤ ط. شاكر .

(٢) ٢١٠/١٤ برقم : ١٦٦٣٢ ط. شاكر.

ثانياً: النبـــوة:

والقضايا التي جادل فيها القـرآن الكريـم أهـل الكتـاب مما لـه تعلـق بالنبوة ـ أيضاً ـ كثيرة، سأقتصر على أبرزها مما له تعلق بمبـاحث العقيـدة. من ذلك:

١ــ دعا القرآن الكريم أهـل الكتـاب إلى الإيمـان بمحمـد ﷺ وبالكتـاب الذي أنزل إليه، وذلك من عدة طرق:

أــ أنه هو الرسول المبشَّر به، وهو الذي بشَّرت به كتبهم: قـال (تعـالى): ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة المائدة: ١٩]. وقال (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [سورة الصف: ٦].

بــ مطالبتهم بالإيمان بما جاء به الرسول ﷺ قـال (تعـالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [سورة النساء: ٤٧].

يُروى أن كعب الأحبار أبطأ في دخوله الإسلام، حتى سمع تـال يقـرأ هذه الآية، قال كعب: فبادرت إلى الماء فاغتسلتُ، وإني لأمسُّ وجهي مخافة أن أُطمس، ثم أسلمت. وقيل: إنه رجع إلى أهله في اليمـن فـأتى بهم مسلمين(١).

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٨١ .

ج- مطالبتهم بالتحاكم إلى التوراة والإنجيل وصحة العمل بهما لأنهما ـ وعلى الرغم من التحريف الـذي أصابهمـا ـ تناديـان بنبـوة محمـد ﷺ ورسالته للناس كافة قال (تعالى): ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ ربكم﴾ [سورة المائدة: ٦٨] وقـال (تعـالى): ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [سورة البقرة: ١٢١]. قال ابن كثير رحمه الله: «أي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حـق إقامته آمن بما أرسلتك به يا محمد».(١)

د- بيان أن نبوة محمد ﷺ ثابتة فيما عندهم من الكتب، لكنهم يكتمونها ويجحدونها كفراً وحسداً. قال (تعـالى): ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٤٦].

هـ- بيان أن أهل الكتاب كتموا الحـق الثـابت عندهـم مـع أخـذ الميثـاق عليهم أن يبينوه للناس، فاستحقوا لعنة الله (تعالى). قال (تعالى): ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[سورة آل عمران: ١٨٧]. وقـال (تعـالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١٧٤]. قال ابـن كثـير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «يعني اليهود الذين كتمـوا صفـة محمـد

(١) تفسير ابن كثير ١/١٥٦.

ﷺ في كتبهم التي بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك؛ لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم فكتموا ذلك...»[(١)].

وقال (تعالى): ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٩]. قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: «يعني ... علماء اليهود وأحبارها، وعلماء النصارى لكتمانهم الناس أمر محمد ﷺ ، وتركهم اتباعه، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل»[(٢)].

و-اتفاق الرسالات والكتب المنزلة على توحيد الله وعبادته، ومن ثم فلا يجوز التفريق بين رسل الله وكتبه: قال (تعالى) مخاطباً المسلمين: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٤٦].

وقال (تعالى) مبكتاً على أهل الكتاب ومكفراً لهم لتفريقهم بين الرسل في الإيمان: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا

(١) المرجع السابق ١٩٦/١.

(٢) تفسير الطبري ٢٤٩/٣ ط. شاكر.

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [سورة النساء: ١٥٠-١٥١]. ولهذا قال (تعالى) مخاطباً لهم ومبيناً تناقضهم في التفريق بين المتماثلات: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: ٨٥].

ز- ما جاء به محمد ﷺ تصديقٌ لما في التوراة والإنجيل، فلا ينبغي تكذيبه والكفر بما جاء به. قال (تعالى): ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [سورة البقرة: ٤٠-٤١]. وقال (تعالى): ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٨٩].

٢-ومن القضايا التي تعرض لها القرآن الكريم قضية تحريف أهل الكتاب لكتبهم، حيث جعلوا التوحيد شركاً، والمتابعة مشاقة، وأخفوا كل ما يشير إلى نبوة محمد ﷺ، وتحريفهم لكتبهم شمل الزيادة والنقصان والتبديل والإخفاء والكتمان:

قال (تعالى): ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [سورة النساء: ٤٦]. وقال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٥] وقال (تعالى): ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [سورة البقرة: ٧٩]. وقال

(تعالى): ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٧٨]. وقال (تعالى): ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٤٦]. وقال (تعالى): ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [سورة المائدة: ١٥].

٣-دعوى انتسابهم إلى الله عز وجل وأنهم أولى الناس به، وأن لهم عنده الأجر العظيم في الآخرة، وعلى فرض دخولهم النار فلن يمكثوا فيها إلا قليلاً.

قال (تعالى): ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٩]. قال السعدي رحمه الله: «فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى تفتقر إلى برهان ودليل. فإذا كان رب الجميع واحداً ليس رباً لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوينا نحن وأنتم بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفريق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص. فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد

لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين والفرق بين المختلفين»[(١)].

وقال (تعالى): ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٩٤-٩٦]؛ ولهذا قال لهم في آيـــة أخرى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة الجمعة: ٦-٧]. قال ابن عباس رضي الله عنهما. «لو تمنى يهود الموت لماتوا» وفي رواية: «لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه».[(٢)] قال السكوني رحمه الله: «فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول الله ﷺ لتمنوا ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم

---

(١) تفسير السعدي ١/١٠٢-١٠٣.

(٢) انظر : مسند الإمام أحمد ٥١/٤ ح : ٢٢٢٥ وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح. وانظر: فتح الباري ٧٢٤/٨ وهو من زيادات الإسماعيلي. قاله ابن حجر. وتفسير الطبري ٣٦٣/٢ برقم : ١٥٦٧وقال أحمد شاكر : إسناده منقطع،وبرقم: ١٥٦٨ وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح وظاهره هنا أنه موقوف على ابن عباس، لكنه مرفوع بالروايات الأخر . وانظر : تفسير ابن كثير ١٢١/١ وقال ابن كثير: وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس .

ولحقهم الوعيد فما تمالك أحد منهم أن يتمنى ذلك، وكانت هذه إحدى معجزات نبينا ﷺ»[١].

وزعم أهل الكتاب أن الجنة لهم من دون الناس، وأنهم على فرض دخولهم النار فلن يمكثوا فيها إلا قليلاً. فأبطل الله زعمهم، وأضل أمانيهم، فقال (تعالى): ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: ١١١-١١٢].

وقال (تعالى): ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة البقرة: ٨٠-٨١].

٤- دعوى كل طائفة الانتساب إلى إبراهيم وذريته عليهم السلام، وبيَّن القرآن أن حقيقة الانتساب إليه هو الانتساب إلى ملته، وهي الحنيفية السمحة الخالية من الشرك، وهي التي عليها محمد ﷺ وأتباعه الكرام.

قال (تعالى): ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٤٠]. قال السعدي رحمه الله: «وهذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل الله، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل

(١) عيون المناظرات ص: ١٢٩.

المذكورين من المسلمين. فرد الله عليهم بقوله: ﴿ءأنتم أعلم أم الله﴾؟ فالله يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٧]. وهم يقولون: بل كان يهودياً أو نصرانياً، فإما أن يكونوا هم الصادقين العالمين، أو يكون الله (تعالى) هو الصادق العالم بذلك؟! فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان ـ حتى إنه من وضوحه ـ لم يحتج أن يقول: بل الله أعلم، وهو أصدق، ونحو ذلك؛ لانجلائه لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك. وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل، حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء لم يكونوا هوداً ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم؛ ولهذا قال (تعالى): ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾»[(١)].

وقال (تعالى): ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ

---

(١) تفسير السعدي ١٠٣/١.

آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٦-٦٨].

بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث قالوا: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [سورة البقرة: ١٣٥]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٥]، وملة إبراهيم هي التوحيد الخالص من الشرك، وهي التي أوصى بها بنيه وذريته، قال (تعالى): ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٠-١٣٣].

وعلى هذا فأولى الناس بإبراهيم هو النبي محمد ﷺ وأتباعه، لا اليهود ولا النصارى: قال (تعالى): ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[سورة آل عمران: ٦٨].

٥-دعوى اليهود ـ عليهم لعائن الله- على مريم الطاهرة أنها ولدت عيسى عليه السلام من الزنا، وهذه القضية -على الرغم من خطورتها- لم يحفل بها النصارى، و لم يعيروها انتباههم، ولا اهتمامهم؛ حتى جاء القرآن الكريم فطهرها من هذه الفرية العظيمة ودافع عن عرض مريم، وشهد لها بإحصان فرجها، وعن منبت عيسى عليه السلام. وقد تقدم بيان مولد عيسى عليه السلام وأن شأنه شأن آدم، بل خلق آدم أبلغ

في الإعجاز من خلق عيسى. فعيسى آية من آيات الله (تعالى) كما قال (تعالى): ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [سورة المؤمنون: ٥٠].

أما طهارة مريم وعفتها، فقد أعلنها القرآن الكريم في مثل قوله (تعالى): ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [سورة التحريم: ١٢]، وقال (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٤٢-٤٣].

وقد أكفر الله اليهود ولعنهم بسبب هذه المقالة وغيرها؛ حيث قال (تعالى): ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٥٥-١٥٦].

٦-دعوى أهل الكتاب قتل المسيح وصلبه، فاليهود يزعمون أنهم قتلوه وصلبوه، والنصارى يوافقون على هذا الزعم الفاسد، ويضيفون إليه ضلالاً آخر، وهو زعمهم أن المسيح مكّن أعداءه من نفسه ليفدي البشرية، ويخلصهم من خطيئة أبيهم آدم ـ على حد زعمهم ـ فأكذب الله الفريقين:

قال (تعالى): ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٥٧-١٥٨]. وقال (تعالى) في آية أخرى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة آل عمران: ٥٥].

أساليب القرآن الكريم في الجدل مع أهل الكتاب

تقدم بيان الأساليب العامة للجدل في القرآن الكريم، لكن للجدل مع أهل الكتاب أساليب خاصة، وإن كان بعضها قد يدخل في الأساليب العامة. والخصوصية إنما جاءت من حيث إن أهل الكتاب ينتسبون إلى جنس الرسالة الإلهية، فكانت أساليب الجدل معهم تناسب هذا الوضع الخاص، وأنا ذاكر هنا ما وقفت عليه من هذه الأساليب[1]:

١- **أسلوب التحدي**: وذلك لإظهار كذبهم في دعاويهم، كم جاء ذلك في قوله (تعالى): ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة الجمعة: ٦-٧] فتحداهم بتمني الموت ـ وذلك حين زعموا أنهم أولياء الله وأحباؤه ـ لملاقاة محبوبهم إن كانوا صادقين.

وتحداهم ـ أيضاً ـ بتمني الموت حين زعموا أن لهم الدار الآخرة خالصة من دون الناس؛ للتنعم بما أعده الله لأوليائه إن كانوا صادقين. قال (تعالى): ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٩٤-٩٥]، وكيف يتمنونه وهم أحرص الناس على حياة.

---

(١) انظر : الحوار مع أهل الكتاب ـ القاسم ص : ١٨٣ وما بعدها .

٢- أسلوب التهديد والتخويف: وذلك لأن أهل الكتاب يعلمون الحق - لا سيما اليهود منهم - ومع ذلك يكتمونه، فيُستعمل معهم أسلوب التهديد والتخويف. من ذلك قوله (تعالى): ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٩]. وقوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [سورة النساء: ٤٧].

٣-إظهار تناقضهم، من ذلك: إيمانهم ببعض الكتاب المنزل وكفرانهم بالبعض الآخر؛ كما قال (تعالى): ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: ٨٥]، وقال (تعالى): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة: ٩١].

ومن ذلك أمرهم الناس بالمعروف مع عدم التزامهم بذلك، وهم أحق لو كانوا يعقلون؛ قال (تعالى): ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٤٤].

٤- إظهار أن دعواهم مبنية على التحكم والتشهي؛ كما في قوله (تعالى): ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٨٧]. قال ابن القيم رحمه الله في هذه الآية: «فهذا

هو الذي تسميه النظار والفقهاء التشهي والتحكم، فيقول أحدهم لصاحبه: لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم الباطل، فإن جاء ما لا تشتهيه دفعته ورددته، وإن كان موافقاً لما تهواه وتشتهيه - إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده - قبلته وأجزته، فترد ما خالف هواك وتقبل ما وافق هواك، وهذا الاحتجاج مفحم للخصم، لا جواب عليه البتة»(١).

عن سعيد بن جبير قال: «جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: أنشدك بالذي أنزل التوارة على موسى، أما تجد في التوارة أن الله يبغض الحبر السمين؟(٢) وكان حبراً سميناً، فغضب، فقال: والله، ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له أصحابه الذين معه: ويحك! ولا موسى! فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء! فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ [سورة

---

(١) بدائع الفوائد ٤/١٤٤.

(٢) هذه اللفظة على فرض صحتها، لعلَّ المقصود: أنها موجودة في التوراة التي بين أيدي اليهود، ولا يعني أنه كلام شرعي صحيح، وهو من باب الاحتجاج على الخصم بما في يده، مما يعتقد هو صحته، وإن لم يكن كذلك في نفس الأمر. أو أن الله تعالى يبغض الحبر السمين، بمعنى أن الحبر أصاب السمن بأسباب مكروهة، أو محرمة، من الإسراف في المطعومات، والإخلاد إلى الراحة، وترك العبادات. إذ السمن والهزال المجردان لا يشملهما بغض ولا رضى. والله أعلم.

الأنعام: ٩١]»[1] . فتبين تناقضه، وظهر انقطاعه؛ لأن التوراة شيء وموسى بشر، بل من أفضل البشر، والحبر يخاصم النبي ﷺ عن اليهودية، فإذا أنكر التوراة أن تكون كتاباً منزلاً، سقط ما بيده، وبطلت خصومته، وإن أقر بها بطل قوله: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ فهو منقطع من كل وجه.

وروي أن قومه قالوا له: ويلك، ما هذا الذي بلغنا عنك؟ قال: إنه أغضبني، فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف[2] .

٥- الاستدلال عليهم بما في أيديهم من الكتاب، من ذلك: الاستدلال على نبوة محمد ﷺ بوجود ذكره وصفته في التوراة والإنجيل الموجودين لدى أهل الكتاب. قال (تعالى): ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

ومن ذلك ـ أيضاً ـ قوله (تعالى): ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ*

---

(١) تفسير الطبري ١١/٥٢١-٥٢٢ ط. شاكر برقم: ١٣٥٣٥ ، وانظر: عيون المناظرات ـ السكوني ص: ١٤٨-١٤٩.

(٢) عيون المناظرات ص: ١٤٨-١٤٩ .

فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٣-٩٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإذا أراد المجادل منهم ـ أي من أهل الكتاب ـ أن يذكر ما يطعن في القرآن بنقل أو عقل، مثل أن ينقل عما في كتبهم عن الأنبياء ما يخالف ما جاء به محمد ﷺ أو خلاف ما ذكره الله في كتبهم، كزعمهم للنبي ﷺ أن الله أمرهم بتحميم الزاني دون رجمه، أمكن للنبي ﷺ والمؤمنين أن يطلبوا التوراة ومن يقرؤها بالعربية ويترجمها من ثقات التراجمة، كعبد الله بن سلام ونحوه لما قال لحبرهم: ارفع يدك عن آية الرجم، فإذا هي تلوح[(١)]، ورجم النبي ﷺ الزانين منهم بعد أن أقام عليهم الحجة من كتابهم»[(٢)].

٦- الاحتجاج عليهم بمخالفتهم لصريح العقل، وذلك بعد أن خالفوا الشرع المنزل، فجمعوا بين مخالفة النقل الصحيح والعقل الصريح، من ذلك تفريقهم بين المتماثلات، حيث فرقوا في الإيمان بين رسل الله وكتبه كما قال (تعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ١٢٨/١٢ كتاب حدود ـ باب الرجم في البلاط ح: ٦٨١٩، و ٥١٦/١٣ كتاب التوحيد ـ باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها ... ومسلم في صحيحه ١٣٢٦/٣ كتاب الحدود ـ باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا ح: ١٦٩٩، وغيرهما من أصحاب السنن والمسانيد.

(٢) مجموع الفتاوى ١١٠/٤.

اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [سورة النساء: ١٥٠-١٥١] ومن ذلك - أيضاً - دعواهم أن إبراهيم الخليل منهم مع الفارق الكبير بين زمن الخليل وزمن بني إسرائيل؛ ولهذا قال (تعالى): ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٥].

المبحث الرابع
الأصناف الذين ذكر القرآن جدلهم

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: جدل إبليس اللعين

المطلب الثاني: جدل الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم

المطلب الثالث: جدل المؤمنين مع الكافرين

المطلب الرابع: جدل أهل الجنة وأهل النار

المطلب الأول

جــدل إبليس اللعين

وهو ما قصه الله (تعالى) في كتابه من شأن معارضة إبليس أمره بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام، وتفضيل نفسه عليه، وقد ذكرها الله (تعالى) في مواضع من كتابه، ولعلها أول مناظرة ـ على وجه المدافعة والاعتراض ـ يذكرها القرآن ويدونها لنا التأريخ؛ ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله : «قاس إبليس، وهو أول من قاس»[1]. وقال محمد بن سيرين رحمه الله: «أول من قاس إبليس»[2]. ومقصودهما القياس الفاسد، لا القياس الصحيح، كما قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «كان الحسن وابن سيرين يقولان: أول من قاس إبليس، يعنيان بذلك القياس الخطأ »[3]. وإليك نماذج من مناظرة إبليس لعنه الله:

قال (تعالى): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٣٢٨/١٢ برقم : ١٤٣٥٦ ط. شاكر . وصحح إسناده ابن كثير في تفسيره ١٩٤/٢ .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره ٣٢٨/١٢ برقم : ١٤٣٥٥ ط. شاكر. وصحح إسناده ابن كثير في تفسيره ١٩٤/٢ .

(٣) تفسير الطبري ٣٢٧/١٢ ط. شاكر .

* قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١١-١٨].

وقال (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الحجر: ٢٨-٤٣]

وقال (تعالى): ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٦١-٦٥]

وقال (تعالى): ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ

وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة ص: ٧١-٨٥]

فالحجة الإبليسية التي اعتمدها اللعين في الامتناع عن السجود لآدم تقوم على مقدمات، وصورت في قياسين متداخلين:[(١)]

أحدهما: أن إبليس مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والمخلوق من النار خير من المخلوق من الطين.

والثاني: أن إبليس خير من آدم، وخير المخلوقين لا يسجد لمن هو دونه.

فتكون نتيجة القياس الأول: أنا خير منه. وتكون نتيجة القياس الثاني: لم أكن لأسجد لبشر خلقته من حمأ مسنون.

لكن حجة إبليس فاسدة من عدة وجوه:

---

(١) انظر : الصواعق المرسلة ٣/٩٩٩.

١- أن سجود الملائكة كان طاعة لله (تعالى) وإكراماً لآدم وإعظاماً واحتراماً وسلاماً[(١)]. فلم يكن سجودهم عبادة لآدم، فالعبادة لا تكون إلا لله (تعالى)، لكنه كان من جهة طاعة لله، ومن جهة إكراماً لآدم. فخالف إبليس اللعين الأمرين، والله (تعالى) يأمر عباده بما شاء، ولهذا قال (تعالى) لإبليس لعنه الله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ...﴾ [سورة الأعراف: ١٢].

٢- أن اعتراض إبليس من باب معارضة النص بالرأي والوحي بالهوى، ولهذا قال الشهرستاني رحمه الله: «اعلم أن أول شبهة وقعت في الخليقة شبهة إبليس لعنه الله، ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختياره الهوى في معارضة الأمر، واستكباره بالمادة التي خلق منها وهي النار على مادة آدم عليه السلام وهي الطين»[(٢)].

والأصل أن يكون الوحي حاكماً والنص قاطعاً عند من كان عبداً لله (تعالى)، مربوباً له. ولهذا كان اعتراف إبليس بربوبية الله (تعالى) كما في قوله: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ [سورة الحجر: ٣٦] وقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ...﴾ [سورة ص: ٨٢] ملزماً له بطاعة الله وإنفاذ أمره، لكنه: ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٣٤].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/٧٥.

(٢) الملل والنحل ١/١٦.

٣- أن فضل آدم على إبليس بين واضح، ولا يحتاج إلى إعمال نظر حيث خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته؛ قال (تعالى): ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [سورة ص: ٧٢]؛ ولهذا قال (تعالى) لإبليس بعد امتناعه عن السجود لآدم: ﴿يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: ٧٥]. وعلمه الأسماء كلها، كما قال (تعالى): ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾ [سورة البقرة: ٣١].

٤- أن تفضيل إبليس لعنصره -وهو النار- على عنصر آدم- وهو الطين والتراب- فاسد من عدة وجوه ذكرها أهل التفسير، واستوعبها الحافظ ابن القيم رحمه الله وزاد عليها، من ذلك:(١)

أ- أن التراب طبعه السكون والرزانة والنار بخلافه، وقال ابن جرير الطبري رحمه الله: «فجهل عدو الله وجه الحق وأخطأ سبيل الصواب، إذ كان معلوماً أن من جوهر النار الخفة والطيش والاضطراب والارتفاع علوًّا، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حمل الخبيث ـ بعد الشقاء الذي سبق له من الله في الكتاب السابق ـ على الاستكبار عن السجود لآدم، والاستخفاف بأمر ربه، فأورثه العطب والهلاك، وكان معلوماً أن من جوهر الطين الرزانة والأناة والحلم والحياء والتثبُّت، وذلك الذي هو في جوهره من ذلك كان

(١) انظر: الصواعق المرسلة ٣/١٠٠٤-١٠٠٧، وتفسير الطبري ١٢/٣٢٦-٣٢٧ ط. شاكر، وتفسير ابن كثير ٢/١٩٤.

الداعي لآدم - بعد السعادة التي كانت سبقت له مـن ربـه في الكتـاب السابق - إلى التوبة من خطيئته ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة ».(١)

ب- أن التراب مادة الحيوان والنبات والأقوات، والنار بخلافه. قال (تعالى): ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [سورة طه: ٥٣-٥٤].

ج- أن التراب والماء والطين لا يمكن لأحد أن يعيش بدونه وبدون ما خلق منه البتة، ويمكنه أن يعيش برهة بلا نار؛ قالت عائشة رضي الله عنها لعروة ﷺ: «ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين وما أُوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقلت: ما كان يُعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء...».(٢)

د- أن الأرض تؤدي إليك بما فيها من البركة أضعاف أضعاف ما تودعه من الحب والنوى، وتربيه لك، وتغذيه وتنميه، والنار تفسده عليك، وتمحق بركته.

هـ- أن النار طبعها العلو والفساد، وأن الله لا يحب المستكبرين ولا يحب المفسدين، والأرض طبعها الخشوع والإخبات، والله يحب المخبتين الخاشعين.

---

(١) تفسير الطبري١٢/٣٢٧ . ط. شاكر .

(٢) صحيح البخاري ١١/٢٨٣ (فتح الباري) كتاب الرقاق - باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه ... ح : ٦٤٥٩.

و- أن النار لا تقوم بنفسها، بل لا بد لها من محل تقوم به لا تستغني عنه، وهي محتاجة إلى المادة الترابية في قوامها وتأثيرها، والأرض قائمة بنفسها، لا تحتاج إلى محل تقوم به، ولا يفتقر قوامها ونفعها إلى النار.

ز- أن التراب يفسد صورة النار، ويبطلها ويقهرها، وإن علت عليه.

٥- قال ابن القيم رحمه الله : «إن قوله: ﴿أنا خير منه﴾ كذب، ومستنده في ذلك باطل، فإنه لا يلزم من تفضيل مادة على مادة، تفضيل المخلوق منها على المخلوق من الأخرى، فإن الله سبحانه يخلق من المادة المفضولة ما هو أفضل من المخلوق من غيرها، وهذا من كمال قدرته سبحانه، ولهذا كان محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح والرسل أفضل من الملائكة، ومذهب أهل السنة أن صالحي البشر أفضل من الملائكة[1]، وإن كانت مادتهم نوراً، ومادة البشر تراباً، فالتفضيل ليس بالمواد والأصول، ولهذا كان العبيد والموالي الذين آمنوا بالله ورسوله خيراً وأفضل عند الله ممن ليس مثلهم من قريش وبني هاشم»[2].

ثم بعد أن عصى إبليس ربه استكباراً وعلواً، طرده الله (تعالى) من رحمته ولعنه وجعله من الكافرين، فطلب اللعين أن يُنظر إلى يوم القيامة،

(١) هذه مسألة خلافية، انظر : شرح الطحاوية ٢/٤١٠ وما بعدها، والحبائك في أخبار الملائك للسيوطي ص : ١٥٦ وما بعدها.

(٢) الصواعق المرسلة ٣/١٠٠٢-١٠٠٣.

فأجابه الله (تعالى) لكن إلى يوم الوقت المعلوم كما قال (تعالى): ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [سورة الحجر: ٣٤-٣٨].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله عند قوله (تعالى): ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٤-١٥] قال رحمه الله: «وهذه - أيضاً - جهلة أخرى من جَهَلاته الخبيثة، سأل ربه ما قد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق الله إليه، وذلك أنه سأل النَظِرَة إلى قيام الساعة، وذلك هو يومٌ يبعث فيه الخلق، ولو أعطي ما سأل من النظرة كان قد أعطي الخلود، وبقاءً لا فناء معه، وذلك أنه لاموت بعد البعث، فقال جل ثناؤه: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [سورة الحجر: ٣٧-٣٨] وذلك إلى اليوم الذي قد كتب الله عليه فيه الهلاك والموت والفناء؛ لأنه لا شيء يبقى، فلا يفنى غير ربنا الحي الذي لا يموت»[١].

فلما استوثق إبليس اللعين من الإنظار، أخذ في المعاندة والتمرد بدل الإنابة والتوبة[٢]، فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [سورة الأعراف:

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٣٣٠ ط. شاكر.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢/١٩٥.

١٦-١٧] فقال الله له: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٨].

وقال له: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الحجر: ٤١-٤٣]. وقال (تعالى): ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٦٣-٦٥]

حكاية مناظرة بين إبليس والملائكة:

ذكر الشهرستاني(١) رحمه الله أن شبهة إبليس لعنه الله التي مصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختياره الهوى في معارضة الأمر، واستكباره بالمادة التي خلق منها على مادة آدم عليه السلام. أن هذه الشبهة تشعبت منها سبع شبهات سارت في الخليقة، وسرت في أذهان الناس حتى صارت مذاهب بدعة وضلالة، ثم قال: «وتلك الشبهات مسطورة في شرح الأناجيل الأربعة: إنجيل لوقا، ومارقوس، ويوحنا، ومتى، ومذكورة في التوراة متفرقة على شكل مناظرات بينه وبين الملائكة بعد الأمر بالسجود، والامتناع منه.

(١) انظر: الملل والنحل ١/١٦-١٨.

قال كما نقل عنه: إني سلمت أن الباري (تعالى) إلهي وإله الخلق، عالم قادر، ولا يسأل عن قدرته ومشيئته، وأنه مهما أراد شيئاً قال له كن فيكون، وهو حكيم إلا أنه يتوجه على مساق حكمته أسئلة: قالت الملائكة: ما هي، وكم هي؟ قال لعنه الله: سبعة.

الأول منها: أنه قد علم قبل خلقي أي شيء يصدر عني ويحصل مني، فلم خلقني أولاً؟ وما الحكمة في خلقه إياي.

والثاني: إذ خلقني على ما مقتضى إرادته ومشيئته، فلم كلفني بمعرفته وطاعته؟ وما الحكمة في هذا التكليف بعد أن لا ينتفع بطاعة ولا يتضرر بمعصية؟.

والثالث: إذ خلقني وكلفني فالتزمت تكليفه بالمعرفة والطاعة فعرفت وأطعت، فلم كلفني بطاعة آدم والسجود له؟ وما الحكمة في هذا التكليف على الخصوص بعد أن لا يزيد ذلك في معرفتي وطاعتي إياه؟.

والرابع: إذ خلقني وكلفني على الإطلاق، وكلفني بهذا التكليف على الخصوص، فإذا لم أسجد لآدم، فلم لعنني وأخرجني من الجنة؟ وما الحكمة في ذلك بعد أن لم أرتكب قبيحاً إلا قولي: لا أسجد إلا لك؟.

والخامس: إذ خلقني وكلفني مطلقاً وخصوصاً، فلم أُطع فلعنني وطردني، فلم طرّقني إلى آدم حتى دخلت الجنة ثانياً، وغررته بوسوستي؛ فأكل من الشجرة المنهي عنها، وأخرجه من الجنة معي؟ وما الحكمة في

ذلك بعد أن لو منعني من دخول الجنة لاستراح مني آدم وبقي خالداً فيها؟.

والسادس: إذ خلقني وكلفني عموماً، وخصوصاً، ولعني، ثم طرقني إلى الجنة، وكانت الخصومة بيني وبين آدم، فلم سلطني على أولاده حتى أراهم من حيث لا يرونني، وتؤثر فيهم وسوستي، ولا يؤثر في حولهم وقوتهم وقدرتهم واستطاعتهم؟ وما الحكمة في ذلك بعد أن لو خلقهم على الفطرة دون من يجتالهم عنها فيعيشوا طاهرين سامعين مطيعين، كان أحرى بهم وأليق بالحكمة؟.

والسابع: سلمت هذا كله: خلقني وكلفني مطلقاً وقصداً، وإذ لم أطع لعنني وطردني، وإذ أردت دخول الجنة مكنني وطرقني، وإذ عملت عملي أخرجني ثم سلطني على بني آدم، فلم إذ استمهلته أمهلني، فقلت: ﴿أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٤] قال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [سورة الحجر: ٣٧-٣٨] وما الحكمة في ذلك بعد أن لو أهلكني في الحال استراح آدم والخلق مني، وما بقي شر ما في العالم؟ أليس بقاء العالم على نظام الخير خيراً من امتزاجه بالشر؟.

قال هذه حجتي على ما ادعيته في كل مسألة.

قال شارح الإنجيل: فأوحى الله تعالى إلى الملائكة عليهم السلام: قولوا له: إنك في تسليمك الأول أني إلهك وإله الخلق غير صادق، ولا مخلص، إذ لو صدقت أني إله العالمين، ما احتكمت علي بلم، فأنا الله الذي لا إله إلا أنا، لا أسأل عما أفعل، والخلق مسئولون.

قال الشهرستاني رحمه الله: وهذا الذي ذكرته مذكور في التوراة ومسطور في الإنجيل على الوجه الذي ذكرته.

ونقل ابن القيم رحمه الله[(١)] هذه الحكاية عن كتاب الملل للشهرستاني، ثم قال بعد ذلك[(٢)]: «فهذه القصة والمناظرة هي من نقل أهل الكتاب، ونحن لا نصدقها ولا نكذبها، وكأنها - والله أعلم - مناظرة وضعت على لسان إبليس. وعلى كل حال فلا بد من الجواب عنها، سواء صدرت منه، أو قيلت على لسانه، فلا ريب أنها من كيده، وقد أخبر الله سبحانه: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء: ٧٦] » ثم ساق رحمه الله وجوهاً من الردود على شبه إبليس المتقدمة، أختار بعضاً منها في هذا الموضع:

الوجه الأول[(٣)]: وهو شبيه برد الملائكة على شبه إبليس، وهو أن نقول لعدو الله: قد ناقضت في أسئلتك ما اعترفت به وسلمته غاية المناقضة، وجعلت ما أسلفته من التسليم والاعتراف مبطلاً لجميع أسئلتك، متضمناً للجواب عنها قبل ذكره، وذلك أنك قلت: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي...﴾ [سورة الحجر: ٣٩]. وقلت: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة الأعراف: ١٢] وقلت: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة ص: ٨٢-٨٣]. فاعترفت بأنه ربك وخالقك ومالكك، وأنك مخلوق له مربوب تحت أوامره ونواهيه، إنما شأنك أن تتصرف في نفسك تصرف العبد المأمور

---

(١) انظر : الصواعق المرسلة ٤/١٥٣٨-١٥٤١.

(٢) المرجع السابق ٤/١٥٤٥.

(٣) المرجع السابق ٤/١٥٥١-١٥٥٢.

المنهي، المستعد لأوامر سيده ونواهيه، وهذه هي الغاية التي خلقت لها، وهي غاية الخلق وكمال سعادتهم وصلاحهم.

وهذا الاعتراف منك بربوبيته وقدرته وعزته يتضمن إقرارك بكمال علمه وحكمته وغناه، وأنه في كل ما أمر به عليم حكيم لم يأمر عبده بحاجة منه إلى أمره به، ولم ينهه بخلاً بما نهاه عنه، بل أمره رحمة منه به، وأحساناً إليه، بما فيه صلاحه في معاشه ومعاده...

الوجه الثاني[1]: أن نقول لعدو الله: إما أن تسلم حكمة الله في خلقه وأمره، وإما أن تجحدها وتنكرها، فإن سلمتها وأنه سبحانه حكيم في خلقه وفي أمرك بالسجود بطلت الأسئلة، وإن رجعت عن الإقرار له ـ سبحانه ـ بالحكمة وقلت: إنه لا يفعل لحكمة البتة، بل لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فما وجه إيراد هذه الأسئلة على من لم يفعل بحكمة، ولا يسأل عما يفعل. والواقع أنك أوردت أسئلتك على من لا يسأل عما يفعل، وطعنت في حكمة من كل أفعاله حكمة ومصلحة وعدل وخير بمعقولك الفاسد، وعقلك الصغير الذي آثرت به داعي الكبر والكفر على داعي العبودية والإيمان.

والوجه الثالث[2]: أن مثل هذا النمط من الاعتراضات والأسئلة فاسد عند جميع أهل الأرض؛ فإنه يتضمن اعتراض الجاهل على أحذق

---

(١) المرجع السابق ٤/١٥٥٤-١٥٥٥.

(٢) المرجع السابق ٤/١٥٥٨-١٥٥٩.

الناس صناعة، قد أحكم آلاتها وأسبابها، وقدَّرها على أكمل الوجوه وأحسنها وأوفقها لما يقصد منها، فجاء رجل جاهل لا مناسبة بينه وبين ذلك الحاذق بوجه ما، فأخذ يعترض عليه في أجزاء تلك الصناعة وآلاتها وأشكالها ومقاديرها، وغير ذلك مما يسخر منه العقلاء، ويعدون صاحبه في زمرة السفهاء ـ مع أنه يمكن المعترض مشاركة ذلك الأستاذ الحاذق في صناعته، ومساواته فيها، وتقدمه عليه فيها ـ فإذا كان اعتراضه عليه مدفوعا عند كل عاقل، فما الظن بالاعتراض على من لا شريك له في حكمته، ولاشبيه له فيها، وكذا في علمه وقدرته وغناه وسائر صفاته.

الوجه الرابع(١): أن يقال لعدو الله: إيرادك هذه الأسئلة إما أن تكون على وجه الطعن في الرب (تعالى) ، وأنه فعل ما لا ينبغي له فعله، أو على وجه الاسترشاد وطلب الهداية. فإن كان على وجه الطعن والقدح، فكيف تجامع اعترافك بربوبيته وملكه وخلقه، وإقرارك بعزته وحكمته ثم تقدح فيه؟!

وإن كان على وجه الاسترشاد وطلب الحكمة، فذلك فرع عن التسليم لأمره، والإذعان لعبوديته، والانقياد لحكمته، فلا يجتمع مع تصريحك بالعداوة والكفر والاستكبار عن طاعته.

الوجه الخامس(٢): أن الرب سبحانه له الكمال المطلق الذي يستحق عليه الحمد، وسبحانه لا يصدر منه إلا ما يُحمد عليه، وحمد الله على

---

(١) المرجع السابق ١٥٥٩/٤.

(٢) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ٣٠٩/١-٣١٠.

نوعين: حمد يستحقه لذاته وصفاته وأسمائه الحسنى، وحمد يستحقه على أفعاله التي مدارها على الحكمة والمصلحة والعدل والإحسان والرحمة.

فإذا كان الله محموداً على أفعاله كلها لم يكن فيها مناف للحكمة، إذ لو كان فيها ما هو كذلك، لم يكن محموداً عليه، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، فحمده شامل لما شمله ملكه، ولا يخرج شيء عن حمده، كما لا يخرج شيء عن ملكه.

إلى غير ذلك من الوجوه التي وصلت إلى ثلاثة وعشرين وجهاً، في بعضها إجابة عن أعيان الأسئلة التي أثارها اللعين، فليراجعها من أراد الوقوف عليها[1].

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة ٤/١٥٣٨-١٥٧٥، ٣/٩٩٨-١٠٠٨، ومختصر الصواعق المرسلة ١/٣٠٣-٣٨٠، وقد جمعها أبو أسامة سليم الهلالي في رسالة لطيفة بعنوان: حجة إبليس.

المطلب الثاني

جدل الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم

أولاً: جدل نوح عليه السلام مع قومه:

لقد جاء نوح عليه السلام إلى قومه بدعوة التوحيد، وإفراد الله (تعالى) بالعبادة ونبذ الشركاء، وبذل في ذلك كل وسعه، واستفرغ كل جهده، وأتاهم من كل سبيل يدعوهم إلى الحق والرشاد، فلم يجد منهم إلا كل صدود ونفور، وقد صوَّر ذلك القرآن الكريم على لسان نوح فقال (تعالى): ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [سورة نوح: ٥-٢٠]. فها هو عليه السلام يستخدم معهم كل طرائق الدعوة جهاراً وإسراراً، وفي كل وقت: ليلاً ونهاراً، ترغيباً وترهيباً، واستدلالاً بآلاء الله وعظيم قدرته، وغير ذلك من الطرق الأخاذة بمعاقد العقول، ومجامع القلوب، لكنه قال بعد ذلك: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي

وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [سورة نوح: ٢١-٢٧]. قال ابن كثير رحمه الله: «وذلك لخبرته بهم، ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً»(١).

ولاشك أن هذه الدعوة الحثيثة من نوح لقومه كانت تتخللها مناظرات ومجادلات، وهو ما حكاه القرآن الكريم في مواضع عدة، أختار منها ما جاء في سورة هود، وهو قوله (تعالى): ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [سورة هود: ٢٥-٢٧].

فهذه خمس اعتراضات أثارها الملأ الذين كفروا ــ وهم الرؤساء والسادة والكبراء من قوم نوح ـ في وجه نوح عليه السلام، وهي(٢):

١- الزعم بأن بشرية نوح تمنع أن يكون رسولاً من عند الله، فكيف اختاره الله من بينهم لرسالته. وقد حكى الله اعتراضهم هذا في سورة

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٢٨.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٤٢٤، وتفسير السعدي ٢/٣٦٢.

المؤمنون، قال (تعالى): ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة المؤمنون: ٢٤].

٢- الزعم بأن أتباعه من الضعفاء والفقراء وأصحاب الحرف؛ فلو كان ما جاء به نوح حقاً لاتبعه علية القوم وأشرافهم، فلما اتبعه الأراذل دل على أنه ليس بحق كما قال الله (تعالى) عن مشركي قريش: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ...﴾ [سورة الأحقاف: ١١].

٣- الزعم بأن أتباع نوح لم يتبعوه عن ترو منهم وفكر وعمق نظر، وهذا دليل سذاجتهم وقصر نظرهم.

٤- الزعم بأن نوحاً وأتباعه ليس لهم من فضيلة على قومهم في خلْق، ولا في رزق، ولا تغيَّر حالُهم بعد أن دخلوا هذا الدين الجديد.

٥-الزعم بأن دعوى نوح الرسالة كاذبة.

فأجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة هود: ٢٨-٣١].

وقد تضمن جواب نوح الرد على اعتراضات قومه وزيادة؛ فمن ذلك:

١- بيان أنه رسول من عند الله، وأنه على يقين من ذلك وأن دعوته حق، ولا يشكك فيها خفاؤها على قومه؛ ولهذا فهو يدعوهم ولا يكرههم إذ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦] .

٢- أنه بشر ليس بملك، وهذا لا ينفي عنه صفة الرسالة، بل هذا من رحمة الله بهم أن أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم يعرفونه ويعرفهم، ويتمكنون من تكليمه ومراجعته ومعايشته، وكونه اختصه الله من بينهم بالرسالة، فهذا محض فضل من الله ورحمة من عنده والله يختص برحمته من يشاء.

٣- ومما يدل على بشريته أنه لا يملك خزائن الله (تعالى)، ولا يعلم الغيب، وليس بمَلَك، بل هو بشر، لكنه يوحى إليه من عند الله.

٤- أن نوحاً ـ كسائر الرسل ـ لا يبتغي من وراء دعوته مالاً ولا أجراً، بل هو يدعو إلى الله ويبتغي الأجر منه، وذلك قطعاً لظنهم به أنه إنما يريد بذلك جاهاً أو مالاً.

٥- أما هؤلاء الذين استجابوا لدعوته وآمنوا برسالته فليس بطاردهم، وكأنهم طلبوا منه ذلك احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد جماعة من الضعفاء، ويجلس معهم مجلساً خاصاً فأنزل الله (تعالى): ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ

فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٢]. ولهذا قال نوح هنا: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة هود: ٣١]، ثم قال (تعالى): ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٣].

ثم إن الحالة المادية للشخص ليست دليلاً على هدايته أو ضلاله، ولا دليلاً على كرامته عند الله أو شقاوته؛ كما قال (تعالى): ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا...﴾ [سورة الفجر:١٥- ١٧] أي ليس الأمر كذلك. ولهذا قال نوح هنا: ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا﴾. فليست حالتهم الظاهرة دليلاً على حرمانهم مما عند الله من الأجر والثواب، بل الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كان باطنهم من الإيمان موافقاً لما ظهر منهم من الاستجابة لله ولرسوله، فلهم جزاء الحسنى، ولو قطع لهم أحدٌ بشرٍ بعدما آمنوا لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به(١).

٦-وصفهم بالجهل إذ ردوا الحق وكذبوا به لأجل أنه بشر، وأن أتباعه من الضعفاء المفضولين، بل طلبوا منه أن يطردهم.

فلما رأوه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم، و لم يدركوا منه مطلوبهم: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤٢٥/٢.

الصادقين﴾ [سورة هود: ٣٢] استعجلوا عقاب الله (تعالى)، وهذا من فرط جهلهم وعظيم ضلالهم، وقد قال أمثالهم من مشركي العرب: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الأنفال: ٣٢]. قال ابن كثير رحمه الله: «هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم، وهذا مما عيبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه، ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب وتقديم العقوبة، كقوله (تعالى): ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٥٣]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [سورة ص: ١٦]»[١].

فقال نوح عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة هود: ٣٣-٣٤]. فالله (تعالى) وحده هو الذي يعاقبكم ويعجله لكم متى شاء ولا يعجزه شيء، ولا يجدي إنذاري إياكم ونصحي لكم إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم، فهو المالك لأزمّة الأمور، المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور...[٢].

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٩١.

(٢) انظر: المرجع السابق ٢/٤٢٥.

ثم قال (تعالى): ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [سورة هود: ٣٥]. ذكر ابن كثير وغيره أن هذا كلام معترض في وسط القصة مؤكد لها ومقرر لها، وموجه إلى النبي ﷺ[(١)]. ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى نوح.[(٢)] وعلى كل حال، فالمقصود أن كل واحد عليه وزره لا يتعداه إلى غيره، وقد قال (تعالى): ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة يونس: ٤١].

فلما استعصوا عليه، وأبوا دعوته، وأعرضوا عن سماعه، بل هددوه إن لم يكف عنهم: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: ١١٦-١١٨]. استعجلوا عذاب الله وعقابه: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة هود: ٣٢] فكان ما طلبوه واستعجلوه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ

---

(١) انظر : المرجع السابق ٢/٤٢٥.

(٢) انظر : تفسير السعدي ٢/٣٦٥.

ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة هود: ٣٦-٤٨].

ثانياً: جدل هود عليه السلام مع قومه:

قال (تعالى): ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٦٥-٦٩].

فلما دعا هود عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده اتهموه بالسفه والكذب، فنفى عن نفسه أن يكون كذلك، وبين لهم أنه رسول رب

العالمين، ومن صفاته ـ كما هي صفات كل الرسل ـ البلاغ والنصح والأمانة. وأمرهم بترك العجب من بعث الله (تعالى) لهم رسولاً من عند أنفسهم، وذكرهم بما يمن الله عليهم من النعم؛ ومن ذلك: أن جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح الذي أهلك الله أهل الأرض لمَّا خالفوه وكذبوه، وفي ذلك أعظم عبرة لهم، وأكبر تحذير لهم، ومنها ـ أيضاً ـ زيادتكم في الطول[1]. وغير ذلك من نعم الله وأفضاله عليهم، ولكنهم كانوا يستعملون هذه النعم في اللهو العبث والتعدي على الآخرين، كما قال (تعالى) عنهم في آيات أخر: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [سورة فصلت: ١٥]. ومنها قوله (تعالى): ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: ١٢٨-١٣٥].

فبعد أن دعاهم هود إلى عبادة الله وحده، وذكَّرهم بنعمه عليهم، وأمرهم بطاعته، والانقياد لأمره الله، وخوَّفهم من عذاب الله بسبب المخالفة والإعراض: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٧٠].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢/٢١٥ .

وقال (تعالى) في سورة هود: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سورة هود: ٥٣-٥٧].

وقال (تعالى): ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾: أي أن ما هم عليه هو دين الآباء والأجداد: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سورة الشعراء: ١٣٦-١٣٨]

فلما كذبوه واستعجلوا عذاب الله قال لهم هود ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾: [سورة الأعراف: ٧١] : أي وجب عليكم بمقالتكم هذه: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٧١-٧٢].

وقال (تعالى): ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الشعراء: ١٣٩-١٤٠]. وكان قد أهلكهم الله بالريح العقيم، كما قال (تعالى): ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا

يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة الأحقاف: ٢٤-٢٥]. وقال (تعالى): ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [سورة الحاقة: ٦-٨].

ثالثاً: جدل صالح عليه السلام مع قومه:

قال (تعالى): ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة الأعراف: ٧٣].

وكانوا قد طلبوا منه آية على صدقه كما: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: ١٥٣-١٥٦].

فصالح عليه السلام - كغيره من الرسل - دعا قومه إلى التوحيد وعبادة الله وحده، فأنكر عليه قومه ذلك؛ كما في قوله (تعالى): ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [سورة هود: ٦٢-٦٣] فقومه في شك من أمره لكنه على يقين جازم، وأنه رسول الله، ولا يملك أن يخالف ربه، إذ في مخالفته خسارة وأي خسارة، لا يملك أحد دفعها عنه. ثم ذكّرهم بنعم الله عليهم؛ حيث قال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ

مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٧٤] وقال (تعالى): ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [سورة الشعراء: ١٤٦-١٥٢].

لكن لم يُجْدِ معهم الوعظ ولا التخويف ولا التذكير بنعم الله، بل كذبوا صالحاً، وكفروا بالذي جاء به من الحق كما قال (تعالى): ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٧٥-٧٦].

ثم لجوا في طغيانهم وعتوهم، فعقروا ناقة الله التي كانوا قد طلبوها آيةً على صدق صالح عليه السلام، واستعجلوا عذاب الله وأليم عقابه. قال (تعالى): ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٧٧-٧٨]. وقال (تعالى): ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [سورة هود: ٦٥-٦٨].

رابعاً: جدل شعيب عليه السلام مع قومه:

قال (تعالى): ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٨٥-٨٧].

فشعيب عليه السلام كغيره من الأنبياء دعا قومه إلى عبادة الله وحده، وكان يقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ولفصاحة عبارته، وجزالة موعظته[١]. وكان قومه أهل كفر بالله وبخس للمكيال والميزان[٢]. وبين لهم أن الله أقام الحجج والبينات على صدق ما جاءهم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس في المكيال والميزان وعدم ضيافتهم بعضهم بعضاً، ودعاهم إلى الكف عن الإفساد في الأرض ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾. وفي سورة هود قال شعيب لهم: ﴿بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ ». قال ابن جرير رحمه الله: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿بقيت الله خير لكم﴾ ما أبقاه الله لكم بعد أن توفوا الناس حقوقهم بالمكيال والميزان

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٢٤٨/٧ ، وتفسير ابن كثير ٢٢٢/٢ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٢٤٨/٧.

بالقسط، فأحلّه لكم، خير لكم من الذي يبقى لكم ببخسكم الناس من حقوقهم بالمكيال والميزان».[(١)] ثم قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [سورة الأعراف: ٨٨-٨٩] أي: اشهدوا علينا أننا إن عدنا إليها بعدما نجانا الله منها، وأنقذنا من شرها، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل لله شريكاً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد[(٢)]. وهذا تجرد وصدق وإخلاص من أنبياء الله (تعالى) ومحصله أن الحق ثابت، وإن تحول عنه أهله وأصحابه، وإن كان يعز على أمثالهم أن يفعلوا ذلك عن اختيار منهم، ولهذا قال شعيب بعدها: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [سورة الأعراف: ٨٩] .

فآيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة:

من جهة أنه ومن معه كارهون لها، مبغضون لما عليه قومه من الشرك، ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون، ومنها: اعترافه ومن معه بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

---

(١) تفسير الطبري ٤٤٧/١٥ ط. شاكر .

(٢) انظر : تفسير السعدي٢/١٣٤-١٣٥ .

ومنها: أن عودتهم فيها ـ بعدما هداهم الله ـ من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله (تعالى) والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل، وأمحل المحال. وحيث أن الله منَّ عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدى والضلال. وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه، التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب، وتوافقت القوى، فإنهم لايحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه؛ ولهذا استثنى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [سورة الأعراف: ٨٩].

ثم نهاهم عن القعود على الطرق المفضية إلى شعيب، وصد من أراد المجيء إليه، وتوعده بالقتل ونحوه[١]. ثم ذكرهم بنعم الله عليهم إذ كانوا قليلاً فكثرهم، إما بالعدد أو بالغنى بعد الفقر، ومثله قول شعيب لهم كما: ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ [سورة هود: ٨٤].

ثم وجههم إلى النظر إلى حال الأمم السابقة، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال بسبب اجترائهم على معاصي الله (تعالى) وتكذيب رسله[٢]. ثم أمرهم بالصبر وبالانتظار حتى يحكم الله بينه وبين خصومه المكذبين بدعوته، وأن عادة الله أن يجعل العاقبة للمتقين[٣]. ثم قال

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٧/٢٤٨-٢٤٩.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٢/٢٢٢ .

(٣) انظر : المرجع السابق ٢/٢٢٢ .

(تعالى) مبينا ما رد به أصحاب مدين على شعيب ﷺ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾[سورة الأعراف: ٨٨]. وهذه هي حيلة العاجز المبطل، عجز عن إقامة الحجة أو تصحيح ما هو عليه، فلجأ إلى البطش والقهر، وهي سنة المستكبرين في كل مكان وزمان، كما قال (تعالى) عن أهل مكة مع النبي ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٠]. وحكى (تعالى) مقالة قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [سورة النمل: ٥٦].

فقال شعيب راداً عليهم مكرهم وكيدهم: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٨٨] أي أأتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها، لعلمنا ببطلانها، فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالنهي عنها، والتشنيع على من اتبعها فكيف يدعى إليها.(١) ثم قال: ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٨٩]. فهذا اعتماد من شعيب وأتباعه على الله (تعالى) ، وتوكل عليه وتفويض الأمر إليه، وهو العالم بكل شيء ماضياً ومستقبلاً، وسؤالهم إياه أن يفتح بينهم وبين قومهم المكذبين، وفتح الله لعباده نوعان: فتح العلم بتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال،

---

(١) انظر : تفسير السعدي ٢/١٣٤ .

وفتح الجزاء بإيقاع العقوبة على الظالمين والنجاة والإكرام للمؤمنين الصالحين[١].

ثم قال (تعالى): ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٩٠]. هذا على عادتهم في التخويف والتهديد، لكن هذه المرة مع نوع من القسم والتأكيد بأن متابعة شعيب تحقق الخسارة، وما علموا أن الخسارة صفة أهل الكذب والبهتان: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٩١-٩٣].

خامساً: جدل إبراهيم عليه السلام مع قومه:

لإبراهيم عليه السلام مواقف عظيمة سجلها له القرآن الكريم جادل فيها أباه وقومه والملك الطاغية، أقام فيها الحجة وأبان المحجة، ودفع الباطل وبُهت القوم الظالمون:

١-جدل الخليل مع أبيه:

قال (تعالى): ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ

---

(١) انظر : المرجع السابق ٢/١٣٥ .

فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ ولِياً﴾ [سورة مريم: ٤١-٤٥].

فهذا إبراهيم عليه السلام يدعو أباه إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة ويبطل ما عليه أبوه من عبادة الأصنام، ويستدل على بطلان إلهيتها بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تجلب نفعاً لصاحبها، ولا تدفع عنه ضرراً. وما كان هذا شأنه فلا يستحق العبادة، ولا يُخاف ولا يُرجى. ودليل الخليل فيما جاء به من الحق أنه وحي أوحاه الله إليه، ولا غرابة أن يخص الله إبراهيم دون أبيه بهذه الرحمة، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عبادة، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فمع إبراهيم علم صحيح ثابت لم يكن مع أبيه، فلا يمنع صغر سنه وكونه من صلب أبيه أن يستجيب له أبوه، فمن علم حجة على من لم يعلم. ثم دعا أباه إلى متابعة الهدى والصراط المستقيم ونهاه عن عبادة الشيطان، ثم خوفه من عذاب الله إن هو مات على هذه الحال فيكون قريناً للشيطان في النار[1]. كل هذا بأسلوب لطيف رقيق يمتلأ شفقة وحرصا وبراً، رجاء أن ينقذ أباه من الضلال إلى الهدى، ومن الظلام إلى النور. لكنه قوبل من أبيه بقسوة لا تليق بالآباء، وشدة لا تعرف الحنان والعطف، قال (تعالى) في حكاية ردِّ أبي إبراهيم عليه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [سورة مريم: ٤٦] أي إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، وترغب عنها لغيرها، فانته عن سبِّها وشتمها، فإنك

(١) انظر : تفسير القرطبي ١١١/١١.

إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك، وشتمتك وسببتك[١]. وهو قوله: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [سورة مريم: ٤٧]. قال الضحاك: الرجم بالقول وهو الشتم، وقال الحسن: بالحجارة[٢]. ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم: دهراً، وقال الحسن البصري: زماناً طويلاً. وقال السدي: أبداً، وقال ابن عباس: سوياً سالماً قبل أن تصيبك مني عقوبة، وكذا قال الضحاك وغيره[٣]، وهو اختيار ابن جرير الطبري (رحمهم الله)[٤].

فعند ذلك قال إبراهم لأبيه: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [سورة مريم: ٤٧-٤٨]. فإبراهيم لم يعارض أباه بسوء الرد، إذ لم يؤمر بقتاله على كفره، والجمهور على أن المراد بسلامه هنا المسالمة التي هي المتاركة لا التحية.[٥] قال الطبري رحمه الله : معناه أمنةً مني لك[٦]. قال النقاش: حليم خاطب سفيهاً، كما قال (تعالى): ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/١٢١ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ١١/١١١.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٣/١٢١ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١٦/٦٩.

(٥) انظر : تفسير القرطبي ١١/١١١.

(٦) تفسير الطبري ١٦/٧٠.

[سورة الفرقان: ٦٣] (١). وقال ابن كثير رحمه الله: يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى وذلك لحرمة الأبوة (٢).

أما استغفار إبراهيم لأبيه، فكان مدّة ثم أقلع عنه، كما قال (تعالى): ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ١١٤].

٢-جدل إبراهيم الخليل مع قومه في عبادتهم الأصنام:

قال (تعالى): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٥١-٥٣]. وهذه هي حجة المشركين على مرِّ الدهور: التقليد للآباء، أي مجرد التقليد من غير حجة ولا علم ولا هدى؛ ولهذا قال الله (تعالى) في غير هذا الموضع: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ...﴾ [سورة الزخرف: ٢١-٢٥].

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ١١/١١١.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/١٢١ .

وقال إبراهيم الخليل: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٤]. قال ابن كثير رحمه الله: أي الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال، على غير الطريق المستقيم، فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٥]. يقولون هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أو محقاً فيه، فإنا لم نسمع به من قبلك؟![1] فردَّ إبراهيم عليهم: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٦]. فالخالق للسموات والأرض هو خالق الجميع، وهو أولى بالعبادة والإخبات.

ثم انتقل معهم إلى مرحلة جديدة فيها التحدي لبيان عجز آلهتهم وأنها لا تنفع أحداً ولا تضره؛ فقال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٧]. قال ابن كثر رحمه الله: ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أي ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين، أي إلى عيدهم وكان لهم عيد يخرجون إليه. قال السدي رحمه الله: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه. يابني، لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال: إني سقيم، فجعلوا يمرون عليه وهو صريع فيقولون: مَهْ، فيقول: إني سقيم، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال: ﴿وَتَاللَّهِ

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/١٧٧-١٧٨.

لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ فسمعه أولئك(١). وقد قال (تعالى) في سورة الصافات عن إبراهيم: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [سورة الصافات: ٨٨-٩٠] ثم قال (تعالى): ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٨]. أي: حطمهم جميعاً، عدا عظيمهم في الخلْق، فإنه لم يكسره عسى أن يرجع قومه عن دينهم الباطل إلى الدين الحق الذي عليه إبراهيم، وقيل: لعلهم يُرجِعون التكسير إلى الصنم الأكبر(٢).

وقال (تعالى) في سورة الصافات: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [سورة الصافات: ٩١]. وكانوا قد وضعوا للأصنام طعاماً لتبارك لهم فيه، فقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [سورة الصافات: ٩٢-٩٣]. فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا أصنامهم على هذه الحال من التكسير والإهانة: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٥٩-٦٣]. فهذه حجة قوية أقامها الخليل على بطلان هذه الآلهة إذ أضاف إلى كبيرهم فعل التكسير، وطلب من قومه سؤال الأصنام إن كانوا ينطقون، ففي ذلك بيان أن مَنْ لا يفعل ولا يسمع ولايتكلم لا يستحق أن يكون إلها، بل هذه مخلوقات مربوبات لله (تعالى) ؛ ولهذا قال إبراهيم لأبيه

(١) تفسير ابن كثير ٣/١٧٨.

(٢) انظر : تفسير القرطبي ١١/٢٩٨ ، وتفسير ابن كثير ٣/١٧٨.

وقومه كما: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ١٦-١٧] وكما: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [سورة الشعراء: ٧٢]. وفي ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: ٩٥-٩٦].

ثم قال (تعالى): ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الأنبياء: ٦٤] أي: رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته، المتفطن لصحة حجة خصمه: ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٦٤]. أي: بعبادة من لا ينطق بلفظة، ولا يملك لنفسه نفعاً، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس من لا يرد عن رأسه الفأس. ثم قال (تعالى): ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٦٥] أي: عادوا إلى جهلهم وعنادهم، فلما اعترفوا بعدم قدرة الأصنام على النطق قال الخليل: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١) [سورة الأنبياء: ٦٦-٦٧].

فلما دحضت حجتهم وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى سلاح العجز، وحيلة الضعف: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ٣٠٢/١١.

[سورة الأنبياء: ٦٨-٧٠] وقال (تعالى) في: ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [سورة الصافات: ٩٧-٩٨]

٣-جدال إبراهيم الخليل مع قومه في عبادة الكواكب:

قال (تعالى): ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ٧٤-٨٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لئن لم يهدني ربي﴾ الآية...» ثم قال رحمه الله: «والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين لهم في المقام الأول مع أبيه

خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية...وبين لهم في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، وأشدهن إضاءة الشمس ثم القمر ثم الزهرة، فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ فإنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام، خلقها الله منيرة؛ لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر فبين مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع: ﴿قال يقوم إني بريء مما تشركون﴾ أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه»[(١)].

الأدلة على أن إبراهيم الخليل كان مناظراً لا ناظراً:

وهي كثيرة بحمد الله، وهذه جملة منها:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/١٤٣-١٤٤.

١- أن إبراهيم كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة؛ لقوله لأبيه آزر قبل ذلك: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:٧٤].(١)

٢- قول الله (تعالى): ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿فلما جن عليه الليل...﴾ والفاء تقتضي الترتيب، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم من المؤمنين الموقنين؛ فكيف يُتهم بعد ذلك بقوله بربوبية النجم؟!(٢).

٣- قول الله (تعالى) في نهاية القصة: ﴿وتلك حجتنا ءاتيناها إبراهيم على قومه﴾ و لم يقل على نفيسه.

٤- أنه جاء في المناظرة قول إبراهيم: ﴿ياقوم إني بريء مما تشركون﴾ وهذا إنما يناسب في مقام المناظرة لقومه، لا النظر منه. ولأنه لم يقل إني بريء من الشرك الذي وقعت فيه(٣).

٥- قوله (تعالى) عقب المناظرة: ﴿وحاجَّه قومه قال أتحاجُّوني في الله وقد هدان﴾ يؤكد أن المناظرة كانت مع قومه، لا مع نفسه.(٤)

٦- وصف الله (تعالى) لإبراهيم أنه لم يسبق له أن كان من المشركين، كما جاء ذلك في مواضع كثيرة من القرآن؛ منها: قوله (تعالى): ﴿إِنَّ

---

(١) انظر : التفسير الكبير ـ الرازي ٤٧/١٣
(٢) انظر : المرجع السابق ٤٨/١٣ .
(٣) انظر : مناهج الجدل ـ الألمعي ص : ١٧٥.
(٤) انظر : تفسير ابن كثير ١٤٤/٢ .

إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة النحل: ١٢٠-١٢١] ، وقوله (تعالى): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٥١]. وقد استدل الحافظ ابن كثير رحمه الله بهذه الآيات ونحوها على أن إبراهيم الخليل كان مناظراً لقومه، وكذا بحديث: «كل مولود يولد على الفطرة»[(١)] وحديث: «خلقت عبادي حنفاء»[(٢)] وقوله الله (تعالى): ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [سورة الروم: ٣٠]، وقوله (تعالى): ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢]. وقال رحمه الله: ومعناه على أحد القولين كقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: ٣٠]. ثم قال: «فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتا لله حنيفا و لم يك من المشركين ناظراً في هذا المقام، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٣/٢٤٥-٢٤٦ (فتح الباري) كتاب الجنائز ـ باب ما قيل في أولاد المشركين ح: ١٣٨٥ وهو في مواضع كثيرة من صحيح البخاري وكذا في صحيح مسلم وغيره من كتب السنن.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث طويل ٤/٢١٩٧-٢١٩٨ كتاب الجنة وصفة نعيمها... ـ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة ... ح : ٢٨٦٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/١٤٤ .

وأيضاً ـ جاء في صفة الخليل: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الصافات: ٨٤] وأقل مراتب القلب السليم أن يكون سليما من الكفر. وقال الزجاج في تفسيرها: أي لم يُشرك به قط(١).

٧– أن إبراهيم الخليل قصد إبطال مذاهب عبدة الكواكب ببيان عدم صلاحيتها لأن تكون آلهة بأنه يطرأ عليها الأفول «فساق الإلزام على أصحاب الهياكل مساق الموافقة في المبدأ، والمخالفة في النهاية، ليكون الإلزام أبلغ، والإفحام أقوى. وإلا فإبراهيم الخليل لم يكن في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٧٦] مشركاً كما لم يكن في قوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾[سورة الأنبياء: ٦٣] كاذباً، وسوق الكلام على جهة الإلزام غير سوقه على جهة الالتزام»(٢).

وقال الألوسي رحمه الله في قوله ﴿قال هذا ربي﴾: «استئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام السابق، وهذا منه ﷺ على سبيل الفرض، وإرخاء العنان، مجاراة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فإن المستدل على فساد قول يحكيه ثم يكر عليه بالإبطال، وهذا هو الحق الحقيق بالقبول»(٣).

---

(١) تفسير القرطبي ٢٦/٧.

(٢) انظر: الملل والنحل ٢٣٢/١ .

(٣) انظر: تفسيرالألوسي ١٩٨/٧ .

٨- قول إبراهيم:﴿هذا ربي﴾ أي: على قولكم؛ لأنهم كانوا يعبدون الكواكب، ونظيره قوله (تعالى): ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ [سورة النحل: ٢٧] وهو جلَّ وعلا واحد لا شريك له، والمعنى: أين شركائي على قولكم[(١)].

٩- أما ما ذكره ابن جرير رحمه الله في تفسيره ورجحه من أن إبراهيم الخليل كان ناظراً، واحتج له بروايتين معلولتين كما سيتبين، وبظاهر قول إبراهيم:﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾[(٢)] [سورة الأنعام: ٧٧].

وقد تقدم ما يفيد أن هذا الكلام ونحوه من الخليل كان منه على سبيل التنزل مع الخصم والافتراض، لا على سبيل الاعتقاد والجزم.

أما الروايتان؛ فالأولى رواها ابن جرير رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن جرير حدثني به المثنى قال: حدثنا أبوصالح، قال: حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ومحصلها أن إبراهيم عبد الكوكب حتى غاب، ثم عبد القمر حتى غاب، ثم الشمس حتى غابت فلما غابت قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[(٣)] [سورة الأنعام: ٧٨].

فسند هذه الرواية فيه علتان: الأولى من جهة معاوية بن صالح؛ فقد تكلم فيه جماعة، قال ابن معين: كان يحيى بن سعيد لا يرضاه، وقال

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ٢٦/٧.

(٢) انظر : تفسير الطبري ٤٨٥/١١ ط. شاكر.

(٣) انظر : المرجع السابق ٤٨٠/١١.

فيه ابن معين: صالح. وقال الدوري عن ابن معين: ليس بمرضي، وقال ابن معين: كان ابن مهدي إذا تحدَّث بحديث معاوية بن صالح زبره يحيى بن سعيد، وقال: إيش هذه الأحاديث؟! وقال أبوإسحاق الفزاري: ما كان بأهل أن يروى عنه، وقال يعقوب بن شيبة: قد حمل الناس عنه، ومنهم من يرى أنه وسط ليس بالثبت ولا بالضعيف، ومنهم من يضعفه. وقال ابن خراش: صدوق. وقال ابن عمَّار: وزعموا أنه لم يكن يدري أي شيء في الحديث. وإن كان قد وثقه جماعة؛ منهم العجلي وابن حبان وعبدالرحمن بن مهدي وغيرهم[(١)].

وأما العلة الثانية، فمن جهة علي بن أبي طلحة، قال فيه الحافظ ابن حجر رحمه الله: روى عن ابن عباس ولم يسمع منه. ونقل عن أحمد ابن حنبل أنه قال فيه: له أشياء منكرات. وقال عنه دحيم: لم يسمع التفسير من ابن عباس. وقال فيه يعقوب بن سفيان: ضعيف الحديث منكر، ليس محمود المذهب. وقال في موضع: آخر ليس هو بمتروك ولا هو حجة، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: روى عن ابن عباس ولم يره[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر: «ونقل البخاري من تفسيره رواية معاوية بن صالح عنه عن ابن عباس شيئاً كثيراً في التراجم وغيرها، ولكنه لا يسميه، يقول قال ابن عباس أو يذكر عن ابن عباس»[(٣)].

---

(١) انظر : تهذيب التهذيب ١٠/٢١٠-٢١١.

(٢) انظر : المرجع السابق ٧/٣٣٩-٣٤٠.

(٣) تهذيب التهذيب ٧/٣٤٠.

وعليه، فأقل ما يقال في هذه الرواية أنها منقطعة، إضافة إلى ما قيل في معاوية ابن صالح.

وأما الرواية الثانية، فقد رواها ابن جرير عن محمد بن حميد، قال: حدثنا بن الفضل قال: حدثني محمد بن إسحاق فيما ذُكر لنا والله أعلم، ثم ساقها. وملخصها أن أم إبراهيم ولدته في مغارة خوفاً عليه من النمرود الذي أخبره المنجمون بمولد غلام في هذا الوقت يفارق دينكم ويكسر أوثانكم، فلما بلغ إبراهيم خمسة عشر شهراً أخرجته أمه عشاءً، فنظر وتفكر في خلق السموات والأرض، وقال مقالته المذكورة في الآيات السابقة الذكر[1].

وهذه الرواية يتوجه عليها أمور منها:

أ- أنها ليست مسندة إلى النبي ﷺ ولا إلى أحد من الصحابة، مع ما فيها من صيغة التمريض المشعرة بالتضعيف.

ب- أنها قد تكون من الإسرائيليات، فقد كان ابن إسحاق يروي عن أهل الكتاب، قال ابن المديني فيه: لم يضعه عندي إلا روايته عن أهل الكتاب[2].

ج- أن إبراهيم عليه السلام ـ كما في الرواية ـ قال ذلك وعمره خمسة عشر شهراً، فلا يتصور ممن كان في هذه السن نظر ولا فكر.

---

(١) تفسير الطبري ١١/٤٨٠-٤٨٢ ط. شاكر .

(٢) انظر : التهذيب ـ ابن حجر ٩/٤٥.

د– إذا صحت الرواية، فقد كان ذلك من الخليل في حال طفولته وقبل قيام الحجة عليه، وتلك حال لا يكون فيها كفر ولا إيمان[١].

هـ– أنه جاء في الرواية قول إبراهيم الخليل بعد أن غابت الشمس: ﴿ياقوم إني بريء مما تشركون﴾ وهذا لا يعقل إلا إذا كان مناظراً لقومه كما تقدم.

١٠– أن المحققين من أهل العلم وجهوا هذه الآيات عدة توجيهات منها[٢]:

أ– أنه قال ذلك مناظرة لقومه، لكن على سبيل التنزل معهم كما تقدم تقريره.

ب– أنه قاله مستفهماً على سبيل الإنكار والتوبيخ، أي: أهذا ربي؟!

ج– أنه قاله في حال طفولته وقبل قيام الحجة عليه، وتلك حال لايكون فيها كفر ولا إيمان كما تقدم.

٤– مناظرة إبراهيم الخليل للملك:

وهو نمرود بن كنعان ملك بابل. قال (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨].

---

(١) انظر : تفسير الطبري ٤٨٤/١١ ط. شاكر .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٤٨٣/١١–٤٨٥ ط. شاكر ، وزاد المسير ـ ابن الجوزي ٧٤/٣–٧٥ ، وتفسير القرطبي ٢٥/٧–٢٧.

فالنمرود جادل إبراهيم عليه السلام في وجود الله إذ كان ينكره، والذي دعاه لذلك ما هو عليه من الملك والسيادة، فأنكر أن يكون ثمَّ إله غيره[١]. وكان ذلك منه على سبيل العناد والمكابرة كما سيتضح. فطلب النمرود من الخليل دليلاً على وجود الخالق سبحانه الذي يدعو إليه، فقال الخليل: ﴿ربي الذي يحي ويميت﴾ أي أن الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها. وهذا الدليل على وجود الفاعل المختار ضروري؛ لأن هذه الأشياء لم تحدث بنفسها[٢]، ولم تحدث من غير مُحْدِث لها؛ كما قال (تعالى): ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [سورة الطور: ٣٥].

وعلى الرغم من وضوح هذا الدليل وقوته، إلا أن النمرود كابر وعاند وادعى أنه يفعل مثل ذلك. ذكر قتادة وغير واحد أن النمرود فسَّر الإحياء والإماتة بقوله: إني أوتى برجلين استحقا القتل، فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل[٣]. قال ابن كثير رحمه الله: «والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم، ولا في معناه؛ لأنه [غير][٤] مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أنه

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/٢٩٦ .

(٢) انظر : المرجع السابق .

(٣) انظر : المرجع السابق .

(٤) ساقطة من الأصل، لكنها موجودة في بعض النسخ الأخرى .

يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت»[(١)].

وقال ابن الحنبلي رحمه الله: «فلا يخلو حال نمرود؛ إما أن يكون ما فهم حقيقة الإحياء والإماتة، أو فهم إلا أنه قصد المصادمة والمباهتة، وكلاهما يوجب العدول إلى دليل يفضح معارضته ويقطع حجاجه، ومتى كان الخصم بهذه الصفة، جاز لخصمه الانتقال إلى دليل آخر أقرب إلى الفهم وأفلج للحجة»[(٢)].

فلما وجد إبراهيم عليه السلام خصمه مكابراً ومعانداً، انتقل معه إلى دليل آخر لا يجد عنه محيصاً وهو قوله (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨] أي فإذا كنت ـ كما تدعي ـ تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود: في خلق ذواته وتسخير كواكبه، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلها ـ كما ادعيت تحيي وتميت ـ فأت بها من المغرب، فلما علم النمرود عجزه، وبان انقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذه المقام بهت وأخرس وانقطع، وقامت عليه الحجة[(٣)] ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

---

(١) المرجع السابق .

(٢) استخراج الجدل ص : ٦٧-٦٨.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٢٩٦/١ .

سادساً: جدل موسى ﷺ مع فرعون لعنه الله:

إن الله (تعالى) اختار موسى ﷺ ليرسله إلى طاغية عصره فرعون، فيُذَكِّره، ويُنْذِره عذاب الله، وليستخلص بني إسرائيل من طغيانه وجبروته، فإن أبى كان هلاك فرعون وزوال ملكه على يدي نبي الله موسى ﷺ.

وفرعون كان يدعي الربوبية والألوهية لنفسه؛ حيث قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [سورة النازعات: ٢٤] وقال: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [سورة الزخرف: ٥١]. وقال لموسى: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٩]. وقال لبني إسرائيل: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [سورة القصص: ٣٨]. وكان مع ذلك ظالماً جباراً، قد استعبد بني إسرائيل وسامهم سوء العذاب؛ يقتّل أبناءهم ويستحيي نساءهم للخدمة ونحوها، متخوفاً من ظهور ولد - أُخبر عنه - يكون زوال ملكه على يديه، لكن الله الذي لا يرد له قضاء، ولا يعقب أحد على حكمه، قضى أن يكون أَمْن موسى في بيت فرعون، وأن تكون نشأته الأولى هناك تحت رعايته، وقريباً منه، كما قال (تعالى) ممتناً على موسى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [سورة طه: ٣٨-٣٩].

فاختار الله عبده موسى ليكون رسولاً إلى بني إسرائيل وإلى فرعون: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [سورة طه: ٢٤] إنها مهمة صعبة، وتكليف شاق؛ أن يواجه أحد من الناس فرعون الطاغية، لا سيما أن موسى قد فرَّ منهم بعد أن قتل منهم نفساً، لكن هذا التكليف يهون مع اختيار الله واصطفائه، وتربيته لموسى، وإعانته على مهمته، وكان قد قضى جزءاً من حياته في بيت نبي من أنبياء الله وهو شعيب، وتزوج من إحدى ابنتيه، إضافة إلى أن قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [سورة طه: ٢٥-٣٦]. وقال في سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ [سورة الشعراء: ١٠-١٥].

وفي ظل هذه الرعاية الربانية والعناية الإلهية، سار موسى إلى فرعون ـ ومعه آيات من ربه على صدقه ـ يدعوه إلى التوحيد، وأن يخرج بني إسرائيل من الرق والإهانة؛ قال (تعالى): ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [سورة طه: ٤٧-٤٨]. وكان فرعون قد طلب

منهما آية على صحة ما يدعون إليه؛ كما في سورة الأعراف وغيرها: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٠٦-١٠٨]. فقال فرعون منكراً وجود الخالق إله كل شيء ومليكه: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [سورة طه: ٤٩]، فقال موسى راداً عليه إنكاره، وقاطعا لتشغيبه: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه: ٥٠] كقوله (تعالى): ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤] وقوله: ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [سورة الأعلى:٣] وفيه بطلان دعوى فرعون الربوبية والإلهية إذ أن من يخلق يتصرف في خلقه ويقدِّره كيف شاء، وفرعون لم يخلق شيئاً، فهو ليس برب، وإذا انتفت عنه الربوبية انتفت عنه الإلهية لزوماً.

فلما عجز فرعون عن معارضة هذه الحجة الدامغة عَدَل إلى التشغيب وحاد عن المقصود: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [سورة طه: ٥١] أي: ما حال وما خبر الذين سبقونا إلى الكفر والإنكار؟ فكان الجواب: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [سورة طه: ٥٢] أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر وكتبها عنده في اللوح المحفوظ، وأحاط بها علماً وخُبْراً، لايشذ عنه شيء، ولا ينسى شيئاً سبحانه وتعالى. قال السعدي رحمه الله: «ومضمون ذلك أنهم قَدِمُوا إلى ما قَدَّمُوه، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فتلك أمة قد

خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم. فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك والآيات التي أريناكها قد تحققتَ صدقها ويقينها، وهو الواقع، فانفذ إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدال بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستيقنة، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق، فردَّ الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلاً ما دام الملوان. كيف وقد أخبر الله عنه أنه جحدها مع استيقانها كما قال (تعالى): ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: ١٤]، وقال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [سورة الإسراء: ١٠٢]. فعُلم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض»[1].

ثم استطرد موسى عليه السلام في الدليل كاشفاً عن آلاء الله ونعمه الظاهرة القاهرة، فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [سورة طه: ٥٣-٥٥].

ثم قال (تعالى): ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [سورة طه: ٥٦]. يعني أن فرعون قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاين ذلك وأبصره، فكذب بها وأباها كفراً وعناداً وبغياً، كما قال (تعالى): ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: ١٤]. وقال (تعالى) في سورة الشعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا

(١) تفسير السعدي ٢٣٦/٣ .

وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: ١٦-١٨] أي: الجاحدين للإحسان، وقيل: في قتله القبطي، وقيل: ﴿من الكافرين﴾ في أني إلهك. وقيل ﴿من الكافرين﴾ با لله؛ لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذي تعيبه[(١)]. وفيه إقرار فرعون على نفسه بالكفر. وقال موسى: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٠] أي من الجاهلين، فنفى عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل بأن الوكزة تبلغ القتل، وفي مصحف ابن مسعود ﷺ: «من الجاهلين» ويقال لمن جهل شيئاً: ضل عنه، فبين بهذا أن التربية فيهم لا تنافي النبوة والحلم على الناس، وأن القتل خطأً، أو في وقت لم يكن فيه شرع، لا ينافي النبوة[(٢)].

ثم قال موسى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢١] وذلك لما خرج خائفاً إلى مدين، ثم آتاه ا لله النبوة وجعله من المرسلين، فقد انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر، فكان كما قيل: ذاك على ما قضينا وهذا على ما نقضي.

ثم قال موسى عليه السلام: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [سورة الشعراء: ٢١] اختلف الناس في المراد بهذا الكلام[(٣)]: فقال السدي والطبري والفراء: هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة، كأنه

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٩٥/١٣.

(٢) انظر : المرجع السابق ٩٥/١٣.

(٣) انظر : تفسير الطبري ٤٢/١٩-٤٣ط. دار المعرفة ، وتفسير القرطبي ٩٥/١٣-٩٦.

يقول: نعم، وتربيتك نعمة علي من حيث عبَّدت غيري وتركتني، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي.

وقيل: هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار، أي أتمنَّ عليَّ بأن ربيتني وليداً وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم؟ أي ليست بنعمة؛ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي، فكيف تذكر إحسانك إلي على الخصوص، قال معناه قتادة وغيره.

وقيل إن الكلام خرج مخرج التبكيت، بمعنى لو لم تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي، فأي نعمة لك علي، فأنت تمنُّ عليَّ بما لا يجب أن تمنَّ به.

وقيل معناه: كيف تمنُّ علي بالتربية وقد أهنت قومي؟ ومن أهين قومه ذلَّ.

ولا يخفى عليك أن المعاني الثلاثة الأخيرة متقاربة.

ثم قال (تعالى): ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٣-٢٨]. فموسى عليه السلام يواجه السخرية والتهكم والسباب بالحجج الدامغة والأدلة الظاهرة والبينات القاهرة، فلم يكن أمام الطاغية العاجز عن مقارعة الحجة بالحجة،والدليل بالدليل إلا اللجوء إلى التهديد والبطش: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ

بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: ٢٩-٣٧] وقال (تعالى) في: ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاء إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مثبورا﴾ [سورة الإسراء: ١٠١-١٠٢] أي هالكاً مغلوباً(١).

وقال (تعالى) في: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [سورة غافر: ٢٥-٢٧]

وبعد أن عجز فرعون وملؤه عن كسر حجة موسى عليه السلام البيانية والعقلية، ولم يُجْدِ التهكم والسخرية، لجأ إلى السَّحرة وطلبهم من كل حدب وصوب، ووعدهم بكل ما يتمناه أمثالهم من الجاه والرياسة، فلنرجع إلى سورة طه لنرى صورة من صور هذا المشهد العظيم؛ قال (تعالى): ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٦٦/٣.

[سورة طه: ٥٧-٦٣] أي ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر ـ في زعمهم ـ فإنهم كانوا معظَّمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهم الرياسة دونكم[1]. ثم قال: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [سورة طه: ٦٤-٧٠]. فهذا كيد فرعون ومكره يتبدد ويتلاشى، وتظهر آية موسى عليه السلام فينتصر في مقام التحدي ـ أيضاً ـ كما انتصر ـ قبلُ ـ في مقام البيان والجدال والحجة، فيرجع فرعون مرة ثانية إلى ما يبين عجزه وإنكساره، فيواجه المؤمنين الجُدُد: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [سورة طه: ٧١]. أي: أنا أم رب موسى[2]. ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١٥٣/٣ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٢٢٤/١١.

وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [سورة طه: ٧٢-٧٣]. وهذا جواب قول فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (١) [سورة طه: ٧١].

ثم انظر كيف ينطق الإيمان على لسان صاحبه: قوة بالحجة، وصحة في الرأي، وثباتاً على الحق، واستعداداً للتضحية ومواجهة الصعاب، وتعلقاً بما عند الله (تعالى) مما أعده لأهل كرامته، والله خير وأبقى.

وقال (تعالى) في سورة الأعراف: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٠٩-١٢٦]. وفي سورة الشعراء قالوا له: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٥٠-٥١].

---

(١) انظر : المرجع السابق ١١/٢٢٦.

ثم سعى فرعون لتحقيق ما توعدهم به، وأخرج آخر ما في كنانته، وكانت العاقبة للمتقين: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الشعراء: ٥٣-٦٨]. أما فرعون فقد قال الله في شأنه: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [سورة يونس: ٩٠-٩٢].

سابعاً: جدل موسى عليه السلام مع بني إسرائيل:

لقد جُبل بنو إسرئيل على العناد والتلكؤ في الاستجابة لرسل الله، على الرغم من عظيم النعم التي أفاضها الله عليهم، ومن أعظمها نجاتهم من آل فرعون، وإهلاك عدوهم وهم ينظرون. لكنهم لم يقابلوا هذه النعم وغيرها بالشكر الذي من علاماته الاستجابة لله ولرسوله، بل أرهقوا أنبياءهم بالتعنت والمجادلة بالباطل، والمحاولات المتكررة للتفلت من أحكام الشرع، فضلاً عن قتلهم الأنبياء، وسبهم أياهم.

وأختار في هذا المقام صورتين من صور الجدال الذي وقع بين موسى عليه السلام وبني إسرئيل؛ لنرى كيف كانت النفسية اليهودية، وهي تجادل أنبياء الله وتحاول الصد عن سبيل الله.

الصورة الأولى:

قال (تعالى): ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة البقرة: ٦٧]. وذلك أن رجلاً من بني إسرائيل لم يكن له ولد، وكان غنياً، وكان له قريب، أو أقارب يرثونه، فقتلوه لأجل ذلك، ثم ألقوه على مجمع الطريق، وقيل: أمام بعض أبيات بني إسرائيل، وأتوا موسى عليه السلام يطلبون معرفة القاتل . وفي رواية أن بني إسرائيل تبادلوا التهم، حتى تسلّحوا، وركب بعضهم على بعض. وذلك قوله (تعالى): ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٢] فقال ذوو الرأي منهم : علام يقتل بعضكم بعضاً، وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى، فذكروا ذلك له. فدعا موسى ربه أن يدلهم على القاتل. فجاء الأمر الإلهي بذبح بقرة، ولو ذبحوا أي بقرة لوافقوا المطلوب[١]، ولكنهم تعنتوا، وشدّدوا على أنفسهم، فشُدِّد عليهم:

قال (تعالى) مصوِّرا هذا التعنُّت والتفلُّت من أوامر الله: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة البقرة: ٦٧]، فإن الجاهل هو الذي

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/١٠٣-١٠٤ .

يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل استهزاءه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فُضِّل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه، والرحمة لعباده[١].

واستمر بنو إسرائيل في التعنت الذي يحكيه الله (تعالى) بقوله: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٦٨] هل فعلوا؟! لا والله، ولكنهم: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٦٩-٧٢] . قيل: ولولا أنهم استثنوا لما اهتدوا إلى البقرة، وقد وجدوها بعد مشقة عند امرأة عجوز تقوم على يتامى، فلما علمت أنه لا يزكو لهم غيرُها، أضعفت عليهم الثمن، فاشتروها وذبحوها، فأمرهم موسى عليه السلام أن يضربوا القتيل بعظم منها[٢]؛ كما قال (تعالى): ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٣] فقام الميت أحيا ما كان قط، وأشار إلى قتلته، ثم مال ميتاً كما كان، فقالوا: والله، ما

---

(١) انظر: تفسير السعدي ٩٥/١ ط. الرئاسة.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٤٥٢/١، وتفسير ابن كثير ١٠٤/١، ١٠٦.

قتلناه، وكذَّبوه، فكذَّبوا بالحق بعد أن رأوه، فذلك قوله (تعالى): ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٤] (١).

الصورة االثانية:

قال (تعالى): ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ [سورة طه: ٨٣-٨٦] لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطور. (٢) ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ [سورة طه: ٨٧] أي بطاقتنا واختيارنا، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾ [سورة طه: ٨٧]. فأخبروه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر (٣). وقيل: هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل، وسميت أوزاراً بسبب أنها كانت آثاماً، أي لم يحل لهم أخذها، إذ لم تحل لهم الغنائم (٤). ﴿فقذفناها﴾ أي في

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٤٦٢/١ ، تفسير ابن كثير ١٠٨/١ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٢٣٤/١١.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ١٥٨/٣ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٢٣٥/١١.

النار ليذوب، وقيل طرحناها إلى السامري حتى يرجع موسى ويرى فيها رأيه[(١)]: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [سورة طه: ٨٧-٨٨] قال قتادة: إن السامري قال لهم حين استبطأ القوم موسى: إنما احتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلي، فجمعوه ودفعوه إلى السامري، فرمى به في النار، وصاغ لهم منه عجلاً ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام ... فلما ألقى عليه القبضة صار عجلاً جسداً له خوار[(٢)]. ثم قال السامري ومن مال إليه: هذا هو إله موسى الذي ذهب يطلبه، فموسى تركه هنا، ثم نسي فخرج يطلبه.[(٣)] فقال الله (تعالى) مبيناً بطلان إلهية العجل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [سورة طه: ٨٩] وفي سورة الأعراف: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٨]. فانظر إلى سخافة عقولهم وسذاجة تفكيرهم أنهم تنزهوا عن حلي القبط ووقعوا في الكفر بالله (تعالى)، تورعوا عن الأمر الحقير وباشروا الأمر الكبير. ثم قال (تعالى): ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [سورة طه: ٩٠-٩٤]. شرع موسى يلوم أخاه هارون إذ لم يخبره بهذا الأمر أول وقوعه، وكان قد قال

---

(١) انظر: المرجع السابق ١١/٢٣٥.
(٢) تفسير القرطبي ١١/٢٣٥.
(٣) انظر: المرجع السابق ١١/٢٣٦.

له: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٢]، فأدلى هارون بحجته التي يعتذر بها، وصدرها بقوله: ﴿يابنؤم﴾، وهذا ترقق منه لموسى مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم أرق وأبلغ في الحنو والعطف، واعتذاره بأنه خشي إذا لحق بموسى ليخبره أن يقول له: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم،﴿ولم ترقب قولي﴾ أي: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان هارون هائباً مطيعاً له[(١)].

ثم قال (تعالى) حاكياً جدال موسى مع السامري: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [سورة طه: ٩٥-٩٧]: أي: لا يخالط مدة حياته، ولهذا نفاه موسى عن قومه، وأمر بني إسرائيل بهجرانه[(٢)]. ثم قال موسى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا * إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة طه: ٩٧-٩٨].

---

(١) تفسير ابن كثير ١٥٩/٣ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ١١/٢٤٠-٢٤١ .

المطلب الثالث

جدل المؤمنين مع الكافرين

وهم المؤمنون أتباع الأنبياء الذائدون عن دينهم بالحجة الصحيحة، والبرهان القاطع، وفي القرآن نماذج من هذا النوع من الجدل، وأنا أختار نموذجاً واحداً منها، وهو الجدل الذي باشره مؤمن آل فرعون في مواجهة قومه.

قال (تعالى): ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [سورة غافر: ٢٨].

هذه الحجج الباهرة ساقها هذا الرجل المؤمن الذي كان يكتم إيمانه ـ ليعارض ـ بها موقف فرعون وملئه من دعوة موسى عليه السلام وعزم فرعون قتل موسى كما قال (تعالى) قبل ذلك: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ * وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ....﴾ [سورة غافر: ٢٦-٢٨].

فأنكر هذا المؤمن على فرعون وملئه هذا العزم على قتل موسى، وعلّل إنكاره بحجج قوية، وهي:

١ – أن كل جريرة موسى أنه يقول ربي الله، ومن كان هذا شأنه، فلا يستحق القتل.

٢- ثم إن دعواه هذه لم تكن خلية عن البرهان والدليل، بل جاءكم بالبينات الدالة على صدقه ما قد شاهدتم وعجزتم عن معارضتها وإبطالها، فمع الرجل دليل صدقه. قال السعدي رحمه الله في شرح هذه الآية: «فهلا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرتم هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته واستعلى برهانه، فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي»[(١)].

٣- ثم جاء بحجة عقلية تقنع كل عاقل، وعلى كل تقدير، وهي قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [سورة غافر: ٢٨] فموسى بين أمرين: إما أن يكون كاذباً في دعواه أو صادقاً فيها، فإن كان كاذباً فكذبه عليه، وضرره مختص به، ولا يلحقكم من ذلك شيء، حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه. وإن كان صادقاً ـ وقد جاءكم بالبينات ولم تجيبوه ـ أصابكم بعض ما وعدكم به، وقد توعدكم بعذاب الله في الدنيا والآخرة «وهذا من حُسْن عقله، ولُطْف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر

(١) تفسير السعدي ٥٢٣/٦ ط. الرئاسة العامة.

دائراً بين تينك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم»[١].

٤- قوله: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [سورة غافر: ٢٨]. أي: لو كان هذا الذي يزعم أن الله (تعالى) أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون، لكان أمره بيناً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديداً، ومنهجه مستقيماً ولوكان من المسرفين الكذّابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله[٢].

ثم أخذ يعظهم ويذكرهم بما هم فيه من الظهور والتمكين في الأرض الذي لا يغني من بأس الله ـ إن جاء ـ شيئاً. قال (تعالى) على لسانه: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [سورة غافر: ٢٩]. وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركاً بينه وبينهم؛ ليُفهِمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه[٣].

فذكّر وحذّر، فعلم فرعون ظهور حجته، وقوة برهانه، فقال ـ معترضاً بلا دليل، ومخاصماً بلا حجة، بل بمحض العلو في الأرض ومحبة الإفساد-: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

---

(١) انظر: تفسير السعدي ٦/٥٢٣-٥٢٤ ط. الرئاسة العامة، وتفسير القرطبي ١٥/٣٠٧-٣٠٨، وتفسير ابن كثير ٤/٧٩.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٨٠ .

(٣) انظر: تفسير السعدي ٦/٥٢٥ ط. الرئاسة العامة .

[سورة غافر: ٢٩] قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: « ما أشير عليكم إلا ما أرى لنفسي: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرَّشاد﴾ في تكذيب موسى والإيمان بي»[١].

وقد كَذَبَ فرعون في الأمرين؛ فهو يعلم صدق موسى عليه السلام كما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ...﴾ [سورة الإسراء: ١٠٢] ولكنه الجحود والعناد، كما قال (تعالى) عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا...﴾ [سورة النمل: ١٤]. بل صحة الرأي وسبيل الرشاد مع موسى نبي الله ورسوله. أما فرعون فلا صحة لرأيه كما قال (تعالى) عنه: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [سورة طه: ٧٩]. ولا رشاد في سعيه كما قال (تعالى) عنه: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [سورة هود: ٩٧].

ثم قال (تعالى): ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [سورة غافر: ٣٠-٣٣].

جعل الرجل يكرر موعظته المرَّة بعد المرة غير آيس من هدايتهم، يحذِّرهم من بأس الله (تعالى) في الدنيا والآخرة، ويذكّرهم بما حدث

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٥/٣١٠.

للمكذبين من قبلهم من الأمم الماضية، والتي لا يجهلون أخبارها وأخبار ما وقع بها من نكال الله وأليم عقابه جزاءً بما كانوا يكسبون: ﴿وما الله يريد ظلما للعباد﴾ ثم وعظهم وخوفهم بيوم القيامة، حيث لا ينفعهم ما هم فيه من الملك والسلطان والبسطة، بل لا ينفع أحداً إلا ما كسبته يداه، وإن الهدى هدى الله، ومن أضله فما له من هاد؛ لا فرعون ولا غيره. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [سورة غافر: ٣٤] فذكرهم بما كان من أمر يوسف عليه السلام، وتكذيب أسلافهم له على الرغم من مجيئه بالبينات ـ كما هو حال موسى ـ فلما مات يوسف طمع أهل مصر أن لا يبعث الله رسولاً من بعده، وذلك لكفرهم وتكذيبهم، وكذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب.

ثم قال (تعالى): ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [سورة غافر: ٣٥]: أي بغير حجة ودليل كحال فرعون وغيره من الكفار الجاحدين: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة غافر: ٣٥]. فالله يبغض من هذه حاله وكذا المؤمنون يبغضونه[1]: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: ٣٥] متكبر في نفسه عن قبول الحق، ومتكبر على الخلق باحتقارهم، وجبار بكثرة ظلمه وعدوانه[2].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٨١.

(٢) انظر: تفسير السعدي ٦/٥٢٩ ط. الرئاسة العامة.

لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، خاف فرعون أن يتمكن كلامه من قلوب العامة، فأوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من الحق، فإن بان له صوابه لم يخفه عنهم، وإن لم يصح ثبتهم على دينهم.[١] ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا . . .﴾ [سورة غافر: ٣٦-٣٧] أي: كاذباً في ادعائه إلهاً من دوني، وإنما فعل ما فعل لإزاحة العلة، وهذا يوجب شك فرعون في أمر الله. وقيل: إن الظن بمعنى اليقين؛ أي: وأنا أتيقن أنه كاذب، وإنما أقول ما أقوله لإزالة الشبهة عمن لم يتيقن ما تيقنته[٢]. وكل هذا من فرعون إظهار خلاف ما يعتقد كما تقدمت الإشارة إليه؛ ولهذا قال (تعالى): ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ [سورة غافر: ٣٧]. فلم يزل الشيطان يزينه له ويحسنه في نظره حتى دعا إليه وناظر عليه مناظرة المحقين وهو من أعظم المفسدين[٣]. ثم قال (تعالى): ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [سورة غافر: ٣٧] أي: خسران وضلال[٤].

ثم قال (تعالى): ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[سورة غافر: ٣٨] وهذا في معارضة قول فرعون المتقدم: ﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الآخرة

(١) انظر : تفسير القرطبي ١٥/٣١٤.

(٢) انظر : المرجع السابق ١٥/٣١٥.

(٣) انظر : تفسير السعدي ٦/٥٣٠ ط. الرئاسة العامة .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ١٥/٣١٥.

وغرتهم وصدتهم عن الصراط المستقيم، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة غافر: ٣٩-٤٠].

ثم قال لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [سورة غافر: ٤١] والنجاة في تصديق موسى عليه السلام ومتابعته، واستحقاق النار يكون بتكذيبه وعصيانه. ثم قال مفسراً ذلك: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ [سورة غافر: ٤٢] فدعوتهم قد اجتمع لها أمران: كونها كفراً وشركاً، وخلوها من الدليل والبرهان، أما دعوته فإلى الله الواحد الأحد الذي بث أدلة وجوده ووحدانيته في الكون والأنفس:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد(١)

إضافةً إلى إرساله الرسل وإنزاله الكتب. ثم بيَّن حقارة ما يدعونه إليه: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [سورة غافر: ٤٣] ليس له دعوة توجب له الألوهية لا في الدنيا ولا في الآخرة، وقيل: ليس له شفاعة لا في الدنيا ولا في الآخرة(٢): ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ

(١) هذا البيت نسبه صاحب وفيات الأعيان ١٣٨/٧ إلى أبي نواس، ونسبه مع ثلاثة أبيات أخرى صاحب الأغاني ٣٥/٤ إلى أبي العتاهية، ولم أجده في ديوانه .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٣١٧/١٥.

أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [سورة غافر: ٤٣]. فلما نصحهم وحذَّرهم وأنذرهم و لم يطيعوه، ولا وافقوه، قال لهم[1]. ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [سورة غافر: ٤٤]. فالرجل بالغ في نصحهم، وأطال النفس في إرشادهم وتحذيرهم، وأظهر لهم موافقته التامة لموسى، ودعاهم إلى ما دعا إليه، وهذا أمر لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرة - إذ ذاك - وقد أغضبهم، فأرادوا به كيداً: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [سورة غافر: ٤٥-٤٦].

---

(١) انظر : تفسير السعدي ٥٣٢/٦ ط. الرئاسة العامة .

المطلب الرابع
جدل أهل الجنة وأهل النار

وهو يشتمل على جدل أهل النار فيما بينهم، وعلى جدل أهل النار مع أهل الجنة، وسأبدأ بالنوع الأول وهو جدل أهل النار:

أما الجدل بين أهل النار فيقوم على التلاوم وتبادل التهم بين المستكبرين والمستضعفين، بين التابعين والمتبوعين، ويكون فيه الملاعنة، ويتبرأ بعضهم من بعض؛ كما قال (تعالى) مخاطباً طائفة من أهل النار: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٣٨-٣٩].

وقال (تعالى): ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [سورة البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وقال (تعالى): ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ * هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ * وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ *

﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ * إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [سورة ص: ٥٥-٦٤].

تفقد أهل النار ـ قبحهم الله ـ المؤمنين، هل يرونهم في النار؟ ﴿أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار﴾ أي: عدم رؤيتنا لهم دائر بين أمرين: إما أننا غالطون في عدنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم. وهذا هو الواقع؛ كما قال (تعالى) لأهل النار: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١٠٩-١١٠].

أو لعلَّ أبصارنا قد زاغت عن رؤيتهم معنا في العذاب، وإلا فهم معنا معذبون، ولكن تجاوزتهم أبصارنا[(١)]: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [سورة ص:٦٤].

ومن الصور التي ذكرها الله (تعالى) للجدل بين أهل النار ما جاء في [سورة سبأ: ٣١-٣٣].

قال (تعالى): ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة سبأ: ٣١] أي: لولا صدكم إيانا عن متابعة الرسل والإيمان بما جاءوا به لكنا مؤمنين ومن أهل

---

(١) انظر: تفسير السعدي ٦/٤٣٤-٤٣٥ ط. الرئاسة العامة.

الجنة. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾: أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أن دعوناكم فاستجبتم لنا من غير دليل ولا برهان، وخالفتهم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك[1]. وكما قال الشيطان يوم القيامة لأتباعه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٢].

فردَّ المستضعفون؛ كما قال (تعالى): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سورة سبأ: ٣٣] أي بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً، وتغرونا وتمنونا، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين[2]. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ...﴾ [سورة سبأ: ٣٣] أي الجميع من الضعفاء والكبراء كل ندم على ما سلف منه[3]. ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ...﴾[سورة سبأ: ٣٣].

ومن صور ذلك ـ أيضاً ـ ما ذكره الله في سورة غافر [٤٧-٥٠].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٥١٨ .

(٢) انظر : المرجع السابق ٣/٥١٨ .

(٣) انظر : المرجع السابق .

قال (تعالى): ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [سورة غافر: ٤٧] أي: أنا أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، فهل تتحملون عنا قسطاً من النار والعذاب هنا في هذا الدار(١). ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [سورة غافر: ٤٨]. أي: لا نتحمل عنكم شيئاً، كفى بنا ما نحن فيه من العذاب والنكال، ثم إن الله قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا(٢).

فلما أَيِسَ الضعفاء من المستكبرين أن يتحملوا عنهم شيئاً من العذاب. توجهوا إلى خزنة النار من الملائكة. قال الله (تعالى): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [سورة غافر: ٤٩]. وكان قد سألوا الله عز وجل الخروج من النار كما قال (تعالى) حكاية عنهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [سورة المؤمنون: ١٠٧-١٠٨] ثم سألوا مالكاً: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٧٧]. فسألوا الموت والفناء، فأجيبوا بضد مطلوبهم وهو الخلود والبقاء في النار والعذاب. وهنا سألوا التخفيف، فقالت لهم الخزنة: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي

---

(١) انظر: المرجع السابق ٤/٨٤.

(٢) انظر: المرجع السابق.

ضَلَالٍ﴾ [سورة غافر: ٥٠]. فلما أقروا أن الرسل جاءتهم بالبينات التي لو اتبعوها لكانت حاجزاً لهم من النار، قالت لهم الخزنة: ادعوا أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعوا لكم، ولا نسمع منكم، ولا نود خلاصكم، ونحن منكم براء، ثم إننا نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم: ﴿وما دعاؤا الكافرين إلا في ضلال﴾ أي: في ذهاب، لا يقبل ولا يستجاب[1].

جدل أهل الجنة مع أهل النار

قال (تعالى): ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [سورة الأعراف: ٤٤] يخبر (تعالى) بما يخاطب به أهل الجنة أهل النار على وجه التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم، وقد وجد كل فريق ما وعد به حقاً، فالمؤمنون وعدوا بالجنة وقد وجدوها، والكفار وعدوا بالنار وقد وجدوها؛ ولهذا ﴿قالوا نعم﴾ إذ هو يوم اليقين كما قال (تعالى): ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٣٧]. وقد حكى الله (تعالى) عن أهل الجنة بقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة الصافات: ٥٠-٦٠]. فأنكر عليه مقالته التي قالها في الدنيا، وقرَّعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١) [سورة الطور: ١٤-١٦].

---

(١) انظر : ابن كثير ٢/٢٠٦.

وكذلك قرَّع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر، كما في حديث أنس بن مالك: «أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: يا أباجهل بن هشام، يا أُمية بن خلف، يا عُتبة بن ربيعة، ياشيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربُكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً. فسمع عمرُ قولَ النبي ﷺ فقال: يارسول الله، كيف يسمعوا[(١)] وأنَّى يجيبوا[(٢)] وقد جَيَّفُوا؟! قال: والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا، ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قليب بدر»[(٣)].

ثم قال (تعالى): ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٤٤] أي نادى ملك من الملائكة وصوَّت بأن لعنة الله مستقرة على الظالمين.[(٤)] ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٤٥] أي جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر وما يتركون من

---

(١) هكذا من غير نون، وهي لغة صحيحة وإن كانت قليلة الاستعمال، وهي هكذا في جميع النسخ المعتمدة. قاله فؤاد عبد الباقي في حاشية صحيح مسلم ٤/٢٢٠٣ هامش: ٣.

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) صحيح مسلم ٤/٢٢٠٣ كتاب الجنة... ـ باب عرض مقعد الميت... ح: ٢٨٧٤، ومسند الإمام أحمد ٣/٢١٩-٢٢٠،٢٨٧.

(٤) انظر : تفسير القرطبي ٧/٢٠٩، وتفسير ابن كثير ٢/٢٠٦.

معروف. ثم قال (تعالى): ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [سورة الأعراف: ٤٦] والأعراف سور بين الجنة والنار كما قال (تعالى): ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [سورة الحديد: ١٣] [(١)].

وفي أصحاب الأعراف قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله» [(٢)].

وأصحاب الأعراف يعْرفون أصحاب الجنة وأصحاب النار بعلاماتهم، وهي بياض وجوه أهل الجنة وحسنها، وسواد وجوه أهل النار وقبحها [(٣)].

ثم قال (تعالى): ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٤٦] أي: لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة بعد، وهم يطمعون في دخولها، ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يريد بهم من كرامته [(٤)].

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٢١١/٧، وتفسير ابن كثير ٢٠٧/٢.
(٢) تفسير ابن كثير ٢٠٧/٢.
(٣) انظر : تفسير القرطبي ٢١٢/٧.
(٤) انظر : تفسير القرطبي ٢١٣/٧ ، وتفسير ابن كثير ٢٠٨/٢ ، وتفسير السعدي ١١٤/٢.

ثم قال (تعالى): ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٤٧]، فأصحاب الأعراف يسألون الله (تعالى) أن لا يجعلهم مع الظالمين في النار.

ثم قال (تعالى): ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [سورة الأعراف: ٤٨] أي من أهل النار: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٤٨] أي: ما أغنى جمعكم في الدنيا الذي كنتم تستدفعون به المكاره، وتتوسلون به إلى نيل مطالبكم، فها هو اليوم قد اضمحل و لم يغن عنكم شيئاً، وكذلك أي شيء نفعكم استكباركم على الحق، وعلى ما جاء به رسل الله؟!

ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار.[1] فقالوا: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم﴾ أي: في الدنيا ﴿لا ينالهم الله﴾ أي: في الآخرة﴿برحمة﴾ يوبخهم بذلك، ثم زيدوا غماً وحسرة بأن قيل للمؤمنين: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٤٩][2].

ثم قال (تعالى): ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة الأعراف: ٥٠] يخبر (تعالى) عن ذلة أهل النار وسؤالهم

---

(١) انظر : تفسير السعدي ١١٥/٢ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٢١٤/٧.

أهل الجنة من شرابهم وطعامهم. قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم[(١)]. فكان جوابهم: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٠]. أي: طعام الجنة وشرابها حرام على الكافرين. ثم يأتي وصفهم، أي وصف أصحاب النار: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٥١]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر[(٢)] وهو النار. وسبب نسيانهم في النار كان بسبب تركهم الاستعداد للقاء الله (تعالى)، وجحودهم بآياته، مع وصولها لهم، ووضوحها أمامهم؛ كما قال (تعالى) في الآية التي بعدها: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(٣)] [سورة الأعراف: ٥٢].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢/٢٠٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢١٠.

(٣) انظر : تفسير السعدي ٢/١١٦.

الفصل الثالث
الجـدل والمناظرة في السنة
خصائصه، وأسـاليبه، وتطبيقاته

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: خصائص الجدل في السنة وأساليبه

المبحث الثاني: الأصناف الذين وردت مجادلتهم في السنة

تمهيـد:

تقدم بيان منهج القرآن الكريم في مجادلـة أصنـاف المخـالفين، وتقـدم عرض نماذج من تلك المجادلات، ولا يخفى أن هذا القرآن هـو كتـاب ا لله (تعالى) الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ليبلغه للناس كافة، وهو ﷺ المبيِّن لكتاب ا لله: بأقواله وأفعاله وأحواله، فقد كان خلقه القـرآن. وقـد واجـه ﷺ الناس على اختلاف معتقداتهم؛ ومواقفهم من دعوة الحق التي جـاءهم بها ؛فمن هؤلاء: المسترشد الذي يطلب الحـق ليلـتزم بـه، ومنهـم الجـاهل الذي يبتغي العلم فيستنير به، ومنهم الجاحد الـذي يسـلك سـبيل المدافعـة والمنازعة بغية تثبيت ما عنده وتزهيق ما عند غيره، لكنـه قـد يستسـلم لمـا تنتج عنه المدافعة والمنازعة وظهور الحجة وبيان المحجة.

ومنهم المعاند المتلدد الذي لا يلوي على شيء غير الوقوف أمـام كـل جديد بالصد والإنكار، بدعوى التزام مـا كـان عليـه الأولـون مـن الآبـاء والأجداد.

ومن هؤلاء وهؤلاء من ينتسب إلى كتاب منزل أصابه مـن التحريـف والتبديل ما جعله يخلط حقاً ببـاطل ورشـاداً بغـي، وصدقـاً بكـذب وهـم اليهود والنصارى.

ومنهم من يعبـد الوثـن مـن الحجـر والشـجر، ويذبـح علـى النصـب ويستقسم بالأزلام مع بقاء شيء من ديـن الحنيفيـة علـى تحريـف وتبديـل ووثنية.

ومن المشركين وأهل الكتاب من أظهر ولاء وأضمر عداء، وأعلن وفاقاً وأبطن نفاقاً، وذلك بعد أن قويت شوكة الإسلام، وكثر ناصروه في دار الهجرة.

وهناك بعض حديثي العهد بالإسلام قد بقيت معهم بعض الشبه والشكوك التي تحملوها عن الجاهلية، فهي تحتاج إلى تجلية وتوضيح حتى يرسخ الإيمان في قلوبهم، وتصحح الفكرة في عقولهم.

كل هؤلاء وهؤلاء واجههم النبي ﷺ وقد وعى طريقة القرآن في بيان الحق وتثبيته، ودفع الباطل وتزهيقه، وعَلِمَ أساليب القرآن في مجادلة الخصوم ودفع الشبه والشكوك. فكانت العلاقة وثيقة جداً بين الجدل في القرآن والجدل في السنة، بل هما وحدة متماسكة لا انفصام لها، حتى ظهرت آثار الجدل القرآني واضحة جلية في التوجيه والجدال الذي كان يقوم به رسول الله ﷺ في تبليغ رسالة الله (تعالى) لا سيما عندما تدعو الحاجة إلى استخدام هذا النوع من أنواع البيان المحكم، فرسول الله ﷺ هو المفسر والمبيِّن لمقاصد الوحي وأحكامه، متلو كان أو غير متلو.(١)

والمقصود بالجدل في السنة في هذا الفصل هو ذاك الجدل الذي حدث في عهده ﷺ سواء كان أحد طرفي المجادلة هو الرسول ﷺ أو أحد أصحابه أو غيرهم كهرقل ملك الروم، ممن كان في جدلهم نصر للحق وأهله، ودفع للباطل وسدنته.

---

(١) انظر : مناهج الجدل ـ الألمعي ص : ٤٢٦-٤٢٧ .

المبحث الأول
خصائص الجدل في السنة وأساليبه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: خصائص الجدل في السنة

المطلب الثاني: أساليب الجدل في السنة

المطلب الأول
خصائص الجدل في السنة

الخصائص المذكورة في هذا الموضع متعلقة بشخص الرسول ﷺ مما كان لها الأثر في جدله ومجادلته لخصومه، من حيث القوة والإحكام والفلج، وبعض هذه الخصائص لا يشاركه فيها أحد من الناس غير نبي، وبعضها يحتمل المشاركة، لكن كان لرسولنا ﷺ قطب رحاها وذروة سنامها.

وأنا ذاكر في هذا الموضع نماذج من النوعين:

١- فمن أعظم خصائصه ﷺ أنه نبي الله (تعالى) ورسوله إلى خلقه؛ ليبلغ رسالة ربه، فالله مؤيده وناصره في مقام الحجة أبداً، فهو معصوم عن الخطأ في أداء الرسالة وتبليغ الوحي، ويدخل في ذلك حججه وبراهينه التي يستدل بها على صدق دعوته، سواء على خصومه أو على موافقيه، فحجته ﷺ هي الحجة القوية التي لا تنكسر، والبرهان الساطع الذي لا يُدفع، والدليل الحاسم الذي لا يعارض، تأييداً من الله (تعالى) وتسديداً وتوفيقاً.

قال (تعالى) : ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٦٢]، وقال (تعالى): ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [سورة النجم: ٣-٤].

وقال ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص وقد نهته قريش أن يكتب عن رسول الله ﷺ بحجة أن رسول الله ﷺ بشر يقول في الرضا والغضب، فقال له ﷺ: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»، وأومأ بأصبعه إلى فيه[(١)].

فمجادلته ومناظرته ﷺ سنة، والسنة من الوحي، والوحي معصوم؛ لأنه من الله (تعالى) ، قال أبو محمد بن حزم رحمه الله: «فصح أن كلام رسول الله ﷺ كله في الدين وحي من عند الله تعالى لا شك في ذلك»[(٢)].

ولهذا ـ كما سيتبين ـ كان ﷺ يستدل في جدله بآيات القرآن، أو ينتظر حتى يأتيه الجواب من ربه.

فبذلك يتبين أن الحجج والأدلة التي وردت في السنة على لسان النبي ﷺ تكون في قوة ودقة الحجج والأدلة القرآنية سواء بسواء.

٢- ومن خصائصه ﷺ: وفور عقله وفصاحة لسانه، وهما أمران لا بد للمناظر منهما: وفور العقل لإحكام النظر والمناظرة، وفهم كلام الخصم، وفصاحة اللسان لحسن التعبير عما في نفسه، ومخاطبة كل

---

(١) سنن أبي داود ٤/٦٠-٦١ كتاب العلم ـ باب في كتاب العلم ح : ٣٦٤٦ ، وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/١٠٤-١٠٥ كتاب العلم وصححه، ووافقه الذهبي. وقال الحافظ ابن حجر: ولهذا ـ أي الحديث المذكور ـ طرق أخرى عن عبدالله بن عمرو يقوي بعضها بعضاً.فتح الباري ١/٢٠٧.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام ١/١٠٩.

أحد بما يناسبه، وكلا الأمرين قد برز فيه النبي ﷺ ووصل إلى مرتبة لا مطمع لبشر فيها:

أما وفور عقله وذكاء لبه، فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم[(١)].

قال القاضي عياض رحمه الله: «ومن تأمل تدبيره أَمْر بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة، مع عجيب شمائله، وبديع سيره، فضلاً عما أفاضه من العلم، وقرَّرَه من الشرع، دون تعلُّم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه، لم يمتر في رجحان عقله، وثقوب فهمه لأول بديهة، وهذا لا يُحتاج إلى تقريره لتحققه»[(٢)].

وقال وهب بن منبه: «قرأت في أحد وسبعين كتاباً فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلاً، وأفضلهم رأياً»[(٣)].

وأعظم من ذلك قول الله (تعالى) في شأنه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ١١٣].

وأما فصاحة لسانه ﷺ وبلاغة قوله فقد كان من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يُجهل، سلاسةُ طبع، وبراعةُ مَنْزَع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف. أُوتي جوامع

---

(١) انظر: الشفا ـ عياض ١/١٦١.

(٢) الشفا ١/١٦١-١٦٢.

(٣) المرجع السابق ١/١٦٢ وانظر: حلية الأولياء ٤/٢٦، والخصائص الكبرى ـ السيوطي ١/١٦٥-١٦٦.

الكلم[(١)] وخُص ببدائع الحِكَم، وعُلِّم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها[(٢)]، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله[(٣)]. أخرج ابن عساكر عن محمد بن عبدالرحمن الزهري عن أبيه عن جده قال: «قال رجل: يا رسول الله، أيدالك الرجل امرأته؟ قال: نعم إذا كان مفلجاً. فقال أبوبكر: يا رسول الله، ما قال لك وقلت له؟ قال: إنه قال: أيماطل الرجل أهله؟ قلت له: نعم، إذا كان مفلساً. قال أبوبكر: يا رسول الله، لقد طفتُ في العرب، وسمعتُ فصحاءهم، فما سمعتُ أفصح منك. قال: أدبني ربي، ونشأت في بني سعد بن بكر»[(٤)].

---

(١) لحديث : بعثت بجوامع الكلم. انظر : صحيح البخاري ٢٤٧/١٣ (فتح الباري) باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم ح : ٧٢٧٣ ، وصحيح مسلم ٣٧١/١ كتاب المساجد ح : يلي ٥٢٣ .

(٢) واتخذ لغير العرب ترجماناً ليفهم عنهم، ويبلغهم خطابه ومراده، كما روى البخاري عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم كتاب اليهود حتى كتبتُ للنبي ﷺ كُتُبَه، وأقرأته كُتُبَهُم إذا كتبوا إليه. فتح الباري ١٨٥/١٣-١٨٦ كتاب الأحكام ـ باب ترجمة الحكام وهل يجوز ترجمان واحد ح :٧١٩٥ ورواه أبو داود في سننه ٦٠/٤ كتاب العلم ـ باب رواية حديث أهل الكتاب ح : ٣٦٤٥ وفيه قال ﷺ: " فإني والله ما آمن يهود على كتابي، قال زيد بن ثابت : فتعلمته، فلم يمرَّ بي إلا نصف شهر حتى حذقته... " ورواه الترمذي في سننه ٢٤٧/٧ أبواب الاستئذان ـ باب ما جاء في تعليم السريانية ح : ٢٧١٦ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) انظر : الشفا ١٦٧/١.

(٤) قوله: أدبني ربي. قال الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص : ٣٢٧ لا يعرف له إسناد ثابت. وروى الحديث السيوطي في الخصائص الكبرى ١٥٨/١ عن ابن عساكر.

وذكر القاضي عياض في الشفا[1] نماذج من مخاطباته ﷺ قبائل العرب، كل قبيلة بلسانها.

٣- أن القصد من مجادلة الرسول ﷺ للناس هدايتهم، وتوقيفهم على صدق نبوته وصحة رسالته، ولقد اتصف رسول الله ﷺ بأحوال من الصدق والأمانة وموافقة الظاهر للباطن، وحسن الخلق والشهامة والمروءة وغير ذلك مما يعرف صاحب القريحة الفطن أن من كانت هذه أوصافه وأحواله لم يكن ليكذب على الله (تعالى).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو يتحدث عن إيمان السابقين بالرسول ﷺ: «وإيمان خديجة وأبي بكر وغيرهما من السابقين كان قبل انشقاق القمر، وقبل إخباره بالغيوب، وقبل تحديه بالقرآن، لكن كان بعد سماعهم القرآن الذي هو نفسه آية مستلزمة لصدقه، ونفس كلامه وإخباره بأني رسول الله مع ما يعرف من أحواله مستلزم لصدقه إلى غير ذلك من آيات الصدق وبراهينه، بل خديجة قالت له[2]: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتُقْري الضيف، وتُكْسِب المعدوم، وتعين على نوائب الحق، فكانت عارفة بأحواله التي تستلزم نفي كذبه وفجوره وتلاعب الشيطان به[3].

---

(١) ١/١٦٧-١٧٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ١/٢٢ كتاب بدء الوحي ح: ٣، ومسلم في صحيحه ١/١٤١ كتاب الإيمان ـ باب بدء الوحي ... ح : ١٦٠.

(٣) وانظر : منهاج السنة النبوية ٢/٤٢٠.

وأبوبكر كان من أعقل الناس وأخيرهم، وكان معظّماً في قريش لعلمه وإحسانه وعقله، فلما تبين له حاله، علم علماً ضرورياً أنه نبي صادق وكان أكمل أهل الأرض يقيناً: علماً وحالاً»[1]. وسيأتي استدلال هرقل بأحواله ﷺ على صحة نبوته.

٤- ومن خصائصه ﷺ تخلقه بأعلى مقامات الأدب والسجايا الفاضلة من حسن المخاطبة، والصبر والحِلْم والعفو، وغير ذلك مما يجعله ـ عند مباشرة المناظرة والمجادلة ـ أملك الناس لجماح نفسه أن تستثيرها سوء أخلاق الخصم، فيخرج عن مقام الثبات والرسوخ، فيتشتت فكره، ويذْهل عقله، فلا يعي ما يقول، ولا يضبط ما يسمع، فتكون فرصةً لخصمه أن يظهر عليه، ويحقق مراده في إعلاء الباطل ودحض الحق.

فكان ﷺ لا ينتقم لنفسه قط، بل يعفو ويحتسب؛ كما في قول عائشة رضي الله عنها: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها»[2].

وكان ﷺ أحلم الناس وأملكهم لغضبه، فهو القائل: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[3].

---

(١) الجواب الصحيح ٦/٥١١-٥١٢.

(٢) صحيح البخاري ٦/٥٦٦ (فتح الباري) كتاب المناقب ـ باب صلة النبي ﷺ ح: ٣٥٦٠، وصحيح مسلم ٤/١٨١٣ كتاب الفضائل ـ باب مباعدته ﷺ للآثام ...ح: ٢٣٢٧ وما يليه.

(٣) صحيح البخاري ١٠/٥١٨ (فتح الباري) كتاب الأدب ـ باب الحذر من الغضب ... ح: ٦١١٤

وقال أنس بن مالك ﷺ: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُـرْدٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فَجَبَذَ بردائه جَبْذَةً شديدة، قـال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثَّرت فيها حاشيةُ الـرداء من شدَّة جبذته، ثم قال: يا محمد، مُرْ لي من مـال الله الـذي عنـدك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطـاء»[1]. قـال الحـافظ ابـن حجـر رحمه الله: «وفي الحديث بيان حلمه ﷺ وصبره على الأذى في النفـس والمال، والتجاوز [عن][2] جفاء من يريد تألُّفَه على الإسلام، وليتأسى به الولاة بعده في خلقه الجميل، مـن الصفـح والإغضـاء والدفـع بـالتي هي أحسن»[3].

وكان ﷺ أحسن الناس تعليماً وتوجيهاً لأصحابه، يمتلأ رحمة وشـفقة وحرصاً على هدايـة الخلق. روى مسـلم في صحيحـه[4] بسنده عـن معاوية بن الحكم السـلمي قـال: «بينـا أنـا أُصلـي مـع رسـول الله إذ عَطَسَ رجل من القوم فقلت: يرحمُك الله! فرماني القـوم بأبصـارهم. فقلـت: واثُكْـل أُمِّيـاه، مـا شـأنُكم؟! تنظـرون إلي، فجعلـوا يضربـون بأيديهم على أفخاذهم يُصَمِّتُونني، لكني سـكتُّ، فلمـا صلـى رسـول الله ﷺ ، فبأبي هو وأمي، ما رأيتُ معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً

(١) صحيح البخاري ١٠/٥٠٣-٥٠٤ (فتح الباري) كتاب الأدب ـ باب التبسـم والضحـك ح : ٦٠٨.

(٢) في الأصل [على]، ولعل الصحيح ما أثبته.

(٣) فتح الباري ١٠/٥٠٦.

(٤) ١/٣٨١-٣٨٢ كتاب المساجد ـ باب تحريم الكلام في الصلاة ح : ٥٣٧.

منه، فوا لله ما كَهَرَني ولا ضربني ولا شتمني. قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن...».

وكان ﷺ يحب الرفق في شأنه كله، حتى في مواقف الإساءة، وتحريك الشحناء؛ فقد روى البخاري[1] بسنده عن عروة بن الزبير: «أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السامُ عليكم. قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السامُ واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقلت: يا رسول الله، أو لم تسمع ما قالوا؟! قال رسول الله ﷺ: قد قلت: وعليكم».

وكان ﷺ يلتزم الصدق في أمره كله، ولا يحمله حرج الموقف على التقول على الله، أو الخوض فيما لا علم له به، تخلصاً من العجز، وطلباً لكسر خصمه ولو بالباطل على عادة الذين يريدون العلو في الأرض والفساد، بل كان ﷺ وقّافا عند حدود الله (تعالى)، ينتظر الجواب من ربه على سؤال يسأله، أو دفع إشكال لم يقف على وجهه، كما سيتبين ذلك قريباً بإذن الله.

وكان ﷺ يحسن الاستماع إلى خصمه، ولو كان من أعظم السفهاء، حتى يتم حديثه، ولا يقطعه عليه، كما فعل ذلك مع عتبة بن ربيعة

---

(١) ٤٤٩/١٠ (فتح الباري) كتاب الأدب ـ باب الرفق في الأمر كله ح:٦٠٢٤.

الذي جاء إليه يكلمه عساه أن يكفَّ عنهم ويَدَعَهم وشأنهم، فاستمع إليه النبي ﷺ حتى فرغ من حديثه كله، ثم أجابه النبي ﷺ بجواب أسكت به لسانه، وأسقط حجته، وأثر في نفسه حتى قالت له قريش حين رجع إليها: سحرك والله يا أبا الوليد، بلسانه(١).

وقد قيل: من لم يحسن الاستماع لم يحسن الجواب(٢).

وبسبب هذه الأخلاق الرفيعة، والقيم السامية وغيرها من شمائله ﷺ اهتدى كثير من خصومه ومخالفيه الذين حفلت بذكرهم كتب السنن والسير، فكم من مناظرة بين الرسول ﷺ ومخالف له من أهل الملل الكافرة قد انكشف عن هداية المخالف وموافقته للحق، وإقراره للرسول ﷺ لما رأى من صدق المنطق، وصحة الحجة، وقوة البرهان، مع حسن الخلق، ولين الجانب، وبذل المعروف. وقد قال (تعالى): ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [سورة فصلت: ٣٣-٣٥]. قال مقاتل في قوله: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ قال: «نزلت في أبي سفيان بن حرب كان مؤذياً للنبي ﷺ فصار له ولياً بعد أن كان

---

(١) انظر: السير والمغازي - ابن إسحاق ص: ٢٠٧-٢٠٨ وسيأتي تخريجه بأوسع من هذا قريباً.

(٢) أصول الحوار ص: ٢٧.

عدواً، بالمصاهرة التي وقعت بينه وبين النبي ﷺ ثم أسلم فصار ولياً في الإسلام حميماً بالقرابة» (١).

وقد أمره الله (تعالى) أن يلتزم أحسن الطرق في الجدال، كما في قوله (تعالى): ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] فامتثل ذلك في جداله وفي أمره كله مما يتعلق بدعوة الناس وهدايتهم حتى وصفه ربه في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤] وقال (تعالى): ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

قال ابن الحنبلي رحمه الله في تفسير قوله (تعالى): ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] : «فيحتمل أن يكون المراد بالأحسن: الأظهر من الأدلة، ويحتمل بالتعجيز عن الإتيان بمثل القرآن؛لأنه أحسن الأدلة نظاماً وبياناً، وأكملها حسناً وإحساناً، وأرجحها من الثواب ميزاناً، وأوضحها على اختلاف مدلولاتها كشفاً وبرهاناً، ويحتمل بالإصغاء إلى شبههم والرفق بهم في حلها ودحضها، ويحتمل بترك الغلظة عليهم في حال جدالهم لتكون الحجة عليهم أظهر، والجحد منهم أنكد، وهي سنة الأنبياء عليهم السلام مع الأمم عند الدعوة والمجادلة، من ذلك لما قالوا لمحمد ﷺ: مجنون. قال: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ...﴾ [سورة الأعراف: ١٨٨] أي جنون. من غير أن يقابلهم على ذلك بقول خشن، مع النخوة العربية والعزة الهاشمية...» ثم ذكر رحمه الله نماذج من

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/٣٦٢.

ذلك وقعت للأنبياء مع أممهم ثم قال: «فلو قابلهم الأنبياء بغلظة لنفرت طباعهم، وانصرفت عقولهم عن التدبر لما قالوا، والتدبر لما جاءوا به من البينات، فلم تتضح لهم المحجة، ولم تقم عليهم الحجة، وشاهد هذه الحالة قوله (تعالى): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٦] »[١].

بعض ما تقدم ذكره من الخصائص المحمدية، كان للصحابة رضي الله عنهم منها القِدْح المُعَلَّى، والحظ الأوفى، وذلك لحسن متابعتهم، وصدق تأسيهم به ﷺ، فهم أعلى الناس به شبها في العلم والعمل والنظر والمناظرة، والجدل والمجادلة، وإقامة الحجة، وإصابة الحق. وكل ذلك وزيادة حصل لهم ببركة متابعتهم له ﷺ وتأسيهم به، وبفضيلة الصحبة التي لا تعدلها فضيلة، فضلاً عن أن تفوقها فضيلة أخرى عند غيرهم من الناس؛ فكانوا كما وصفهم عبد الله بن مسعود ﷺ: «... أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[٢].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في وصف أهل السنة والحديث،ومنهم الصحابة الذين هم ساداتهم وأئمتهم: «فهم أكمل

---

(١) استخراج الجدل ص : ٥٢-٥٥.

(٢) جامع بيان العلم ٢/١١٩، ونحوه في مشكاة المصابيح ١/٦٧-٦٨ برقم: ١٩٣ قال الألباني: منقطع، وانظر: الموافقات ٤/٧٩، وإعلام الموقعين ٤/١٣٩.

الناس عقلاً، وأعدلهم قياساً، وأصوبهم رأياً، وأسدهم كلاماً، وأصحهم نظراً، وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهاماً، وأحدهم بصراً ومكاشفة، وأصوبهم سمعاً ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجداً وذوقاً، وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل... وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوي الإدراك ويصححه قال (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [سورة محمد: ١٧]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [سورة النساء: ٦٦-٦٨] »(١).

(١) نقض المنطق ص : ٨ .

المطلب الثاني
أساليب الجدل في السنة

إن النبي ﷺ تأثر جداً بأسلوب القرآن الكريم في الجدل، وهذا شيء طبيعي، فهو الذي أنزل عليه القرآن، وكان خلقه القرآن، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، ويتأدب بآدابه، ويلتزم أحكامه في شأنه كله، ومن ذلك الدعوة والمجادلة ونحوهما؛ ولهذا اختلطت طريقته ﷺ في المجادلة بطريقة القرآن وتأثرت بها، وستأتي النماذج التي توضح هذا الأمر، ومع ذلك سأذكر بعض الأساليب التي كان ﷺ يستخدمها في مجادلة خصومه:

١- فمن ذلك الاستدلال بقدرة الله تعالى على كل شيء، وأنه تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه تعالى يأتي بما تحار العقول فيه، وإن كانت لا تحيله، وذلك لقصورها وضعفها. ففي الصحيح[(١)] من طريق أنس أن رجلاً قال: «يا نبي الله، يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟! قال : أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة». قال قتادة - راوي الحديث عن أنس -: «بلى وعزة ربنا».

(١) رواه البخاري في صحيحه ٨/٤٩٢ كتاب التفسير - باب ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [سورة الفرقان: ٣٤] ح : ٤٧٦٠ ، ومسلم في صحيحه ٤/٢١٦١ كتاب صفات المنافقين - باب يحشر الكافر على وجهه ح : ٢٨٠٦

٢- ومن ذلك ضرب الأمثال لتقريب المعاني وتجسيدها في صورة قريبة يسهل فهمها وإدراكها. فمن ذلك: ما رواه أبو داود الطيالسي[١] عن أبي رزين العقيلي ﷺ قال: «قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: أما مررت بواد ممحل ثم مررت به خضراً؟ قال: بلى. قال: فكذلك النشور. أو قال: كذلك يحي الله الموتى».

ومن ذلك - أيضاً - ما رواه البخاري[٢] عن أبي هريرة ﷺ:أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال: إن امرأتي وَلَدَت غلاماً أسود وإني أنكرته، فقال له رسول الله ﷺ: هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال فما ألوانها؟ قال: حُمْرٌ. قال: هل فيها من أورق؟ قال: إن فيها لورقاً. قال: فأنّى ترى ذلك جاءها؟ قال: يارسول الله، عِرْق نَزَعَهَا. قال: ولعل هذا عرق نَزَعَهُ...».

وقد ترجم الإمام البخاري ﷺ هذا الحديث في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة[٣] بقوله: «باب من شبَّه أصلاً معلوماً بأصل مبين، وقد بين النبي ﷺ حكمهما ليفهم السائل».

وقال الحافظ ابن حجر: «وأورده النسائي بلفظ: من شبه أصلاً معلوماً بأصل مبهم، قد بين حكمهما ليفهم السائل، قال: وهذا أوضح في المراد»[٤].

---

(١) مسند الطيالسي ص : ١٤٧، وذكره ابن كثير في تفسيره ١/١٠٧-١٠٨.

(٢) ٢٩٦/١٣ (فتح الباري) كتاب الاعتصام ح : ٧٣١٤

(٣) ٢٩٦/١٣ (فتح الباري) .

(٤) فتح الباري ٢٩٦/١٣-٢٩٧.

٣- ومن أساليبه: أنه ﷺ ربما يستحلف خصمه بقسم يعظمه، ويأخذ عليه العهود والمواثيق أن يلتزم الحق متى بان له، وهذا الأسلوب يناسب استعماله مع أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم أصحاب رسالة سماوية، وصلة بالأنبياء، وقد عرفوا صدق الرسول ﷺ، ونبوته كما يعرفون أبناءهم، لكن منعهم الحسد والبغي أن يقروا له بذلك، فيكون هذا الأسلوب أنجع معهم، وإن كانوا لا يوفون بعهد، ولا يعظمون ميثاقاً، لكن ينتفع بذلك الأتباع بظهور كذب الأحبار والرهبان وخِدَاعهم، فتخبو جذوة الإيمان بهم، والثقة فيهم، والاطمئنان إليهم، وستأتي مجادلة النبي ﷺ لبعض اليهود، وقوله لهم في بداية الكلام: سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيه، لئن حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام. قالوا: فذلك لك، وأخذ ﷺ يذكرهم بذلك في كل مرحلة من مراحل الجدال، مرة بعد مرة، ويستشهد عليهم في كل مرة.

واستعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الأسلوب النبوي مع اليهود ـ كما سيأتي ـ فقال لهم مرة: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو وما استرعاكم من حقه واستودعكم من كتابه، أتعلمون أنه رسول الله؟ حتى إذا سكتوا وكتموا، تصدى لهم رجل منهم، فقال: أخبروا الرجل، لَتُخْبِرُنَّه أو لأخبرنه.

٤- أنه ﷺ ربما يستخدم غيره ليقوم مقامه في الرد على الخصوم، ودحض شبهاتهم، وهذا التفويض منه ﷺ يعبر عن رضاه بما يقوم به هذا

الصحابي أو ذاك من إيراد الحجج، ودفع الشبه، وإقامة الحق، ودمغ الباطل؛ فمن ذلك قول النبي ﷺ لمسيلمة الكذاب وقد جاء مع بعض قومه، وكلمه ﷺ وهدده، ثم قال له: وهذا ثابت يجيبك عني، ثم انصرف[(١)] وثابت هو ثابت بن شمّاس ﷺ.

ومن ذلك ـ أيضاً ـ قوله ﷺ لحسان بن ثابت في هجاء المشركين ورد كيدهم: «أجب عني، اللهم أيده بروح القدس»[(٢)].

وقال البراء بن عازب: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت: اهجهم، أو هاجهم وجبريل معك»[(٣)].

وقالت عائشة رضي الله عنها في حسان: «كان ينافح عن رسول الله ﷺ»[(٤)]. وعنها رضي الله عنها قالت: «إن رسول الله ﷺ قال: اهجوا قريشاً، فإنه أشد عليها من رشقٍ بالنبل، فأرسل إلى ابن رواحة، فقال: اهجهم. فهجاهم، فلم يُرْضِ، فأرسل إلى كعب بن

---

(١) انظر : صحيح البخاري ٨٩/٨ (فتح الباري) كتاب المغازي ـ باب وفد بني حنيفة ... ح: ٤٣٧٣

(٢) صحيح البخاري ٣٠٤/٦ (فتح الباري) كتاب بدء الخلق ـ باب ذكر الملائكة ح : ٣٢١٢ ، وصحيح مسلم ١٩٣٢/٤-١٩٣٣ كتاب فضائل الصحابة ح : ٢٤٨٥.

(٣) صحيح البخاري ٣٠٤/٦ (فتح الباري) بدء الخلق ح:٣٢١٣ وصحيح مسلم ١٩٣٣/٤ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل حسان بن ثابت ﷺ ح : ٢٤٨٦.

(٤) صحيح مسلم ١٩٣٣/٤ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل حسان بن ثابت ﷺ ح: ٢٤٨٧

مالك، ثم أرسل إلى حسَّان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسَّان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأَسَد الضارب بِذَنَبِه، ثم أدلع لسانه، فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينَّهم بلساني فري الأديم[1]، فقال رسول الله ﷺ: لا تعجلْ، فإن أبابكر أعلم قريشٍ بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً، حتى يُلَخِّصَ لك نسبي، فأتاه حسان، ثم رجع فقال: يارسول الله، قد لَخَّصَ لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأَسُلَّنَّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين.

قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله، وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: هَاجَهُم حسان فشَفَى واشتفى...»[2].

هذا إضافة إلى من يرسله النبي ﷺ من الرسل إلى الأمصار والآفاق يبلغون دعوة الله (تعالى) ويجيبون عن أسئلة الناس، وشبه الخصوم.

٥- ومن أساليبه ﷺ في المجادلة أن يقيم الحجة على خصمه من دليل يقر به الخصم، ولا يستطيع رده، فمن ذلك طلبه من اليهود أن يأتوا بالتوراة ليبين لهم بها ما أنكروه من حكم رجم المحصن، وأنهم يكتمون الحق، ولا يقيمون التوراة التي يدَّعون الانتساب لها؛ روى

---

(١) أي أمزقهم تمزيق الجلد .

(٢) صحيح مسلم ٤/١٩٣٥-١٩٣٦ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل حسان بن ثابت ح : ٢٤٩٠

مسلم في صحيحه[(١)] عن نافع مولى ابن عمر رضي الله عنهم أن عبدالله بن عمر أخبره: «أن رسول الله ﷺ أُتي بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود، فقال: ما تجدون في التوراة على من زنى؟ قالوا: نسوِّد وجوههما، ونحمِّلُهُما، ونخالف بين وجوههما، ويطاف بهما. قال: فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين، فجاءوا بها فقرأوها، حتى إذا مرُّوا بآية الرجم، وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله ابن سلام، وهو مع رسول الله ﷺ : مُرْهُ فليرفع يده فرفعها، فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما».

٦- ومن أساليبه ﷺ: بيان تناقض خصمه وأنه لا يعتمد في حجته إلا التشهي والتحكم، لا الدليل والبرهان:

روى البخاري في صحيحه[(٢)] عن أنس ﷺ قال: «بلغ عبدَ الله بن سلام مقدمُ النبي ﷺ المدينة، فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهن إلا نبي. قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع

(١) ١٣٢٦/٣ كتاب الحدود ـ باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا ح : ١٦٩٩ ، وانظر : صحيح البخاري ٢٢٤/٨ كتاب التفسير ـ باب ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٣] ح:٤٥٥٦.

(٢) ٣٦٢/٦-٣٦٣ (فتح الباري) كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب خلق آدم وذريته ح : ٣٣٢٩

إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: خبَّرني بهن آنفاً جبريل. قال فقال: عبدا لله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: أما أول أشراط الساعة فنار تحشُرُ الناسَ من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشَّبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشَّبه لها. قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يارسول الله، إن اليهود قوم بُهُتٌ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود ودخل عبدا لله البيت، فقال رسول الله ﷺ: أي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعلمُنا وابنُ أعلمِنا، وأخبرُنا وابن أخبرِنا. فقال رسول الله ﷺ: أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبدا لله إليهم، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، ووقعوا فيه».وفي رواية[1] أن النبي ﷺ قال لليهود حين دخلوا إليه: «يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله، فوا لله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق، فأسلموا. قالوا: ما نعلمه ـ قالوا للنبي ﷺ قالها ثلاث مرار ـ قال: فأي رجل فيكم عبدا لله بن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالو: حاشا لله ما كان ليُسْلَمِ. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله ما كان ليُسْلِمَ قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله ما

(١) صحيح البخاري ٧/٢٥٠ كتاب مناقب الأنصار ـ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ح : ٣٩١١.

كان ليُسْلِمَ. قال: يا ابن سلام، اخرج عليهم. فخرج، فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ»، وفي رواية قال عبدالله ــ بعد أن سبَّه اليهود ــ: «هذا كنت أخاف يا رسول الله»[1]، أي فتبين بهتهم وعدم إقامتهم على الحق، اتباعاً لأهوائهم.

٧- ومن أساليبه ﷺ في الجدل: أنه يستعمل مع كل قوم ما يناسبهم في الخطاب، فإذا خاطب المشركين ركز على متابعة إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان المشركون يزعمون أنهم ينتسبون إليه، فيريد منهم أن يصدقوا في هذا الانتساب بأن يكون انتساباً إلى ملته الحنيفية السمحة البعيدة عن الشرك وعبادة الوثن.

وقد أمره الله عز وجل أن يعلن انتسابه إلى ملة إبراهيم الخليل كما في قوله (تعالى): ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة النحل: ١٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٦١]. وقال (تعالى): ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٨]. فاجتمعت لنبينا محمد ﷺ ولاية النسب والمتابعة.

وأما إذا كان المخاطب من أهل الكتاب، عظم النبي ﷺ أمر أنبيائهم كموسى وعيسى وما أنزل عليهم من الكتاب، وطالب خصومه أن

---

(١) المرجع السابق ٢٧٢/٧ كتاب مناقب الأنصار ح : ٣٩٣٨ .

يخلصوا في متابعتهم، ويؤمنوا بالكتاب كله، ولا يحرفوه، ولا يكتموا بعضه، فهذا حري بهم أن يقروا لرسول الله ﷺ بالنبوة، ويذعنوا له بالمتابعة؛ لأن في ذلك تصديقاً لأنبيائهم ومتابعة لهم. وهذا التزام منه ﷺ بالتوجيه الرباني كما في قوله (تعالى): ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦] وقوله (تعالى): ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة البقرة: ١٣٦-١٣٧].

المبحث الثاني
الأصناف الذين وردت مجادلتهم في السنة

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الجدل مع المشركين

المطلب الثاني: الجدل مع المنافقين

المطلب الثالث: الجدل مع اليهود

المطلب الرابع: الجدل مع النصارى

المطلب الأول
الجدل مع المشركين

بُعث النبي ﷺ في قوم مشركين يعبدون الأوثان، ويتقربون إليها، فدعاهم إلى كلمة التوحيد الخالص. وطَرَق لذلك كل سبيل علّه يدخل إلى قلوبهم، ويغير مما هم عليه من الشرك والكفر، فدعاهم بالحسنى، وذكّرهم وخوّفهم ورغّبهم، وجادلهم بالتي هي أحسن، وكان له معهم في مقام المجادلة مواقف مشهورة معروفة، أختار في هذا الموضع نماذج منها:

١- جاء في السير والمغازي[(١)] لابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث أخا بني عبدالدار وغيرهم من رجال قريش، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تُعْذَرُوا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا

(١) ص: ١٩٧-١٩٩. وذكرها عن ابن إسحاق ابن هشام في السيرة النبوية ١/٣٦٤-٣٦٨، وانظر تفسير الطبري ١٥/١١٠-١١١ ط. دار المعرفة ، وتفسير البغوي ٣/١٣٦-١٣٧ وأسباب النزول للواحدي ص: ١٩٨-١٩٩، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٠٢-٢٠٣ إلى ابن أبي حاتم ، وانظر : الروض الأنف ٢/٣٦-٣٧ .

إليك لِنُعْذَرَ فيك، وإنا وا لله ما نعلـم رجـلاً مـن العـرب أدخـل علـى قومه ما أدخلت علـى قومـك، ولقـد شـتمت الآبـاء، وعبـت الديـن، وسفّهت الأحلام وشتمت الآلهة، وفرّقت الجماعة، فما بقي أمر قبيـح إلا جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتـى تكـون أكثرنـا مـالاً، وإن كنـت إنمـا تطلب به الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بمـا يـأتيك بـه رئـيٌّ تـراه قـد غلـب عليك، وكانوا [يسمون][1] التابع من الجن [رئياً][2]، فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نُعذر فيك، فقال لهم رسول ا لله ﷺ: ما أدري ما تقولـون، مـا جئتكـم بمـا جئتكـم بـه لطلب أموالكـم، ولا الشـرف فيكـم، ولا الملـك عليكـم، ولكـنَّ ا لله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً، وأمرنـي أن أكـون لكـم بشـيراً ونذيراً، فبلغتكـم رسـالة ربـي، ونصحـت لكـم، فـإن تقبلـوا مـني مـا جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوا علي أصبر لأمـر ا لله حتى يحكم ا لله بيني وبينكم، أو كما قال رسول ا لله ﷺ.

فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليـك، فـإنك قـد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بـلاداً، ولا أقـل مـاءً، ولا أشـد

---

(١) في الأصل : [يسمعون] ولعل الصحيح ما أثبته .

(٢) في الأصل : [رئي] والصحيح ما أثبته .

عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فلْيُسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيَّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليجري فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا فيهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، نسلهم عما تقول أحق هو أم باطل، فإن صنعت لنا ما سألناك وصدقوك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول. فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوا مني فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

فقالوا: فإن لم تفعل لنا هذا، فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث معك ملَكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، وحتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يَسَل ربه هذا، ولا بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال رسول الله ﷺ: ذلك إليه، إن شاء فعل

ذلك بكم؛ قالوا: يا محمد، فأعلم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى تَهْلَكَ أو تُهْلِكَنا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهن بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً. فلما قالوا له ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته، ابن عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد، عَرَضَ عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل، ثم أن تُعَجِّلَ لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلَّمَا ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصك منشور ومعك أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول، وايم الله، أنك لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاته مما كان فيه يطمع من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه...

وقال ابن إسحاق[(١)]: وأنزل الله (تعالى) عليه فيما سأله قومُه لأنفسهم من تسيير الجبال، وتقطيع الأرض وبعث من مضى من

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٨١-٣٨٢ .

آبائهم من الموتى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [سورة الرعد: ٣١]. أي لا أصنع من ذلك إلا ما شئت.

وأنزل عليه في قولهم: خذ لنفسك، ما سألوه أن يأخذ لنفسه، أن يجعل له جناناً وقصوراً وكنوزاً، ويبعث معه مَلَكاً يصدقه بما يقول، ويردَّ عنه: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٧-١٠] أي من أن تمشي في الأسواق وتلتمس المعاش: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾ [سورة الفرقان: ١٠].

وأنزل عليه في ذلك من قولهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٢٠] أي جعلتُ بعضَكُم لبعضٍ بلاء لتصبروا، ولو شئتُ أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يُخالفوا لفعلت.

وأنزل ا لله فيما قال عبدا لله بن أمية: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ

مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٩٠-٩٣].

٢- وروى ابن إسحاق(١) عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدِّثتُ أنَّ عُتبة بن ربيعة كان سيداً حليماً، قال ذات يوم وهو جالس في نادي قريش، ورسولُ الله ﷺ جالس وحده في المسجد: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى هذا فأُكَلِّمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكفَّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة بن عبد المطلب، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون؛ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة(٢) في العشيرة، والمكان

---

(١) انظر: السير والمغازي ص: ٢٠٦-٢٠٧ (وبعض المواضع أصلحتها من السيرة النبوية ـ ابن هشام ١/٣٦٢-٣٦٤). وانظر مصنف ابن أبي شيبة ١٤/٢٩٥-٢٩٧ كتاب المغازي برقم: ١٨٤٠٩ من غير طريق ابن إسحاق، وفيه الأجلح وفيه كلام، ورواه البيهقي في الدلائل بمثل رواية ابن أبي شيبة ١/٤٥٠-٤٥٢، ورواه أبو نعيم في الدلائل ١/٣٠٤-٣٠٥ برقم: ١٨٥ بمثل رواية ابن أبي شيبة، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/١٩-٢٠ وعزاه إلى أبي يعلى، وفيه الأجلح الكندي وثّقه ابن معين وغيره وضعَّفه النسائي وغيره وبقية رجاله ثقات. وقال محمد ناصر الدين الألباني في هامش فقه السيرة للغزالي ص: ١١٣: هذه القصة أخرجها ابن إسحاق في المغازي بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً، ووصله عبد بن حميد وأبو يعلى من طريق أخرى من حديث جابر ﷺ كما في تفسير ابن كثير ٤/٩٣ وسنده حسن إن شاء الله.

(٢) السِّطة: الشرف، وانظر: النهاية لابن الأثير ٢/٣٦٦.

في النسب، وإنك قد أتيت قومك بـأمر عظيـم؛ فرقـت بـه جمـاعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّـرت مـن مضـى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظـر فيهـا لعلـك أن تقبـل منها بعضها. فقال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئـت بـه مـن هذا القول مالاً جمعنا لك من أموالنـا حتـى تكـون أكثرنـا مـالاً، وإن كنت إنما تريد به شرفاً شرفناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع أن ترده عن نفسك، طلبنـا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنـه ربمـا غلـب التـابع على الرجل حتى يداوى منه، ولعل هذا الذي تأتي به شعر جـاش بـه صدرك، فإنكم لعمري يا بني عبـد المطلـب تقـدرون منـه علـى مـا لا يقدر عليه أحد. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال رسول الله ﷺ: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم؛ قال: فاستمع مني. قال: أفعل. فقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [سورة فصلت: ١-٥] فمضـى رسـول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى يديه خلـف ظهـره معتمداً عليهما يستمع منه؛ حتـى انتهـى رسـول الله ﷺ إلى السـجدة منها، فسجد فيها، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد مـا سمعـت، فـأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف با لله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني وا لله قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، وا لله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوا لله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزُّه عزُّكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك وا لله يا أبا الوليد بلسانه؛ فقال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم.

٣- بعث أهل مكة النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهما: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، قال: فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول ا لله ﷺ ووصفوا لهم أمره، وأخبروهم ببعض قوله، وقالوا لهم: إنكم أهل التوراة، فقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل، فرَوَا ـ أي اعملوا فيه رأيكم ـ فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان

من أمرهم، فإنه كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان بناؤه، وسلوه عن الروح ما هو، فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فهو رجل متقوِّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا. فسألوه عما أمروهم به. فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم عما سألتم عنه غداً، ولم يستثن، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يُحْدِث الله (تعالى) إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة، وقد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، حتى أحزن رسولَ الله ﷺ مكثُ الوحي عنه، وشق عليه ما تكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطوَّاف، يقول الله (تعالى): ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٥] [(١)].

(١) انظر: السير والمغازي ص: ٢٠١-٢٠٢، والسيرة النبوية لابن هشام ٣٧١/١ وما بعدها.

قال ابن إسحاق: فلما جاءهم رسول الله ﷺ بما عرفوا من الحق، وعرفوا صدْقه فيما حدَّث، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوا عنه، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتّباعه وتصديقه، فعتوا على الله وتركوا أمره عياناً، ولجوا فيما هم عليه من الكفر، فقال قائلهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [سورة فصلت: ٢٦]، أي: اجعلوه لغواً وباطلا، واتخذوه هزوا لعلكم تغلبونه بذلك، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوماً غلبكم...

فلما قال ذلك بعضهم لبعض، جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن وهو يصلي يتفرقون عنه ويأبون أن يستمعوا له، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي، استرق السمع دونهم فَرَقَاً منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم فلم يستمع، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته فظن الذي يستمع أنهم لا يستمعون شيئاً من قراءته، وسمع هو شيئاً دونهم أصاخ له يستمع منه[١].

٤- أخرج البخاري[٢] رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جعل لي محمدٌ الأمرَ من بعده تبعتُه، وقَدِمَهَا في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شمّاس وفي يد رسول

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٨٦-٣٨٧.

(٢) ٨/٨٩ (فتح الباري) كتاب المغازي - باب بني حنيفة ... ح : ٤٣٧٣، ٤٣٧٤.

الله قطعة جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت لَيَعْقِرَنَّك الله، وإني لأراك الذي أُريتُ فيه ما رأيتُ، وهذا ثابت يجيبك عني، ثم انصرف عنه. قال ابن عباس فسألتُ عن قول رسول الله ﷺ: إنك أرى الذي أريتُ فيه ما رأيتُ، فأخبرني أبوهريرة أن رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمَّني شأنهما، فأُوحي إلي في المنام أنِ انفُخْهُما، فنفختُهما فطارا، فأولتهما: كذابين يخرجان بعدي: أحدهما العنسي والآخر مسيلمة». وفي رواية أن مسيلمة قال للرسول ﷺ : إن شئت خلينا بينك وبين الأمر ثم جعلته لنا بعدك، فقال النبي ﷺ لو سألتني...الحديث[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في قوله ﷺ : «وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني»: «أي لأنه كان خطيب الأنصار، وكان النبي ﷺ قد أعطي جوامع الكلم، فاكتفى بما قاله لمسيلمة، وأعلمه أنه إن كان يريد الإسهاب في الخطاب فهذا الخطيب يقوم عني في ذلك. ويؤخذ منه استعانة الإمام بأهل البلاغة في جواب أهل العناد ونحو ذلك»[2].

---

(١) المرجع السابق ٨/٩١-٩٢ كتاب المغازي ـ باب قصة الأسود العنسي ح : ٩٣٧٨.

(٢) فتح الباري ٨/٩٠.

٥- وروى البخاري في صحيحه[(١)] عن أسامة بن زيد رضي ا لله عنهما أن رسول ا لله ﷺ ركب على حمار على قطيفة فَدَكية، وأردف أسامة ابن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر. قال: حتى مرَّ بمجلس فيه عبدا لله بن أبي بن سلول وذلك قبل أن يسلم عبدا لله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبدا لله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمَّر عبدا لله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تُغبِّروا علينا، فسلَّم رسول ا لله ﷺ ثم وقف فنزل فدعاهم إلى ا لله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبدا لله بن أبي بن سلول: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً، فلا تؤذينا به في مجلسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبدا لله بن رواحة: بلى يا رسول ا لله، فاغشنا به، وائتنا في مجالسنا، فإنا نحب ذلك.

فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يُخفِّضُهُم حتى سكنوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ : يا سعدُ، ألم تسمع ما قال أبو حباب ـ يريد عبدا لله بن أبي ـ قال كذا وكذا. قال سعد بن عبادة: يا رسول ا لله، اعف عنه واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك

(١) صحيح البخاري ٨/٢٣٠-٢٣١ (فتح الباري) كتاب التفسير ـ باب ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم . . . الآية﴾ ح : ٤٥٦٦ ، وانظر صحيح مسلم ٣/١٤٢٢-١٤٢٣ كتاب الجهاد ـ باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين ح : ١٧٩٨.

الكتاب، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصّبونه بالعِصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شَرِق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت. فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصطبرون على الأذى -قال الله عز وجل: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [سورة آل عمران: ١٨٦] الآية. وقال الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة البقرة: ١٠٩] إلى آخر الآية. وكان النبي ﷺ يتأوَّل العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً فقتل الله به صناديد كفّار قريش، قال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذه أمر قد توجه، فبايعوا الرسول ﷺ، فأسلموا».

وفي رواية[1] عن أنس ﷺ قال: «قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبدَ الله ابن أُبي، فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حماراً، فانطلق المسلمون يمشون معه - وهي أرض سبخة - فلما أتاه النبي قال: إليك عني، والله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك. فغضب لعبد الله رجل من قومه فشتما، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال ...».

---

(١) صحيح البخاري ٥/٢٩٧ (فتح الباري) كتاب الصلح - باب ما جاء في الإصلاح بين الناس ... ح: ٢٦٩١، وصحيح مسلم ٣/١٤٢٤ كتاب الجهاد - باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين ح: ١٨٠٠.

٦- وروى مسلم في صحيحه[١] بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما: «أن أبا سفيان أخبره من فيه إلى فيه، قال: انطلقت في المدة[٢] التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من رسول الله ﷺ إلى هرقل، يعني عظيم الروم. قال: وكان دِحْيةُ الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بُصْرى، فدفعه عظيم بُصْرى إلى هرقل. فقال هرقل: هل ههنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم. قال: فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه. فقال: أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا[٣] فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي[٤] ثم دعا بِتَرْجُمَانِه، فقال له: قل لهم: إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي فإن كذّبني فكذّبوه. قال: فقال أبو سفيان: وايم الله! لولا مخافة أن يؤثر عليَّ الكذب لَكَذَبْتُ،[٥] ثم قال

(١) ٣/١٣٩٣-١٣٩٧ كتاب الجهاد والسير ـ باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ح:١٧٧٣، وانظر : صحيح البخاري ١/٣١-٣٣ (فتح الباري) كتاب بدء الوحي ح : ٧ و٦/١٠٩-١١٠ كتاب الجهاد ـ باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة ح :٢٩٤١.

(٢) هي مدة صلح الحديبية انظر : فتح الباري ١/٣٤.

(٣) وفي صحيح البخاري ٦/١٠٩ قال هرقل: " ما قرابة ما بينك وبينه؟ فقلت: هو ابن عم، وليس في الركب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري ". وإنما خص هرقل الأقرب؛ لأنه أحرى بالاطلاع على أموره ظاهراً وباطناً أكثر من غيره؛ ولأن الأبعد لا يُؤْمن أن يقدح في نسبه بخلاف الأقرب، وظهر ذلك في سؤاله بعد ذلك: كيف نسبه فيكم؟ انظر : فتح الباري ١/٣٥.

(٤) أي لئلا يستحيوا أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب.انظر : فتح الباري ١/٣٥

(٥) في صحيح البخاري ٦/١٠٩ قال أبو سفيان :" والله! لولا الحياء يومئذ من أن يأثر أصحابي عني الكذب لكذبته حين سألني عنه، ولكني استحييت أن يأثروا الكذب عني فَصَدَقْتُه " .

لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟ قال: قلت: هو فينا ذو حسب. قال: فهل كان من آبائه مَلِك؟ قلت: لا. قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: ومن يتبعه؟ أشراف[1] الناس أم ضعفاؤهم؟ قال: قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قال: قلت: لا، بل يزيدون. قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سَخْطَةً له؟ قال: قلت: لا. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال: قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً، يصيب منا ونصيب منه. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها. قال: فوا لله ما أمكنني من كلمة أُدْخِلُ فيها شيئاً غير هذه. قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قال: قلت : لا.

قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه، فزعمتَ أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها. وسألتك: هل كان في آبائه ملك؟ فزعمت أن لا. فقلت: لو كان من آبائه ملك، قلت: رجل يطلب ملك آبائه. وسألتك عن أتباعه، أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله. وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطة له؟ فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب. وسألتك: هل يزيدون أم

---

(١) المراد أهل النخوة والتكبر، لا كل شريف، حتى لا يرد مثل أبي بكر وعمر وأمثالهما ممن أسلم قبل هذا السؤال. انظر : فتح الباري ١/٣٥.

ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتمَّ. وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قد قاتلتموه فتكون الحرب بينكم وبينه سجالاً، ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر. وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فزعمت أن لا. فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله، قلت رجل ائتم بقول قيل قبله. قال: ثم قال: بم يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف.[(١)] قال: إن يكن ما تقول فيه حقاً فإنه نبي، وقد كنتُ أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه، لأحببت لقاءه[(٢)]، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه[(٣)]، وليبلغن ملكه ما تحت

(١) في صحيح البخاري ٦/١١٠ قال أبو سفيان : " يأمرنا أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة " .

(٢) في صحيح البخاري ٦/١١٠ قال : " ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لقاءه " . قال الحافظ : وللطبراني من طريق ضعيف قال: أعرف أنه كذلك، ولكن لا أستطيع أن أفعل، إن فعلتُ ذهب ملكي وقتلني الروم. قال الحافظ: لكن لو تفطن هرقل لقوله ﷺ في الكتاب الذي أرسل إليه: " أسلم تسلم" وحمل الجزاء على عمومه في الدنيا والآخرة لسلم - لو أسلم - من كل ما يخافه، لكن التوفيق بيد الله (تعالى). فتح الباري ١/٣٧.

ومما يدل على أن هرقل آثر ملكه على الإيمان واستمر على الضلال أنه حارب المسلمين في غزوة مؤتة سنة ثمان بعد هذه القصة. انظر : فتح الباري ١/٣٧ . وفي كتاب الأموال لأبي عبيد ص: ٣٤٥ برقم: ٦٢٩ بسند صحيح من مرسل بكر بن عبدالله المزني، ولفظه :" كذب عدو الله ليس بمسلم، ولكنه على النصرانية " وصحح إسناده الألباني في هامش فقه السيرة للغزالي ص : ٣٨٦ وقال لكنه مرسل. وانظر : فتح الباري ١/٣٧. وموارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ص : ٣٩٢-٣٩٣ ح : ١٦٢٨ .

(٣) مبالغة في العبودية له والخدمة، وفيه إشارة أنه - إن وصل إليه سالماً - لا يطلب منه ولاية ولا منصباً. انظر فتح الباري١/٣٧.

قدمي. قال: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن تَوَلَّيْتَ فإن عليك إثم الأريسيين[(١)]، و: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤] فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط، وأَمَرَ بنا فأُخرجنا. قال: فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أَمِرَ[(٢)] أَمْرُ ابن أبي كبشة[(٣)]، إنه ليخافه ملك بني الأصفر. قال: فما زلت موقنا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام».

٧- وكان للشعر نوبته في الجدل والرد على المشركين وفلِّ حجتهم، فهذا حسَّان بن ثابت ﷺ يمدح رسول الله ﷺ ويصد عنه هجاء المشركين من أمثال أبي سفيان وغيره، ففي صحيح مسلم[(٤)] عن عائشة قالت : قال حسَّان: «يا رسول الله، ائذن لي في أبي سفيان.

---

(١) هم الفلاحون، والمراد الضعفاء، أي عليك مع إثمك إثم الضعفاء الذين تحول بينهم وبين وصول الدعوة إليهم. انظر : فتح الباري ١/٣٩.

(٢) أي عَظُمَ. انظر : فتح الباري ١/٤٠.

(٣) أراد به النبي ﷺ لأن أبا كبشة أحد أجداده، وعادة العرب إذا انتقصت نسبت إلى جد غامض. انظر : فتح الباري ١/٤٠.

(٤) ١٩٣٤/٤ ح : ٢٤٨٩.

قال: كيف بقرابتي منه؟ قال: والذي أكرمك، لأسلنّك منهم كما تسلُّ الشعرة من الخمير[(١)] ... وكان ذلك قبل فتح مكة».

يقول حسان رضي الله عنه[(٢)]:

لنا في كل يوم من مَعَدٌّ ... سباب أو قتال أو هجاء[(٣)]
فَنُحْكِمُ بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء
ألا أبلغ أبا سفيان عني ... فأنت مجوَّف نَخِبٌ هواء[(٤)]
بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الإماء[(٥)]
هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكُفْءٍ ... فشركما لخيركما الفداء[(٦)]
هجوتَ مباركا برًّا حنيفا ... أمين الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء[(٧)]

---

(١) الخمير : العجين إذا ترك استعماله حتى يجود . انظر : لسان العرب ٢٥٦/٤ مادة خمر .

(٢) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ـ إعداد: عبد الرحمن البرقوقي ص:٦٢-٦٦ .

(٣) معد : يريد قريشاً لأنهم عدنانيون.

(٤) مجوَّف : أي جبان لا قلب له، ومثله النخب.

(٥) عبد الدار : بطن من قريش، كان لهم اللواء والسقاية والحجابة والرفادة، ويوم أحد قتل جمع منهم ممن حمل اللواء حتى صار إلى امرأة، فاجتمعوا حولها، فلعل حسان يشير إلى هذا.

(٦) هذا من الإنصاف عند المجادلة، وفيه دلالة غير خفية على تخصيص محمد ﷺ بالخير والفضل والثناء؛ لما تقدم من كلام حسان.

(٧) فهو غني عن مدحكم ونصركم إياه، كما لا يضره هجاؤكم ونحوه من الأذى.

فإن أبي ووالــده وعرضــي لعرض محمد منكم وقـــاء
فـــإما تَـثْـقَفَنَّ بنـــو لُـؤيٍّ جُـذَيْمةَ إن قتـلهم شفـاء[(١)]
أولئـك معشر نــصروا علـينا ففــي أظفارنا منهم دمـاء[(٢)]
وحِلْف الحَارْث بن أبي ضرارٍ وحلفُ قريظةٍ منا بـــراء[(٣)]
لسـاني صـــارم لا عيب فيه وبــحري لا تُكــدِّره الدلاء

(١) بنو لؤي فاعل تثقفن، وجذيمة مفعوله، وجذيمة هم الذين أوقع بهم الرسول ﷺ يوم المريسيع، والمعنى أن بني لؤي إذا وجدوا هذا الحي حي جذيمة فإن قتلهم إيـاهم شـفاء لما في الصدور.

(٢) وذلـك أن جذيمـة نصـروا قريشـا علـى المسـلمين، وعليـه سـننتقم منهـم ونبطـش بهـم، ونفترسهم افتراس السباع الضارية ففي أظفارنا منهم دماء.

(٣) فالشاعر والمسلمون براء مـن هـذه الأحـلاف الفـاجرة؛ حلـف الحـارث بـن أبـي ضـرار، وحلف قريظة، فالحـارث كـان يقـود بـني المصطلـق الذيـن سـاعدوا قريشـاً علـى حـرب المسلمين يوم أحد، وقريظة حي من أحياء اليهود وكانوا مظاهرين ـ أيضاً ـ للمشركين.

المطلب الثاني
الجـــدل مـــع المنافقين

إن الجدال في السنة مع المنافقين كالجدال معهم في القرآن الكريم، يركز على فضحهم وكشف نواياهم وهتك أستارهم، ثم تهديدهم وتوعدهم بما أعده الله لهم من الخزي والنكال في الدارين، فلم تكن المناظرة تُجْدِي مع من انتكست فطرته، وفسدت طبيعته، ومرضت نفسه، يُظهر الولاء وقد أبطن العداء، ويعلن الوفاق وقد أضمر الخلاف، يَظْهَرُ ذلك على فلتات ألسنتهم، وعند مواقف الشدة والتمحيص؛ ولهذا كثيراً ما كان الصحابة يلتمسون من رسول الله ﷺ أن يمكنهم من قتل من أظهر نفاقه، لكنه ﷺ كان يترك ذلك اتقاء مفسدة هي أعلى من كيدهم ومكرهم، وهي سوء نظرة العرب إليه، أنه يقتل أصحابه، فيكون ذلك صاداً لهم عن الإيمان، ومانعاً لجماعتهم من الدخول في الإسلام.

وإني ذاكر في هذا الموضع نماذج من الجدل الذي وقع مع المنافقين:

١-جاء عند ابن إسحاق[(١)] في خروج النبي ﷺ إلى بني المصطلق، وكانوا قد جمعوا له، فلقيهم على ماء يقال له: المُرَيْسيع، من ناحية قديد إلى

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ٣/٤٠٢-٤٠٥، والمغازي للواقدي ٢/٤١٥-٤٢١، وتاريخ الطبري ٢/٦٠٦. وانظر الخبر مختصراً في صحيح البخاري ٨/٦٤٤-٦٤٩ كتاب التفسير ح: ٤٩٠٠-٤٩٠٥، وصحيح مسلم ٤/١٩٩٨-١٩٩٩ كتاب البر والصلة ـ باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ح : يلي ٢٥٨٤، وسنن الترمذي ٩/٥٠-٥٣ أبواب التفسير ـ سورة المنافقون ح : ٣٣٠٩-٣٣١٢ قال أبو عيسى عقب كل واحد منها : هذا حديث حسن صحيح .

الساحل، فهزمهم الله عز وجل. فبينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء، وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له: جَهْجَاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسِنان بن وَبَر الجهني، حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبدالله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه، فيهم: زيد ابن أرقم غلام حَدَث. فقال: أَوَقَدْ فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أُعِدُّنا وجلابيب[1] قريش إلا كما قال الأول: سمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غير داركم، فسمع ذلك زيد ابن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوِّه فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُرْ به عبَّاد بن بشر فليقتله. فقال له رسول الله ﷺ : فكيف يا عمر إذا تحدَّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا ولكن آذن بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

---

(١) هذا لقب أطلقه المشركون على من أسلم من المهاجرين، واحدها جلباب، وهو الإزار الغليظ، وكانوا يلتحفون بها، فلقبوا بذلك . انظر : تفسير الطبري ٧٤/٢٨ ط. دار المعرفة .

وقد مشى عبدا لله بن أبي بن سلول إلى رسول ا لله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلَّغَه ما سمع منه، فحلف با لله: ما قلتُ ما قال، ولا تكلمت به ـ وكان في قومه شريفاً عظيماً ـ فقال من حضر رسولَ ا لله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول ا لله ﷺ ، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، و لم يحفظ ما قال الرجل، حدباً على ابن أبي بن سلول، ودفعاً عنه .

قال ابن إسحاق: فلما استقل رسول ا لله ﷺ وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحيَّاه بتحية النبوة وسلَّم عليه، ثم قال: يا نبي ا لله، وا لله لقد رُحْتَ في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول ا لله ﷺ : أَوَ مَا بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأي صاحب يا رسول ا لله؟ قال: عبدا لله بن أبي. قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال: فأنت يا رسول ا لله، وا لله تخرجه منها إن شئت. هو وا لله الذليل وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول ا لله ارفق به، فوا لله لقد جاءنا ا لله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً... ونزلت السورة التي ذكر ا لله فيها المنافقين في ابن أبي ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسول ا لله ﷺ بأذن زيد بن أرقم، ثم قال: هذا الذي أوفى لله بأذنه.

وبلغ عبدا لله بن أبي الذي كان من أمر أبيه.

قال ابن إسحاق[(١)]: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أن عبدا لله أتى رسول ا لله ﷺ فقال: يا رسول ا لله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد ا لله ابن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً فَمُرْني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوا لله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدا لله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول ا لله ﷺ : بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا.

قال ابن كثير رحمه ا لله[(٢)]: «وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد ا لله بن عبد ا لله هذا على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبدا لله بن أبي قال له ابنه: وراءك. فقال: مالك ويلك؟ فقال: وا لله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول ا لله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول ا لله ﷺ وكان إنما يسير ساقة، فشكا إليه

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٣/٤٠٥-٤٠٦، وانظر: الإصابة لابن حجر ٣/٣٣٦ ترجمة رقم: ٤٧٨٤، وعزاه إلى ابن مندة من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة، والطبراني من طريق عروة عن عبد ا لله بن عبد ا لله بن أبي. وعزاه الهيثمي في مجمع الزائد ٩/٣١٨ إلى الطبراني وقال : رجاله رجال الصحيح إلا أن عروة بن الزبير لم يدرك عبد ا لله بن أبي. ورواه الطبري في تأريخه ٢/٦٠٨ من طريق ابن إسحاق .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٣٧٢ ، وانظر : تفسير الطبري ٢٨/٧٣،٧٤ ط. دار المعرفة .

عبدا لله بـن أبـي ابنـه، فقـال ابنـه عبـد ا لله: وا لله، يـا رسـول ا لله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول ا لله ﷺ فقـال: أما إذا أذن لـك رسول ا لله ﷺ فجز الآن».

وفي مسند الحميدي[1]: قال عبدا لله بن عبـدا لله بـن أبـي بـن سـلول لأبيه: وا لله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول رسول ا لله ﷺ الأعز وأنـا الأذل....

٢- قال ابن كثير رحمه ا لله: قال الأمـوي في مغازيـه: حدثنـا محمـد بـن إسحاق عن الزهري عن عبدالرحمن بن عبدا لله بـن كعـب بـن مـالك عن أبيه عن جده، وفيه قال كعب ﷺ: وكان ممن تخلف من المنـافقين ونزل فيه القرآن؛ منهم ـ ممن كان مع النبي ﷺ ـ الجُلاس بن سويد بـن الصامت وكان على أم عُمَير بن سعد، وكان عمـير في حجـره، فلمـا نزل القرآن وذكرهـم ا لله بما ذكر مما أنزل في المنافقين، قـال الجـلاس: وا لله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقـول لنحـن شـر مـن الحمـير، فسمعها عمير بن سعد، فقال: وا لله يا جُلاس إنك لأحب الناس إلي، وأحسنهم عندي بلاء، وأعزهم علـي أن يصلـه شـيء يكرهـه، ولقـد قلـت مقالـة لئـن ذكرتهـا [لأفضحنّك][2] ولئـن كتمتهـا لتهلكـني، ولإحداها أهون علي من الأخرى، فمشى إلى رسول ا لله ﷺ فذكر له

(١) ٢/٥٢٠ برقم: ١٢٤٠، وفي سنن الترمذي قال له ابنه عبد ا لله: وا لله لا تنقلب حتى تقر أنك الذليل ورسول ا لله ﷺ العزيز ففعل. ٩/٥٣ أبواب التفسير ـ سورة المنـافقون ح: ٣٣١٢.

(٢) في الأصل: [لتفضحني] ولعل الصواب ما أثبته، وانظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٩٠

ما قال الجلاس فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف با لله ما قال ما قال عمير بن سعد، ولقد كذب علي. فأنزل ا لله عز وجل فيه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٧٤] فوقفه رسول ا لله ﷺ عليها، فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته، ونزع فأحسن النزوع. قال ابن كثير: هكذا جاء هذا مدرجاً في الحديث متصلاً به، وكأنه وا لله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه، لا من كلام كعب بن مالك(١).

٣- روى البخاري في صحيحه(٢) بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول ا لله ﷺ ــ وهو يَقْسِمُ قسماً ــ إذ أتاه ذو الخويصرة؛ وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول ا لله اعدل. فقال: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خبتَ وخسرتَ(٣) إن لم أكن أعدل. فقال عمر: يا رسول ا لله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة...الحديث.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٥٥-٣٥٦ ، وانظر : السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٨٩-١٩٠ ، وتفسير الطبري ١٤/٣٦١-٣٦٢ برقم : ١٦٩٦٧-١٦٩٦٩ ط. شاكر .

(٢) صحيح البخاري ٦/٦١٧-٦١٨ كتاب المناقب ـ باب علامات النبوة في الإسلام ح : ٣٦١٠ ، وصحيح مسلم ٢/٧٤٤ كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم ح : يلي ١٠٦٤.

(٣) الأشهر فتح اللفظتين. انظر: شرح النووي على مسلم ٧/١٥٩

وفي رواية أخرى(١) عن أبي سعيد، قال : «فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين، ناشز(٢) الجبهة،كثُّ اللحية، محلوق الرأس مُشَمَّر الإزار، فقال: يارسول الله، اتق الله، فقال: ويلك، أَوَلستُ أحقَّ أهل الأرض أن يتقيَ الله؟ قال: ثمَّ ولَّى الرجل، فقال خالد بن الوليد(٣): يارسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال: لا، لعلَّه أن يكون يصلي، فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه. فقال رسول الله ﷺ : إني لم أؤمر أن أُنْقُبَ عن قلوب الناس، ولا أَشُقَّ بطونهم. قال: ثم نظر إليه وهو مُقَفٍّ(٤) فقال: إنه يخرج من ضئضيء(٥) هذا قوم يتلون كتاب الله رَطْبا لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، قال: أظنه قال: لئن أدركتهم لأقتلنَّهم قتل ثمود».

فهذا السائل المعترض من المنافقين(٦) الذين كفَّ النبي ﷺ عن قتلهم حتى لا تقول العرب إن محمداً يقتل أصحابه كما جاء مصرحاً بذلك في رواية جابر بن عبدالله في صحيح مسلم(٧) لما استأذن عمر بن

---

(١) صحيح مسلم ٧٤٢/٢ كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم. ح يلي : ١٠٦٤ .

(٢) أي: مرتفع الجبهة.

(٣) المستأذن هنا خالد وهناك عمر ولا تنافي؛ لاحتمال أن يكون كل منهما سأل ذلك. انظر: الفتح ٦٩/٨ ، وشرح النووي ١٥٨/٧.

(٤) أي: مُوَلٍّ .

(٥) أي: أصله ، انظر : النهاية لابن الأثير ٦٩/٣ .

(٦) انظر : فتح الباري ٢٩٠/١٢-٢٩١ .

(٧) ٧٤٠/٢ كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم ح : ١٠٦٣.

الخطاب في قتله، فقال: دعني يا رسول الله، فأقتل هذا المنافق، فقال: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي...

وقال الإمام النووي رحمه الله: «فهذه هي العلة، وسلك معه مسلكه مع غيره من المنافقين الذين آذوه، وسمع منهم في غير موطن ما كرهه، لكنه صبر استبقاءً لانقيادهم، وتأليفاً لغيرهم، لئلا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه، فينفروا. وقد رأى الناس هذا الصنف في جماعتهم، وعدوه من جملتهم»[(١)].

والرسول ﷺ استدل على هذا المعترض من جهة الرسالة والنبوة؛ بمعنى أنه إذا لم يكن رسول الله ونبيه عادلاً فمن من الناس يكون كذلك، وأن الخسارة والخيبة لازمتان لمن يكون تابعاً لنبي لا يعدل ولا يقيم شرع الله، فأي خير يرجى من أمة هذا وصف خيارها.

٤- قال ابن إسحاق: إن أبا عامر ـ وهو أبو عامر عبد عمرو بن صيفي ابن النعمان بن ضُبيعة بن زيد، وكان يقال: له الراهب ـ أتى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة، قبل أن يخرج إلى مكة، فقال: ما هذا الدين الذي جئتَ به؟ فقال: جئتُ بالحنيفية دين إبراهيم. قال: فأنا عليها. فقال له رسول الله ﷺ : إنك لست عليها. قال: بلى، قال: إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها، قال: ما فعلتُ، ولكني جئتُ بها بيضاء نقية. قال: الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً ـ يُعَرِّضُ برسول الله ﷺ ـ أي أنك جئت بها كذلك. قال رسول الله ﷺ : أجل، فمن كذب ففعل الله ذلك به، فكان هو ذلك عدو الله،

---

(١) شرح مسلم ١٥٨/٧-١٥٩.

خرج إلى مكة، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام، فمات بها طريداً غريباً وحيداً[1] .

وانتهت هذه المجادلة إلى مباهلة، وهي مناسبة لمن لم يقر بالحق، ويذعن للبرهان، وينته عند إقامة الحجة عليه.

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٦٨ ، وهو في دلائل النبوة لأبي نعيم ١/٩٣-٩٤ برقم : ٤١ من طريق ابن إسحاق .

المطلب الثالث

الجــدل مــــع اليهود

لم تُظهر كتب السنن والسير وقوع شيء من الجدل بين النبي ﷺ واليهود في مكة المكرمة، حتى هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، فلقي هناك اليهود، فدعاهم في جملة من دعاهم إلى الإسلام، وكان المتوقع أن يجيبوا إلى دعايته ﷺ إذ كانوا من قبل يستفتحون على الكفار بنبي قد أظلَّ زمانه، وأنهم سيظهرون به على من عاداهم. كما قال (تعالى) مبكتاً لهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٨٩].

لكنهم أعرضوا ولاحَوْا النبي ﷺ حسداً وبغياً، فاندفعوا إلى الإنكار والمكابرة والمهاترة، وجرت بينهم وبين النبي ﷺ مجادلات سمتها الغالبة: الاستهزاء والسخرية والعناد والتعجيز من جانب اليهود[(١)].

وأنا ذاكر في هذا المقام نماذج من تلك المجادلات:

١- روى الإمام أحمد في مسنده[(٢)] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حضرت عِصابة من اليهود نبيَّ الله ﷺ يوماً، فقالوا: يا أبا

(١) انظر : تأريخ الجدل لأبي زهرة ص : ٤٩.

(٢) ٤/١٧٦-١٧٧ ح : ٢٥١٤ قال أحمد شاكر : إسناده صحيح. وانظر :ح:٢٤٧١، ٢٤٨٣ وصحح إسناديهما أحمد شاكر. وانظر : تفسير الطبري ٢/٣٧٧-٣٧٨ ح : ١٦٠٥ ط. شاكر . وصحح إسناده أحمد شاكر . وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٢٤١-٢٤٢ الرواية رقم : ٢٤٨٣ ، وأشار إلى ما في الرواية رقم : ٢٥١٤ من الزيادة، وقال : رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات .

القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي. قال: سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيه: لئن حدثتكم شيئاً فعرفتموه لَتُتَابِعُنِّي على الإسلام. قالوا: فذلك لك. قال: فسلوني عما شئتم. قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ كيف يكون الذكر منه؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومن وليه من الملائكة؟ قال: فعليكم عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعني؟ قال: فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. قال: فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب عليه السلام مرض مرضاً شديداً، وطال سقمه، فنذر لله نذراً لئن شفاه الله (تعالى) من سقمه ليُحرِّمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟ قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد عليهم. فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله، وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن الله؟ قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد عليهم، فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟ قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد. قالوا: وأنت الآن، فحدثنا من وليك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك. قال: فإن وليَيَ جبريل عليه السلام ولم يبعث

الله نبياً قط إلا هو وليُّه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك. قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا(١). قال: فعند ذلك قال الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ٩٧] إلى قوله عز وجل: ﴿كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٠١] فعند ذلك: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ [سورة البقرة: ٩٠].

وهذه المجادلة تبين صلف اليهود وعنادهم، وأن قصدهم التعجيز وإبطال الحق، وقد خبر الرسول ﷺ طبيعة اليهود، وعرف نواياهم؛ ولهذا أخذ عليهم ـ في هذه المناظرة ـ العهود والمواثيق، لئن هو أجابهم أن يتابعوه ويصدقوه، ولكنهم غلبت عليهم شقوتهم، وطغت عليهم طبيعتهم الفاسدة في نقض العهود والمواثيق: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٠٠]. ولهذا كان النبي ﷺ يُصَدِّر كل جواب بقوله: فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام. وهذا فيه عدة إلزامات منها:

أ- بيان أن الله رب الجميع وخالقهم، فيجب عليهم أن يستجيبوا له ويؤمنوا به، وأنه مما يجب طاعة الرب فيه الإيمان بهذا النبي الأمي.

(١) وفي رواية : قالوا : جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان ... انظر : مسند الإمام أحمد ١٦٢/٤ ح :٢٤٨٣ ط. أحمد شاكر .

ب- أن اليهود يؤمنون بموسى عليه السلام وبالتوراة الذي أُنزل عليه، وهذا لا يضير المسلمين، بل هم أيضاً يؤمنون بذلك، بل يطالبون غيرهم من اليهود أن يُحَكِّمُوا التوراة ويحسنوا متابعة موسى عليه السلام لأن في ذلك تحقيقاً للإيمان بالرسول محمد ﷺ ، والإيمان بما جاء به؛ ولهذا كان الرسول ﷺ يقول لهم في صدر كل جواب: هل تعلمون...وهو استظهار لما عندهم من العلم الذي قد يكتمون بعضه.

ثم يُشهد النبي ﷺ عليهم الله عز وجل في كل مرة أجابوه فيها بنعم. كل ذلك خوفاً من تفلتهم ونكولهم عما قطعوه على أنفسهم من العهود والمواثيق، لكن غلبت عليهم الشقاوة، وأبت عليهم أنفسهم المريضة، وقلوبهم النجسة إلا التأبي والمعاندة، فعلّقوا متابعتهم وتصديقهم النبي ﷺعلى جواب السؤال الأخير بعد أن رأوا تقاطر الأجوبة السابقة في سهولة ويسر، فخافوا على أنفسهم من الانصياع والانقياد للنبي الأمي، فعلقوا متابعتهم وتصديقهم على جواب هذا السؤال الأخير، مع أنه أسهل الأسئلة وأيسرها؛ إذ يعلم الجميع ـ كما قال النبي ﷺ ـ أن جبريل عليه السلام هو أمين الله على وحيه، بل هو الواسطة بين الله وبين أنبياء بني إسرائيل على كثرتهم، واليهود يعلمون ذلك، لكنه العناد الذي أوجب غضب الرب (تعالى) عليهم:﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [سورة البقرة: ٩٠].

والآيات التي نزلت جواباً لليهود هي قوله (تعالى): ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ

كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٩٧-٩٨] قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: «أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولي لهم»(١).

وهذه الآيات تبين أن معاداة رسول من رسل الله ــ ملكاً كان أو بشراً ـ هي معاداة لجميع الرسل، بل هي معاداة لله (تعالى) الذي أرسلهم، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، فكذلك من كفر بواحد منهم، فإنه يلزمه الكفر بالجميع كما قال (تعالى): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٥٠-١٥٢].

وكذلك من عادى جبريل، فإنه عدو لله؛ لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه كما قال (تعالى) مخبراً عن ملائكته: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [سورة مريم: ٦٤]. ومن كان عدواً لله فإن الله عدو للكافرين.

وقوله (تعالى): ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [سورة البقرة: ٩٨] إفراداً بالذكر مع دخولهما في عموم قوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [سورة البقرة: ٩٨]

---

(١) تفسير الطبري ٣٧٧/٢ ط. شاكر.

وهو من باب عطف الخاص على العام لأن السياق في الانتصار لجبريل، وقرن معه ميكائيل في اللفظ، لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم، وميكائيل وليُّهم، فأعلمهم الله (تعالى) أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر، وعادى الله أيضاً[(١)].

٢- روى أبوجعفر الطبري[(٢)] رحمه الله بسنده إلى الشعبي أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كنت أشهد اليهود يوم مِدْراسهم فأعجب من التوراة كيف تصدق الفرقان، ومن الفرقان كيف تصدق التوراة، فبينما أنا عندهم ذات يوم، قالوا: يا ابن الخطاب، ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك. قلت: و لم ذاك؟ قالوا: إنك تغشانا وتأتينا. قال: قلت: إني آتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان! وفي رواية: فقالوا: يا عمر ما في أصحاب محمد ﷺ أحد أحب إلينا منك، إنهم يمرون بنا فيؤذوننا، وتمر بنا فلا تؤذينا، وإنا لنطمع فيك.

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/١٢٦ .

(٢) تفسير الطبري ٢/٣٨١-٣٨٢، ٣٨٤-٣٨٥ رقم : ١٦٠٨،١٦١٣ ط. شاكر . وذكر ابن كثير في تفسيره ١/١٢٥ هذه الرواية عن الطبري ورواية أخرى عن ابن أبي حاتم، ثم قال: وهذان الإسنادان يدلان على أن الشعبي حدَّث به عن عمر، ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر؛ فإنه لم يدرك زمانه والله أعلم. وقال السيوطي في الدر المنثور ١/٩٠ : صحيح الإسناد ولكن الشعبي لم يدرك عمر. وقال أبو عمر بن عبد البر ـ بعد أن أورد هذا الخبر وغيره ـ : وتركنا إسناد هذا الخبر وسائر ما أوردنا من الأخبار في هذا الباب والباب الذي قبله وبعده لشهرتها في التفاسير والمصنفات. جامع بيان العلم ٢/١٢٤.

قال: ومرَّ رسول الله ﷺ فقالوا: يا ابن الخطاب، ذاك صاحبك فالحق به. قال: فقلت لهم عند ذلك: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، وما استرعاكم من حقه واستودعكم من كتابه أتعلمون أنه رسول الله؟ فسكتوا. وفي الرواية الأخرى: فقال لهم عمر: أي يمين فيكم أعظم؟ قالوا : الرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء. فقال لهم عمر: فأنشدكم بالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء، أتجدون محمدا ﷺ عندكم، فَأَسْكَتُوا. فقال: تكلموا، ما شأنكم؟ فوالله ما سألتكم وأنا شاك في شيء من ديني. فنظر بعضهم إلى بعض، فقام رجل منهم، فقال: أخبروا الرجل، لَتُخْبِرُنَّه أو لأخبرنه. وفي الرواية الأولى: قال: فقال عالمهم وكبيرهم: إنه قد عظَّم عليكم، فأجيبوه. قالوا: أنت عالمنا وسيدنا، فأجبه أنت. قال: أَمَا إذ نشدتنا به، فإنا نعلم أنه رسول الله. قال: قلت: ويحكم! إذاً هلكتم. قالوا: إنا لم نهلك. قال: قلت: كيف ذاك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ﷺ، ثم لا تتبعونه ولا تصدقونه؟ قالوا: إنَّ لنا عدواً من الملائكة وسِلماً من الملائكة، وإنه قُرِنَ به عدوُّنا من الملائكة. قال: قلت: ومن عدوكم؟ ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل، وسلمنا ميكائيل. قال: قلت: وفيم عاديتم جبريل؟ وفيم سالمتم ميكائيل؟ قالوا: إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا.

قال: قلت: وما منزلتهما من ربهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. قال: قلت: فوالله الذي لا إله إلا هو، إنهما والذي بينهم لعدو لمن عاداهما، وسلم لمن سالمهما، ما ينبغي لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل، ولا لميكائيل أن يسالم عدو جبريل! وفي الرواية الأخرى: قال عمر: فأشهدكم أن الذي هو عدو للذي عن يمينه عدو للذي هو عن يساره، والذي هو عدو للذي هو عن يساره عدو للذي هو عن يمينه؛ وأنه من كان عدوهما فإنه عدو لله.

قال: ثم قمت فاتبعت النبي ﷺ فلحقته وهو خارج من مِخْرَفة لبني فلان فقال لي: يا ابن الخطاب، ألا أقرئك آيات نزلن؟ فقرأ علي: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سورة البقرة: ٩٧] حتى قرأ الآيات. قال: قلت: بأبي أنت وأمي يارسول الله، والذي بعثك بالحق لقد جئتُ وأنا أريد أن أخبرك الخبر، فأسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر.

قال أبو عمر بن عبدالبر رحمه الله بعد أن ساق هذه القصة: «فهذا مما صدَّق الله فيه قول عمر واحتجاجه، وهو باب من الاحتجاج لطيف مسلوك عند أهل النظر»[(١)].

فعمر ﷺ استدل على اليهود بحجة قاطعة، تقريرها: أنه لا ينبغي التفريق بين المتماثلين، كجبريل وميكائيل ونحوهما من ملائكة الله

(١) جامع بيان العلم ٢/١٢٤.

(تعالى) ، فكلهم عباد لله مكرمون: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: ٦]

٣- وروى ابن جرير الطبري[(١)] رحمه الله بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جاء رسولَ الله ﷺ رافعُ بن حارثة، وسلام بن مِشْكم ومالك بن الصيف ورافع بن حريملة، فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أنّك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق؟ فقال رسول الله ﷺ : بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أُخِذَ عليكم من الميثاق، وكتمتم منها ما أُمرتم أن تُبَيِّنُوه للناس، وأنا بريء من أحداثكم! قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا، فإنا على الحق والهدى، ولا نؤمن بك، ولا نتبعك! فأنزل الله (تعالى) ذكره: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة المائدة: ٦٨] ».

فهذا تكذيب من الله (تعالى) لهم، إذ لو أنهم أقاموا التوراة حق إقامتها لآمنوا بمحمد ﷺ.

(١) تفسير الطبري ٤٧٣/١٠-٤٧٤ ح : ١٢٢٨٤ ط. شاكر ، وهو في السيرة النبوية لابن هشام ٢٤٩/٢ ، ورواه السيوطي في الدر المنثور ٢٩٩/٢ ، وعزاه إلى ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وغيرهم .

المطلب الرابع
الجــدل مـــــع النصارى

أما جدله ﷺ مع النصارى، فقد كان قليلاً لبعدهم عنـه، إلا مـا كـان من جدل مـع بعـض الوفـود كوفـد نجـران، ومـا كـان مـن جـدل لبعـض أصحابه معهم في الحبشة وفي مصر.

وإليك نماذج من ذلك كله:

١- قال ابن القيم[(١)] وروينا عن أبـي عبـدا لله الحـاكم أن رسـول ا لله ﷺ كتب إلى أهل نجران باسم إله إبراهيم وإسـحاق ويعقـوب: أمـا بعـد، فإني أدعوكم إلى عبادة ا لله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية ا لله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزيـة، فـإن أبيتـم فقـد آذنتكـم بحـرب. والسلام.

فلما أتى الأسقفَ الكتابُ فقـرأه فَظِـع بـه، وذَعُـر بـه ذعـراً شـديداً، فبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له: شـرحبيل بـن وداعـة، وكـان من همدان، ولم يكن أحد يُدعى إذا نزلت معضلة قبله، لا الأيهم ولا السيد ولا العاقب[(٢)] فدفع الأسقف كتابَ رسول ا لله ﷺ إليـه، فقـرأه

---

(١) زاد المعاد ٦٣١/٣-٦٣٦ ، وانظـر : السـيرة النبويـة لابـن هشـام ٢٥٤/٢ ومـا بعدهـا ، والسيرة النبوية لابن كثير ١٠١/٤ وما بعدها .

(٢) هؤلاء من أشرافهم ممن يؤول إليهم أمرهم، والعاقب اسمه: عبد المسيح وهـو أمـير القـوم، والأيهم والسيد اسمان لشخص واحد، السيد لقبه والأيهـم اسمـه، وهـو صـاحب رحلهـم ومجتمعهم. انظر : زاد المعاد ٦٢٩/٤، والسيرة النبوية لابن هشام ٢٥٥/٢.

فقال الأسقف: يا أبا مريم، ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما يُؤْمَن أن يكون هذا هو ذلك الرجل، ليس لي في النبوة رأي، لو كان من أمر الدنيا أشرتُ عليك فيه برأي، وجهدتُ لك فيه. فقال الأسقف: تنحَّ فاجلس. فتنحَّى شرحبيل، فجلس ناحية، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له عبدالله بن شرحبيل، وهو من ذي أصبح من حمير، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل، فقال له الأسقف تنحَّ فاجلس، فتنحَّى، فجلس ناحية. فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له: جبار بن فيض من بني الحارث بن كعب، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله، فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعاً، أمر الأسقف بالناقوس فضرب به، ورفعت المسوح في الصوامع... فاجتمع أهل الوادي أعلاه وأسفله، وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ومائة ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتابَ رسول الله ﷺ وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأيُ أهل الوادي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني، وعبدالله بن شرحبيل، وجبار بن فيض الحارثي، فيأتوهم بخبر رسول الله ﷺ فانطلق الوفد، حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا حُللاً لهم يجرونها من الحَبِرة، وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ فسلَّموا عليه، فلم يردَّ عليهم السلام، وتصدوا لكلامه نهاراً طويلاً، فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب، فانطلقوا يتبعون عثمان ابن عفان، وعبدالرحمن بن عوف، وكانا معروفين (معرفةً) لهم...

فوجدوهما في ناس من الأنصار والمهاجرين في مجلس، فقالوا: يا عثمان، ويا عبدالرحمن، إن نبيكم كتب إلينا بكتاب فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه فسلمنا عليه، فلم يرد علينا سلامنا، وتصدينا لكلامه نهاراً طويلاً فأعيانا أن يكلمنا، فما الرأي منكما، أنعود ؟ فقالا لعلي بن أبي طالب وهو في القوم: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ فقال علي لعثمان وعبدالرحمن رضي الله عنهما: أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم، ثم يأتوا إليه، ففعل الوفد ذلك، فوضعوا حللهم وخواتيمهم، ويلبسوا ثياب سفرهم، ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه فردَّ سلامهم، ثم سألهم وسألوه، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له: ما تقول في عيسى عليه السلام؟ فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى فيسرنا إن كنت نبياً أن نعلم ما تقول فيه. فقال رسول الله ﷺ: ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقال لي في عيسى عليه السلام ؛ فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩-٦١]».

فتأمل كيف كان الجواب ملزماً لهم؛ لأنه على طرد الدليل يلزمهم أن يعبدوا آدم عليه السلام إذ ولد من غير أب ولا أم، فكان أولى بالعبادة على مجرد دليلهم، وكذلك إن جعلوا معتمدهم ملزوم الإلهية؛ لأن الملزوم يدل على اللازم ولا ينعكس إذا لم تكن الملازمة من الطرفين، وإلا

فمجرد التحكم غير مقبول، لكنهم مقرون بنفي الإلهية عن آدم مع الوصف المذكور - وهو وجوده من غير أب ولا أم - فيلزمهم ذلك في حق عيسى عليه السلام لأن الدليل يطرد ولا ينعكس، فلما انعكس لم يكن دليلاً.

فلما عجزوا في مقام المعقول وانقطعوا، ثم لم يؤمنوا، عَدَلَ معهم إلى ما هو أجلى عندهم في مشاهدة الحس فدعاهم إلى المباهلة[١].

«فأبوا أن يقروا بذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعدما أخبرهم الخبر، أقبل مشتملاً على الحسن والحسين رضي الله عنهما في خميل له، وفاطمة رضي الله عنها تمشي عند ظهره للمباهلة، وله يومئذ عدة نسوة. فقال شرحبيل لصاحبيه: يا عبدالله بن شرحبيل ويا جبار بن فيض، قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا، ولم يصدروا إلا عن رأيي، وإني والله أرى أمراً مقبلاً، وأرى والله إن كان هذا الرجل مَلِكاً مبعوثاً، فكنا أول العرب طَعَنَ في عينه، وردَّ عليه أمره، لا يذهب لنا من صدره، ولا من صدور قومه حتى يصيبونا بجائحة، وإنا أدنى العرب منهم جواراً، وإن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعنَّاه، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك، فقال له صاحباه: فما الرأي فقد وضعتك الأمور على ذراع، فهات رأيك؟ فقال: رأيي أنْ أُحكِّمَه، فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً، فقالا له: أنت وذاك.

---

(١) انظر : عيون المناظرات ص : ١٢٧-١٢٨.

فلقي شرحبيل رسول الله ﷺ فقال: إني قد رأيت خيراً من ملاعنتك. فقال: وما هو؟ قال شرحبيل: حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح، فمهما حكمت فينا فهو جائز. فقال رسول الله ﷺ : لعل وراءك أحداً يثرِّب عليك. فقال له شرحبيل: سل صاحبي، فسألهما. فقالا: ما يرد الوادي، ولا يصدر إلا عن رأي شرحبيل. فقال رسول الله ﷺ: كافر، أو قال: جاحد مُوَفَّق.

فرجع رسول الله ﷺ ولم يلاعنهم، حتى إذا كان من الغد أَتَوْه، فكتب لهم الكتاب وهو كتاب صلح. حتى إذا قبضوا كتابهم انصرفوا إلى نجران، فتلقاهم الأسقف ووجوه نجران على مسيرة ليلة، ومع الأسقف أخ له من أُمِّه وهو ابن عمه من النسب يقال له: بشر بن معاوية، فدفع الوفد كتاب رسول الله ﷺ إلى الأسقف فقرأه، فلحق بشر برسول الله ﷺ فأسلم ولم يزل معه حتى استشهد في إحدى المعارك.

وفي صحيح البخاري[1] عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه. قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبُنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا

---

(١) ٨/٩٣-٩٤ كتاب المغازي ـ قصة أهل نجران ح : ٤٣٨٠ وانظر ح :٤٣٨١ ، ورواه مسلم مختصراً في صحيحه ١٨٨٢/٤ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح، ح : ٢٤٢٠ .

تبعث معنا إلا أميناً. فقال: لأبعثن معكم رجلاً أمينا حقَّ أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ : هذا أمين هذه الأمة.

وفي صحيح مسلم[١] من حديث المغيرة بن شعبة قال: «لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرأون : ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ [سورة مريم: ٢٨] وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك، فقال : إنهم كانوا يُسمُّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم».

وجاء عند ابن إسحاق أن حَبْرَيْن من نصارى نجران كَلَّما النبي ﷺ فقال لهما: أسلما. قالا: قد أسلمنا. قال: إنكما لم تسلما فأسلما. قالا: بلى، قد أسلمنا قبلك. قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير. قالا: فمن أبوه[٢] يا محمد؟ فصمت رسول الله ﷺ فلم يجبهما. فأنزل الله (تعالى) في ذلك من قولهم، واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها، من ذلك قوله (تعالى): ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ

---

(١) ١٦٨٥/٣ كتاب الآداب ـ باب النهي عن التكني بأبي القاسم ... ح : ٢١٣٥

(٢) أي: عيسى عليه السلام .

يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨-٢٠]. ثم ذكر سبحانه وتعالى ولادة عيسى عليه السلام وحقيقة نشأته، وأنه عبد الله ورسوله إلى بني إسرائيل وما خصه الله به من المعجزات والآيات، ثم رفع عيسى إليه بعد أن أبطل الله مكر أعدائه ثم قال (تعالى): ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ * إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٨-٦٠]. ثم دعاهم إلى المباهلة في أمر عيسى إن هم كذّبوا بذلك ثم ختم ذلك بالدعوة إلى كلمة سواء: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤].

قال ابن إسحاق: فلما أتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من الله عنه، والفصلُ من القضاء بينه وبينهم، وأُمِرَ بما أُمِرَ به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك، فقالوا له: يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خَلَوْا بالعاقب، وكان ذا رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح، ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى، لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم ما لاعَنَ قوم نبياً قط

فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم، والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل، ثم انصرفوا إلى بلادكم. فَأَتَوْا رسول الله ﷺ فقال : يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك، وأن نتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضا[1]. فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح ﷺ على ما مرَّ خبره.

٢- قال ابن عبد البرِّ رحمه الله : روى عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم عن أبيه قال: حدثني يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب عن أبيه عن جده حاطب بن أبي بلتعة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى المقوقس ملك الأسكندرية، فجئته بكتاب رسول الله ﷺ فأنزلني في منزله، وأقمت عنده ليالي، ثم بعث إلي وقد جمع بطارقته. فقال: إني سأُكلمك بكلام أُحب أن تفهمه مني، قال: قلت: هَلُمَّ. قال: أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبياً؟ قلت: بلى، هو رسول الله. قال: فما له ـ حيث كان هكذا ـ لم يدعُ على قومه حيث أخرجوه من بلدته إلى غيرها؟! فقلت له: فعيسى ابن مريم، أتشهد أنه رسول الله؟ فما له حيث أخذه قومه فأرادوا صلبه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٥٧-٢٦٦.

الله، حتى رفعه الله إليه في سماء الدنيا؟! قال: أحسنت، أنت حكيم جاء من عند حكيم[(١)] .

ثم قال حاطب بعد ذلك للمقوقس: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى يعني فرعون، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك، إن هذا النبي ﷺ دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له يهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى عليه السلام إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام ولكنا نأمرك به. فقال: إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب [فيه][(٢)] ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكذاب، ووجدتُ معه آلة النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى[(٣)] وسأنظر، وأخذ كتاب رسول الله ﷺ وجعله في حُق عاج، وختم عليه ودفعه إلى جارية له، ثم كتب إلى النبي ﷺ وأخبره بوصول كتابه إليه وأنه أكرم رسوله، ثم بعث إليه بهدايا[(٤)] .

(١) انظر : الاستيعاب ٣١٥/١ ، وأسد الغابة ٣٦٢/١ ، والسيرة الحلبية ٢٤٩/٣-٢٥٠

(٢) في الأصل [عنه] ولعل ما أثبته هو الصحيح.

(٣) الشيء المستور، يعني المغيبات وذلك بإخبار الله له.

(٤) انظر : السيرة الحلبية ٢٥٠/٣

وورد[١] أن حاطب بن أبي بلتعة ﷺ لما دخل على المقوقس النصراني يدعوه إلى الإسلام بكتاب النبي ﷺ ، سأله المقوقس عن الحرب بين النبي ﷺ وبين قومه، فأخبره أنها بينهم سجال. فقال المقوقس: يخاطب ابن أبي بلتعة: أَنَبيٌّ الله يُغلب؟! فقال له حاطب: أَوَلَدُ الله يُصلب؟!.

قال صاحب عيون المناظرات أبو علي عمر السكوني (٧١٧هـ)[٢]:

«فكان هذا الجواب قطعاً للنصراني بما يعتقده في حق عيسى عليه السلام، وكما أن موت النبي ﷺ ومرضه لا يقدح في نبوته، إذ النبوة غير ذلك وخلافه، وإنما يرفعها ضدها، فكذلك لا يقدح [فيها][٣] جرحه وقتله؛ لأن هذا لا يناقض الصدق على الله (تعالى) وتبليغ ما أمر بتبليغه، وإنما وجبت عصمتهم عما يقدح في النبوة، ويحط المنزلة، لا ما يرفعها».

ومع ذلك لم يُسلم المقوقس؛ ولهذا ذكر ابن سعد في طبقاته[٤] أن رسول الله ﷺ قال لما وصله كتاب المقوقس: ضنَّ الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه.

وفي طريقة مخاطبة حاطب ﷺ المقوقس وقفات يحسن التنبيه إليها، منها:

---

(١) ذكرها صاحب عيون المناظرات ص : ١٨٥

(٢) عيون المناظرات ص : ١٨٥.

(٣) ليست في الأصل ، وإنما أضفتها لإقامة المعنى .

(٤) ١/٢٦٠-٢٦١.

أ- أنه أجاب المقوقس حين سأله عن رسول الله ﷺ أليس هو نبياً؟ فقال: بلى، هو رسول الله. فأجابه بوصف الرسالة الذي هو أعم من وصف النبوة، فهذه دعوة للمقوقس أن يدخل في دين هذا الرسول الخاتم.

ب- أنه احتج على المقوقس بأحوال عيسى عليه السلام الذي يزعم المقوقس متابعته، وتمام المعرفة به. وهو أيضاً من باب الجمع بين المتماثلات، أي: إن كان تصرف عيسى مع خصومه صحيحاً مع بقاء وصف الرسالة له، فكذلك محمد ﷺ ولا ينفي عنه ذلك أن يكون رسول الله.

ج- أنه ﷺ أظهر معتقده الصحيح في شأن عيسى عليه السلام على خلاف ما يزعم النصارى، وفي موقف أشد ما يكون فيه إلى استمالة الخصم إلى سماع كلامه، ولهذا أظهر ذلك بحسن عبارة، ودقة تصرف، فقال: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا صلبه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه في سماء الدنيا! فلم يقر لهم بدعوى الصلب، ولا أنه مات كما يموت الناس، بل رفعه الله إليه.

د- أنه أمر المقوقس باتباع دين المسيح، لكن الاتباع الصحيح، ولو فعل ذلك كل نصراني لقاده إلى الإيمان بمحمد ﷺ ، فالنقل الصحيح والعقل الصريح يقودان إلى الإيمان بالرسالة الخاتمة، وكفى بذلك حجة وبرهاناً.

هـ- أنه ﷺ كان يخلط البرهان الصحيح بالموعظة الحسنة، يخاطب العقل والوجدان في وقت واحد، وقل من يتقن هذا النمط من الحجة، إلا من أشرب من معين القرآن الكريم والسنة المطهرة. وهذا الأسلوب الرفيع لم يملك المقوقس ـ مع ما في الملوك من عزة الرياسة، وأنفة السلطان ـ أمامه إلا التسليم والتقرير، مع حسن الأدب والملاطفة.

٣- ذكر ابن إسحاق[(١)] رحمه الله أنه لما هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة فراراً بدينهم أرسلت قريش في طلبهم عمرو بن العاص وعبدا لله بن أبي ربيعة، فجمعوا للنجاشي ملك الحبشة وبطارقته هدايا، فلم يَدَعوا منهم رجلاً إلا هيأوا له هدية، وقالت قريش لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تَكَلّموا فيهم، ثم ادفعوا إليه هداياه، وإن استطعتم أن يردهم عليكما قبل أن يكلمهم فافعلا.

---

(١) السير والمغازي ص: ٢١٣-٢١٦. وانظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/٤١٣-٤١٧. ورواه أحمد في المسند ٣/١٨٠-١٨٥ برقم ١٧٤٠ وصحح إسناده أحمد شاكر، وانظر: المسند ٥/٢٩٠-٢٩٢ ط. صادر، من طريق ابن إسحاق، وانظر مجمع الزوائد ٦/٢٤-٢٧ وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرَّح بالسماع. وانظر: ٦/٢٧-٣٢ من مجمع الزوائد. ومسند الطيالسي (منحة المعبود) ٢/٨٩-٩٠ باب الهجرة إلى الحبشة ح: ٢٣٢٥، ومستدرك الحاكم ٢/٣٠٩-٣١٠ كتاب التفسير وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وانظر: سنن أبي داود ٣/٥٤٣ كتاب الجنائز ـ باب في الصلاة على المسلم يموت في بلاد الشرك ح: ٣٢٠٥.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: فقدما عليه، فلم يبق بطريق من بطارقته إلا قدَّموا له هديته، وكلموه وقالوا له: إنا قدمنا على هذا الملك في سفهاء من سفهائنا فارقوا أقوامهم في دينهم، ولم يدخلوا في دينكم، فبعثنا قومهم فيهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه فأشيروا عليه بأن يفعل. فقالوا: نفعل. ثم قدما إلى النجاشي هداياه، وكان أحب ما يهدى إليه من مكة الأَدَم [١]، فلما أدخلوا عليه هداياه قالوا له: أيها الملك، إن فتية منا سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا تعرفه [٢]، وقد لجأوا إلى بلادك، فبعثنا إليك فيهم عشائرهم: آباؤهم وأعمامهم وقومهم لتردهم عليهم، فهم أعلى بهم عيناً. فقالت بطارقته: صدقوا أيها الملك لو رددتهم عليهم كانوا هم أعلى بهم عيناً، فإنهم لم يدخلوا في دينك فتمنعهم بذلك، فغضب ثم قال: لا لعمر الله، لا أردهم عليهم حتى أدعوهم وأكلمهم وأنظر ما أَمْرُهُم، قوم لجأوا إلى بلادي، واختاروا جواري على جوار غيري فإن كانوا كما يقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم ولم أُخْلِ بينهم وبينهم، ولم أُنْعِمْهُم عيناً.

فأرسل إليهم النجاشي فجمعهم ولم يكن شيء أبغض إلى عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة من أن يسمع كلامهم، فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمع القوم، فقالوا: ماذا تقولون؟ فقالوا: وماذا

(١) جمع أديم وهو الجلد المدبوغ .

(٢) وفي السير النبوية ٤١٤/١ لا نعرفه نحن ولا أنت.

نقول، نقول والله ما نعرف، وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبينا كائن في ذلك ما كان، فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب. فقال له النجاشي: ما هذا الدين الذي أنتم عليه، فارقتم دين قومكم، ولا تدخلوا في يهودية ولا نصرانية، فما هذا الدين؟ فقال جعفر: أيها الملك، كنا قوماً على الشرك: نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم؛ بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي ونصوم، ولا نعبد غيره، فقال: هل معك شيء مما جاء به ـ وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله ـ فقال جعفر: نعم. قال: هلم فاتل علي ما جاء به، فقرأ عليه صدراً من (كهيعص)، فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم. ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى[1]، انطلقوا راشدين لا والله لا أردهم عليكم، ولا أنعمكم عيناً، فخرجا من عنده وكان أتقى الرجلين فينا عبدالله بن أبي ربيعة، فقال له عمرو ابن العاص: والله لآتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم، لأخبرنَّه أنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد ـ عيسى ابن مريم ـ عبد،

(١) في السيرة النبوية ١/٤١٦ عيسى.

فقال له عبد الله ابن ربيعة: لا تفعل، إنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رحماً ولهم حقاً، فقال: والله لأفعلن.

فلما كان الغد دخل عليه فقال: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عنه، فبعث إليهم ولم ينزل بنا مثلها، فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون له في عيسى إن هو سألكم عنه؟ فقالوا: نقول والله الذي قاله[(١)] فيه، والذي أمرنا نبينا أن نقوله فيه، فدخلوا عليه، وعنده بطارقته، فقال: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر: نقول: هو عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فدلّى النجاشي يده إلى الأرض فأخذ عويداً بين أصبعيه، فقال: ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته. فقال: وإن تناخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي، والشيوم: الآمنون، ومن سبَّكم غُرِّم، ومن سبَّكم غُرِّم، ومن سبَّكم غُرِّم، ثلاثاً، ما أحب أن لي دبيراً، وأني آذيت رجلاً منكم، والدبير بلسانهم الذهب، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس فيَّ فأطيع الناس فيه[(٢)]، ردوا

---

(١) في السيرة النبوية ١/٤١٦ نقول والله ما قال عز وجل.

(٢) روى ابن إسحاق عن الزهري قوله: فحدثت بهذا الحديث عروة بن الزبير عن سلمة، فقال عروة: هل تدري ما قوله: ما أخذ الله مني الرشوة حين ردَّ علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس في فأطيع الناس فيه؟ فقال الزهري: لا، ما حدثني ذلك أبوبكر بن عبدالرحمن بن الحارث عن أم سلمة، فقال عروة: فإن عائشة حدثتني ثم ساق =

عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بهـا، واخرجا من بلادي، فخرجا مقبوحين [مردوداً][(١)] عليهما ما جاءا به، فأقمنا مع خير جار في خير دار...

= قصة مفادها: أن والد النجاشي كان ملكاً على الحبشة وله أخ من صلبه اثنا عشر رجلاً، ولم يكن لوالد النجاشي ولد غير النجاشي، فأدارت الحبشة رأيها، واجتمعوا على قتل الملك والد النجاشي، ونصبوا أخاه مكانه حتى يظل الملك فيه وفي أبنائه من بعده، لكنهم رأوا بعد ذلك أن النجاشي دخل على عمه وغلب عليه فلا يدير أمره غيره، إذ كان لبيباً فخشوا أن يتولى الملك من بعد عمه فيقتلهم ثأراً لأبيه، فرأوا أن يخرجوه من أرضهم، فباعوه إلى تاجر فقذفه في سفينة وانطلق به، فلما كان العشي مات عمه الملك بصاعقة أصابته، ففزع القوم إلى ولده، فإذا هم حمقى ليس فيهم من يصلح للملك، فقال بعضهم لبعض: تعلمن والله، إن ملككم الذي لا يُصلح أمركم غيره للذي بعتم الغداة، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه قبل أن يذهب، فخرجوا في طلبه حتى ردوه، فعقدوا عليه التاج، وأجلسوه على سرير الملك، فقال التاجر: ردوا علي مالي إذ أخذتم مني غلامي فأبوا عليه، فقال: إذاً والله أكلمه، فقالوا: وإن. فمشى إليه فقال: أيها الملك إني ابتعت غلاماً فقبض مني الذين باعوه ثمنه، ثم عدوا على غلامي فنزعوه من يدي ولم يردوا علي مالي، فكان أول ما اختبر من صلابة حكمه وعدله أن قال: لتردُّن عليه ماله أو ليجعلنَّ غلامه يده في يده فليذهبنَّ به حيث شاء. فقال: بل نعطه ماله، فأعطوه إياه فلذلك يقول: ما أخذ الله مني رشوة فآخذ الرشوة فيه حين رد إلي ملكي، ولا أطاع الناس في فأطيعهم فيه. السير والمغازي ص:٢١٦-٢١٧ وانظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/٤١٨-٤٢٠.

(١) في الأصل [مردود] بالرفع، والصحيح ما أثبته، وهو هكذا في السيرة النبوية ـ لابن هشام ١/٤١٧.